ب في أحقاب التاريخ
(١)

التاريخ العربي وبدايته

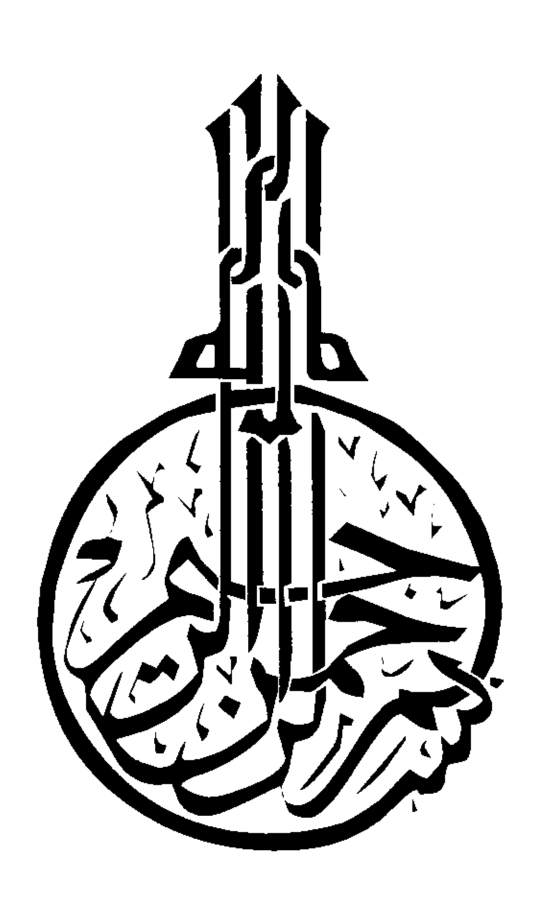
تأليف

أمين مدني



دار القوافل للنشر والتوزيع

الرياض: ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م





التاريخ العربي وبدايته

الجزء الأول

تأليف
أمين مدني

الطبعة الثالثة

دار القوافل للنشر والتوزيع
الرياض : ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

ⓒ دار القوافل للنشر و التوزيع ، ١٤٢٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

مدني ، امين عبدالله

التاريخ العربي وبدايته. / امين عبدالله مدني ؛ عبدالرحمن

الطيب الانصاري - ط٣ . . - الرياض ، ١٤٢٩هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك : ١-٢-٦١٠٠-٩-٦٠٣-٩٧٨

١ - العام العربي - بحوث ٢ - العرب قبل الاسلام ٣ - التاريخ الاسلامي - بحوث ا . الاتصاري ، عبدالرحمن الطيب (محقق) ب . العنوان

ديوي ٩٥٣،٠٠٧٢٢ ١٤٢٩/٢٠٧٣

رقم الإيداع : ١٤٢٩/٢٠٧٣

ردمك : ١-٢-٦١٠٠-٩-٦٠٣-٩٧٨

إهداء

إلى كل عربي بناء .. سطر ويسطر في

سجل الزمن مجدًا عربيًا

أمين مدني



المحتويات

الموضوع	الصفحة



مقدمة الطبعة الثالثة

بقلم أ. د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري

ولد أمين مدني بالمدينة المنورة وبها نشأ. تلقى دراسته الابتدائية في مدارسها ثم أتمها في المسجد النبوي، حيث تلقى الفقه، والتفسير، والحديث، واللغة العربية والعروض والتاريخ. ويقول عن نشأته : (إنني لم أحظ بنظرات العطف من والدي غير أيام معدودات، فنشأت أنا وأخي الأكبر عبيد مدني مشمولين بعطف أم حنون؛ رعتنا أطفالاً ووجهتنا شبابًا وفارقتنا رجالاً. بذلنا ما نستطيع في سبيل تحقيق أمانينا لبلد إن أصابه خير فهو لنا وإن أصابه شر فهو علينا).

وبالرغم من انشغاله بالعمل بعد إتمام دراسته، فإن أعماله على كثرتها لم تأخذه بعيدًا عن البحث والكتابة، فكان أول رئيس تحرير لصحيفة المدينة المنورة منذ صدورها في السادس والعشرين من المحرم سنة ١٣٥٦هـ/ الثامن من أبريل سنة ١٩٣٧م. يضعه إنتاجه العلمي الغزير في مقدمة الرواد المؤسسين لنهضة الجزيرة العربية الثقافية في العصر الحديث؛ كيف لا وهو الأديب والمؤرخ الذي كتب في التاريخ، والنحو، وأدب الرحلات، والقصة، والمقالة وغيرها حتى شملت كتاباته الاستثمار المصرفي والشركات المساهمة في ضوء التشريع الإسلامي.

عندما شرع أمين مدني في إعداد موسوعة (العرب في أحقاب التاريخ)، وضع خطتها بحيث تنقسم إلى قسمين الأول بعنوان : "عصور ما قبل الإسلام" وهي من خمسة أجزاء :

الجزء الأول : التاريخ العربي وبدايته.

الجزء الثاني : التاريخ العربي ومصادره.

الجزء الثالث : التاريخ العربي وجغرافيته.

الجزء الرابع : الشعوب العربية قبل الإسلام.

الجزء الخامس : الدول العربية في عصور ما قبل الإسلام وسياستها.

أما القسم الثاني فاختار له عنوان : "عصور ما بعد الإسلام".

وتسنى للمؤلف رحمة الله عليه إصدار الأجزاء الثلاثة الأولى من القسم الأول، وذكر أنه انتهى من تأليف الأجزاء الخمسة من القسم الأول، إذ يقول في مقدمة الطبعة الأولى من الجزء الأول : (وبحمد الله فقد انتهيت من تسويد القسم الأول مصنفًا في خمسة أجزاء).

صدر الجزء الأول : التاريخ العربي وبدايته سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، تناول فيه مفهوم التاريخ، ثم بداية الإنسان منذ خلق آدم، وتباين الرؤى في التاريخ الموغل في القدم الذي ترد إشارات عنه في الكتب المقدسة، وبين التاريخ الذي حصلنا عليه من خلال الآثار، وحدود عصور ما قبل التاريخ ونهايتها وبداية العصور التاريخية والحد الفاصل بين هذه وتلك. يرى أمين مدني أن الحضارة وما يمثلها من أديان، وخطوط، ولغات، وشعر، وأنشطة اقتصادية هي من علامات بداية التاريخ؛ لأنه لا يمكن لأمة أن تبدأ تاريخها ما لم تكن متمدنة ولها مجتمع ودين يعبران عنها.

استعان المؤلف بالمصادر والمراجع العربية، كما استعان بالمراجع الأجنبية المعربة، وعبر عن ذلك بقوله: (وما نقل في هذا الكتاب عن التاريخ الجاهلي القديم نقل واضح المصدر المنقول عنه، وواضحة نتيجته التي انتهى عندها البحث، وواضحة أدلته التي انبنى عليها الاقتناع بما اعتمد عليه مما جاء في مصادرنا العربية ومما جاء في تحقيقات المستشرقين على أن أقابل ما جاء في مؤلفات المستشرقين بما في مصادرنا العربية كلما وجدت لذلك سبيلاً).

توصل المؤلف في ختام هذا الجزء إلى نتائج عدة يأتي من مقدمتها إثبات صحة الكثير مما جاء في مصادر التاريخ العربي عن عصور ما قبل الإسلام؛ إذ ثبت لديه أنها لم تكن كلها قصصًا خيالية وضعها الإخباريون العرب ودلل على ذلك بأن البحوث الأثرية أثبتت صحة بعض تلك القصص والروايات.

ومن النتائج التي توصل إليها المؤلف في هذا الجزء أن أحداث التاريخ العربي بدأت واضحة منذ مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، إذ شهدت هذه الحقبة انتقال التاريخ العربي من القصة الأسطورية إلى الخبر الواقعي، وأبرز المؤلف في هذا الجزء إسهام الجزيرة العربية في البناء الحضاري الإنساني المتمثل في نشر العقائد، واللغة، والخطوط في منطقة حوض البحر المتوسط، وشرق إفريقيا، وغرب آسيا.

صدر الجزء الثاني: التاريخ العربي ومصادره سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م. وتناول فيه:

مصادر التاريخ العربي وهي:

القرآن، أسفار التوراة، الأساطير والشعر الجاهلي، بداية التاريخ وتدوينه في المدينة المنورة بعد الإسلام، التدوين في صدر الإسلام، رواد الثقافة العربية،

المؤرخون العرب ورواياتهم، المفسرون، كتاب المغازي والأنساب، نقاد الشعر الجاهلي ورواة أيام العرب، أعلام المؤلفين في التاريخ العربي ومؤلفاتهم، المستشرقون، علما الآثار والجيولوجيا.

وبعد أن فرغ من مناقشة هذه المصادر خلص إلى القول : (فعلى هذا الأساس رسمت مخطط هذا الجزء ؛ فقسمت موضوعاته، وقدمت ما في استطاعة البحث تقديمه لمعرفة مصادر التاريخ العربي، ومناهل رواده ومراجع المؤلفين فيه، ومسالكهم، وأساليبهم، والجهد الذي بذلوه في تطوير البحث التاريخي كل فيما اتجه إليه واشتغل به).

تطرق المؤلف في هذا الجزء إلى الاتهامات التي وجهت إلى نصوص المؤرخين العرب القدامى، وأشار إلى أنانية النقوش الآشورية والمصرية القديمة فيما يتعلق بعلاقات الآشوريين والمصريين بالجزيرة العربية، وأوضح اعتماد المؤرخين العرب القدامى على بعض ما جاء في أسفار التوراة، وأن هذه الأسفار إنما سجلت بعد موسى عليه السلام بقرون عدة، وأنها دونت بعدة لغات بحيث لا نكاد نجد نسخة من هذه الأسفار مطابقة لنسخة أخرى دونت قبلها أو بعدها.

ناقش آراء المؤرخين العرب المعاصرين واختلف واتفق معهم وعبر عن ذلك بقوله : (فأنا إن رفضت رأي جرجي زيدان في تحقيقه الأخير في موضوع مكتبة الإسكندرية وحريقها، فقد أخذت برأيه في كثير من بحوث هذا الجزء .. وأنا إن عارضت عبدالعزيز الدوري، وحسين نصار، وجواد علي، وناصر الدين الأسد في بعض النتائج التي وصلت إليها بحوثهم، فإنني أجلّ معارفهم ، وأقدر سبقهم، وأكبر سعة اطلاعهم).

أما الجزء الثالث من الموسوعة فقد صدر سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، تحت عنوان : التاريخ العربي وجغرافيته.

فبعد أن انتهى المؤلف من توضيح بداية التاريخ العربي ومعرفة مصادره جاء هذا الجزء عن التاريخ العربي وجغرافيته، جمع فيه المؤلف ما رآه مفيدًا من أقوال جغرافيي العرب القدامى، وما برز من نتائج الدراسات الحديثة التي عنيت بتقويم البلدان، وأبرز دور الجغرافيين العرب الذين لم يقفوا عند ما انتهى إليه اليونانيون، بل انتقلوا إلى مراحل جديدة في علم الجغرافيا، وأشار المؤلف إلى "المصور الجغرافي العام" الذي وضعه صفوة من الجغرافيين العرب في عهد الخليفة العباسي المأمون فكان هذا المصور كما وصفه المسعودي : "عن صورة عامة للعالم : أفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك"، كما استعرض المؤلف جهود الجغرافيين العرب الأوائل مثل : الكندي الذي كان أول من كتب عن الأقاليم، وأبوزيد البلخي الذي يعد أول من دون الجغرافيا على نحو ما عند اليونان، والمسعودي الذي يعد أول من استعمل كلمة الجغرافيا للدلالة على علم تقويم البلدان، كما أوضح أن الجغرافيين العرب لم يقتصروا على التأليف في الجغرافيا فقط، بل جمعوا بين التاريخ والجغرافيا مثل : المسعودي، واليعقوبي.

ومن الأهداف التي سعى إليها المؤلف في هذا الجزء : إزالة ما حاول الاستعمار القديم والحديث - على حد وصفه - أن يرسخه في عقول الأجيال العربية المتعاقبة من أن العراق، وسوريا ليستا من الجزيرة العربية، وأن دلتا النيل وضفته الشرقية في مصر لا تمتان بصلة إلى العرب والعروبة، وناقش

السؤال الذي لا يزال يردده الكثير من الجغرافيين والمؤرخين : هل بلاد العرب جزيرة أو شبه جزيرة؟ وتوصل إلى أنها جزيرة، وختم الجزء الثالث بقوله : (لقد التزمت بإنشاء بحوث قد تكون طويلة ومملة للقارئ المستعجل ولكنها ضرورية للمتقصي المتفرغ لمعرفة التطور الجغرافي في أرض تصدرت أنباؤها تاريخ العصور الخوالي، ومازالت بعقائدها ومقدساتها وثرواتها تتصدر التاريخ العالمي).

يذكر المؤلف أن روايات أساتذة التاريخ العربي أمثال : ابن جرير الطبري وابن خلدون، وابن كثير تفتقر إلى مقابلتها مع النصوص الأثرية، ولم يكن ذلك عن تقصير منهم، بل لتأخر اكتشاف النصوص الأثرية التي ظهرت في عصور تالية لعصورهم في حين أن المؤرخين العرب المعاصرين قارنوا بين الروايات القديمة والنصوص الأثرية وآراء المستشرقين، وبالرغم من ذلك، فإن الرواد من أمثال : جرجي زيدان، وجواد علي، وفيليب حتي لم يقدموا مؤلفات متكاملة لمصادر تاريخ الشرق العربي، ولا مؤلفات متكاملة لجغرافية هذا الشرق في عصوره القديمة.

إن **دار القوافل** لتفخر بتقديم هذه الأجزاء الثلاثة من موسوعة : (العرب في أحقاب التاريخ)، وتأمل في تسليط الضوء عليها وإتاحتها أمام المؤرخين والآثاريين والجغرافيين بما تقدمه من معلومات تاريخية وجغرافية، وطرق بحثية ومنهجية في التاريخ العربي قبل الإسلام، وبدايات تأسيس علم التاريخ بعد الإسلام.

مقدمة الطبعة الأولى

صديقنا العلامة الأستاذ أمين مدني رجل بحاثة بطبعه، عرفته وعرفت فيه هذه الصفة - إلى صفات أخرى سامية كثيرة - أيام كنا نلتقي على الموارد العذبة من العلم والأدب والشعر في "ندوة الأصفياء" التي كان يجمعنا إليها أخونا المجاهد في سبيل الله، الذي رفع إلى جوار ربه منذ أشهر معدودات : الأستاذ الشاعر الكاتب المغفور له محمد علي الحوماني، طيب الله ثراه.

لقد كانت هذه الندوة بمثابة سوق من أسواق العرب التي كانت تعقد للعلم، وللشعر، وللخطابة، والتي كان يتوارد عليها أئمة البيان وحكماء العرب وشعراؤهم قبيل الإسلام، حين كانت العقول تجد لها متنفسًا في عكاظ، وجنة، وذي المجاز، وحين كانت هذه الأسواق مواسم علم، ومجالي أدب، ومعارض فن، ومؤتمرات تهوي إليها الأفئدة، وتشد إليها الرحال.

كأنما كانت "ندوة الأصفياء" هذه هي عكاظ العروبة في مصر يجتمع إليها المصري واللبناني والحجازي والأردني والعراقي والسوري والمشرقي والمغربي، ويلتقي عليها الأحرار المجاهدون، والعلماء المجددون، والشعراء المجوِّدون، والقواد الذين صنعوا التاريخ، وكسبوا المعارك، والشيوخ المجربون الذين ذاقوا حلو الحياة ومرّها، وعاصروا أحداث العروبة فتفهموا عن كثب أسرارها.

لم يكن هؤلاء يسمرون كما يسمر الناس بلهو أو لعب، ولا يجتمعون على قال وقيل، ولكنهم كانوا يثيرون البحوث العميقة عن كل مشكلة من مشكلات العرب والمسلمين، فيعرضون لتاريخها وتفاصيل حوادثها، ودخائل أسرارها، ويلقون عليها

الأضواء في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ويضعون لها الحلول ويصفون الدواء، كل ذلك في أسلوب من البحث الأصيل، والنقاش الهادئ الجميل، والتعاون على تجلية الحقائق، وتصفيتها من الشوائب، توعية وتبصرة وشحذاً للهمم، وتعبئة لكل قوة من قوى الجهاد والاستعداد.

لله تلك الليالي الحافلات! ما كان أبعدها أثرًا، وأطيبها ذكرًا وأكثرها عبرًا!

كان الأستاذ أمين مدني أحد الزملاء في هذه الندوة "ندوة الأصفياء" وكنت أراه بينهم طويل الصمت، عميق التدبر، لا يميل إلى مقاطعة أو مسارعة، فإذا تكلم أجاد في الخطاب، ونطق بالصواب، واسترعى الأسماع والأبصار والقلوب، كاشفًا عن حقيقة، أو مبينًا لسر، أو مفضيًا برأي، أو موجهًا لناحية مهمة من نواحي الحديث، كل ذلك في أدب جم، وتواضع محمود، وأداء هادئ رزين، يستريح إليه من خالفه، كما يستريح إليه من وافقه، وقلما كان يخالفه أحد؛ لأنه ما كان يعتبر نفسه في وقت من الأوقات مناظرًا يبتغي الغلب، ولكن باحثًا يبتغي الحقيقة، ويعين على الوصول إليها، ولا يهمه أن تظهر على لسانه أو على لسان سواه.

فكنت أغبطه على هذا الخلق الذي هو أجمل ما يتحلى به أهل العلم، كما كنت أدرك أنه سيهتدي على ضوئه إلى عمل نافع يقدمه لأمته، تتجلى فيه طبيعة الباحث الأصيل، غير المتطفل ولا الدخيل، فلما أنبأني بأنه مشغول بإعداد بحث واف عن "العرب في أحقاب التاريخ" بدأت أتوقع تحقق فراستي، ودعوت الله له بالتوفيق.

واجتمعنا ذات يوم فعرض عليّ فكرته في بحثه، ومنهجه الذي يسير عليه، وتقسيم هذا البحث إلى أقسامه التي يرى أنها ستستوعب خمسة أجزاء، منها هذا الجزء الأول في "التاريخ العربي وبدايته" وأنه سيعالج كل موضوع من موضوعاته على

شريطة التثبت قبل إبداء الرأي، وعدم الانخداع بالظنون الجوفاء، التي عسى أن تصادفه عن مستشرقين أو مستغربين، أو التي يتخبط في أوديتها حطاب الليل من المؤرخين القدماء أو المحدثين، وأنه سيعمل جاهدًا على تصحيح الكثير مما أضيف على تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، معتمدًا على المصادر الصحيحة وفي مقدمتها كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مع الحذر كل الحذر من الروايات المصنوعة، والآراء المدخولة التي لا دليل عليها، وليس في لفظ القرآن أو معناه أو إشارته ما يؤيدها.

وها هو ذا يبدأ في تحقيق ما وعد به، وهأنذا أقرأ الجزء الأول الذي أودعه ثمرات اجتهاده في التعرف إلى بداية التاريخ العربي، قبل أن يقدمه للطبع حتى يعرف رأيي فيه كقارئ له صلة بجوانبه الدينية، وكأخ يرى فيه أخوه مرآة نفسه.

وما من شك في أن تاريخ العرب القديم منطو على كثير من الغيابات والمجاهل التي ترهق السالكين، وتحير المدلجين، وأنه قد توارد على الكتابة في هذا التاريخ أصناف من الناس، منهم الذين لا يرون في العرب إلا أوزاعًا من الخلق كانوا في قديم الزمان أصحاب أشعار وأوبار، وسكان بواد وقفار، تدور حياتهم بين حل وارتحال، وليست لهم جامعة تجمعهم، ولا أهداف تدفعهم، وإنما همهم أن يجدوا ما يقيتهم ويعيشهم ولو كان فيما يصيدون من حيوان، أو يحرشون من ضب.

وأكثر هؤلاء من الذين انحازوا إلى الشعوبية الجائرة ، فجردوا العرب من كل مزية فكرية، ولم يثبتوا لهم من المواهب؛ إلا موهبة الشعر والخيال، كالهائم التائه الذي يتعلق بالسراب والآل.

ومنهم الذين بعثهم الاستعمار روادًا له، ومقدمات ثقافية بين يدي حملات صليبية أو استغلالية، فكان أكبر همهم أن يصوروا العرب لأنفسهم أمة من القعدة العجزة الذين خلقوا ليقادوا، ولا يصلح أمرهم إلا بأن يساسوا.

وقليل أولئك الباحثون المنصفون الذين عرفوا فضل العرب، وحاولوا أن ينفضوا عن تاريخهم ذلك الغبار الذريِّ المعنوي الخانق الذي نشره أعداؤهم وحسادهم، ولكنهم كانوا في كثير من الأحيان متحمسين أو ملقين للقول على عواهنه، يدفعهم الحب لقومهم العرب على أن يتقبلوا كل ما يساق إليهم من ثناء عليهم، وتصوير لبالغ عظمتهم.

ولذلك جاء بحث الأستاذ أمين مدني هادفًا إلى الحقيقة في ذاتها، لا يميل إلى التعصب لأحد أو على أحد، فنراه يقف وجهًا لوجه أمام الآراء المتصارعة، ويناقشها في أسلوب العالم المنصف الذي لا سلطان لشيء عليه إلا الحجة والمنطق، فإذا هو كالدليل الماهر الذي يقود متبعيه إلى الطريق المستقيم، مانحًا إياهم الطمأنينة إليه، بأسلوب فعلي مباشر دون طنطنة أو ادعاء.

وقد رأيت بعض الباحثين يستدل بآيات من القرآن الكريم على بعض ما يورد من قضايا وأحكام تاريخية، ولكنه ينزلق إلى الروايات التي تتصل بهذه الآيات، فيعطيها من الثقة ما يجعله يخرج عن النطاق القرآني متوسعًا أو متضيقًا، ومن حق القراء حين ذاك أن يتساءلوا : هل هذا المنهج مستقيم؟

أما مؤلفنا "الأمين" فإنه إذا عرض للاستدلال بآية من آيات الكتاب الكريم، وقف عندها، ولم يخرج عن نطاقها وما تدل عليه بنفسها، فتراه يستوحيها الحقائق، ويستنبئها الأنباء في لباقة وحسن تناول، وتراه يصدع بها مؤمنًا بما تهدي إليه، غير متشكك ولا متحير، ولا مؤثر ما وراءها مما يعارضها أو يصادم حقائقها.

وبحثه عن "إرم ذات العماد" يتيح للقارئ مثالاً واضحًا على منهجه في دراسة تاريخها على ضوء ما جاء في القرآن عن قوم عاد، وفي حذر شديد مما أحاطته به الروايات التي اتصلت بذلك.

فهو ينقد ما أجاب به كعب الأحبار معاوية بن أبي سفيان حين سأله عن حقيقة ما يقوله ابن قلابة عن إرم ذات العماد، ويبين ما فيه من ادعاء ظاهر، ومن تظاهر بالعلم أمام معاوية، ويزيف ما رواه عن التوراة، مبينًا أنه ليس فيها شيء عن شداد بن عاد ولا عن إرم ذات العماد .. إلخ.

ثم يذكر حقيقة الأمر في نطاق القرآن وآياته ودلالاته، فيقرر حقًا أن قوم عاد برزوا في الجزيرة، وأنهم كانوا أصحاب قوة وبأس شديد، إذا بطشوا بطشوا جبارين، وأنهم كانوا أغنياء مترفين يبنون في كل ريع آية، وأن ذلك قد يشير إلى أن نفوذهم امتد على كثير من ربوع البلاد العربية، ولا يبعد معه أن يقيموا مدنًا في شمال الحجاز، وفي أطراف العراق، وفي قلب اليمن، وأن يضفوا عليها مظاهر الأبهة.

ثم يعرض لبعض أقوال المؤرخين العرب الذين يفسرون العماد في "ذات العماد" بأن المراد بها الأعمدة التي تحمل الخيام، وينقد هذا التفسير قائلاً: "إنه بعيد الاحتمال، فليس من المنطق أن يبني قوم عاد قصورًا ضخمة لا يسكنونها، إنما القريب من المنطق أن تكون العماد أعمدة القصور التي كان العاديون يبنونها، فلقد أصبح من الحقائق التاريخية أن الأعمدة من فن البناء العربي القديم".

كما ينقد زعم الذي قالوا: إن إرم مدينة تدور في الأرض فتارة تكون في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، ويعتبره ضربًا من الخيال البليد أو الساذج، ويقرر أن أصحابه قد اختلط عليهم الأمر دون أن يتنبهوا إلى ما جاء عن قوم عاد في القرآن الكريم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (1)، "ولو

(1) سورة الشعراء، الآيتان: ١٢٨، ١٢٩.

تنبهوا إلى ذلك، وإلى الآثار المنتشرة في الجزيرة العربية منسوبة إلى عاد، لقالوا إن لقوم عاد مدنًا في الحجاز، وفي الشام، وفي اليمن، بدلاً من قولهم: إن إرم ذات العماد تدور في الأرض فتكون تارة في الحجاز وتارة في الشام وتارة في اليمن، وتارة في مصر!".

وللأستاذ مدني رأي في الخلاف الذي قام بين المؤرخين عن الترتيب الزمني بين مبعث هود وصالح وإبراهيم: فلا شك أن عادًا كانت قبل ثمود، وأن نوحًا كان قبل هود، فالقرآن الكريم نفسه يقول فيما رواه من قول هود لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ (١) ويقول فيما رواه من قول صالح لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ (٢).

فهذه حقيقة لا شك فيها.

ولكن ما موقع العهد الإبراهيمي من هاتين الرسالتين: رسالة هود إلى عاد، ورسالة صالح إلى ثمود؟ أهو بعدهما أم قبلهما؟

يقول الأستاذ أمين مدني في الفصل الذي عقده عن "الأديان في جزيرة العرب قبل التاريخ":

"إن المؤرخين الإسلاميين الذين يقولون إن العرب البائدة هم الذين سبقوا بني إسماعيل، وإن العرب البائدة هم الذين ورثوا الأرض بعد قوم نوح - عاد قوم هود، وثمود قوم صالح - وإن عادًا وثمود ومن كان في عصرهم من دول وشعوب، بادوا قبل هجرة إسماعيل، يخالفون غيرهم الذين يقولون: إن إبراهيم رفع القواعد من البيت قبل أن يستغيث وفد عاد عند البيت، وقبل أن ينزل بعاد العذاب".

بهذا يصور الأستاذ أمين الخلاف بين الفريقين.

ونحن نعرف أن المشهور بين العلماء أن إبراهيم عليه السلام، كان متأخرًا عن كل من هود وصالح، وقد جرت عادة القرآن بأن يذكر نوحًا ثم هودًا ثم صالحًا ثم لوطًا وإبراهيم.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

ولكن الأستاذ أمينًا يرجح الرأي المقابل، ويستدل عليه بما ورد من دعاء وفد عاد عند البيت، مع معرفتنا بأن الذي بنى البيت هو إبراهيم وابنه إسماعيل، ثم يوفق توفيقًا طريفًا بين القولين فيقول :

"ونحن قبل أن نبدي ما ظهر من هذا الخلاف، نلفت النظر إلى أن الإبادة ليس معناها الفناء الكامل في أيام معدودات، وإلى أن في موضوع الإبادة بحثًا سيأتي في هذا الكتاب، فلقد عاش الذين آمنوا من قوم هود، والذين آمنوا من قوم صالح دهورًا طويلة مع أبناء عمومتهم العماليق والجرهميين وغيرهم من شعوب الطور العربي الأول إلى ما بعد الميلاد.

إن قوم عاد وثمود في وادي القرى شمال الحجاز وفي اليمن، والعماليق في مكة وفي شمال الحجاز، وفي فلسطين وسوريا، وجرهم في مكة وفي وادي القرى وشمال اليمن - كل هذه أطلق عليها المؤرخون اسم العرب العاربة، وكل هذه الأمم لم تنته حياتها السياسية، ولم يتحطم كيانها القبلي في فجر العصر الإسماعيلي، وكل هذه الأمم عاشت طويلاً بعد إسماعيل، بل هي عاشت إلى ما قبل الميلاد.

فعلى ذلك لا نرى ثمة ما يوجب الخلاف : فقوم عاد الذين ورثوا الأرض بعد قوم نوح، والذين زادهم الله في الخلق بسطة، ومنحهم النعم التي ذكرها القرآن، لهم تاريخ طويل في وادي القرى، بل في كل أنحاء الجزيرة العربية .. وبعثة هود كانت في نهاية عاد الأولى حيث انتقل هود ومن آمن به إلى الجنوب، فورث الثموديون الأرض بعد قوم عاد.

فمن الممكن - مع هذا الاعتبار - الجمع بين القولين، بأن قوم هود "عاد" هم الشعب الذي ساد بعد قوم نوح، وأن هودًا بعث إليهم بعد أن هاجر إسماعيل إلى مكة .. وعلى ذلك فإن إبراهيم هو أول الأنبياء بعد نوح .."

ومهما يكن رأي الأستاذ أمين مدني، فإنما هو اجتهاد من باحث تأمل طويلاً، وقرأ كثيرًا، ووازن بين المراجع التي قرأها، واستنبط ما اهتدى إليه من ترجيح، وهو من أجل ذلك رأي يستحق النظر وإن كان يقتضي مزيدًا من التحقيق والتدليل حتى يصبح حكمًا قاطعًا.

وهناك كثير من فصول الكتاب ومباحثه، كان من الممكن أن نقف عنده، ونبرز جهد الأستاذ أمين واجتهاده فيه :

هناك البحث الذي عقده لإثبات أن اللغة العربية هي الأصل للغات العالم العربي القديم، هي الأصل للغات السامية التي تطورت مع الأوضاع في العراق، وفي سوريا، وفي مصر، وفي شمال الحجاز وسواحله، وفي اليمن، وعمان، والخليج العربي، وأن هذا التطور أبعدها عن اللغة الأم المتمسكة بصفاتها الأصيلة في قلب الجزيرة العربية، تلك الصفات التي تظهر واضحة كلما بعدنا عن مناطق الاحتكاك بالعناصر غير العربية.

وهناك البحوث التي عقدها عن تاريخ الخطوط التي دونت بها اللغة العربية وأبجديتها.

والبحوث التي عقدها لإثبات عراقة الشعر العربي كعراقة لغته.

ثم هناك البحث الممتع الرائع الذي عقده المؤلف لبيان معالم المجتمع العربي، والدولة العربية، في قلب الجزيرة.

والحديث عن صراع الأديان، وأنه يؤلف جزءاً مهمًا في تاريخ الجنوب والشرق من شبه الجزيرة.

والحديث عن تاريخ العرب وحضارتهم في وادي النيل، وعن هذا التاريخ في العراق، وفي سوريا، وعن الهلال الخصيب في التاريخ العربي .. إلخ ..إلخ.

لقد كان من الممكن أن نقف عند هذا كله، وعند كثير غيره ولقد قرأناه، واستمتعنا بقراءته، واستفدنا منه جديدًا كثيرًا ... ولكنا نؤثر أن نترك للقراء حقهم في الاستمتاع بما استمتعنا به، وفي أن يتدرجوا إلى الحقائق مع الكتاب فصلاً بعد فصل، وبحثًا بعد بحث، وفي أن يحسوا بأنفسهم، وبطريق مباشر بهذه الجهود الجبارة، وبهذه النتائج الرائعة التي حققها المؤلف الفاضل.

وإذا كان لنا أن نتوجه إلى المؤلف بكلمة تحية، وتقدير، فإننا نؤثر أن نجعل هذه التحية دعاء إلى الله جلت قدرته، أن يجزيه أحسن الجزاء، على ما بذل في سبيل أمته وقوميته، وأن يديم توفيقه، ويبارك في حياته، حتى تفوز المكتبة الإسلامية العتيدة بالأجزاء الباقية من هذا البحث العظيم، والله هو المستعان وهو ولي التوفيق.

محمد محمد المدني

الأستاذ بجامعة الأزهر

والعميد السابق لكلية الشريعة

القاهرة في :

٢٣ رجب سنة ١٣٨٤هـ

٢٧/ نوفمبر ١٩٦٤م

التقديم

التاريخ ... بين الغموض والوضوح

إنها لمهمة صعبة حقًا تلك التي باشر صديقي أمين مدني الاضطلاع بها، وإنه لعمل شاق ذلك الذي عاهد نفسه على إنجازه، وأنجز بالفعل بعضه على أحسن ما يكون، وإنها لخدمة قيمة يسديها إلى طلاب المعرفة في دنيا العرب وخارجها، وإنه لسفر جليل هذا الذي يضعه بين أيدي القراء، بعد أن بذل في إعداده جهدًا مرهقًا، يستحق من أجله التقدير والشكر والإعجاب! فقد سدّ به فراغًا في المكتبة العربية، وحقق به للمثقفين في كل بلد أمنية عزيزة، وأضاف به حلقة قيمة إلى حلقات السلسلة التي صاغها الباحثون لاستكمال كتابة التاريخ العربي، وتدوين التطورات التي مرّت بها جزيرة العرب، وتسجيل المراحل التي تنقل فيها "العرب في أحقاب التاريخ".

والنهضة الحديثة، التي تدفع في تيارها الشعوب العربية والمستعربة، من الخليج العربي شرقًا إلى المحيط الأطلنطي غربًا، ومن البحر المتوسط شمالاً إلى سواحل المحيط الهندي وقلب القارة السمراء جنوبًا، هذه النهضة تتطلب، من بين مستلزماتها الضرورية ـ الإلمام الكافي بالتاريخ العربي من جميع نواحيه، وذلك بارتياد مجاهله، والغوص في بحاره الشاسعة، وطرق أبوابه كلها، بغية استجلاء معمياته، وتوضيح غوامضه، وتبيان معالمه، والإفادة من عبره ودروسه.

فقد كان التاريخ ولا يزال، بالنسبة إلى سالكي طريق المعرفة، وإلى المتصدرين لقيادة الوثبات القومية، وإلى موجهي طلاب العلم في شعاب دراساتهم المتعددة، المعلم الأول، والمرشد الصادق، والناصح الأمين، والينبوع المنعش المتدفق الذي لا ينضب

معينه! وفي عبر الماضي ودروسه ما فيها من حوافز أو روادع، يتأثر بها مسلك العاملين من أجل رفعة أوطانهم وإسعاد أقوامهم، في الحاضر والمستقبل.

والتاريخ العربي الغارق في القدم، غني بحوادثه، حافل بعظمائه، مفعم بتلك العبر والدروس التي تتوق إليها الأمم الحية في وثباتها وفوراتها .

ولم يبعث في مضمار البحث والتحقيق والتمحيص شك في أن جزيرة العرب - شمالها وقلبها وجنوبها - منبت من منابت البشرية، ومنبع من منابع الفكر، ومصدر من مصادر اللغات والخطوط والعقائد. فعلى أرضها أنشئت من قديم الزَمان دول وارتفعت عروش، وفي كنفها عاشت أقوام وتجاورت تارة في سلام وتارة في خصام، وتحت أجوائها ترعرعت حضارات وازدهرت مدنيات، ومنها انطلقت غزوات وفتوحات، وإليها اتجهت فتوحات وغزوات.

ولكن، إذا كان تاريخ جزيرة العرب واضح المعالم تمامًا منذ ظهور الدعوة المحمدية وانتشار الإسلام، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الأحقاب الأخرى، فمعالم التاريخ العربي يغشاها ظلال في الفترة الممتدة من بدء التاريخ الميلادي إلى بدء التاريخ الهجري، وتزداد الظلال كثافة فيتحول شيئًا فشيئًا، في الأجيال السابقة للميلاد، إلى ظلام يصعب على الباحث بل يتعذر عليه أن يتبين من خلاله حقيقة الوقائع والحوادث.

تلك الأحقاب الغامضة من التاريخ، والتي تمتد إلى ما قبل التاريخ، هي التي يعالج أمين مدني تطور الكيان العربي على مدار أجيالها، في هذا الجزء من المؤلف الضخم الشامل الذي يضعه عن "العرب في أحقاب التاريخ".

فمنذ البدء، يواجه المؤلف أصعب ما في المهمة الصعبة، وأشق ما في العمل الشاق !! فالمراجع التي يمكن الاعتماد عليها، وإن تكن عديدة، غير أنها متفاوتة القيمة، متباينة متضاربة، واستطاعة الاعتماد عليها إما ضعيفة وإما محدودة، وإما معدومة.

فما هي تلك المراجع؟

- الكتب الدينية، وأهمها : التوراة والإنجيل والقرآن، وما نتج عنها من أحاديث وشروح وتعليقات.
- الخرافات والأساطير.
- النقوش المحفورة على الصخور وعلى بقايا الآثار القديمة.
- الروايات المتداولة والقصص المتناقلة جيلاً عن جيل والقصائد والأمثال.
- مؤلفات المؤرخين العرب، الذين نقلوا ما سمعوه أو ما قرأوه، أو ما رواه من قبلهم مؤلفون من غير العرب.
- أبحاث العلماء والمؤرخين والمستشرقين الغربيين، الذين اعتمدوا من ناحيتهم على مراجع غير واضحة، أو نقل بعضهم عن بعض.
- الآثار المكتوبة عند الشعوب غير العربية، والتي قامت بينها وبين سكان جزيرة العرب علاقات وروابط، من قديم الزمان إلى الآن.
- الأناشيد والأغاني والأهازيج وما جاء فيها عن أعمال البطولة عند الأقدمين.

ولا يوجد بين هذه المراجع كلها مرجع واحد يمكن الأخذ به قطعًا، والاعتماد عليه بدون تحفظ، واعتبار كل ما جاء فيه حقائق تاريخية أكيدة واقعة!

فهل كتب الدين كتب تاريخ؟ وهل الناحية التوجيهية فيها، والرموز والمواعظ والأمثال والحكم، هل هذا كله قد جاء في تلك الكتب كدرس في التاريخ؟ أو أن الحقيقة التاريخية فيه قد أهملت، أو سخّرت ، أو حورت في سبيل الهدف الديني وحده؟

والخرافات والأساطير؟ هل كلها أوهام، وكلها من نسج الخيال؟ أو أنها كثيرًا ما تكون خليطًا من حقيقة وخيال، وكما يقول المؤلف في نهاية مطافه : ليس التاريخ الأسطوري مجردًا من كل حقيقة، وليس التاريخ الحقيقي مجردًا من كل أسطورة؟

والنقوش والآثار الباقية في جزيرة العرب، مما خلفه الأقدمون، قليلة أو ناقصة أو مشوهة، لا تتفق قيمتها العلمية والتاريخية مع ذلك الماضي السحيق الذي تضيع معالمه في غياهب العصور السابقة للتاريخ!

والروايات والقصص والقصائد والأمثال، كالأناشيد والأغاني والأهازيج، كلها فيها أثر الحقيقة، وكلها فيها أثر الخيال، فهي في الواقع تاريخ، وهي في الواقع أساطير.

بقيت المؤلفات المكتوبة، القديم منها والحديث، وهي في مجموعها لا تقبل على علاّتها، ولا ترفض على علاّتها، سواء أكانت لكتّاب شرقيين أم لكتّاب غربيين، وسواء أكانت قديمة أم حديثة. فكل من تلك المؤلفات ذخيرة ثمينة من بعض الوجوه، وكل منها موضع شك وريبة من وجوه أخرى.

وقد قامت بين المؤرخين الذين عالجوا تطور الجزيرة العربية منذ القدم، مناقشات، ومجادلات، ومحاورات، ملأت مجلدات يزداد عددها دائمًا مع الأعوام! وما سبب ذلك غير الغموض الذي يكتنف حقب التاريخ الأولى، بالنسبة إلى قيام الكيان العربي، وما وقع من حوادث في جزيرة العرب، والتطور السياسي، والقومي، والاجتماعي، والديني، والثقافي، الذي مرّت به الشعوب التي عاشت في هذه البقعة المحدودة من بقاع الشرق.

آراء متعددة، ووجهات نظر مختلفة، واستنتاجات متعارضة، وأحكام متفاوتة، تعجّ بها مؤلفات المؤرخين الأجانب الذين عالجوا تاريخ جزيرة العرب بحيث يصعب على طالب الحقيقة أن يعثر عليها، أو لا يعثر عليها إلا بعد جهد كبير، بين دفات المجلدات الضخمة التي تركها أشهر أولئك المؤرخين، أمثال جومار، وغوستاف ليبون، وروكلو، وكوسان دي برسفال، ودفرجيه الفرنسيين. ونيبور وريثر الألمانيين.

وبورخارت السويسري. ومانزوني الإيطالي، وغير هؤلاء ممن لا يتسع المجال هنا لسرد أسمائهم وأوصافهم.

وكثيرًا ما يضطر القارئ إلى التساؤل، وهو يطالع ما تركه الباحثون في عالم التأليف : أين الحقيقة وأين الخطأ؟ أين يبدأ التاريخ وأين تنتهي الأسطورة؟ أين الفاصل بين الواقع والخيال؟

والمؤرخ الذي يعالج اليوم ما عالجه أولئك المؤرخون بالأمس، لا ينجو من الاضطرار إلى مثل هذا التساؤل، في محاولته التفريق بين الخطأ والحقيقة، والأسطورة والتاريخ، والخيال والواقع!

وقد وجد أمين مدني نفسه في مثل هذا الموضع، وهو يعود إلى المراجع التي ذكرناها، ويتصفح الكتب ويتفحص الوثائق، ويدوّن ويسجل ويقارن، ثم يقدّر ويزن ويخمن ويستنتج، حتى يخرج من التجربة المثيرة برأي هو خلاصة ذلك كله : هو الحقيقة أو ما يقرب من الحقيقة حسب التفكير السليم المدعم بالأدلة والبراهين!

فقد حاول المؤلف أن يرفع الستار عن الغوامض، ويمزّق النقاب عن الأسرار، ويبددّ الشك الحائم حول كثير من حوادث التاريخ العربي، منذ أقدم العصور، بطريقة تحليلية رائعة مبتكرة، معتمدًا على كل ما يتفق مع المعقول والمقبول، من المراجع الكثيرة التي ذكرناها ووصفناها، بما فيها من ميزات وعيوب. ولا يسعنا إلا الاعتراف له بأنه قام بمجهود غير عادي، وتوصّل إلى نتائج على جانب عظيم من الأهمية، ووجّه إلى تاريخ العرب في حقباته الأولى، أنوارًا كاشفة بدّدت الظلمات عن كثير من وقائعه، وبذل في بلوغ هذا الهدف أقصى ما يمكن أن يتوفر لباحث مدقق من إمكانات ومحاولات!

فمن الناحية التاريخية، وفق أمين مدني إلى إزالة الغموض عن طائفة من الحوادث والآراء، والمعتقدات، والأقوال المتناقلة، بالنسبة إلى تلك الحقب الأولى من كيان

العروبة، وجمع بين دفتي كتاب واحد ما لم يجمعه غيره قبله من مقارنات وموازنات، بين ما قيل وما كتب وما نقل عن العرب، منذ أن طاف ذكرهم على الألسنة!

هذا الكتاب قد وضع حلقات - كانت مفقودة من سلسلة الأبحاث التاريخية العربية - في محلها.

في كل مكتبة عربية، وفي كل معهد من معاهد العلم، يجب أن يعدّ مكان لهذا الكتاب: "العرب في أحقاب التاريخ".

وفق الله المؤلف إلى إعداد الأجزاء الآتية، بقدر ما وفقه في إنجاز هذا الجزء الأول، الذي قلت، وأكرّر، أن صديقي أمين مدني يستحق من أجله التقدير والشكر والإعجاب!

حبيب جاماتي

القاهرة

توطئة

باسم الله أستعين، وأصلي وأسلم على محمد وعلى من سبقه من الأنبياء والمرسلين، الذين حملوا رسالة الخير والحق والمبادئ البناءة، فأشعلوا النور في ظلمات الماضي، وخططوا الطريق المستقيم لكل أمة تريد أن تحمي وجودها في معركة الحياة التي بدأت منذ الأزل، وما زالت واسعة المجال للذين كبرت نفوسهم فتطلعت آمالهم إلى ما وراء الأفق الكبير، أفق دنيا هذا الإنسان الذي خلقه الله ليتدبر خلق السموات والأرض- ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ [1]!!

فيا لها من جهود جبارة - جهود الإنسان الذي صعد بعقله من بطن الغاب إلى ما فوق أجواء الفضاء. ويا لها من مراحل طويلة، مراحل تطوره وتجاربه من بداية عصره الحجري إلى عصره الذري الحافل بعظمة العقل البشري ومعجزاته.

وعظمة العقل الإنساني ومعجزاته اليوم لا تجحد جهود الماضين، وما تكبدوه في سبيل التطور. فلئن أنزل الماضي ستاره على حياة أمم كان لها شأن في حضارات عفت بطول الزمن معالمها، فلم تصل معارفنا إلى غير قليل تناقلت عنه الأجيال أنباء غامضة بعثت الإعجاب في المتقدمين فأطلقوا لتصوراتهم العنان، وبعثت الشك والحذر في المتأخرين فتقيدوا بالظنون المترددة، فإن تضحيات الإنسان القديم واضحة في هذا الشرق العربي.

أنا لا أنكر قيمة التحقيق المتأخر، وما يفرضه الشك والحذر من حرص وتريث، وفي الوقت نفسه أنا لا أعتقد أن بحوثنا التاريخية العربية القديمة كلها بحوث أسطورية تافهة لا وزن لها في معايير كتابة التاريخ في العصر الحاضر. فلو كنت أعتقد ذلك لما

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٩١.

أقدمت على بذل ما استطعت في تتبع ما وصلت إليه جهود رواد الباحثين عن تاريخ جزيرتنا الغالية الخالدة، ولما أقدمت على تنقية ما جمعته من بطون مؤلفات التاريخ: الضخم منها والمختصر، العربي منها والمعرَّب، ومقابلة الظن الحديث بالرأي القديم، وتحقيق ما أمكن تحقيقه من هذا وذاك، ولما أقدمت على ترتيب ما انتقيته وقنعت به في هذا المؤلف "العرب في أحقاب التاريخ" الذي أضع الجزء الأول منه "التاريخ العربي وبدايته" بين يدي القراء ليطالعوا فيه ما يستحق المطالعة، ولينقدوا منه ما يستحق النقد.

وكذلك أنا لا أعتقد أنني وفيت حق البحوث التي جمعتها وناقشتها على ضوء الأدلة التي حصلت عليها، فأحداث الجزيرة أحداث تراكمت عليها الدهور فطواها الغموض، فهيهات أن يعرف ابن القرن العشرين بعد الميلاد كل شيء عن ابن القرن العشرين قبل الميلاد، وأحداث الزمن: القديم منها والجديد ما فتئت ملونة بما اقتنع به المؤرخون، أو بما فرض عليهم الاقتناع به.

فمن النادر جدًّا أن تجد عصرًا من العصور مصورًا في مؤلفات المؤرخين بريشة واحدة، أو أن تجد حدثًا من الأحداث اتفقت كلمة المؤرخين في تفسير أسراره، وتوحدت آراؤهم في تعيين أسبابه، فكيف بالباحث الذي اقتحم أغوار الماضي ليعرف شيئًا عن حياة العرب، وحياة العرب واسعة الأطراف قديمة العهود؟ وكيف بالباحث الذي يريد أن يعرف حقيقة التاريخ العربي الجاهلي، والتاريخ العربي الجاهلي في جزيرة العرب مشوش لا سيما أخبار أولئك الذين هاجروا بالقومية العربية إلى سهول الهلال الخصيب وجباله، وإلى صحراء سيناء وضفاف النيل، فرسموا الحدود السياسية لشبه جزيرة العرب فملكت الأرض العربية على أثرهم دول عربية.

أجل ملكت الأرض العربية دول عربية عُرفت في بحوث تاريخ العراق القديم بدول: "الكلدان" و"آشور" و"الحضر"، وبدولة "اللخميين". وعرف في تاريخ سوريا بدول: "الكنعانيين" - "الفينيقيين". و"العماليق" - جبابرة الشام - و"تدمر"، وبدولة "الغساسنة".

وعرفت في مصر بدولة : العماليق أو الهكسوس، أو الشاسو، أو الرعاة وعرفت في شمال الحجاز ونجد : بدول "العاديين" و"الثموديين" و "المدنيين" و"اللحيانيين" و"طسم" و"جديس" وعرفت في مكة بدول : "جُرْهم الأولى. والعماليق" و"جرْهم الثانية" و"خُزاعة" و"كنانة فقريش". وعرفت في الجنوب بدول "معين" و"قتبان" و"أوسان" و"سبأ" و"حِمْير"، إلى غير هذه الدول مما سيأتي ذكرها في الجزء الخاص بالتاريخ السياسي القديم.

والدول العربية الأولى التي قامت في أنحاء الجزيرة العربية - لم تجد الطريق مفروشًا بالزهور، بل كان عليها أن تضحي بالكثير في سبيل وجودها. وكان عليها أن تناضل في مختلف الميادين لتستطيع أن تحافظ على كيانها السياسي، ويتاح لها أن تنشر عقائدها، ولغاتها، وحضارتها التي عرفت في بحوث المستشرقين بالعقائد واللغات والحضارات السامية.

والدول العربية في جميع عصورها لم تسلم من خصوم ألداء حاقدين ناصبوها العداء السافر، ومن خصوم متقنّعين يضمرون في نفوسهم الحقد والكراهية والدس، كانوا وما زالوا يحاولون إطفاء الشعلة العربية - الشعلة التي حملها العرب فأناروا السهل والجبال والأودية - فمثلما اكتسحت دول شمال الجزيرة غزوات الآريين في الماضي والحاضر، اندست بين الشعوب العربية عناصر يغيظها الانتصار العربي فلا تألو جهدًا في تشويه السمعة العربية والحط من مكانة العربي وجهاده.

فلقد نقمت الشعوبية من الأمة العربية في العراق، فبذلت قصارى جهدها لتحطيم المجد العربي. ونقمت منها الشعوبية في مصر فلم تدخر جهدًا لوصم التاريخ العمليقي بالبربرية الضارية وبكل صفاتها : دمارًا، وسفكًا، وتخريبًا.

فما أكثر ما جاء في آثار الآشوريين عن انتصاراتهم على إمارات ودول عربية، ولكنها مع كل مبالغاتها لم تستطع إخفاء مواقف جيوش العرب عبْر العراق، وفي سهول

سوريا ، وشمال الحجاز ونجد ، وهي على جمالها أمام جنود آشور المتطين الجياد السريعة والمدججين بأحدث أسلحة ذلك العصر. عندما ذكرت انتصار الآشوريين. ولم تستطع إخفاء ثروة الدول العربية مما لا يتوافر وجوده إلا لدى الأمم المتمدينة. عندما ذكرتْ غنائم الجيوش الآشورية.

فالشعوبية في العراق. ترجع في رأيي إلى العصر الآشوري. فمثلما تسلطت العناصر غير العربية على حكومة "بغداد" العباسية. كانت هناك عناصر غير عربية مُسلَّطة على حكومة "نينوي" الآشورية.

ثم جاء العهد الفارسي في العراق، وأنانية الأكاسرة وعنجهيتهم واضحة في أيام العرب مع الفرس، وفي مواقف "النعمان" وجدوده في مجالس "أنو شروان" وجدوده.

وكذلك دول الفراعنة في مصر لم تخل من العناصر غير العربية التي حصلت على النفوذ والسيادة على وادي النيل؛ فلقد حمل هؤلاء على "الهكسوس". العماليق. وشوهوا تاريخهم، وأخفوا معالم حضارتهم، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يمحوا من على أرض النيل آثار العرب أو ينكروا انتشار أديان أرض الآلهة (جزيرة العرب) في وادي النيل، وتعبد المصريين للآلهة السامية، أو ينكروا حاجة الفراعنة إلى بخور الجزيرة العربية ومعادنها وكل ما في أسواقها التجارية.

حقًّا : لقد حملت التوراة على العماليق جبابرة سوريا. ولكن ما هو الفرق بين العماليق في فلسطين، وبين القرشيين في مكة؟ أليس موقف العماليق في فلسطين من ذلك الجمع الغفير الذي تبع موسى وجاء يريد القضاء على عقيدتهم وسلطانهم، والتحكم في أرضهم. هو موقف أقرب إلى المنطق من موقف قريش من الإسلام الذي سطع نوره من "غار حراء" ودعا إليه من تعرف قريش صدقه وأمانته واستقامته؟ فهل

كان القرشيون كلهم "أبا لهب" و"أبا جهل" و"النضر بن الحارث"؟ أولم يكن في قريش مثل: قصيّ بن كلاب، وعبدالمطلب بن هاشم، وورقة بن نوفل؟

ولم يسلم التاريخ العربي من الدعاوى المغرضة؛ فكانت الشعوبية في العصر الإسلامي أكثر دسًّا وتشويهًا لحقيقة التاريخ الجاهلي. فقد كان بين الشعوبيين علماء نابغون وشعراء مجيدون، اندسوا في صفوف العرب ودسوا في تاريخهم الشيء الكثير.

ولم تكن خصومة المسيحيين الذين أعلنوا الحرب الصليبية على العرب والإسلام بأقل خطرًا وأقل غرضًا من الشعوبية. فما فتئت كتابات المستشرقين عن الإسلام والتاريخ العربي، تسير وراء الدعاية التي شنتها القسطنطينية لإثارة الحماس الصليبي ضد العرب والمسلمين.

وأخيرًا الاستعمار الحديث. والاستعمار الحديث قام على حطام الحقائق، فلم يدخر جهدًا في تبرير: الاستعمار، والوصاية، والانتداب. هذه الأقنعة التي تقنعت بها مطامع الغرب في الشرق. فبرز بها وجه الاستعمار بعد أن انجلى غبار الحروب التي شهدتها سوريا، والعراق، ومصر، والجزائر، ومراكش، وكل بلد عربي غلب على أمره، ولم ينفعه وقوفه بجانب الحلفاء يبذل النفس والنفيس.

فمن ذلك الماضي الغائم إلى هذا الحاضر الواضح، وخصوم العرب من شعوبيين ومستعمرين. لم يبرحوا موقف التشهير بأبناء الجزيرة والحط من شأنهم.

أنا لا أعتقد أنني وفيت بحوث هذا الكتاب "العرب في أحقاب التاريخ" حقها إيضاحًا وتفصيلاً. وحقائق التاريخ العربي تغطيها شكوك جمعتها أعاصير الدعاية المضللة، وزادتها حلوكًا أساطير القصصيين حتى خيل للكثير: أن الكلام عنها حديث خرافة.

فلولا ما جاء في الكتب المنزلة، ولولا ما جاء على الآثار المكتشفة؛ لدفن تاريخ الجزيرة القديم إلى أبد الدهر؛ فالذين يؤمنون بالكتب المنزلة من السميع العليم، لا يستطيعون أن يكذبوا بما جاء فيها من آيات بينات تدل على وجود أمم في غابر هذه الجزيرة كانت تبني في كل ريع آية، وكانت تنحت من الجبال بيوتًا، وكانت إذا بطشت بطشت جبارة فتاكة، وكانت السماء تمطرها مدرارًا، وكانت الأنهار تجري في أرضها فتمنحها الخصب والخير العميم؛ فعاش أبناؤها حينًا من الدهر في جنات وارفة الظلال، ونخل طلعها هضيم.

والذين اقتنعوا بالآثار الدفينة - لا يستطيعون أن ينكروا ذهب الجزيرة، ونحاس الجزيرة، وبخور الجزيرة، وأسواق التجارة وقوافلها وطرقها في الجزيرة، ولا يستطيعون أن ينكروا آثار ثمود، ومدين، ومدن السبئيين، والجرهميين، واليمانيين، وقصورهم المزخرفة بالذهب والفضة والأحجار الثمينة. ولا يستطيعون أن ينكروا قدم البيت وطهره وقداسته منذ رفع إبراهيم قواعده وإسماعيل.

فما جمع في هذا الكتاب من التاريخ الجاهلي القديم نقل أو اقتبس من كثير من المؤلفات كلفني جمعها في خزانة خاصة جهدًا متعبًا، وثمنًا غاليًا.

وما نقل في هذا الكتاب عن التاريخ الجاهلي القديم نقل واضح المصدر المنقول عنه، وواضحة نتيجته التي انتهى عندها البحث، وواضحة أدلته التي انبنى عليها الاقتناع بما أعتمد عليه مما جاء في مصادرنا العربية، ومما جاء في تحقيقات المستشرقين. ولقد حرصت على أن أقابل ما جاء في مؤلفات المستشرقين بما في مصادرنا العربية كلما وجدت لذلك سبيلاً.

والذي جمعته من مؤلفات المستشرقين هو المؤلفات المعرَّبة؛ فمسئولية ما وجدته فيها ترجع على المعرب؛ ولا أظن معربًا يجهل مسئولية الترجمة، أو لا يقدر أمانة التعريب.

ولا أقول : إن ما جمعته من مختلف المصادر وقابلته وحققته - رسم صورة كاملة واضحة لعصور الجزيرة القديمة . وإنما هو في اعتقادي خطوط أولية ، وقد تجدّ معلومات في الغد تتمم رسم الصورة وتظهر معالمها أكثر وضوحًا ، مثلما جدَّت معلومات لم يعرفها من مضى مع الأمس.

ولقد رأيت أن يقسم هذا الكتاب (العرب في أحقاب التاريخ) إلى قسمين : القسم الأول . عصور ما قبل الإسلام . والقسم الثاني عصور ما بعد الإسلام. وبحمد الله قد انتهيت من إكمال القسم الأول مصنفًا في خمسة أجزاء :

١- الجزء الأول :

"التاريخ العربي وبدايته" وهو هذا الجزء وموضوعات هذا الجزء تجدها مفصلة في بيانات بحوثه. ولقد بينت في كل بحث الأسباب التي دعت للكلام عما جاء فيه ؛ فالدين، واللغة ، والخطوط، والشعر ، والحضارة ، والنشاط الاقتصادي ، كلها من علامات التاريخ، فلا يمكن لأمة أن تبدأ تاريخها ما لم تكن متمدينة ذات دين و مجتمع.

٢- الجزء الثاني :

"مصادر التاريخ العربي" ومن موضوعاته : القصص، والقصة ، والأمثال في القرآن الكريم، والتوراة وأخبارها ، والمصادر اليونانية ، ومن أين وصلت إليها أخبار العرب في الجزيرة؟ ومصادر التاريخ العربي في العصر الجاهلي/ والآثار ، والمستشرقون، وأقطاب التاريخ في عصور ما بعد الإسلام.

٣- الجزء الثالث :

"جغرافية الجزيرة العربية" ومن موضوعاته : حدود الجزيرة العربية. أقسام الجزيرة الطبيعية : الحجاز. نجد ، تهامة. اليمن. العروض. الهلال الخصيب. سيناء

والصحراء الشرقية من مصر. عصور الجزيرة الجيولوجية. وكيف عرفت هذه الجزيرة باسم الجزيرة العربية؟ وهل هناك فرق بين الاسمين : الجزيرة ، وشبه الجزيرة ، ومنها ثروات الجزيرة المعدنية والزراعية. وطرقها وثغورها التجارية.

٤- الجزء الرابع :

"شعوب الجزيرة" ومن موضوعاته : حقيقة أنساب القبائل العربية. والهجرات وعواملها. والأسماء التي جاءت في المصادر الآشورية واليونانية. وكيف حملت القبائل العربية أكثر من اسم واحد. ومن هم الشعوب البائدة؟ وما معنى الإبادة؟

٥- الجزء الخامس :

"الدول العربية القديمة وسياستها" ومن موضوعاته : دول الإرميين في العراق، وفي سوريا. والعماليق في مصر، ودول قلب الجزيرة وجنوبها ، وصلات هذه الدول بعالم ذلك الزمن، والحروب التي خاضتها الدول العربية ذودًا عن وطنها وحماية لمصالحها.

وأنا عندما أذكر بعض موضوعات الأجزاء القادمة لا أقصد الإعلان عنها وإنما أذكرها مقدمة لإيضاح الأسباب التي دفعتني إلى بذل هذا الجهد.

إن لكل عمل - مهما كان بسيطًا أو خطيرًا - دوافع وأسبابًا. والدوافع لمناقشة هذه الموضوعات وتقديمها مصنفة في هذه الأجزاء : كثيرة. فلقد كان من رحلاتي إلى بعض الأقطار التي تعتز بتاريخها في داخل المملكة العربية السعودية وفي خارجها من البلاد العربية، وإلى الهند خارج البلاد العربية - ما جعلني أهتم بكل ما يقال عن ماضي الجزيرة العربية القديم في البحوث التاريخية. واهتمامي بما يقال عن الجزيرة العربية جعلني ألاحظ على المؤلفات الإسلامية، عندما تتكلم عن الجاهلية والجاهليين: اتجاه أكثرها إلى ناحية واحدة، مما جاء في القرآن الكريم. ألا وهي ضلال قوم عاد وثمود ،

والعذاب الذي حل بهم. واقتناع أكثرهم بما جاء في الأسفار عن العماليق جبابرة الشام؛ فلقد شط بعضهم في حكمه على تلك الشعوب، وفي فهمه تفسير ما جاء في القرآن الكريم. فظن: أن الله لم يبق من عاد وثمود باقية. وشط آخرون في وصفهم الحياة العربية من فجرها إلى ظهور الإسلام. فتخيل العرب في تاريخهم الطويل، وحوشًا مشردة في فيافي الجزيرة العربية.

ولقد لاحظت على المؤلفات العربية المتأخرة تعلقها بآراء المستشرقين فيما يخص التاريخ العربي القديم ومصادره التي ورثناها من بُحَّاث كرسوا حياتهم في جمع الروايات وتسجيلها. فمن الباحثين المتأخرين من أخطأ في حكمه على أصدق المصادر العربية: القرآن الكريم. فقال عن القصص القرآني، كما قال المستشرقون: إنه قصص "بلغ من الأدب الرفيع مرتبة المعجزة. وهو ككل قصص لايمكن أن يتضمن حقيقة تاريخية" وما يقوله المستشرقون اليوم قاله بالأمس المكذبون من قريش: ﴿إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[1] وذلك كما نراه مفصلاً في الجزء الثاني: "مصادر التاريخ العربي".

والغريب في الأمر: أنك تجد الذين أعجبوا بالمنطق المستشرقي، يعنون بشكوك المستشرقين أكثر مما يعنون برجوعهم إلى بعض الحقائق، فقليل أولئك الذين اهتموا بما قاله "غوستاف ليبون" في كلامه عن حضارة العرب، و"ديتلف نيلسن" في كتابه التاريخ العربي القديم وغيرهما: عن المصادر العربية التي أظهرت صدق الكثير من أنبائها عن الجنوب العربي - البحوث الأثرية؟

فعلى هذا النحو أهمل تاريخ قلب الجزيرة العربية في البحوث التي تعرضت للتاريخ العربي القديم، فلم يعر الباحثون ما جاء في مصادرنا عن الماضي العربي كبير اهتمامهم؛ فضاعت بذلك حلقة مهمة من حلقات التاريخ العربي القديم. وضياع هذه الحلقة المهمة سبب عدم ترابط تاريخ الجزيرة وتسلسل الأحداث العربية.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

وعلى هذا أصبح جمع الأخبار المتناثرة في بطون المؤلفات ومقابلة الخبر القديم بالتحقيق الحديث، والرواية العربية بالبحث المستشرقي، والخروج بعد ذلك بنتائج تنير، ولو بعض الشيء، جوانب الماضي القديم. مهمة صعبة لا يغري على تحملها الكسب المادي. وإنما الذي يشجع عليها الواجب. واجب الذين ينتمون إلى هذه الجزيرة، ويفخرون بمنعتها، ويعتزون بماضيها، ويعملون لمستقبلها، واجب أولئك الذين رضوا بها وهي جرداء بلقع، يعوي في صحاريها الذئب، وتصفر في أوديتها الريح - حتى فجر العلم من أعماقها ينابيع البترول، وأخذت الأبحاث الجيولوجية تكتشف كنوزها المعدنية. فأشرقت شمس يوم جديد في حياة الجزيرة الخالدة - الجزيرة التي أنجبت محمدًا "صلى الله عليه وسلم" وكفى به فخرًا، وعزة، ومجدًا.

إنه الواجب وحده هو الذي يشجع على تحمل هذا العبء الثقيل في صبح هذا اليوم المشرق. فحري بنا أن نعرف ماضينا لنقوّم حاضرنا ونبني مستقبلنا. وحريٌ بتاريخنا ألا يكون قيد نظريات المستشرقين وظنونهم. نأخذه عنهم قضايا مسلمًا بها دون الرجوع إلى تراثنا - وحريٌ بتراثنا أن يحقق وينقى من الخيال الذي علق به. ومن مبالغات القدامى التي لا يقرها المنطق؛ فمن ذا الذي يصدق: أن الحميريين كانوا يعيشون مئات السنين؟ ومن ذا الذي يصدق أن لقوم عاد أجسامًا كالتي صورتها بعض الروايات العربية المتأثرة بالقصص الإسرائيلية والفارسية؟

إن أحداث الجزيرة العربية لها شأنها الكبير في تاريخ هذا الشرق وأممه من فجر الحياة، فلقد تحملت الجزيرة جزءاً كبيرًا من مسئولية التاريخ العربي منذ أذن إبراهيم بالحج بجانب البيت العتيق؛ ولقد تحمل أبناء الجزيرة العبء جميعه، منذ نزل القرآن بلسان عربي مبين. (وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا. أمرًا بينًا: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن: أن كل مسلم أخ للمسلم.

وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟).

أجل - لقد بلّغ محمد "صلى الله عليه وسلم" الرسالة وحمّل المسلمين واجبها؛ فلا وثنية في ربوع الجزيرة، ولا صد عن البيت الحرام، ولا طغيان، ولا فساد، ولا فرق بين عربي وأعجمي، ولا فضل لهذا على ذاك إلا بإيمانه، وتقواه، وأدائه واجبه. وما أكبر واجب المسلمين نحو دينهم ونحو مجتمعهم ونحو تاريخهم.

وما أكبر ما قام به السلف الصالح من أبناء الجزيرة الذين حملوا الشعلة، ودافعوا عنها. ورفعوا راية العدالة، والحق، والأخوة، خفاقة عالية.

فما هذا المؤلف إلا دعوة عملية إلى معرفة تاريخنا الكبير وكفاحنا الطويل الذي شهده كل جزء من أجزاء عالمنا العربي الفخور بماضيه الجدير بما ينتظره في مستقبله بفضل إيمان شعوبه وترابط دوله، وخيرات بلاده.

وما هذا المؤلف على ما بذلت فيه من جهد غير دراسة أولية تنتظر من يوسع نطاقها ويجد في تحقيقاتها. ولعل الله يبعث همم المسئولين عن تاريخنا فتتجه للبحث الأثري في أرجاء الحجاز ونجد، مثلما اتجهت همم المسئولين في العراق، وفي مصر، وفي سوريا للبحث الأثري، فكانت تلك النتائج الضخمة التي زادت المعارف العربية. فلئن كانت الظروف القاسية التي مرت بقلب الجزيرة قد حالت في الماضي بين المسئولين وبين هذا الواجب العظيم. فإن وضعنا اليوم أفضل من الأمس بكثير. فلدينا من الإمكانات ما يزيح العقبات عن طريق البحث والتنقيب.



البحث الأول

التأريخ ومعناه

من موضوعات البحث :

١- كيف نشأ علم الفلك؟ وأين نشأ؟ .

٢- كلمة "التاريخ" في الأصل معناها التوقيت ثم استعملت لتؤدي معنى تسجيل الأحداث .

٣- تحديد الزمن من أعقد مشكلات التاريخ.



التاريخ ومعناه

التأريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله[1] وأصل اللفظ العربي (تأريخ) يرجع إلى أصل سامي "ورخ"[2] والتأريخ بمعنى التوقيت في المؤلفات العربية: علم عرف من عهد إدريس عليه السلام[3] . وإدريس في التاريخ العربي ولد ببابل وانتقل إلى مصر[4]، قبل الطوفان بقرون طويلة.

١- ودراسة الظواهر الفلكية في مؤلفات اليونانيين : علم تمخض عنه العقل الإنساني في وادي الفرات. والعقل الإنساني في وادي الفرات قال عنه (ديودوروس) و(هيرودوتس) و(سترابون) و(أرسطو) وكثير من فلاسفة اليونان ومؤرخيهم: [إن نمو العقل البشري كان مترعرعًا وكاملاً فوق ضفاف الفرات قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل][5] .

ففي سهول الفرات الفسيحة الأرجاء تطلع (الكلدانيون) . باستغراب ودهشة إلى السماء الشديدة الزرقة تارة والموشاة بالسحب تارة أخرى، وإلى الشمس التي تبزغ من المشرق لتأفل في المغرب، وإلى النجوم البراقة، وإلى القمر الذي يعود كما بدأ مثل العرجون القديم . وأخذوا يفكرون في كل ذلك، وأخذ التفكير يتطور من إعجاب ودهشة إلى تفهم ومعرفة. فكان مولد علم الفلك في تلك المراصد الهرمية الصاعدة في السماء

---

(١) **اللسان** : مادة أرخ .

(٢) **دائرة المعارف الإسلامية** ٤٧٣/٤ .

(٣) **قصص الأنبياء** للنجار ص٢٦ .

(٤) المصدر نفسه ص٢٥ .

(٥) **حضارة بابل وآشور** لغوستاف ليبون ص٥٢.

بجانب القصور الملكية الكلدانية، حيث قبع علماء "الكلدان" يدرسون الظواهر الفلكية من تلك المراصد ثم يرفعون نتيجة بحوثهم في صورة تقارير لملوك بابل.

ولقد وصل البحث والتنقيب إلى بعض تلك التقارير. ولقد استطاع خبراء الآثار قراءتها وقدموا لنا نماذج منها، وهذه صورة من تلك التقارير : [في اليوم السابع والعشرين اختفى القمر، ولقد ظللنا بعد ذلك إلى اليوم الثلاثين نبحث عن سبب اكفهرار الشمس من غير كسوف، أما في اليوم الأول من الشهر (دوزو) يونيه فقد رأينا القمر يقطع السماء فوق (نابو) عطارد الذي أرسلت إلى سيدي الملك فيما سلف خلاصة بحثي عنه][1].

ويقول غوستاف ليبون : [ومما لا شك فيه أن الكلدانيين والإغريق من بعدهم يرتدون بأبحاثهم الفلكية إلى (٤٧٠،٠٠٠) عام قبل التاريخ ، ونحن لا يمكننا إلى الآن التسليم بهذا الرقم الخرافي. والتاريخ الوحيد الذي نعرفه يقينًا هو تاريخ سرجون القديم الذي يرجع إلى سنة ٣٨٠٠ ق.م][2].

فلقد كان البابليون يعلمون أن السنة الشمسية ٣٦٥ يومًا وربع يوم؛ ولكنهم في أحوالهم المدنية كانوا يعمدون إلى السنة المركبة من اثني عشر شهرًا قمريًّا حيث يكملونها في أوقات ثابتة بشهر إضافي.

ومن بعد الشعب البابلي أخذت كل أمة تنظم توقيتها الزمني مبتدئة تاريخها بأهم أحداثها. وما زال العرب داخل صحرائهم إلى ما قبل الهجرة النبوية يؤرخون بأشهر الأحداث التي مرت بهم كعام الفيل وحرب الفجار.

---

(١) بابل وآشور ص٥٤، ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ص٥٥ .

وعلى أساس التوقيت البابلي أخذت الدراسات الفلكية تسير بعلم الفلك من مرحلة إلى أخرى حتى بلغت به إلى ما هو عليه اليوم وما زالت تسير في طريق البحث والمعرفة.

٢- ثم أصبحت كلمة (تاريخ) تعني تسجيل الأحداث : سياسية واجتماعية واقتصادية إلى غير ذلك من نواحي الحياة البشرية، وأصبحت المكتبات العلمية مليئة بالبحوث التاريخية التي عني مؤلفوها بأحداث الزمن الطويل : تسجيلاً ودراسة وتحقيقًا، فتقصى تسجيلهم ونقاشهم جوانب الحياة التي مرت بالإنسان منذ عهوده القديمة.

ولقد حرص المتأخرون على ألا يتركوا خلفهم تراثًا من المعلومات مشوشًا مضطربًا كالتراث الذي ورثوه عن أسلافهم. وهذا هو التطور الذي نشاهده اليوم في البحوث التاريخية، وليته يسلم من المؤثرات، وليت المؤرخين جميعهم يحافظون على أمانة التاريخ، فلا يؤثر عليهم إغراء ذوي النفوذ والسلطان، وليت كل مؤرخ يقدر مسئولية التاريخ، فيحرص على أن يكون التاريخ - الذي يقدمه للأجيال - سجلا سليمًا من تضليل الدعاية وتبرير الأغلاط والأغراض التي تسود عالمنا اليوم، وبالذات العالم العربي الذي يتجاذبه التطرف والجمود.

فإن كان المؤرخ بمعناه المتداول بالأمس هو : المسجل للأحداث ، فقد أصبح اليوم المحقق الذي يهمه إبراز الأحداث على حقيقتها لا يشوبها الغرض والتهويش، وإن كان التاريخ بمعناه الكامل يعني البحث في مراحل الحياة التي اجتازتها عوالم هذه الأرض في طريق تطورها، وتحقيق الأحداث التي مرت بها الإنسانية عصرًا بعد عصر، فأقامت عوالم وأطاحت بآخرين، وأنشأت حضارة على إثر حضارة، فإن البحث في الحياة البشرية وتطور الإنسان من عصره الحجري إلى عصره الذري هو من أهم موضوعات التاريخ العام وأكثرها عقدًا - وإذا كانت البلاد العربية التي تعددت مصادر تاريخها، هي جزءاً من أرض الله الواسعة؛ فإن هذا الجزء هو من أهم أجزاء الأرض وأقدمها تاريخًا وحضارة وأخطرها أحداثًا؛ ففيه أينعت أولى حضارة الإنسان، ومنه

أشرقت المبادئ المصلحة التي كان لها الفضل في تحديد الاتجاهات البشرية وتقويمها من بداية تطورها؛ وإذا كان هذا الجزء من الأرض في عصرنا الحاضر مجالاً واسعًا للاقتصاد العالمي تمخر عباب بحاره السفن التجارية، ويصدر عن أرضه البترول، فكذلك كان من قبل مجالاً واسعًا لاقتصاد عوالم العصور الغابرة تجوب فيافيه القوافل التجارية ويصدر من أرضه النحاس والذهب والبخور والأخشاب.

فبلاد هذه مكانتها المعنوية، وهذه قيمتها الاقتصادية لابد أن يكون لها تاريخ حافل بكل ألوان الحياة وضروب الأحداث من أقدم الدهور.

ولئن اختلفت أقوال المؤرخين في بداية التاريخ العربي، فلقد اتفقت كلمتهم على تقسيم تاريخ العرب إلى قسمين: تاريخ أسطوري، وتاريخ حقيقي. وإذا كان الخلاف شمل قسمًا كبيرًا من ا لتاريخ الحقيقي، فإن الخلاف في أنباء التاريخ الأسطوري أبعد مدى وأوسع مجالاً ولا سيما بعد أن تعددت مصادر التاريخ الأسطوري بما أظهره البحث عن الآثار وبما وصلت إليه دراسات علماء الجيولوجية.

٣- وإن من أعقد مسائل التاريخ الأسطوري تحديد الزمن؛ فلقد كان التحديد الزمني الذي يعتبر اليوم من أوليات المعلومات التي يعرفها الطفل الناشئ من أصعب المسائل التي لم يصل إلى حلها الإنسان إلا بعد جهد وطول تفكير. فلم يصل الإنسان إلى تحديد الزمن بهذه المواقيت التي تعين لنا الفواصل الزمنية بين الأجيال، ونعرف بها كَمْ مرَّ من عمر الزمن الطويل، إلا بعد تفكير عميق وملاحظة دقيقة. ولم يصل الإنسان إلى تحرير هذه المواقيت وتنظيم حسابها سنين وأشهرًا وأسابيع وساعات ودقائق وثواني، إلا بعد تجارب قامت على أساس نظريات تتبعت التقلبات الجوية حسب مطالع الشمس، وتتبعت الشمس من مطلعها إلى مغربها، وتتبعت القمر كيف يبدو هلالاً ثم يعود كما بدأ.

فمع تطور الحضارة البشرية تطور حساب الفلكيين، وأخذ يتركز على قواعد صحيحة وتحديد دقيق. ومع تطور الحساب الفلكي تطور تقدير المؤرخين لعمر الزمن، وتحديد أزمنة الأجيال والدول . ومن الطبيعي أن يكون هناك اختلاف في حساب المؤرخين يقل ويكثر تبعًا لاختلاف المقاييس التي يعتمد عليها كل واحد منهم. فنحن اليوم لا نزال نلمس فرقًا بين التاريخ الإسلامي الهجري وبين التاريخ المسيحي الميلادي؛ فإذا كان الفرق بين السنة الهجرية والسنة الميلادية يبلغ أحد عشر يومًا، فقد يكون هناك فرق في تحديد المواقيت بين الفلكيين في عهد "حمورابي" البابلي وبين الفلكيين في عهد الإسكندر المقدوني. فإن تعدد التوقيت عند الكلدانيين حسب الأغراض التي حررت لها مواقيتها، يرجح الظن في وجود تفاوت في تحديد الزمن عند الشعوب[1]

لذلك فإن من لوازم البحث في التاريخ العربي القديم إلقاء نظرة عابرة على عهود ما قبل التاريخ؛ لعلنا نعرف من أين بدأ التاريخ؟ وكيف بدأ؟ ومتى بدأ؟ وعلى ذلك فإن علينا أن نستعرض ما قيل عن آدم عليه السلام وعن خلفائه قبل الطوفان، فقد نجد فيما جمعه لنا المتقدمون ما ينير لنا بعضًا من جوانب ذلك الماضي المجلل بالأساطير الخيالية، ويكشف لنا شيئًا عن أممه وعصورهم. والله المستعان.

---

(١) راجع فصل : دول ما قبل التاريخ في الشرق العربي وسني حكمهم، في هذا الجزء.

البحث الثاني

بداية الإنسان : آدم وخلفاؤه

من موضوعات البحث :

١- هل آدم أول من سكن الأرض ؟

٢- أين جنة آدم ؟

٣- حضارة ما قبل الطوفان في المصادر العربية.

٤- الآثار تؤكد حضارة ما قبل الطوفان .

٥- اعتراف المستشرقين بقصة الطوفان .

بداية الإنسان : آدم وخلفاؤه

ليس من المستغرب أن تتباين الاستنتاجات في تاريخ غارق في القدم لم تتحدث عنه الكتب المقدسة؛ إلا بقدر ما تدعو إليه الموعظة من حياة الأولين، ولم تصل إلى كل آثاره معاول المنقبين التي ما زالت تبحث وتنقب.

١ - فمن الطبيعي : أن يختلف استنتاج الذين آمنوا بما جاء في الكتب المقدسة في بحوثهم عن بداية العالم الأرضي، وهل كان آدم هو أول من سكن الأرض؟ أو كان قبل آدم عالم يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ .. وفي الجنة التي هبط منها آدم بعد أن أكل هو وزوجه من الشجرة ليكونا ملكين أو يكونا من الخالدين. هل هي الفردوس الأرضي الذي لا خلد فيه، ولذلك حرص آدم وزوجه على أن يأكلا من الشجرة ليكونا من الخالدين؟ أو أنها جنة خلقها الله لآدم بين السماء والأرض حاولت الملكة الأسطورية (سميراميس)[1] أن تضاهيها بجناتها المعلقة؟ ... أو هي جنة الخلد قدر الله لآدم وزوجه ألا يخلدا فيها فأزلهما الشيطان ووسوست لهما النفس فأكلا من الشجرة التي نهيا عنها؟

٢ - لقد تفرقت الآراء بالباحثين فيما ورد عن آدم، وزوجه، وجنته فاعتنق كل فريق رأيًا من هذه الآراء التي مرت بنا. ولعل الذين يقولون بأن جنة آدم من جنات

---

(١) يعتقد الكثير أن (سميراميس) وقصتها من نسج الخيال. ومن رأيي كما ترى في الفصول الآتية أن أكثر القصص التاريخية الخيالية لا بد أن يكون فيها شيء من الحقيقة وقد بحثت في فصل القصص القرآني عن معنى الأساطير، وأن الأساطير تؤدي معنى الخيال القصصي وتؤدي معنى ما سطر أي كتب.

الدنيا: يفسرون الهبوط بأنه هبوط معنوي من الحياة الروحية إلى الحياة المادية، فـ ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [1][2].

ويرجح رأي الذين قالوا: إن جنة آدم هي من جنان الأرض التي حرم أهلها من الخلود، حرص آدم على الأكل من الشجرة ليكون من الخالدين.

ومن الطبيعي: أن تختلف بحوث علماء الجيولوجية، ومحققي تاريخ الجنس البشري، وتختلف نظرياتهم في الإنسان البدائي الذي لم يعرف كيف يستفيد من مواهبه الإنسانية؛ إلا بعد مراحل طويلة وتجارب مريرة، مثلما اختلف الذين آمنوا بالكتب المنزلة في فهم ما جاء عن آدم، وفي فهم ما وصل إليهم عن عالم ما قبل التاريخ. فلقد تفرقت النظريات المبنية على تطور العقلية والمعارف بهؤلاء كما تفرق الاجتهاد بمن سبقهم.

ولقد حاول البعض التوفيق بين آراء المفسرين والمؤرخين والجيولوجيين فقال: إن العالم الأرضي عندما أصبح صالحًا لإنشاء الحضارة الإنسانية خلق الله آدم خليفة في الأرض يهدي إلى الطريق القويم، فافترض الملائكة في آدم أن يكون كغيره من سكان الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء شأن الأقوياء في الأدغال. فعلى ذلك فإن آدم ليس هو أول من سكن الأرض، بل هناك عوالم سبقته إلى هذه الأرض لم يصل البحث إلى معرفة عنصرها، فكل ما يعرف عنها: أنها ذات دماء تسفك، وأن منها ذا خلق شرس ظالمًا شريرًا.

---

(١) سورة الأعراف: الآية: ٢٢.

(٢) راجع تفسير الطبري والنيسابوري وابن كثير في تفسير الآيات التي تحدثت عن آدم. فمن الذين يقولون: إن جنة آدم من جنات الدنيا: أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصفهاني. ويرى الأستاذ فريد وجدي أن الهبوط ليس معناه النزول من السماء على الأرض، ويستشهد بقوله تعالى ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ [البقرة/٦١] دائرة المعارف مادة آدم. ولقد سردت دائرة المعارف الإسلامية ما قالته المصادر العربية والإسرائيلية وقالت أخيرًا: (وتتفق هذه الأخبار المختلفة مع ما ورد في القصص السريانية) مادة آدم.

٣- ثم يأتي من بعد آدم خلفاؤه قادة الإنسانية الأولون وأبرزهم في تاريخ الشرق الأدنى إدريس عليه السلام[١] . ففي تاريخ إدريس تتوسع روايات المفسرين عن عصر إدريس والشريعة التي كان يدعو لها ، وعن الحياة التي كان يعيشها ، وعن رحلته من بلاد ما بين النهرين - العراق - إلى بلاد النهر الكبير - مصر - فيروون قصصًا عن العالم الذي عاش إدريس بين ظهرانيه ، وما وصل إليه من عمران يتمثل في مئة وثمانين مدينة أنشئت في زمنه ، وما بلغه من ثقافة تتمثل في اثنتين وسبعين لغة كانت أمم ما قبل الطوفان تتكلم بها[٢] من "بابليون" إلى "بابل"[٣] .

ويقول ياقوت الحموي : إن (نينوى) هي مدينة إدريس[٤] وجاء في تاريخ ابن خلدون: [وليس لدينا من أخبار آدم وذريته إلا ما وقع في المصحف الكريم : وهو معروف بين الأئمة ، واتفقوا على أن الأرض عمرت بنسله أجيالاً بعد أجيال إلى عصر نوح عليه السلام وأنه كان فيهم أنبياء مثل : (شيث)[٥] و(إدريس) وملوك في تلك الأجيال معدودون وطوائف مشهورون بالنحل ... مثل الكلدانيين ومعناه الموحدون ، ومثل السريانيين وهم المشركون. وزعموا أن أمم الصابئة منهم. وأنهم من ولد "صابئ بن لمك بن أخنوخ" إدريس وكان نحلتهم في الكواكب والقيام لها واستنزال روحانيتها. وأن من حزبهم الكلدانيين أي : الموحدين. وقد ألف (أبو إسحق الصابئ) الكاتب مقالة في أنسابهم ونحلتهم. وذكر

(١) إدريس هو تعريب (أخنوخ) الذي ذكر في التوراة ويعزى إليه سفر لم تثبته الكنيسة الكاثوليكية بين الأسفار - راجع التاريخ السوري للدبس ٦١/١ .

(٢) بحثت دائرة المعارف الإسلامية في الأقوال التي وردت عن إدريس والشكوك التي تحوم حول تلك الأقوال - راجع مادة إدريس.

(٣) بابل معناها النهر في اللغة السريانية وبابليون اسم مركب في السريانية من بابل النهر وبون الكبير أي النهر الكبير .

(٤) لم يأت ياقوت بدليل يثبت قوله أن نينوى مدينة إدريس . راجع المعجم.

(٥) اسم (شيث) معناه عطية الله .

أخبارهم أيضًا (داهر) مؤرخ السريانيين، و(البابا الصابئ) الحراني وذكروا استيلاءهم على العالم وجملاً من نواميسهم وقد اندرسوا وانقطع أثرهم][1] .

٤- ولقد أثبت البحث الأثري الكثير مما اتفق عليه الأئمة، وأكد الكثير مما هو في رأي ابن خلدون زعم لا أكثر ولا أقل؛ ففي كتاب قصة الحضارة بحث طريف يؤكد الأثريون فيه : أن أرض بابل حفلت بحضارة ذهبية في عصور ما قبل الطوفان[2] . وكذلك مؤلف كتاب "بلاد ما بين النهرين" يؤكد : وجود حضارة قديمة في العراق وسوريا وشواطئ الخليج العربية، وفي قلب الجزيرة، كما أكدها مؤلف كتاب قصة الحضارة. وسيأتي الكلام عن قدم الحضارة في قلب البلاد العربية.

وكذلك أسهب الإخباريون وتحدث الأثريون في قصة (نوح) عليه السلام وبحثوا عن عالم ما قبل الطوفان، وعن مساكن قوم نوح على شواطئ الفرات ودجلة، واختلاف سحن الذين كانوا يعيشون على سفوح الجبال عن سحن الذين كانوا يعيشون على ضفاف الأنهار، وعما كان عليه قوم نوح من حضارة غالى بعضهم في تقديرها فاستنتج مما قيل عن التنور وفورانه فقال : إن الإنسان على عهد نوح استخدم السفن البخارية !!

٥- ثم تأتي قصة الطوفان، وقصة الطوفان بالأمس كانت كما يؤكد ابن خلدون غير معروفة في غير تاريخ الجزيرة العربية : [واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط][3] ، أما اليوم فقصة الطوفان كما يؤكد (المطران الدبس) : تقول بها غالبية الأديان. فالهندوكيون يعتقدون : أن (مانو) هو نوح الذي نجّت السمكة سفينته . والصينيون يعتقدون : أن (فحّا) هو الذي نجا من

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ١/٥ طبعة النهضة بمصر.

(٢) راجع الفصلين الأول والثاني من الجزء الثاني من كتاب **قصة الحضارة**.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١/٧ .

الطوفان العظيم. ويعتقد الإيرانيون : أن (إيما) هو صاحب السفينة . وفي اعتقاد اليونانيين : أن (دَ كليون) هو نوح الذي لم يغرق في الطوفان[1] .

أجل ! ... لقد ظلت قصة الطوفان في رأي الكثير أسطورة من أساطير ما قبل التاريخ الخيالية إلى أن أخذت البحوث الجيولوجية من جهة والبحوث الأثرية من جهة أخرى تعترف بقصة الطوفان، فآمن به أكثر من كان يساوره الشك فيه، وانصرفت الأبحاث تهتم بما يقال عنه، وهل هو أول طوفان سلطه الله على البشرية المتمردة؟ أو دهم البشرية أكثر من طوفان واحد؟ فالبعض يتمسك بنظريات علماء الجيولوجية التي تقول بأن طوفان نوح لم يكن أول طوفان منيت به البشرية، والتي تستشهد بما وصل إليه التحقيق المبني على تحليل عظام حيوانات مائية عثر عليها في رؤوس الجبال، وتؤكد : أن آثار طوفان وجدت في أمريكا.

والذي يهمنا من قصة الطوفان في هذا البحث هو : النتائج التي ترتبت على ذلك الطوفان، فمما لا شك فيه : أن طوفان نوح قد أثر بنوع خاص على البلاد العربية وقلب أوضاعها، وأن عصر ما بعد الطوفان يعتبر بداية حياة جديدة استأنفها الإنسان في البلاد العربية.

---

(١) تاريخ سوريا للدبس ٨٨/١ ، وراجع تعليقات شكيب أرسلان على تاريخ ابن خلدون ١ مجلد ٢ ص٤٥.

البحث الثالث

قلب البلاد العربية : المهد الأول للإنسان وحضارته

من موضوعات البحث :

١- من هم شعوب الجزيرة العربية قبل الطوفان ؟

٢- العنصرية لم تتبلور إلا بعد الطوفان .

٣- الإنسان في قلب الجزيرة تجاوز الحياة البدائية من قبل الطوفان.

٤- في قلب الجزيرة نشأت الحضارة الأولى.



قلب البلاد العربية : المهد الأول للإنسان وحضارته

١- تحدث المؤرخون القدامى عن عالم ما قبل الطوفان : عن بني "شيث" وبني "قابيل" وكيف اختلط العنصران؟ وكيف كثر بنو قابيل فملكوا الأرض؟ وكيف كفروا بأنعم الله فأغرقهم الله بالطوفان؟ وتحدث المؤرخون الذين جاءوا من بعدهم عن أنسابهم. ونقلوا ما قاله نسابو الفرس عن أجدادهم وأن آدم هو : (كيومرث) الذي إليه ينتهي نسب الفرس. وأن (أفريدون) الملك في آبائهم هو : نوح، وأنه بعث لازدهاق وهو "الضحاك" فسلبه الملك وغلبه[1] . ونقلوا ما قاله نسابو العرب مما تجده مفصلاً في الجزء الخاص بجغرافية البلاد العربية من هذا الكتاب.

٢- ويرى الطبري : أن الجاهلية الأولى المعنية في قوله تعالى : ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾[2] هي : جاهلية ما قبل الطوفان. وجاهلية ما قبل الطوفان لم يعن بها غير قلة من المؤرخين لم تصل بهم بحوثهم القصيرة وتحقيقها المختصر في أجناس قوم نوح ومن سبقهم إلى غير اختلاف سحنتهم، وإلى أنهم من عنصرين شيثي وقابيلي. أما الأجناس البشرية فلم تحقق عنصريتها إلا بعد نوح. فبعد نوح عرفت السامية، والحامية، والآرية إلى غيرها من عناصر الشعوب. وفي الجزء الخاص بجغرافية البلاد العربية القديمة من هذا الكتاب بحثان في تاريخ كلمتي : عربي وسامي : الأولى عن اسم العرب الذي عرفت به هذه الجزيرة أو شبه الجزيرة والثاني : في مدلول الكلمتين : سامي وعربي وأنهما اسم لأمة واحدة. وأن الفرق بينهما ينحصر في هذه الحقيقة التي أثبتها البحث هناك: أن كل سامي عربي بعنصره. وليس كل عربي ساميًا بعنصره. حيث

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٧ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٣ .

وجدت شعوب اعتبرت عربية بتقادم عهدها في البلاد العربية. واختلاط دمائها بالعرب فهي عربية جنسًا لا عنصرًا. وكذلك قد تكون هناك شعوب عربية تجنست بغير جنسيتها، فأصبحت في عداد الأمم التي اختلطت بهم، وأن السامية اصطلاح محدث أطلقه العالم (شلاستر سنة ١٧٨١ ب.م)[١].

أما هنا فليس للبحث في كلمتي: السامية والعربية مكان.

٣- ولقد ظلت الجاهلية الأولى على رأي الطبري وحكايات ما قبل الطوفان في نظر محققي التاريخ القديم إلى منتصف القرن التاسع عشر، لا تعدو القصص الخيالية التي لا محل لها في دراسة التاريخ البشري. ولقد ظلت أخبار ما قبل الطوفان مزاعم تحدث عنها ضعاف الإخباريين كما ألمح إلى ذلك ابن خلدون، إلى أن ظهرت في مجال البحوث التاريخية نتائج الكشف الأثري، ونظريات العلم الجيولوجي، فأخذت كل من هذه وتلك تؤيد الكثير مما قاله المؤرخون المتقدمون من: يونانيين، وفرس، وإسرائيليين، وعرب عن عالم ما قبل الطوفان، وتصحح كثيرًا من الخيال الذي صور ذلك العالم خاضعًا للجن. فالجن كانوا في رأي أولئك المؤرخين يشاركون الإنس في كل شيء حفلت به الحياة. وأخذ محققو التاريخ منذ نهاية القرن التاسع عشر ينشرون الفينة بعد الفينة: بحوثًا عن الماضي تتفق في أكثر من موضوع مع ما قاله المؤرخون السابقون. فلقد أثبتت البحوث التي عقدها "غوستاف ليبون" في كتابه "حضارة بابل وآشور" والبحوث التي عقدها (ل. ديلابورت) في كتابه "بلاد ما بين النهرين" أن سكان أرض الرافدين كانوا خليطًا من مجموعة عناصر لكل عنصر ملامحه التي تميزه عن غيره، وأن من تلك الملامح ما يشبه سكان القوقاز، ومنها ما يشبه سكان الخليج العربي. وهذا يشبه ما قاله المؤرخون العرب عن سكان العراق قبل الطوفان، وعن اختلاف صور الجبليين عن صور السهليين وعن الكلدانيين الموحدين والسريانيين المشركين وأنسابهم بعد الطوفان.

---

(١) راجع موسوعة التاريخ العام ١/٥٣ وتاريخ اللغات السامية لولفنسون ص٢.

وكما بعدت أقوال أولئك المؤرخين القدامى بسكان العراق إلى ما قبل الطوفان، إلى آدم وزوجه حواء وجنتهما التي كانت بأرض بابل في رأي البعض وإلى أن أرض بابل هي وطن نوح كما يؤكد الكثيرون، كذلك تجاوزت ظنون هؤلاء المؤرخين المحدثين إلى عصور ما قبل الطوفان، فمدوا تاريخ السوموريين إلى ما قبل الطوفان معتمدين على دراسة الآثار التي ظهر عليها ما يشير إلى ملوك سومورييين يرجع تاريخهم إلى أسر ما قبل الطوفان. ولقد استدل علماء الجيولوجية بما وجدوه في أعماق أرض بابل من مخلفات العصور السحيقة، على وجود حضارة قامت قبل الطوفان اعتبرت العصر الذهبي لتلك البلاد[1]. وهذا يشبه ما قاله المؤرخون الإسلاميون عن مدن إدريس وحضارة قوم إدريس.

وإذا كانت البحوث الأثرية والبحوث الجيولوجية المتأخرة قد أثبتت حضارة في بابل قبل الطوفان، وأثبتت حضارة في مصر قبل الميلاد بأكثر من أربعة آلاف عام، فإن القرآن الكريم أشار إلى تلك الحضارة فيما قصه علينا عن عقلية قوم نوح، وجدلهم الذي لا يصدر إلا عن فهم تجاوز طور السذاجة الفطرية والحياة البدائية، ألزم أن يفكر في خلق السموات والأرض.

وفيما قصه علينا عن حياة قوم نوح الذين استخدموا الحيوانات، وطحنوا القمح وعجنوه وخبزوه في التنور.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ۞ وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً ۞ لِتَسْلُكُوا مِنهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾[2].

---

(١) قصة الحضارة ص ٢/١٦ .

(٢) سورة نوح ، الآية ١٥ وما بعدها .

٤- وإذا كنا نجد في بحوث الأثريين ما يؤكد حضارة العراق ومصر في عصور ما قبل الطوفان؛ فإننا نجد كذلك بحوثًا تؤكد :أن قلب البلاد العربية وجنوبها كانا أسبق إلى الحضارة من العراق ومصر. فلقد أكد (شوينفرت) أن زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب وبلاد اليمن ومنها انتشرت إلى الفرات والنيل[1] واستنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة هي الخطوة الأولى في طريق الحضارة. ويقول "ديورانت"[2] : إن السوموريين كانوا يستوردون النحاس والأخشاب من البلاد العربية من أقدم العصور . واستخراج النحاس من بطن الأرض، والاتجار بالأخشاب لم يصل إليهما الإنسان إلا بعد عمر طويل قضاه في الحضارة.

وإذا كنا نرى المؤرخين اليوم: يذكرون بكثير من الاهتمام ما يقال عن القارة التي تنام في قاع المحيط الأطلسي من آيسلندا شمالاً إلى القطب الجنوبي، ويتخذون منه دليلاً على المدنيات المفقودة، فيبعثون من جديد نظرية أفلاطون التي تتحدث عن قارة محاطة بالماء بين أوربا وآسيا ضاعت بين عشية وضحاها، فإننا نرى المؤرخين اليوم يذكرون كذلك بكثير من الاهتمام ما يقال عن أنهار قلب الجزيرة التي كانت تنساب في هذه الوديان الماحلة فتجعل منها مصدر خير وبركة، ويبعثون من جديد أقوال المؤرخين العرب الذين تحدثوا عن خصب الحجاز فقالوا :كان أكثر بلاد الله أشجارًا وماء.

وإذا كنا نرى البحوث العلمية : قد أخذت طابع الجدية عندما تتكلم عن مدنيات ما قبل التاريخ في العراق، وفي سوريا، وفي مصر، فها نحن أولاء نرى كثيرًا من البحوث

---

(١) **قصة الحضارة** لمؤلفه (و. ل. ديوارنت ٢/ ٤٣).

(٢) يعرف الدكتور حسين مؤنس في هامش كتاب **العرب قبل الإسلام** لجرجي زيدان ص ٥٧ : السوموريين بأنهم جنس هندي أوربي أقبل من قلب آسيا . والكثير غير الدكتور حسين مؤنس يرون: أن السوموريين هم أنفسهم لا يعرفون شيئًا عن أصلهم ولا عن وطنهم الأول؛ لأن انتقالهم من وطنهم الأول إلى العراق استغرق أجيالاً طويلة أنستهم وطنهم وكل صلة به.

الجدية تناولت التاريخ القديم في جنوب الجزيرة وشرقها مستضيئة بما كشفته حفريات الأثريين في اليمن، وبما عثر عليه الرواد في "نجد" و"العروض"[1] من آثار الإنسان في عصره الحجري، وما عثروا عليه في "عمان" من آثار الحضارة في العصر النحاسي، وما عثروا عليه في "وادي القرى" من آثار القصور التي شيدها قوم عاد في كل ريع، ونحتها قوم ثمود في بطون الجبال في عصور النحت والبناء. فلقد جاء في كتاب روح الحضارة العربية: [أن اكتشاف "دوثي" بعض الأدوات المتخلفة من العصر الحجري الجديد في أقصى شمال بلاد العرب، واكتشاف "برترام توبس" لأخرى غيرها من ذلك العصر نفسه في الجنوب يدل على أن وجود الإنسان ببلاد العرب منذ عهد متقدم جدًا. وإن كان لا يعلم حتى الآن متى وجد؟ وما مقدار المساحة التي استوطنها؟ وما هو نوع الحضارة التي أنشأها؟][2] .

ولا ينفرد "دوثي" و"برترام توبس" بهذه النتيجة التي تثبت: أن الإنسان عاش في "نجد" وفي غير نجد من شبه الجزيرة منذ العصور الحجرية، وأنه أشعل قبس الحضارة عندما كان الحجاز أكثر بلاد الله أشجارًا، وعندما كانت الأنهار تروي صحاريها في تلك الأزمنة الجليدية التي جثم الجليد فيها على جنوب أوربا، وعلى شمال الشرق الأدنى[3]. فهناك من يقول: إن العربي في قلب الجزيرة وجنوبها كان السابق لاستنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة، كما كان السابق لعبادة الإله في جوار بيت الله. فأرض الجزيرة هي بلاد الآلهة كما كان يقول قدماء المصريين. ومكة: أقدم معبد وأشرفه كما كان يؤكد قدامى اليونانيين من قبل الميلاد. ومن أرض الجزيرة كان يصدر النحاس، والذهب، والخشب، والبخور، كما يؤكد ذلك الأثريون حدثاء وقدامى، والمستشرقون خصومًا للعرب والأديان، وأصدقاء لهم ولها.

(١) **العروض**: الأرض الممتدة على الخليج العربي مثل تهامة الممتدة على البحر الأحمر. راجع الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة العربية القديمة من هذا الكتاب.

(٢) **روح الحضارة** لمؤلفه - شيدر - ص١٢٧، ١٢٨.

(٣) راجع البحث في حضارة قلب الجزيرة بعنوان: "**معالم الدولة والمجتمع**" في هذا الجزء من هذا الكتاب.

إذا كنا نرى كل ذلك ونسمعه فما الذي يدعونا لأن نتجاهل خصب الجزيرة العربية وثروتها الزراعية التي حدثنا عنها القرآن الكريم .

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾[1].

وما لنا نذهب مع الشكوك فلا نذكر من تاريخ الجزيرة العربية القديم غير الجانب القاحل الغارق في الجهل والفقر والوحشية؟

إذا كنا نرى كل ذلك ونسمعه فما الذي يدعونا لأن نتجاهل حضارة البلاد العربية، ونكذب ما قاله المؤرخون العرب عن ثروة الجزيرة وحضارتها ودولها ذات الأبهة والسلطان الكبير[2]، ولا نكترث بما قيل عن البيت الحرام، وعن قوم هود، وقوم صالح، وأصحاب مدين، وما قيل عن إدريس ومن عاش في عصره، ولا نهتم بما يقوله المؤرخون المتأخرون عن أسبقية قلب الجزيرة وجنوبها إلى زراعة الحبوب وتربية المواشي في قلب الجزيرة وجنوبها، وعن قدم التعدين في عمان وفي اليمامة، وقدم الأسواق التجارية في كثير من البلدان العربية؟

لماذا لا نأخذ بشيء من الاعتبار روايات المؤرخين الذين يقولون: إن آدم وضع أساس البيت الحرام، وأن خلفاءه من بعده رفعوا على ذلك الأساس البناء. ويقولون: إن آدم سكن مكة وَعَبَدَ الله عند بيته الحرام؟ ... فمن هؤلاء الذين يقولون بذلك؟ ابن عباس. ومن الذين أثبتوا هذه الروايات؟ ابن جرير الطبري[3]. فآدم الذي علمه الله

(١) سورة الأنعام، الآية : ٦ .

(٢) يراجع الجزء الخاص بدول شبه الجزيرة العربية وسياستها من هذا الكتاب.

(٣) تاريخ الطبري ١/٨٨ وتاريخ الإعلام بأعلام البيت الحرام ص٣٤.

الأسماء كلها لا أظنه يجهل الوادي الذي اختاره الله لبيته، ولا أظنه يفضل عليه واديًا على وجه هذه الغبراء فيتخذه وطنًا له.

فنحن إذا ما ربطنا ما جاء في كتاب قصة الحضارة عن سكان قلب الجزيرة وجنوبها، وأنهم سبقوا سكان الواديين الفرات والنيل في استنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة[1]، بما جاء في تفسير الطبري: إن آدم أمر بحرث الأرض لاستنبات الحبوب[2]، يطالعنا شيء من الحقائق المبنية عليها روايات المؤرخين القدامى.

ونحن وقد أخذنا بقول الذين يؤكدون: أن أرض الحجاز ونجد كانت في العصور الثلجية أطيب مناخًا من الأرض التي تغطيها الثلوج، ومن الأرض التي تجاورها جبال الثلوج - لا نستكثر على قلب الجزيرة الأسبقية إلى الحضارة، وإذا كان مؤلفو تاريخنا لم يقدموا الأدلة المادية على ما يروونه، فكذلك المرتابون في تاريخنا القديم ومصادره لم يقدموا الأدلة المادية التي تثبت شكهم وريبتهم، بل هم على العكس قد اعترفوا بخطئهم في كثير من شكوكهم. ولقد قال (ديتلف نيلسن): (ولولا هذه الآثار ما استطعنا إدراك كنه ما جاءنا في المصادر العربية وما يحدثنا به العرب عن اليمن وحكامها، أبراجها وقصورها)[3].

والذين كانوا لا يصدقون بما جاء في القرآن الكريم عن عاد وثمود؛ لأن عادًا وثمود لم يذكرا في التوراة، ولم يذكرا في المصادر اليونانية عادوا أخيرًا مصدقين بوجود قوم عاد وقوم ثمود وبحضاراتهم، ومؤكدين باقتناع: أن وادي القرى واليمامة وسواحل الخليج العربي قد كان كل بلد من هذه الأرض يزهو بحضارات قديمة كان بعضها في

---

(١) قصة الحضارة ٢/٤٣.

(٢) تفسير الطبري ٨/٤٢.

(٣) التاريخ العربي القديم ص ٣٠.

طليعة حضارات الماضي البعيد ، وأن بناة هذه الحضارة التي زهت في عصور ما بعد الطوفان هم الإرميون ، والعماليق ، والكنعانيون؛ فهذه الشعوب هي التي أنشأت حضارات الساميين في العراق وفي سوريا ولبنان وفي مصر ، ولقد أكد مؤلف كتاب مصر من أقدم العصور[1] : أن أول هجرة للساميين الذين جاءوا من البلاد العربية وانتشروا في أرض النيل شمالها وشرقها ، الدلتا والصحراء العربية ونشروا اللغة السامية كانت قبل التاريخ : [أما تاريخ الهجرة السامية الأولى فيرجع بلا مراء إلى ما قبل العصور التاريخية المعروفة][2] .

فمحال أن تكون تلك النقوش وذلك النحت الثمودي في مدائن صالح أثرًا لحضارة حديثة العهد بالنسبة لحضارات الماضي القديم. إن ذلك النحت دليل مادي يشهد بآثار حضارة قديمة بدأت من أقدم العصور السامية ، كما يسميها المستشرقون ، بدأت من عصر (عاد) التي ورثت الأرض بعد قوم نوح والتي شيدت في كل ريع آية.

وليس خطأ في اعتقادي : أن يصدق الباحثون بما يقال عن الإنسان العربي وسبقه للحضارة في هذه الجزيرة العربية التي كانت في العصور الجليدية تتمتع بمناخ معتدل خصب. وإنما الخطأ أن تتسلط على أفكارنا الشعوبية فتشوه لنا الصورة الرائعة التي تمثل الجزيرة العربية في عصور الأنهار الجارية والمطر المدرار.

فما أضخم تراثنا القديم وما أقل الذي نعرفه عنه ...

---

(١) مصر من أقدم العصور ص١٨ .

(٢) لقد أثبت المحققون : أن الساميين هم العرب ، وأن الساميين جميعهم انتقلوا من قلب الجزيرة العربية إلى أطرافها وإلى شرق أفريقية الحبشة وما حولها وفي بحوث هذا الجزء الأدلة التي تظهر هذه الحقيقة التي اعترف بها المستشرقون واقتنع بها كتاب التاريخ القديم في القرن العشرين الميلادي مثل جرجي زيدان وفيليب حتي وجواد علي وغيرهم.

البحث الرابع

دول ما قبل التاريخ في الشرق العربي وسني حكمها

من موضوعات البحث :

١- كيف تأسست الدولة؟

٢- سني ما قبل التاريخ في تقدير الكلدانيين أصح من تقديرها في المصادر الإسرائيلية

٣- عدد السنين في جداول النصوص القديمة لا يعني الملوك وإنما يعني الدول.

٤- المجتمع العربي في قلب الجزيرة عرف الدولة من قبل التاريخ .

دول ما قبل التاريخ في الشرق العربي وسني حكمها

١- من المتفق عليه : أن الدولة فكرة سارت في طريق النشوء والارتقاء؛ بدأت باعتراف الأسرة بسلطة ربها الذي يعتبر أقوى أعضائها والمسئول الأول عن حمايتها وعن تأمين ضرورياتها. ثم سارت خطوة أخرى فتضافر أرباب الأسر على دفع المخاطر عنهم، وتعاونوا على حل ما يقابلهم من مشكلات، فبدأ بذلك عهد الجماعة الذي ما لبث أن تدرج إلى العرف القبلي؛ ولئن كفل العرف القبلي حقوق الفرد بعض الشيء فلقد عجز عن أن يحد من نزوات الأقوياء، فتطور العرف إلى نظام، وتطور الزعيم إلى ملك.

٢- وفي الملخص التاريخي الذي نظمه (ل. ديلابورت) في كتابه "بلاد ما بين النهرين" لتاريخ بابل. قدر (ل. ديلابورت) المدة التي استغرقها الإنسان في طريقه من الانفرادية إلى الدولة بنحو (٢٢٣،٢٠٠) سنة عنونها بزمن الفوضى، ثم أضاف إليها نقلاً عن (بروسوس) المؤرخ الكلداني الذي تحدث عن دول ما قبل التاريخ (٤٣٢،٠٠٠) سنة وضعها أمام عشرة ملوك حكموا قبل الطوفان، وحدد بعد الطوفان أزمنة للأسر التي حكمت في (أكدا) و (سومير) و (عيلام) و(كيش) و(الفرات الأوسط) و(أورك) وقال عن هذه الدول : إنها تسمى أسر التاريخ الأسطوري، ووضع لكل دولة عددًا من السنين ما عدا أسرتين: واحدة من دول كيش، والأخرى من دول أورك فكان مجموع السنين (٢٤،٨٢٤) ومن هذه الدول : أسرة لم تتجاوز سنيّها أكثر من سبعة أعوام، ومنها: أسرة بلغ عدد سني حكمها ٣٧٩٢ عامًا، وفي الإضافات والتصحيحات المذيل بها كتاب "ما بين النهرين" بحث عن وثيقتين محفوظتين في متحف (الأشموليان) توضح كل وثيقة اسم كل ملك من الملوك الذين حكموا قبل الطوفان، ومدة كل واحد منهم. ففي إحدى

الوثيقتين ذكرت أسماء عشرة ملوك حكموا في ست مدن خلال مدة قدرها (٤٥٦،٠٠٠) سنة. وفي الوثيقة الثانية ذكر ثمانية ملوك حكموا في خمس مدن ولم يتعد المجموع الإجمالي لسني حكم الملوك الثمانية أكثر من (٢٤١،٢٠٠)[١] .

ونظم جرجي زيدان في كتابه العرب قبل الإسلام : جدولاً بسني الملوك العشرة الذين حكموا قبل الطوفان. وبسني الدول التي سبقت العصر التاريخي حسب الرواية المنقولة عن (بروسوس) التي نقل عنها (ل. ديلابورت) حسبما تقدم، وعلق جرجي على ذلك الجدول الذي نظمه نقلاً عن بروسوس قائلاً : إن رواية بروسوس كانت موضع نقد المؤرخين لما فيها من مبالغات عن عصور ما قبل الطوفان، وإن ما يقال عن الدول التي سبقت دولة (مادى) يعتبر خرافة[٢] .

ودولة (مادى) في جدول جرجي زيدان تأتي بعد دول ما قبل الطوفان التي بلغ عدد ملوكها عشرة ملوك، وبلغت مدة حكمها (٤٣٢،٠٠٠)، وبعد الدول التي قامت بعد الطوفان والتي يبلغ عدد ملوكها (٨٦) ملكًا وتبلغ مدة حكمها (٣٤٠٨٠) سنة. ودولة مادى في جدول جرجي زيدان سبقت دولة الكلدان بقرون ظهرت في خلالها دول ضاعت أرقامها كما يقول جرجي زيدان. ودولة مادى في جدول جرجي زيدان حكمت ٢٢٤ سنة. وتأتي بعد دولة مادى دول أخرى قال عنها جرجي زيدان : لم يعرف عدد سنيها، ثم تأتي دولة الكلدان وعدد سني حكمها : ٤٥٨ ، ثم تأتي دولة العرب - الحمورابية.

إن ما جاء في كتاب بلاد ما بين النهرين، وما جاء في كتاب العرب قبل الإسلام عن بروسوس وروايته، وما جاء في وثيقتي الأشموليان يلزمنا أن نقف قليلاً عند رواية بروسوس التي تتفق كثيرًا مع وثيقتي الأشموليان وما جاء فيهما عن عدد السنين والملوك.

---

(١) راجع كتاب **بلاد ما بين النهرين** ص ٧٢، ٢٣ والإضافات والتصحيحات المذيل بها الكتاب .

(٢) **العرب قبل الإسلام** لجرجي زيدان ص٥٢.

فأولاً : إن بروسوس الذي توفي سنة ٣٠٠ ق.م. لم يكن أول مؤرخ عرفناه. فلقد سبقه (هيرودوتس) الذي توفي سنة ٤٠٦ق.م. والذي عرف بأنه أبوالتاريخ. و(ثيوفراست) الذي توفي سنة ٣١٢ق.م. وإن بروسوس الذي عاصر الإسكندر كان عالمًا باللغة اليونانية، فهو قد نقل تاريخ بلاده إليها. وإن بروسوس العليم باللغة اليونانية كانت له صلة بملوك ذلك العهد، وكان معتزًا بتاريخه فهو في رأيه يستحق أن يكون هدية يقدم إلى (أنطيوخوس) ملك سوريا.

ومن المحتمل : أن بروسوس لم يعتمد على ما جاء في التوراة عن عالم ما قبل التاريخ. بل كانت لديه مصادر أخرى لم نعرف عنها شيئًا؛ لأن كتابه قد ضاع، فما عرف عنه عرف من نصوص نقلها عنه المؤرخون في القرن الأول قبل الميلاد، فلعل من مصادره مؤرخين سبقوه وآثارًا كانت بارزة في عهده، فما جاء به بروسوس عن سني الدول يختلف عما جاء في التوراة عن عمر الإنسان في هذه الأرض.

ولقد تحمس الذين تمسكوا بالرواية الإسرائيلية التي تقول : إن عدد السنين التي تفصل بين آدم ونوح لا يزيد على بضعة وعشرين قرنًا وحاول بعضهم التوفيق بين رواية بروسوس، وبين ما جاء في الأسفار ومن هؤلاء: المطران الدبس الذي قال في كتابه تاريخ سوريا : إن التقويم الزمني عند الكلدانيين كان على قاعدتين :

١- حساب فلكي.

٢- حساب مدني.

وإن الوحدة الزمنية عند الكلدانيين في كلا الحسابين المدني والفلكي كانت تسمى (سار). ويحسب الكلدانيون للسار الفلكي : ثلاثة آلاف وستمائة سنة، ويحسبون للسار المدني : ثماني عشرة سنة وستة شهور قمرية. فالمئة والعشرون سارا تساوي كما يقول الدبس (٢٢٢٢) سنة.

ويرى الدبس : أن المؤرخ بروسوس الكلداني بنى تقديره للمدة التي حكم فيها ملوك ما قبل الطوفان على أساس التقليد البابلي الذي كان يقسم تلك المدة إلى مئة وعشرين قسمًا واعتبار كل قسم من المئة والعشرين قسمًا سارًا فلكيًا فيكون مجموع مدة حكم أولئك الملوك على هذا الاعتبار : (١٢٠×٣٦٠٠=٤٣٢،٠٠٠).

ويقول الدبس : لو أن بروسوس بنى حسابه على أساس السار المدني لكانت النتيجة هي : (٢٢٢٢) سنة ولما كان هناك خلاف يذكر بين جدول بروسوس، وبين الرواية الإسرائيلية[١] .

ويستشهد الدبس في كلامه بما قاله (سويداس) اليوناني عن السار، وإنني هنا أزيد استشهاد الدبس تأكيدًا بما قرأته في كتاب حضارة بابل وآشور لغوستاف ليبون عن حساب الزمن عند الكلدانيين فهم[٢] كانوا يعلمون : أن السنة الشمسية (٣٦٥¼) يومًا وربع اليوم، ولكنهم في أحوالهم المدنية كانوا يعمدون إلى السنة المركبة من اثني عشر شهرًا قمريًا، وأنهم كانوا يعتبرون الشهر أربعة أسابيع، ويضيفون في أوقات ثابتة شهرًا يتمم عدد أيام السنة وأن تقاويمهم متنوعة : فمنها ما هو خاص بالعبادات والأعياد المدنية. ومنها ما كان خاصًا بسير الفصول وشروق الكواكب وغروبها. ومنها ما يرجع إليه لمعرفة التغيرات الجوية وحالة الحاصلات وما يعتريها من الجدب والخصب، فعلى ذلك فإن دورة الفصول بالنسبة لشهور السنة القمرية والسنة الشمسية تستغرق ثماني عشرة سنة تقريبًا.

ولكن مع كل ما في محاولة المطران الدبس للتوفيق بين رواية التوراة، وبين ما نقل عن بروسوس من ملحوظات مفيدة، ومع ما قرأته في كتاب غوستاف ليبون (بابل

---

(١) راجع تاريخ سوريا للدبس ١/ ٦٧ .

(٢) بابل وآشور ص ٥٦ .

وآشور)، فإنني لا إخال بروسوس وهو المؤرخ الكلداني يلتبس عليه الفرق بين الحساب الفلكي والحساب المدني، فيقع في مثل هذا الخطأ. فبروسوس - كما يظهر مما قيل عنه - مؤرخ مطلع خول له عمله باللغة اليونانية أن يضيف إلى مصادره ما وصلت إليه مدرسة أرسطو من معارف.

وإنني لا أرى: أن مصادر التاريخ في عصر بروسوس هي هذه المصادر التي بين أيدينا. فلا شك في أن مصادر عصور ما قبل التاريخ في زمن ما قبل الميلاد هي أكثر مما وصل إلى المطران الدبس، وقد تكون أصح. فلقد أثبت البحث الجيولوجي صحة ما جاء في رواية بروسوس؛ ففي عدد يوليو سنة ١٩٥٩م من مجلة المختار بحث تحت عنوان (تاريخنا بالكربون) منقول عن مجلة الجغرافية القومية بقلم (ليمان برتجر) يؤكد جدول بروسوس إلى حد بعيد. فلقد جاء في هذا المقال: [تُرى كم عمر الأرض لقد كتب شكسبير في مسرحية (كما تريد) يقول: إن الأرض المسكينة عمرها حوالي ستة آلاف سنة ويبدو أن هذا الرأي كان يجد تأييدًا من الجهات الدينية في تلك الأيام التي لم تدم طويلاً. ففي حوالي سنة ١٩٠٠م حسب العالم الإيرلندي (جولي) عمر الأرض عن طريق قياس كمية الملح في المحيطات فقال: إنه لا بد من حوالي مئة مليون سنة حتى تستطيع الأنهار والقنوات صب هذا الملح في المحيطات. ثم جاءت الاكتشافات الجديدة الجيولوجية والنشاط الإشعاعي فأخذ العلماء الجيولوجيون في عام ١٩٣٠م يضاعفون تقدير جولي عشرين مرة، إذ أصبح الرأي السائد يؤكد: أن عمر الأرض حوالي مئتي مليون سنة، وفي وقت حديث قدر العلماء أكثر من ضعف هذا الرقم لعمر الأرض. ودلت التقديرات الجديدة التي عملت على أساس تآكل المواد المشعة في الصخور على أن نظامنا الشمسي بما فيه الأرض يبلغ حوالي (٤٥٠٠) مليون سنة "أربعة آلاف وخمسمائة مليون عام"!! أما الإنسان نفسه فلم يظهر إلا في نصف المليون عام الأخير من الزمن الجيولوجي].

٣- وكذلك أنا لا أعتقد أن بروسوس قصد في كلامه عن دول ما قبل الطوفان وملوكهم أن عشرة ملوك حكموا (٤٣٢،٠٠٠) عام؛ فمعنى ذلك أن كل ملك من أولئك الملوك حكم (٤٣،٢٠٠) سنة، فهذا ما يرفضه المنطق في كل جيل من الأجيال. ولقد وقع في مثل هذا الفهم كثير من مؤلفي التاريخ القديم. فنحن نسمع عن ملوك في اليمن وملوك في فارس حكم كل واحد منهم قرونًا عدة.

فأنا لا أستبعد أن يكون بروسوس وكل مصدر من مصادر التاريخ يشير إلى الأسر الملكية. أو إلى شعوب سادت مثل: الشعب العدناني، والشعب القحطاني اللذين سادا في جاهلية ما قبل الإسلام لا إلى أفراد عاشوا هذا الدهر الطويل.

فلقد تتابعت الأدلة تؤكد وجود شعوب سادت في عالم ما قبل الطوفان، فنحن إذا رجعنا إلى ما ورد في القرآن الكريم عن دعاء نوح:

﴿ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾[١] نجد الزمخشري يفسر هذه الآية بأن ودًّا، وسُواعا، ويغوث، ويعوق، ونسْرًا. هي: أسماء رجال صالحين من ولد آدم أغرى إبليس معشرهم بنحت صورهم تماثيل احترامًا لذكراهم، ثم تطور الاحترام إلى الاعتقاد بأن عبادتهم تقرب إلى الله. ونجد ابن جرير الطبري يقول عن قوم (نوح) ومن سبقه: إنهم أقاموا تماثيل لرجالاتهم البارزين عبدوها فيما بعد[٢]. ونجد يوسف الدبس ينقل لنا عن سفر التكوين: أن عهد إدريس كان بداية لتسمية المخلوقات آلهة[٣] ونجد (ل. ديلابورت) في كتابه بلاد ما بين النهرين يتحدث عن الأسطورة التي تحكي: أن أحد أمراء كيش (نسرا) البطل الآلهي رفع إلى السماء[٤].

(١) سورة نوح، الآية: ٢٣.

(٢) تفسير الطبري ٦٢/٢٩.

(٣) تاريخ سوريا ٥٩/١.

(٤) بلاد ما بين النهرين ص ٢٥ وتفسير الطبري ٩٩/٢٩.

نحن إذا ما رجعنا إلى كل ذلك يظهر لنا : أن أسماء الزعماء الذين أسسوا الدول كانت في الماضي القديم تظل حية تنتمي إليها دول وشعوب، كما هو الحال في جاهلية ما قبل الإسلام، مثل : قحطان، ونزار وكما هو الحال بعد الإسلام مثل : أمية، والعباس، وعثمان مؤسس دولة آل عثمان.

فعلى ذلك لا يستبعد عن الحقيقة الرأي الذي يفترض : أن بروسوس قصد عدد الأسر الحاكمة التي بلغ مؤسسوها من الشهرة مكانة جعلت هاتيك الأمم تنتسب إلى مؤسسي دولتها كما انتسب الآشوريون إلى (آشور). فآشور في رأي البعض هو اسم إله. وفي رأي بعض آخر هو اسم بلد. وفي رأي آخرين هو اسم مؤسس دولة آشور. فعلى كل هذه الآراء لم يكن آشور ملكًا واحدًا تربع على العرش الآشوري طيلة عصور الآشوريين.

ولقد جاء في كتاب سني ملوك الأرض لحمزة الأصفهاني عن دولة (الفشدادية)[1]: أن عدد ملوكها تسعة ملوك. وأن سلطان هذه الدولة استمر ألفين وأربعمائة وسبعين سنة. ولقد قسمت المصادر التي استند إليها الأصفهاني في كتابه الألفين والأربعمائة والسبعين عامًا على تسعة ملوك قسمة غير متناسبة، فجعلت بعض ملوك هذه الأسرة يحكم ألف عام. وبعضهم يحكم تسعة أعوام فقط. ولو طال الزمن بين هذه الأسرة وبين المصادر التي رجع إليها الأصفهاني كما طال الزمن بين بروسوس وذلك الرعيل الأول من المؤرخين، وبين الذين رجعوا إلى روايته لتطورت الرواية إلى مبالغة أكبر مما هي عليه. ففهم منها : أن الفشدادية اسم ملك أو ملكة حكم مدة ألفين وأربعمائة وسبعين سنة. كما لو كان المصدر الذي رجع إليه الأصفهاني قريبًا من عهده؛ لتأكد الأصفهاني

(١) راجع سني ملوك الأرض ص ١٦ طبعة مكتبة الحياة بيروت، والفشدادية في كتاب حمزة الأصفهاني هي أول أسرة فارسية حكمت.

مما قصدته مراجعه في كلامها عن الملك الذي حكم ألف عام. فلعل أصحابها كانوا يقصدون : أسرة مثل أسرة (مروان) في العهد الأموي لا ملكًا واحدًا.

فالذي يتبين لنا على ضوء كل ما تقدم : أن رواية بروسوس صحيحة من حيث عدد السنين. وأن الذي يفهم منطقيًا من عدد الملوك الذي جاء في رواية بروسوس، وفي وثيقتي الأشموليان، أن الأرقام (١٠، ٨) تعني كما يظهر من الشواهد والأدلة التي تقدمت : عدد أسر تاريخية لا أفرادًا حكم كل واحد منهم ثلاثة وأربعين ألفًا ومئتي عام.

٤- وكذلك أنا لا أعتقد : أن قوم نوح ومن سبقهم من شعوب وقبائل انحصرت جموعهم في أرض الرافدين، وأن الحجاز ونجد وشواطئ الخليج العربي والبحر الأحمر وبلاد اليمن السعيدة وحضرموت كل هذه البلاد عاشت طيلة عصور ما قبل الطوفان خلاء بلقعًا لا تعرف الإنسان.

أنا لا أعتقد ذلك بعد الذي قدمته في فصل (قلب البلاد العربية : المهد الأول للإنسان وحضارته).

وأنا لا أستبعد أن يكون ذلك العالم الذي عاش في قلب الجزيرة وجنوبها : أسس دولاً من أقدم الدهور ورثها الإرميون، والعماليق، والكنعانيون، والجرهميون، وغيرهم ممن قال عنهم المؤرخون العرب : إنهم كانوا أصحاب دولة وحضارة.

فنحن إذا كنا نجد اليوم من يبحث عن دول ما قبل الطوفان في بلاد ما بين النهرين، ووجدنا خلافًا في سني حكمها، فإننا لا نجد من يبحث في دول قلب الجزيرة قبل الطوفان! فجميع البحوث التي وضعت في تاريخ قلب الجزيرة لا تتجاوز ما قيل عن هجرة إسماعيل وبناء البيت الحرام، وما يجر إليه البحث عندما يتكلم مؤلفو التاريخ في العصور المتأخرة عن الآثار التي تظهر عفوًا، أو التي يكشف عنها التنقيب عن

الثروات المعدنية في منطقة الخليج العربية، وشرق نجد، وفي اليمامة، وشمال الحجاز، وفي بلاد اليمن، وحضرموت.

وعلى ضآلة المعلومات عن عالم ما قبل الطوفان في شبه الجزيرة العربية، فإن الباحث في التاريخ القديم لا يمكنه أن يتجاهل الآثار التي وجدت في داخل الجزيرة والتي يرجع تاريخها إلى العصر الحجري، ولا يمكنه أن يتجرد من الظنون التي ترجح له وجود دول عربية قامت قبل الطوفان داخل شبه الجزيرة العربية مسقط رأس الحضارة الإنسانية. وترجح له: أن ودًّا، وسواعًا، ويغوث، ويعُوق، ونسْرًا، شعوب انتشرت في طول البلاد العربية وعرضها، وأسست هنا وهناك دولاً كان لها شأنها في مقدرات هذا الشرق العربي، سيما دول قلب الجزيرة؛ فمناخ هذا الجزء في العصور الثلجية هُو أفضل من غيره الغارق في الثلوج والمتعرض لعواصفها، وفيما سنقدمه لك في الجزء الخاص بدول البلاد العربية وسياستها، الأدلة التي ترجح وجود الدولة في الجزيرة العربية من قبل التاريخ.

البحث الخامس

نهاية ما قبل التاريخ بداية التاريخ

من موضوعات البحث :

١- الإنسان استأنف حضارته بعد الطوفان.

٢- تحديد بداية التاريخ لم يكن واقعيًا إلا من منتصف الألف الأخيرة قبل الميلاد.

٣- بداية تاريخ الأمم تتفاوت بتفاوت عصورها.

٤- الحلقات المفقودة في تاريخ الأمم .

٥- تاريخ الأقطار العربية لم يبدأ في عام واحد.

٦- عصر التاريخ الحقيقي في البلاد العربية.

٧- ليس التاريخ الحقيقي مجردًا من المبالغات .

نهاية ما قبل التاريخ بداية التاريخ

١- كل ما قيل أو يمكن أن يقال عن عصر ما قبل الطوفان، يقال أو يمكن أن يقال عن الفترة التي سبقت نشوء الدول بعد الطوفان؛ فمن المفروض بعد تلك الكارثة أن تمر بالإنسان فترة من الزمن يستأنف في خلالها حياته الحضارية من جديد. وهذه الفترة التي بدأ الإنسان فيها حياته من جديد، لا نعرف عنها غير الظنون والنظريات التي تحوم حول ما وجد في طبقات الأرض العميقة، وتبلغ هذه الفترة في تقدير (بروسوس) أربعة وثلاثين ألفًا وثمانين عامًا(٣٤٠٨٠ سنة)، وقد ألحق المؤرخون هذه الفترة بزمن ما قبل الطوفان، واعتبروها من التاريخ الخرافي.

٢- وفي موسوعة تاريخ العالم رأي جدير بالعناية والاهتمام، فلقد وضع أصحاب هذا الرأي قاعدة صحيحة للفارق بين عصور ما قبل التاريخ وبين العصور التاريخية بالنسبة لكل بلد من بلدان العالم. فلقد جاء في الموسوعة: [ويختلف الوقت الذي ينتهي فيه عصر ما قبل التاريخ ليبدأ التاريخ، اختلافًا واسعًا في جهات العالم المتعددة، وغالبًا ما يمتد التاريخ بمعناه التقليدي إلى الحدود الفاصلة بين الاثنين. والتواريخ فيما قبل التاريخ مسألة تقديرية لم تبلغ أن تكون معالم رئيسة ثابتة كما هو الحال في التاريخ المكتوب][١] .

ومن رأي ويلسن : أن التاريخ لم يك واقعيًا لا يخالطه الشك في الزيادة أو النقص؛ إلا بعد عام ٥٠٠ ق.م، فمن غير الممكن قبل هذا التاريخ تحديد العصر التاريخي بالضبط[٢] .

ونحن إذا استمسكنا بما جاء في الموسوعة، وبما قاله (ويلسن) فعلينا : أن ندخل في حسابنا أن تعيين الزمن لبداية التاريخ هو مسألة تقديرية.

---

(١) الموسوعة ١/٤ .

(٢) راجع كتاب الحضارة المصرية لجون ويلسن ص٧ .

٣- والرأي السائد يجزم بأن بداية التاريخ الحقيقي تتفاوت عصورها بتفاوت تقدم الأمم وتدرجها نحو الحضارة، وتختلف باختلاف المعلومات التي وصلت إليها بحوث المحققين واكتشافات المنقبين؛ فإذا كانت الآثار التي وصلت إليها أيدي المنقبين إلى هذا التاريخ تصعد بعصر الدولة في العراق، وفي مصر إلى ما فوق الألف الثالثة قبل الميلاد، فإن بلاد القوقاز لا يعرف شيء عنها؛ إلا بعد الألف الأولى قبل الميلاد. ولا تزال بعض مناطق وسط أفريقيا لا تعرف بداية تاريخها، ولعل بعضها لم يسجل تاريخه؛ إلا بعد القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

٤- ثم لا يفوتنا أن ننبه الأذهان إلى الحقيقة التي تثبت: أن في تاريخ كثير من الأمم حلقات مفقودة، وإلى أن كثيرًا من الحلقات المفقودة تسع دهورًا طويلة حجبها ظلام دامس، فمن النادر أن نجد أمة من أمم الأرض الكثيرة، أو بلدًا من بلاد الله الواسعة استمر تاريخها منذ بدايته مشرقًا واضحًا؛ فكثير من الأمم وكثير من البلاد انطوت معالم تاريخها القديم في طيات الزمن. ثم هيأت لها الأقدار حياة جديدة غيرت كل شيء فيها، وفرضت عليها أسماء جديدة عرفت بها دولها، وعرفت بها بلادها، وإننا لنجد الأمثلة على ذلك كثيرة إذا ما رجعنا إلى معاجم البلدان وقرأنا أسماء أرضين لا تعرف في غير المعاجم، بل أكثر من ذلك الأسماء التي كشفت عنها البحوث الأثرية، فهذه لا تعرف حتى في المعاجم. وكذلك نجد حال الشعوب والقبائل إذا ما رجعنا إلى معاجم أمم الجزيرة وقبائلها؛ فمن البلاد التي انقرض تاريخها القديم: سواحل الخليج العربي، فلقد شهدت عمان والكويت والأحساء في أيامها الخوالي حضارة ذهبية، ثم قضى الله عليها أن تعيش زمنًا طويلاً في الزاوية المظلمة من التاريخ. وهذه هي في الوقت الحاضر تبعث فيها الحضارة من جديد فتسترعي انتباه العالم أجمع كما استرعته في العصور التي سبقت الميلاد بآلاف السنين. ومن القبائل التي عاشت على أرض الجزيرة بأكثر من اسم واحد: الكنعانيون، والجرهميون، وعاد، وثمود، والعماليق. وإنك لتجد بحثًا ضافيًا عن هذه القبائل وغيرها في الجزء الخاص بجغرافية البلاد العربية من هذا الكتاب.

فهل اعترافنا بالحلقات المفقودة يوجب علينا أن نتجاهل التاريخ القديم للأمم العربية، ونعتبر العصور التي سبقت الحلقات المفقودة من العصور الخيالية؟ إن ذلك ولا شك يتوقف على توافر المعلومات عما قبل الحلقات المفقودة ومبلغها من الصحة، والمعلومات عن العصور القديمة لم يقفل بابها، فليست المعارف التي وصلت إليها البحوث الأثرية هي خاتمة المطاف، فقد تكتشف في المستقبل آثار في بلد ما تؤكد قدم حضارته، وتوضح شيئًا من تاريخه القديم، فيتبدل رأي المؤرخين في بداية تاريخ ذلك البلد، كما حدث ذلك في تحديد تاريخ اليمن، فلقد قال بعض المؤرخين: إن أقدم دولة يمنية هي دولة معين، وإن أقدم عصر معيني لا يزيد على الألف عام قبل الميلاد ثم عثر المنقبون على آثار جعلت بعض المؤرخين يقول: إن العصر المعيني في اليمن يبدأ من قبل منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

على أن المعلومات التي استجدت في التاريخ، وما ينتظره المؤرخون من جديد يكتشفه الأثريون، لا تكفي في نظر المؤرخ في العصر الحاضر لربط تاريخ ما بعد الطوفان بتاريخ ما قبله، فالحلقات المفقودة واسعة جدًا، وتاريخ ما قبل الطوفان، وتاريخ الفترة التي أعقبت الطوفان يكادان يكونان مجهولين تمامًا.

وعلى كل حال، فإن التاريخ الحقيقي في البلاد العربية جميعها لم يبدأ في عام واحد؛ فإذا كانت سلسلة التاريخ في اليمن ربطت التحقيقات التي قام بها المؤرخون على ضوء المصادر القديمة البحث، وعلى ضوء الآثار الحديثة الظهور حلقاتها من دولة (معين) و(سبأ) و(أوسان) و(قتبان) ثم (حمير) ثم (النجاشيين) و(ابن ذي زين) ثم الاستعمار الفارسي، فلقد اعتبر كثير من المؤرخين: رفع إبراهيم القواعد من البيت بداية التاريخ الحقيقي للحجاز، فمن عهد إسماعيل إلى عصر عبد المطلب عرفت الشعوب التي سادت في مكة، والشعوب التي سادت في المدينة، كما سنرى ذلك واضحًا في الجزء الخاص بدول البلاد العربية وسياستها.

أما الأجيال التي سبقت بناء البيت، فلم يتجاوز بحث المؤرخين عنها إلى أكثر مما قيل عن موضع البيت الحرام، وأنه كان أكمة حمراء، وعن العوالم التي كانت تحج إليه؛ وإلى أكثر مما جاء في بحث أنساب القبائل ومساكنها في مكة، وفي المدينة، وفي الطائف، وفي مدين، وجنوب فلسطين. وأما قبائل : جرهم، والعماليق التي كانت تعيش حول الوادي المبارك، وفي وادي القرى، والقوافل التجارية التي كانت تسير من الجنوب إلى الشمال فلم نر من المؤرخين من اهتم بمعرفة شيء من تاريخها حتى بدأ البحث الأثري الذي كشف لنا بعضًا من تاريخ تلك العصور. ولقد رفض ابن كثير الروايات التي تقول بأن البيت كان مبنيًّا قبل إبراهيم[١] .

وعصر إبراهيم مختلف عليه، وتحقيق الخلاف على ضوء المصادر العربية يقتضي كثيرًا من الفروض والتخمين. فالمصادر العربية لم تعن بتحقيق تاريخ العصور كما ينبغي، فليس أمامنا في المصادر العربية طريق نصل منه إلى عصر إبراهيم، فكل ما يمكن الاستدلال به هو ما قاله المؤرخون القدامى عن معد وابنه نزار وأنهما قاوما الغزو البختنصري. والغزو البختنصري كان بين سنة ٦٠٥ و٥٦٢ ق.م[٢] .

فعلى ذلك فإن ألفًا ومئتين وسبعة وعشرين عامًا تفصل بين الغزو البختنصري والهجرة النبوية.

ومعد هو الجد العشرون لعبدالله بن عبدالمطلب[٣] . ومعد هو ابن عدنان وما بعد عدنان اختلف النسابون على عدد الجدود فبعضهم يقولون : إنهم أربعون جدًّا، وبعضهم يقولون : إنهم عشرون جدًّا. وآخرون يقولون : إنهم خمسة عشر جدًّا[٤] . وفي

(١) تاريخ ابن كثير ١٦٣/١ والإعلام بأعلام البيت الحرام للقطبي ص٣٥ .

(٢) العرب قبل الإسلام لجواد ٣٣٤/٢ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/١ .

(٤) العرب قبل الإسلام لجواد ٢٩٣/١ .

سيرة ابن هشام لم يتجاوز عددهم سبعة جدود[1] ، وفي حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه إلى عدنان قال : [من ههنا كذب النسابون][2] .

فعلى ذلك فليس أمامنا غير ما وصل إليه تحقيق المتأخرين. وبعض المتأخرين لم يوضحوا الأدلة التي يبنون عليها رأيهم. فجرجي زيدان لم يذكر : على أي دليل اعتمد عندما قال : [وإسماعيل قبل الميلاد بتسعة عشر قرنًا] بينما هو نفسه وفي الكتاب نفسه يقول : [وفي أثناء الدولة الحمورابية ظهر إبراهيم][3] .

والدولة الحمورابية هي أيضًا مختلف على عصرها ، وسيأتي الكلام عن الخلاف على عصر حمورابي في بحث (التاريخ العربي في العراق). والدولة الحمورابية في تحقيق جرجي زيدان : يبدأ عصرها (في سنة ٢٤١٦ وينتهي في سنة ٢٠٨٢)[4] .

فالمدة التي تفصل بين ظهور إبراهيم وتاريخ إسماعيل على رأي جرجي زيدان تبلغ قرنين تقريبًا .

ولقد تحدث المطران الدبس عن اختلاف المحققين في عصر إبراهيم ثم قال: [وعلى كل الأقوال؛ فإن إبراهيم بلغ بلد كنعان حوالي (٢٠٠٠) ق.م][5] .

فالذي يظهر من استقراء هذه الآراء : أن إبراهيم عليه السلام ظهر في سوريا والحجاز في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد.

ولقد سبق الكلام في بداية هذا البحث أن تحديد العصور القديمة لا يعدو التخمين والحدس.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/١ .

(٣) العرب قبل الإسلام ص ١٧٦ وص ٥٧ .

(٤) العرب قبل الإسلام ص٥٧ .

(٥) تاريخ سوريا ٤١ .

وكذلك (نجد) و(اليمامة) و(شواطئ الخليج العربي)، فإن بداية التاريخ الحضاري لهذه البلاد ليست ببعيدة في المؤلفات التاريخية قبل اكتشاف آثار الإنسان الحجري التي عثرت عليها بعض شركات التعدين، وبعض رواد الآثار في نجد مثل عبدالله فلبي .. وقبل اكتشاف آثار في اليمامة، وشواطئ الخليج العربي. أما بعد تلك الاكتشافات، فقد أرجع المحققون عصر الفينيقيين الذين عاشوا في شواطئ الخليج العربي إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.

على أن ما تحدث عنه المؤرخون عندما تكلموا عن العرب البائدة، وعن مساكنهم في وادي القرى، وفي شواطئ الخليج العربي، وفي مكة والمدينة، وفي جبلي طيئ بنجد، وما جاء في تحقيق الرواد من الباحثين، وتفسير النقاد من الأثريين عن نحاس الجزيرة، وذهبها، وأخشابها، وبخورها: هو في رأي غالبية محققي التاريخ إرهاص للتاريخ الحقيقي.

٧- والتاريخ الحقيقي في رأي الكثيرين ليس هو التاريخ المجرد من المبالغات، فالتاريخ لم يسلم من المبالغات في وقت من الأوقات، فنحن اليوم إذا طبقنا ما تنشره صحافة البلاد العربية، وما في الكتب التي تنشر للدعاية على واقع البلاد العربية نجد : الفرق شاسعًا بين الخيال الذي يغطي واقع الأمم العربية، وبين الحقائق المشاهدة.

وبعد فنحن بعد أن تتبعنا الآراء التي انطلقت تبحث عن العصر التاريخي وبدايته، لا يمكننا أن نترك القارئ بدون نتيجة تقربه من المرحلة الأولى للتاريخ العربي. ونحن إذا أردنا أن نقرب القارئ إلى المرحلة الأولى للتاريخ العربي؛ فعلينا أن نبحث معه في التاريخ الحضاري للشعوب العربية، فلقد أنار فجر الحضارة في البلاد العربية الكثير من معالم تاريخها القديم.

البحث السادس

الحضارة هي السطر الأول في التاريخ

من موضوعات البحث :

١ - الاستقرار والاستثمار هما دعامتا الحضارة والمجتمع .

٢- قلب الجزيرة لم يتأخر عن موكب الحضارة القديمة.

٣- الحدود الجغرافية لا تفصل الشعوب بعضها عن بعض .

الحضارة هي السطر الأول في التاريخ

١- إن اختلفت الموازين التي قدر بها عمر الزمن الذي عاشه الإنسان على هذه الأرض، فإن قدم الإنسان في هذه الدنيا العربية متفق عليه. وإن اختلفت وجهات النظر في بداية التاريخ، فإن الآراء متفقة على أن بداية التاريخ لأمة لا تصلح أن تكون دليلاً على تاريخ أمة أخرى وبدايته، ما لم تكن هناك وشائج تربط بين الأمتين، فلو أن الأمم جميعها على مستوى حضاري واحد، أو كان تدرج البشرية متساويًا، لما كنا نرى اليوم شعوبًا شارفت القمة وشعوبًا لا تزال في بداية الطريق.

ولا يدل شيء على تاريخ الأمم أكثر من حضارتها، فحضارة سوريا ولبنان، وفلسطين، والعراق، ومصر، والخليج العربي، والحجاز، ونجد، واليمن، هي التي تحدد لنا تاريخ هذه الأقطار العربية، كما حددت حضارة مقدونية، والهند، والصين تاريخ هاتيك الأقطار. فالتاريخ الحقيقي لا بد أن يسبقه نضج حضاري يهيء المجتمع ويرسم معالمه. فالاستقرار والاستثمار: زراعة وصناعة وتجارة، يلزمان الفرد بمعرفة واجبه نحو المجتمع، فيعرف ما له على المجتمع وما للمجتمع عليه، واعتراف الفرد بواجب المجتمع، واعتراف المجتمع بحق الفرد يضعان الأمور في نصابها. ووضع الأمور في نصابها يتيح للأمة أن تثبت وجودها في سجل الزمن.

وحضارة الجزيرة العربية انفسح مجال البحث فيها بسبب المصادر التي وفرتها الدراسات الأثرية التي تعمقت في أغوار الماضي البعيد؛ لتعود بجديد من المعلومات وتقابله بما تكتنزه المكتبات من روايات المؤرخين الذين سبقوا هذه الدراسات بعشرات القرون.

٢- ومما لا جدل فيه أن بلاد الهلال الخصيب، وأرض وادي النيل، أكثر البلاد العربية مصادر يمكن الاعتماد عليها في فهم تاريخها القديم بفضل جهود المنقبين التي انتزعت من أرض مصر والهلال الخصيب سرها الدفين.

وفي الأيام الأخيرة أخذت حُجب الماضي تنجاب عن اليمن بعد أن وصل إلى أيدي خبراء الآثار بعض من مخلفات الأمم التي عاشت على أرض اليمن في الزمن القديم، وأخذ الباحثون يعيدون النظر في تاريخ جنوب البلاد العربية، وشواطئ الخليج العربي بعد أن كانوا يعتبرون ما قاله المؤرخون العرب عن تلك البلاد نوعًا من الخيال الساذج.

أما قلب البلاد العربية، فقد كان الرأي العام يجزم بأنه صحراء قاحلة تسكنه قبائل لم تعرف شيئًا عن الحضارة في عهود ما قبل الإسلام. وما زال هذا الرأي تعتقده الأغلبية إلى زمن قريب؛ فنادر من المؤرخين من كان يظن أن قلب البلاد العربية كان يسير في مقدمة ركب الحضارات القديمة.

لذلك فإن البحث عن الماضي البعيد للعراق وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر لا يُعْوز الباحث أن يجري وراء الآراء والنصوص ويتتبع البحوث ليجمع الخيوط ويوصل بعضها ببعض حتى يكمل نسيج البحث، كما يُعوزه الأمر إلى كل ذلك إذا ما بحث في ماضي قلب الجزيرة.

فالشعوب العراقية والسورية والمصرية جمع شتات تاريخها الحضاري، وحقق أكثره بحيث إنك تجد تاريخًا للآشوريين، والكلدانيين، والفراعنة، والفينيقيين لا ينقص عن التاريخ الفارسي والروماني .. بينما لا يزال تاريخ الحضارة العربية في قلب الجزيرة العربية بدائيًا يخيم عليه الظلام. ولا يزال تاريخ الثموديين، والعاديين، والجرهميين مجهولاً لا يعرف عنه الكثير.

فإذا كانت اللمحة الخاطفة على الحضارة العربية في العراق، وفي سوريا، وفي مصر تكفي بحثنا، فإن الأمر على العكس من ذلك في موضوع الحضارة في قلب البلاد العربية.

وإذا كان علينا أن نعرف بداية التاريخ في البلاد العربية. فإن الأمر يستدعي البحث عن الحضارة في كل لون من ألوانها. وفي كل ركن من أركان الجزيرة العربية. ولقد قال "غوستاف ليبون" من قبل: [إن من الصعب أن نتعرف في التاريخ على أمة من الأمم ذات شأن كبير في التجارة من غير أن تكون متمدينة](١).. ولقد قال "استرابون" الذي عاش قبل الميلاد: [كل عربي سمسار أو تاجر](٢).

٣- وجدير بنا هنا أن نعرف أن الحدود الجغرافية لا تعني انفصال كل قطر من أقطار البلاد العربية عن القطر الآخر حضاريًا أو ثقافيًا كما هو الحال اليوم، وأن التقسيم الجغرافي في القديم كان يعني طبيعة الأرض؛ فمثلاً (نجد) هي الأرض المرتفعة، و(تهامة) هي الأرض المنخفضة، و(الحجاز) هو الجبل الفاصل بين تهامة ونجد.

وفي التاريخ القديم نشأت دول ضمت أكثر من قسم من أقطار الجزيرة العربية. فاختلطت حضارة الشعوب التي جمعتها دولة واحدة، ولذلك نجد الباحثين عن الحضارات العربية القديمة يذكرون آثارًا لعاد وثمود في عدد من أقطار الجزيرة العربية. وهذا ما نلاحظه اليوم واضحًا في الآثار البارزة على وجه الأرض. ففي الحجاز آثار للمصريين، وفي مصر آثار للحجازيين من القديم.

ثم جاءت جاهلية ما قبل الإسلام بنعرتها القبلية، والفوضى التي زادها عنفوانًا الجدب الذي منيت به غالبية أرض الحجاز، ونجد، وتهامة، وسواحل الخليج العربي

---

(١) حضارة العرب ص ٩٥.

(٢) الإسلام والحضارة العربية كرد علي ص ١٢٠ ج١.

فتضاءل النظام السياسي في الجزيرة، واستوحش المجتمع، وأصبحت أغلبية الدول العربية في قلب الجزيرة العربية قبائل تفرقت في البلاد تحتل كل قبيلة منها قسمًا من الأرض لا تُقيِّده حدود جغرافية معترف بها. فكل ما في الأمر هو الاسم الذي يطلق على تلك الأرض. فيقال : أرض بني فلان أو ديار بني فلان. وقد تكون ديار بني فلان تشمل جزءاً من الحجاز وجزءاً من نجد. ولا تزال القبائل العربية داخل الدولة على هذا الوضع إلى يومنا هذا.

والبحث في هذه الناحية تجده واضحًا في الجزء الخاص بجغرافية البلاد العربية من هذا الكتاب. أما هنا فالذي تهمني الإشارة إليه. هو معرفة السبب في تقسيم البحث في الحضارات العربية على النحو الذي تراه. فلقد حرصت على أن يكون التقسيم على أساس المعلومات التي توصلت إليها في بحث الحضارات القديمة. فقبل البحث عن هاتيك الحضارات ومعرفة ما وصلت إليه حضارة كل قسم من أقسام الجزيرة يتعين علينا أن نعرف شيئًا عن الأديان في بلاد العرب. فالأديان هي الخطوة الأولى في تنظيم المجتمع الإنساني، وفي تعاون الجماعات على بناء الحياة الحضارية. ومن الأديان ورسلها الهداة عرفنا جانبًا مهمًّا من جوانب التاريخ العربي القديم.

البحث السابع

الأديان في جزيرة العرب من قبل التاريخ

من موضوعات البحث :

١- العقل هو فضيلة الإنسان.

٢- آدم هو المؤسس الأول للحضارة.

٣- الأديان في قصص المفسرين .

٤- بعض المستشرقين يشكون في إبراهيم، وموسى، وعيسى.

٥- النضج العقلي في مجتمع نوح وهود عليهما السلام.

٦- البيت الحرام دليل قاطع على قدم الدين في قلب الجزيرة.

٧- إبراهيم عليه السلام لم يمدين الشعوب العربية وإنما وجهها إلى النور والعزة.

٨- الإنسان العربي سبق غيره إلى التدين.

٩- التوحيد هو الدين الأول في الجزيرة العربية.

١٠- شعوب عاد وثمود وجرهم عاشت قبل الإسماعيليين المستعربين واستمر أحفادها إلى عصر الميلاد.

١١- إبراهيم عليه السلام هو أول المجاهدين من الأنبياء والرسل بعد الطوفان.

١٢- إبراهيم عليه السلام أبرز شخصية عرفت قبل الإسلام.

١٣- قصص الأنبياء أنارت جانبًا كبيرًا من ماضي الجزيرة.

١٤- الوثنية خطأ متأخر أضل المؤمنين برب السموات والأرض.

١٥- فكرة الثالوث المقدس في أديان الجزيرة العربية قبل الميلاد.

١٦- الوثنية في الحجاز .

١٧- صراع الأديان في جزيرة العرب .



الأديان في جزيرة العرب من قبل التاريخ

١- لم ينتقل الإنسان من طور البدائية ويخرج من أحراج الغاب؛ ليسكن أكواخًا تقيه وابل الأمطار، وعاصف الرياح، وهجمات الضواري؛ إلا بفضل الموهبة التي ميزه الله بها عن غيره من سكان هذه الأرض ألا وهي : العقل؛ فالعقل هو الذي سار به من مرحلة إلى أخرى إلى أن اتجه به لمعرفة سر الحياة وسر وجوده فيها. فأخذ يبحث عن القوة التي تتحكم في كل ما في وجوده: القوة التي لا يراها ولكنه يشعر بوجودها في كل شيء. يشعر بها في الأرض التي تقله، ويشعر بها في السماء التي تظله، ويشعر بها في الهواء العليل، وفي الجبال الشامخة، وفي البحر الهادر، وفي الكواكب اللامعة، وفي الشمس المشرقة، بل في نفسه، في قوته وأحلامه وآماله، وفي ضعفه ويأسه وآلامه.

وما هذا الشعور بتلك القوة التي نظمت هذا الكون العظيم؛ إلا نتيجة التفاعل الحضاري الذي تطور بعقله فكان من نتائجه الأولى البحث عن رب هذا الوجود.

وهذه هي إرادة الله التي أهلت الإنسان أن يتأمل في خلق السموات والأرض، وينظر إلى الإبل كيف خلقت؟! وإلى الأرض كيف سطحت؟! ويبحث عن سر هذا الكون العظيم بالعقل الذي وهبه الله له.

فلقد وُجد الإنسان في هذه الحياة مجردًا من كل شيء ما عدا عقله الذي أخذ يتدرج به ويوسع له آفاق حياته. ولقد كانت أطوار نمو العقل الإنساني تشبه الأطوار التي تمر بها حياة الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة. فكما بدأ الطفل يدْرك حقيقة الأشياء باللمس؛ فيعرف المؤذي الضار من المفيد النافع. كذلك بدأ الإنسان يتعرف بما يحيط بحياته ويميز النافع من الضار بالأدلة المادية. فلما شب عن طوق الأدلة المادية؛ أخذ ينظر إلى الحياة على ضوء أدلتها المعنوية. فتفكير الإنسان في سر الحياة. وفي سر وجوده فيها هو الدليل القطعي على بداية نضج العقل الإنساني.

٢- وأنا لست مع الذين يؤمنون بنظرية (داروين) التي تقول بنشوء الإنسان وارتقائه من شكل القرد والحياة الحيوانية إلى صورة الإنسان والحياة البشرية، وإنما أنا مع الذين يقولون : إن الله خلق آدم وبعثه في هذه الأرض يؤسس الحياة الإنسانية عندما أصبح هذا الوجود صالحًا لإنشاء الحضارة الإنسانية.

فآدم هو الإنسان الأول الذي بدأ يسير في طريق الحضارة، لا يسفك الدماء ولا يفسد في الأرض، كما كان يفعل الذين سبقوه إلى هذا الوجود. وهو الإنسان الذي بدأ بتأسيس المجتمع والدعوة إلى الله. أما ما نوع عالم ما قبل آدم؟ فهذا كان وما زال موضوع خلاف الباحثين. والخلاف في نوعية عالم ما قبل آدم لا يهم بحثنا هذا، وإنما معرفة المرحلة الأولى التي بدأ الإنسان فيها يثبت إنسانيته ويؤسس حضارته هي التي تهم البحث هنا كما أشرنا من قبل.

٣- والبحث في أديان الجزيرة العربية يرجع بنا إلى تلك القصص التي حدثنا بها المفسرون وتناقلتها البحوث المستندة إلى ما في الأسفار، وإلى ما في تراث التاريخين الكلداني واليوناني، والتي تصور لنا الحضارة الأولى التي أشرقت أضواؤها في عصر إدريس، وتخبرنا كيف كانت بداية انتكاس الأديان بإقامة التماثيل ثم عبادتها من دون الله.

فإن دلت هاتيك القصص على شيء، فإنما تدل على أن الإنسان في عهد ما قبل الطوفان بلغ من النضج: أن عرف الله تعالى، وعرف كيف ينظم المجتمع على ضوء هذه المعرفة، ومعرفة الله والتشريع للمجتمع الفاضل لم يصل إليهما الإنسان إلا بعد أن مر بمرحلة الانفرادية في طريقه إلى الحياة الاجتماعية وما تتطلبه من تعارف، وتعامل، وخضوع للواجب، واحترام للحقوق، ولا يتم كل ذلك في مجتمع ما، ما لم تربط الأفراد والجماعات فيه مبادئ يقدسها الجميع ويحترمون شعائرها ويخضعون لها، فهذه القصص التي رواها لنا المفسرون، وجاءت في مصادر الإسرائيليين، كانت جميعها، وما زال بعضها في بحوث المستشرقين ومن سار خلفهم، حكايات خرافية

على الرغم مما أظهره التنقيب في طريق الهلال الخصيب العراق وفلسطين. من آثار أثبتت أن عصور العراق قبل الطوفان كانت عصورًا ذهبية.

٤- وقصص أنبياء ما قبل الطوفان ليست هي كما يقوله عنها المستشرقون، وليس من أصالة البحث إن نحن نظرنا إلى تاريخ الماضي البعيد من النافذة التي نظر منها المستشرقون وحدها، فنحن إن أخذنا بمنطق المستشرقين وظنونهم وآرائهم في تاريخ الشرق الأدنى، فبعض المستشرقين لم ينكروا أنبياء ما قبل الطوفان فحسب، بل من ذلك البعض من أنكر إبراهيم، وموسى[1]، وعيسى. فالمستشرقون في الفصول التي عقدوها للتاريخ العربي القديم لم يخرجوا من صوامع شكوكهم فيما ينسب للتوراة وللإنجيل. وفيما جاء في القصص القرآني وتحدث به المؤرخون القدامى؛ إلا بعد أن ظهرت آثار الماضين من أمم البلاد العربية، مصدقة لما بين أيدينا من أسانيد المؤرخين القدامى الذين تحدثوا عن عصر إدريس ونوح وعالم ذلك الماضي البعيد.

٥- وما جاء في تلك الأسانيد يؤكد لنا : أن مجتمع نوح وصل به التفاعل الحضاري إلى مستوى عال بالنسبة لحياة الإنسان البدائي. وإننا لندرك المدى الذي بلغه مجتمع نوح من الجدل الذي دار بين نوح والذين كفروا برسالته: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۞ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ۞ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ [2].



(١) عبقرية المسيح للعقاد ص٨٠.

(٢) سورة هود، الآيات: ٢٧ - ٢٩.

فهذه الرسالة بهذه الأدلة المنطقية لا توجه إلى مجتمع بدائي لا يزال في طور الأدلة المادية. وهذه الرسالة تدل على أن النكسة لم تنحدر بقوم نوح إلى المستوى الذي انحدر إليه قوم موسى في وادي النيل الذين لم يؤمنوا إلا بالدليل المادي الذي تمثل في الحية التي لقفت ما صنع السحرة أمام فرعون وملئه.

وكذلك نحن نجد في رسالة (هود) إلى قومه (عاد) دليلاً قويًا يؤكد، أن قوم هود لهم تاريخ ديني قديم. وأن الانتكاس الذي منيت به عقلية (عاد) قوم هود لم يتدحرج بهم إلى مادية قوم موسى. ففي سور: الأعراف، وهود، والشعراء، وفصلت، والأحقاف، والذاريات، والقمر، والحاقة، والفجر: آيات بينات تدل على أن قوم عاد بلغ بهم التطور إلى حد هذا الجدل المنطقي: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١)، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۞ إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ ۞ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

٦- وقصة إبراهيم وإسماعيل ورفع قواعد البيت الحرام في القرآن الكريم أكثر وضوحًا من قصة إدريس ونوح، وقصة إبراهيم في كتب التفسير وإن كان فيها شيء من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٢٧-١٤٠.

الغموض لم يحاول المفسرون إزاحته عن بحوثهم، فهي على كل تدلنا على قدم التاريخ الديني في قلب الجزيرة العربية وتمركزه في الحجاز، وتؤكد ما ذهبنا إليه في موضوع قوم هود وقوم صالح وانتشارهم في الوديان التي تحيط بمكة، حيث البيت الذي عَبَدَ اللّهَ عنده آدم وخلفاؤه المصلحون، وإن مساكن قوم عاد الأولى كانت قريبة من مساكن قوم ثمود بوادي القرى، حيث تجد ذلك مفصلاً في البحوث التي وضعت لقوم عاد وقوم ثمود، في الجزأين: شعوب الجزيرة العربية، والدول العربية وسياستها، من هذا الكتاب.

٧- فلقد جاء في قصة إبراهيم: أن مكان البيت أكمة حمراء. وقال بعض المفسرين: إن العرب كانوا يقصدون تلك الأكمة ويتبركون بها ويدعون الله عندها ولقد سبق البحث في فصل (قلب البلاد العربية المهد الأول للإنسان وحضارته)، فأشرنا إلى ما قيل عن مكة وعن البيت الحرام، وإلى ما قيل عن قدم الإنسان في ذلك الوادي المبارك.

ومن قصة إبراهيم في فلسطين نعرف: أن إبراهيم وجد في فلسطين مجتمعًا منظمًا له عقائده وله شرائعه، ووجد دولاً يترأسها زعماء وملوك، كما وجد في الحجاز تجاوبًا مع ملته، فلم يعارضه العماليق، والجرهميون، والإرميون وغيرهم الذين كانوا أهل الحجاز، والذين كان منهم سكان مكة، وسكان المدينة، وسكان الطائف، وسكان الحجر ووادي القرى جميعه.

ومن قصة إبراهيم في مصر وما قيل عن فرعونها العمليقي[1] نعرف: أن إبراهيم وجد في مصر حول فرعونها علماء على جانب من المعرفة، ناظرهم إبراهيم وناظروه فكسب إبراهيم احترام فرعون ورفده، واحترام فرعون لإبراهيم يدل على أن رسالة إبراهيم وجدت طريقها إلى ضمير فرعون وعلى أن المجتمع المصري كان مهيأ لقبول دعوة إبراهيم، لم ينحدر إلى المادية التي وصل إليها الفراعنة في زمن موسى.

(١) محمد صلى الله عليه وسلم لحسين هيكل ص ٨٥.

٨- ومن قصص الأنبياء : نوح، وإبراهيم، ولوط، وهود ، وشعيب، وصالح عليهم السلام، نعرف أن الإنسان العربي سبق غيره إلى الأديان. فـ (البوذية) الهندوكية لم تظهر إلا بعد أن استوطن الآريون الأقاليم الغربية في بلاد الهند حوالي سنة ١٥٠٠ق.م. والبوذية بمذاهبها التي شاعت في الصين، وفي اليابان، وفي التبت، ونيبال، وجاوة، وسومطرة، وبورما ، وسيلان، لم تنتشر في هذه الأقطار إلا في غضون الألف عام قبل الميلاد ، وفي غضون الألف عام قبل الميلاد قطعت الأديان في البلاد العربية دهورًا طويلة.

فجهاد الأنبياء في الشرق العربي جهاد قديم؛ جهاد استمر من قبل الطوفان ومن بعد الطوفان. ولقد بدأ بعد الطوفان بملة إبراهيم الحنيف في بداية الألف الثانية قبل الميلاد. ففي كل صقع من أصقاع البلاد العربية بعث الله الأنبياء والرسل يوقظون الوعي ويرفعون المشاعل كلما تبدلت حال الأمم من جهاد وبناء وعمل نافع إلى ميوعة وترف وترد في الملذات. إلى أن بعث خاتم الأنبياء فترك للعالم جميعه القرآن الكريم والسنة المحمدية يكفلان الهدى إلى الطريق المستقيم.

٩- ولقد وصل بحث (ويليم شميد)[١] وغيره من العلماء الغربيين الذين درسوا تاريخ الأديان في جزيرة العرب إلى أن العرب جميعهم كانوا في الأصل موحدين ثم حادوا عن التوحيد. وعلى ذلك قامت النظرية التي أطلقوا عليها : التوحيد القديم.

وهذا الذي قاله العلماء الغربيون يشبه ما قاله المؤرخون الإسلاميون عندما تكلموا عن الكلدانيين والسريانيين.

إن المؤرخين الإسلاميين الذين يقولون : إن الجاهلية الأولى هي جاهلية قوم نوح، يؤكدون : أن الجاهلية الثانية هي الجاهلية التي استمرت المعركة بينها وبين الأنبياء

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٥/٧٦ .

والرسل: إبراهيم، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ويوسف، وموسى، وداود، وسليمان، والمسيح صلوات الله عليهم، إلى أن أشرقت شمس الإسلام فلم تجد الجاهلية بعد محمد صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية ركنًا مظلمًا تكمن فيه.

١٠- وإن المؤرخين الإسلاميين الذين يقولون : إن العرب البائدة هم الذين سبقوا بني إسماعيل؛ وإن العرب البائدة هم الذين ورثوا الأرض بعد قوم نوح، عاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وإن عادًا وثمود ومن كان في عصرهم من دول وشعوب، بادوا قبل هجرة إسماعيل، يخالفون غيرهم الذين يقولون: إن إبراهيم رفع القواعد من البيت قبل أن يستغيث وفد عاد عند البيت وقبل أن ينزل بقوم عاد العذاب.

ونحن قبل أن نبدي ما ظهر لنا من هذا الخلاف نلفت النظر إلى أن الإبادة ليس معناها الفناء الكامل في أيام معدودات، وإلى أن في موضوع الإبادة بحثًا سيأتي في هذا الكتاب[1] فلقد عاش الذين آمنوا من قوم هود، والذين آمنوا من قوم صالح دهورًا طويلة مع أبناء عمومتهم العماليق، والجرهميين وغيرهم من شعوب الطور العربي الأول إلى ما بعد الميلاد.

إن قوم عاد وثمود في وادي القرى شمال الحجاز، وفي اليمن، والعماليق في مكة، وفي شمال الحجاز، وفي فلسطين وسوريا، وجرهم في مكة، وفي وادي القرى وشمال اليمن كل هذه الأمم أطلق عليها المؤرخون اسم : العرب العاربة، وكل هذه الأمم لم تنته حياتها السياسية ولم يتحطم كيانها القبلي في فجر العصر الإسماعيلي. وكل هذه الأمم عاشت طويلاً بعد إسماعيل، بل هي عاشت إلى ما بعد الميلاد.

فعلى ذلك لا نرى ثمة ما يوجب الخلاف، فقوم عاد الذين ورثوا الأرض بعد قوم نوح والذين زادهم الله في الخلق بسطة ومنحهم النعم التي ذكرها القرآن، لهم تاريخ

(١) راجع الجزء الخاص بالشعوب العربية من هذا الكتاب.

طويل في وادي القرى، بل في كل أنحاء الجزيرة العربية كما سيأتي البحث في ذلك عندما نبحث في دول البلاد العربية، وبعثة هود كانت في نهاية عاد الأولى حيث انتقل هود ومن آمن به إلى الجنوب فورث الثموديون الأرض بعد قوم عاد.

فمن الممكن مع هذا الاعتبار الجمع بين القولين: بأن قوم هود (عاد) هم الشعب الذي ساد بعد قوم نوح. وأن هودًا بعث إليهم بعد أن هاجر إسماعيل إلى مكة، وعلى ذلك يكون العالم العربي في داخل الجزيرة لبث يؤمن بالوحدانية التي دعا إليها نوح ونادى بها إبراهيم إلى ما بعد الألف الثانية قبل الميلاد، حيث بدأ الظلام يخيم من جديد وبدأت مشاعل الأنبياء ترفع في أنحاء الجزيرة.

١١- وعلى ذلك فإن إبراهيم هو أول الأنبياء بعد نوح، وهو الذي بدأ جهاد الأنبياء بتحطيم أصنام آزر وقوم آزر، وإن إبراهيم كما يقول فريد وجدي: (يعتبر هذا الرسول الكريم في تاريخ الأديان العامة من كبار أولي العزم، فيعتبره اليهود كرأس شعبهم المختار، ويعتبره النصارى على قدر العلاقة الموجودة بين المسيحية وبين تاريخ العبرانيين، ويعتبره المسلمون جدًّا للعرب الذين منهم خاتم النبيين، وقد نص الكتاب الكريم على أنه أول من سماهم المسلمين)[١].

(١) **دائرة معارف وجدي**، مادة إبراهيم. والأدلة التي استندنا إليها في ترجيح تقدم عهد إبراهيم على عهد هود وصالح هي:

(أ) أن ما جاء في قصة عاد عن وفد السقيا يدل على أن البيت كان معروفًا.

(ب) فلو كان مكان البيت معروفًا في فترة ما بعد الطوفان، لما استغربت القبائل التي كانت حول الحرم، والقوافل التي كانت تمر من حوله، حينما رأت الطير لزم التحليق في سماء الحرم فقالت: ما لزم الطير التحليق إلا أن في الوادي ماء، فمعنى ذلك أنها كانت تجهل الوادي وهل فيه ماء أم لا؟

(ج) ولو كان مكان البيت معروفًا بعد الطوفان لاستدل عليه إبراهيم من العرب الذين مر بهم في طريقه إلى الأكمة الحمراء في الوادي الحرام، أو استدل عليه من العرب الذين كانوا في ظاهر مكة.

= =

١٢- حقًّا : إن إبراهيم من كبار أولي العزم وأفذاذ الهداة المصلحين، وإن قصة إبراهيم، وجهاد إبراهيم، ودعوة إبراهيم، كل ذلك كان موضوع نقاش ومصدر عبر في الماضي والحاضر، ولقد كنت أوثر أن أجد النقد الموجه لقصص الأنبياء التي جمعها الأستاذ عبدالوهاب النجار لا يحتكره موضوع (سارة) زوج إبراهيم، وهل يعتبر قول إبراهيم في مصر : إن سارة أخته، كذبًا؟ وكيف طابت نفس إبراهيم بذلك الزعم الذي زج بسارة زوجه في مأزق حرج؟

فنقاش العلماء الأزهريين، وإن كان مفيدًا إلى حد بعيد، فهو لم يخرج بالتحقيق والنقد إلى البحث عما كان يستهدفه إبراهيم فيربط الحوادث بعضها ببعض، ويصل بالقارئ إلى الغاية التي من أجلها أخذ إبراهيم يتنقل من العراق إلى فلسطين ومنها إلى مصر وإلى الحجاز.

ما كان إبراهيم جبانًا عندما حطم الأصنام في (أور)! وما كان إبراهيم رعديدًا عندما جادل قومه وطاغيتهم في الأصنام التي يعبدونها، وعندما أعلن أنه هو الذي حطمها !! حتى يخاف من بطش فرعون وزبانيته فيتعمد الكذب الرخيص، ويعرض شريكة حياته إلى ما يندى له الجبين.

= = (د) أن الذي أذن بالحج فلبى الناس الأذان هو إبراهيم ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج/٢٧] وفي الحديث النبوي عن وادي عسفان : أن هودًا وصالحًا كانا يمران به يلبيان ويحجان البيت العتيق.

(هـ) أما ترتيب ذكر نوح وهود وصالح وإبراهيم في القرآن الكريم فليس المقصود من الترتيب هو ترتيب عهودهم، فلقد جاء ذكر قوم ثمود بعد قوم نوح في سورة (المؤمنون).

(و) أما ما جاء في بحوث الأنساب عن جدود إبراهيم وجدود هود وأن جدود إبراهيم أكثر عددًا من جدود هود فلا يصلح أن يتخذ دليلاً فمن بعد "عدنان" كذب النسابون.

هذا ونلفت نظر القارئ إلى أننا لا نجادل في قدم عصر قوم عاد وإنما البحث في عصر إبراهيم وهود، إلى أن لهذا الموضوع بحثًا في الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها من هذا الكتاب.

لا شك في أن إبراهيم يحمل رسالة عظيمة أعده الله للاضطلاع بأعبائها ومواجهة أخطارها. ولاشك في أن حكمة الله التي اختارت خاتم الرسل من صميم قريش زعماء الوثنية في قلب الجزيرة، وأن حكمة الله التي أدخلت يوسف وموسى في حياة فراعنة مصر هي حكمة الله التي اختارت إبراهيم بن تارح صانع الأصنام أو سادنها: نبيًّا يدعو لتحطيم الأصنام، وأوجدت المناسبة التي كفلت لإبراهيم الوصول إلى فرعون مكلوءاً بالآية التي أيقظت ضمير فرعون في خلوته مع سارة[1]، وهيأت لإبراهيم الأسباب ليناظر حكماء فرعون ويصل إلى الغرض الكبير الذي من أجله هبط مصر، فيعترف حكماء مصر بعبقرية إبراهيم، ويقدر سيدهم المبادئ التي يحملها إبراهيم، فيعود إبراهيم من مصر موفور الكرامة محملاً بكل ما ينشده. وبكل ما يساعده على توطيد الصلات بين الشعوب التي بعث إليها..

والذي يلفت النظر فيما قيل عن إبراهيم، الصور المختلفة لسيرة إبراهيم، فالأقوال التي تنوقلت عن هجرة إبراهيم تصوره لنا إنسانًا عاديًّا يسير مع أسرة متوسطة الحال أخذت طريقها مع قوافل الآموريين المهاجرين إلى بلاد كنعان. والأقوال التي تحدثت عن إبراهيم في فلسطين تصوره لنا زعيمًا تحتفي به الجماهير، يملك المدن وينشئ المذابح، وقائدًا يجر الجيوش يتعقب (كدر لا عومر) الذي انتصر على حلف فلسطين وأوشك أن يحطمه، ويعقد الاتفاق السياسي مع (مليكصادق)[2]. والأقول التي نبأتنا عن إبراهيم وتركه زوجه (هاجر) وابنه (إسماعيل) في وادي مكة، تصور لنا إبراهيم شيخًا يسير في الفيافي والقفار ومن ورائه زوجه هاجر محتضنة وحيدها الرضيع صامتة لا تحاول معرفة ما يبحث عنه إبراهيم عندما تراه يتلفت ذات

(١) راجع الفصل الخاص بجغرافية مصر يوسف العربية في الجزء الثالث من هذا الكتاب ففيه جمعت الأدلة والنصوص التي تثبت اجتماع إبراهيم بفرعون مصر.

(٢) راجع الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها.

اليمين وذات الشمال كأنما هو يبحث عن ضالة لم يهتد إليها إلا في ذلك الوادي الذي تسوره الجبال، وبجانب تلك الربوة الحمراء المباركة التي لا ماء حولها ولا ناس، فيترك زوجه وابنه ثم ينقلب راجعًا وهو مطمئن القلب بأن هذا الوادي سوف يكتظ بأفئدة من الناس وسوف تمتلئ أسواقه من كل الثمرات، وبأنه سوف يعود ليتم رسالة ربه ويبني البيت الحرام.

ويعتبر (شبرنجر) أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم مرت بأطوار[1] .

أجل !! أليست هذه المعاني التي تعبر عنها تلك الصور التي مرت بنا تلوح لنا بتاريخ طويل حافل بالجهاد والتضحية والسير وراء الأهداف السامية مهما كانت التضحية، وبحياة حافلة بالعمل على جمع الكلمة وإنارة الطريق للجميع مهما كانت العقبات والمتاعب؟

أليست تشير إلى ذلك التطور الكبير الذي شمل البلاد العربية في الألف الثانية قبل الميلاد؟ ... أولم نر المؤرخين فيما تقدم يكادون يجمعون على أن هجرة إبراهيم كانت في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد[2] ؟ ... ولقد أوشك المؤرخون أن يجمعوا أيضًا على أن ذلك العصر كان عصر قوة ونشاط بالنسبة لشعوب الجزيرة العربية ودولها. وأوشكوا أن يجمعوا على أن التاريخ الحقيقي لقلب البلاد العربية أخذ يظهر في صورة واضحة وإن لم تكن كاملة من ذلك التاريخ، حيث بدأت الأمم العربية تتجمع حول البيت الحرام وتعقد مؤتمراتها في حج كل عام.

أجل ! إن إبراهيم أبا الأنبياء هو المؤسس الأول للعقيدة الحقة والمبادئ السامية التي قاربت بين أهداف العرب فتفاهمت القلوب وتوحدت الآمال وسارت الأكثرية في طريق العزة والمجد.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢/٢٧ .

(٢) سبق أن تعرضنا لتاريخ هجرة إبراهيم التي أكد تاريخها المطران الدبس في تاريخ سوريا بقوله : وعلى كل الأقوال بلغ إبراهيم بلاد كنعان حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م ج١/٤ .

وإن شريعة إبراهيم أبي الأنبياء وتعاليمه، احترمها الأنبياء بعده والرسل ودعوا إليها وحاربوا كل ما يشذ عنها في حياة الأجيال التي بعثوا إليها. فالأديان الكبرى التي شاء الله لها الانتشار والبقاء طويلاً هي: يهودية موسى وخلفائه من بني إسرائيل ومسيحية عيسى بن مريم والأسباط من بعده فلقد جاءت اليهودية والنصرانية تُؤيدان ملة إبراهيم، وتحترمان البيت الذي أقام إبراهيم قواعده إلى أن ظهر الإسلام، فلم يرض المسلمون أن تُدنس المسجد الحرام أصنام الوثنيين الذين يجعلون لله أندادًا كما رضي من قبلهم اليهود والنصارى.

بيد أن ذلك النضج العقلي الذي ارتفع بالبلاد العربية إلى مستوى جد عال بالنسبة لعالم القرن العشرين قبل الميلاد، والذي قال عنه جرجي زيدان: (فهي نهضة عربية منذ نيف وأربعة آلاف سنة تشبه نهضة العرب في صدر الإسلام، وللأمم أدوار تشب فيها وتغلب)[1] ، لم يكن بكاف لأن تتحمل الشعوب العربية مسئولية تاريخها، وتقدم للعالم ثروة حضارية خالدة، كما تحملت مسئولية التاريخ فيما بعد وقدمت للعالم حضارة ما زال العالم أجمع ينظر إليها بعين الإعجاب والتقدير؛ فلئن بعث إبراهيم الوعي الروحي في أرجاء البلاد العربية ردحًا من الزمن، ولئن أقام إبراهيم كعبة الإسلام لتجتمع حولها القلوب المسلمة وتتعارف وتتفاهم، فإن الوثنية لم تلبث بعد إبراهيم أن عادت أكثر مما كانت عليه فوضى وخرافة، وأقوى مما كانت عليه نفوذًا وسلطانًا.

ولم تكن دعوة الأنبياء والمصلحين بعد إبراهيم؛ إلا انتفاضات للوعي الخلقي يهدي الله بها من يشاء من عباده ثم لا تلبث أن تتصرف بها الأهواء وتحرفها الضلالة، وتبدل الكلم النافع والتشريع الصالح إلى أن انبلج نور محمد "صلى الله عليه وسلم" فأنزل الله الذكر وحفظه من التحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2].

---

(١) العرب قبل الإسلام ص ٧٠.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

١٣- أجل ! إن قصص الأنبياء أنارت جانبًا كبيرًا من ماضي الجزيرة قبل الطوفان وبعده. فعندما يتحدث المؤرخون عن الأنبياء قبل الطوفان، لا يألون جهدًا في جمع ما قيل عن آدم وكيف أسس الحياة الإنسانية، وما قيل عن ابنيه هابيل وقابيل، وكيف أسس بنو قابيل وبنو شيث الأسرة الاجتماعية في جبال الجزيرة وسهولها، وما قيل عن إدريس الذي تقول عنه الأكثرية : إنه من أنبياء ما قبل الطوفان، وكيف أسس الحضارة في الشرق الأدنى، وما قيل عن نوح وكيف وجد قومه قد ضلوا سواء السبيل في عبادة الله وإقامة تعاليمه.

وهذه هي مراحل التطور التي قطعها الإنسان في زمنه الطويل قبل الطوفان: ومجال هذا التطور في حديث المؤرخين لم ينتقل من شمال الجزيرة العربية إلى قلبها وجنوبها؛ إلا بعد الطوفان، وعذر المؤرخين في قصر الحديث على هذه الشخصيات وعنها، وجعله في هذا النطاق الضيق، يبرره أن ما جاء في القرآن الكريم عن العالم القديم، وما نسب إلى الأسفار لم ينوه بغير هذه الشخصيات، ولم يفسح لها مجالاً أكبر من هذا النطاق. وأكثر من هذا :أن التوراة لم تذكر هودًا ولا قومه، ولم تذكر صالحًا ولا قومه، وهم من عالم ما بعد الطوفان.

والذي يتدبر القرآن الكريم يجده لا يذكر من أسماء الماضين غير الأسماء المعروفة، ولا يتحدث عن عبر الماضي بغير الأحداث التي ما زال صداها تردده الأجيال؛ لأن الغرض الأول من ذكر أحداث الماضي هو الموعظة والعبرة. فالقرآن تحدث عن آدم وهابيل وقابيل، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، ولوط، وهود، وصالح، وشعيب، ويوسف، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ولقمان، وغير هؤلاء من الأنبياء والرسل والحكماء الذين كانت في حياة كل واحد منهم موعظة تناقلت الأجيال شيئًا من أخبارها.

ولما كان القرآن الكريم لم ينزل لأمة دون أخرى؛ نراه يشير إلى بعض الأحداث غير العربية، ولما كانت أحداث الجزيرة العربية أرض الأنبياء والرسل، منها ما هو مجهول

عند غير العرب كأحداث عاد وثمود ، ومنها ما هو مختلف عليه مثل أصحاب الأخدود ، ومنها ما اشتبه فيه مثل ما قيل عن داود وسليمان إلى غير ذلك ، نجد القصص القرآني يتحدث بشيء من التفصيل عن قوم عاد وقوتهم وحضارتهم ، وعن قوم صالح ونحتهم من الجبال بيوتًا ، وعن قصة داود وسليمان ، وعن حادثة الأخدود والنار ذات الوقود.

أما التوراة والمصادر الإسرائيلية ، وأما مؤرخو الكلدان والمصادر اليونانية ، فهذه جميعها قد عنيت بالأحداث المتصلة بالهلال الخصيب التي خاض غمارها أنبياء بني إسرائيل وملوك بابل وآشور. وأباطرة مقدونية. فلذلك لم يأت ذكر في التوراة عن قوم عاد ونبيهم هود ، وعن قوم ثمود ونبيهم صالح. وأكثر من هذا أن المصادر اليونانية المعاصرة للمسيح لم تذكر المسيح كما كان ينتظر منها. فما هو موقف التحقيق الذي لا يأخذ إلا بما جاء في أقوال المستشرقين؟

فهل معنى ذلك : أن هودًا وقومه ، وصالحًا وشعبه ، والمسيح بن مريم لم يكن لهم وجود في هذه الحياة؛ لأن المصادر اليونانية لم تذكرهم ولأن بعض المستشرقين شك في وجودهم[1] ؟ إن النصوص التي لا شك فيها تؤكد : أن هودًا وصالحًا وعيسى أنبياء لا ريب في حقيقتهم ، وهل معنى ذلك : أن العرب في قلب الجزيرة العربية من عهد آدم إلى عصر إبراهيم أهملوا بدون تشريع ينظم حياتهم تقوم على أساسه الأسرة ويبنى عليه التعامل والتعاون ، ويربط بين الزوج وزوجه وبين الفرد و مجتمعه!؟ لعل (ديتلف نيلسن) هو من القلائل الذين يؤكدون : (أن الدين العربي القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلي الآشوري المعقد)[2] .

---

(١) عبقرية المسيح للعقاد ص٨٠ و ٨١ . في الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربي تحقيق في هذا الموضوع ، وإنما ضرورة البحث هي التي جعلتنا نسبق ذلك التحقيق بهذه الإشارة.

(٢) التاريخ العربي القديم ص٥٣ .

حقًّا ! إن في المصادر العربية والإسرائيلية أنباء غامضة ولكنها على غموضها تلوح منها أدلة تثبت : أن مشاعل المبادئ قد أضاءت قلب الجزيرة من أقدم عصوره. ولقد سبقت في بحث (قلب البلاد العربية المهد الأول للإنسان وحضارته) الأدلة التي رأينا فيها ما يوضح جزءاً من تلك الأنباء الغامضة.

وإن ما في بعض هذه الأنباء الغامضة، وما في قصص الأنبياء من مواعظ وعبر، قد أضاء لنا ولا شك جانبًا كبيرًا من تاريخ العرب القديم، وإن هذا الجانب الواضح في قصص الأنبياء أكدت قسمًا كبيرًا منه تحقيقات الأثريين في الجنوب وفي الشمال.

١٤- فنحن إذا ما رجعنا إلى تلك الأنباء الغامضة التي نجدها في المصادر الإسرائيلية، وفي المصادر العربية مبعثرة حسبما تقتضي المناسبة التي تدعو إلى ذكرها، والتي تحدثنا عن عصر إدريس الذي أنجب من المصلحين أفذاذًا بلغ احترام الجماهير لهم النهاية المفروضة لكل احترام يغالى فيه بالأسلوب الذي يتسلط على عقلية العامة، نجد تلك الأنباء تؤكد لنا : أن الدين الأول هو التوحيد، وأن الوثنية على قدمها ظهرت متأخرة، ولأنها كما تجمع المصادر اليهودية والمصادر العربية نتيجة احترام تماثيل العظماء المصلحين الذين برزوا في عصور ما قبل الطوفان.

ونحن إذا ما رجعنا إلى قصة نوح، نجد في الجدل الذي دار بين نوح والذين كفروا من قومه ما يوضح لنا عقلية ذلك الجيل، وأنه كان لا يجهل الإله الأعظم الذي عنده خزائن لا تنفد والذي من خلقه الملائكة المقربون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۞ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[1] ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي

(١) سورة هود، الآيات : ٢٥-٢٧ .

خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(1).

ونحن بعد هذا الذي نجده لا يخامرنا شك في أن النتيجة التي وصل إليها (ويليم شميد) في العصور المتأخرة والتي وضحها (ديتلف نيلسن) عندما قال : [أما تعدد الآلهة الذي طرأ فيما بعد فهو خروج على الدين الأصلي التوحيدي القديم](2) ، قد سبقه إليها المفسرون ورواة أخبار الماضي القديم الذين قالوا : إن قوم نوح جيل سبقته أجيال عبدت الله وحده وأجيال جاءت بعدها ضلت الطريق إلى الله تعالى كما ضلت الأجيال بعد نوح، بعد أن تطاول العهد ونسي الناس دعوة نوح.

ولقد جاء في بحث جواد علي في الأديان السامية القديمة : [ويتبين من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من أشكال التوحيد عند القبائل السامية البدائية](3) . وجاء في بحث (ديتلف نيلسن) وتحقيقه في الديانة العربية القديمة : [وتتفق الآلهة الشمالية مع الآلهة الجنوبية في وجود إله مسيطر](4) .

إذن فالوثنية على قدمها لم تكن البداية في تاريخ الأديان في جزيرة العرب، والوثنية في جزيرة العرب هي انحراف تمثله تلك الأصنام التي اتخذها الوثنيون وسطاء بينهم وبين الله الذي ملأ الوجود كله، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والذي يسمع ويجيب دعوة الداعي إذا دعاه بدون وسيط.

---

(١) سورة هود ، الآية : ٣١ .

(٢) التاريخ العربي القديم ص ١٧٦ .

(٣) تاريخ العرب لجواد ٥/٢٨ .

(٤) التاريخ العربي القديم ص ١٧٦ وما بعدها و١٨٦ .

وكذلك وثنية ما بعد الطوفان لا تنفي وجود الله. وإنما هي تجعل له أندادًا شركاء.. ولم تكن عقلية الوثنيين بعد الطوفان أوسع أفقًا من عقلية الوثنيين قبل الطوفان. فمثلما جادل نوحًا قومه جادل هودًا قومه : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

ولقد جاء في تفسير الطبري : أن (ودًّا) و(سواعًا) و(يغوث) و(يعوق) و(نسرًا) آلهة كان يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك، فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع لهذيل برُهاط، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع، وكان نسر لذي كلاع من حمير[2].

ولقد كانت نزار تقول إذا ما أهلت : (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك).

ولقد تعثرت الصابئة بفكرة تأليه النجوم وتفرقت بهم هذه العقيدة إلى ملل يشير إليها القرآن الكريم[3] فيما قصه عن إبراهيم :

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

---

(1) سورة الأعراف ، الآية : ٧٠ .

(2) تفسير الطبري ٦٢/٢٩ ، وسيرة ابن هاشم ص٧٨ ج١ .

(3) في بحث القصص القرآني رد على نقد المستشرقين موضوع تكرر الآيات والقصص فراجعه في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(4) سورة الأنعام، الآيات : ٧٦-٧٩..

وينقل الأستاذ البتنوني عن (رولنسون)[1] : أنه كان يوجد في بابل هيكل يسمونه برج نمرود، وكان مبنيًا من سبع طبقات ارتفاعها اثنتان وخمسون ياردة، كل طبقة ذات لون خاص يرمز إلى كوكب من الكواكب السبعة.

ولم تكن عبادة الكواكب محصورة في (بابل) و (أور)[2] بل هي قد انتشرت مع الوثنية في جميع البلاد العربية، فالكواكب الإلهية في مصر لها الصدارة بين الآلهة المصرية فالشمس كانت تسمى الإلهة (آمون ـ أو ـ أزوريس) والقمر الإله (إيزيس) كما كان لها شأن في سوريا وفي اليمن.

ويعتقد الكثير : أن عبادة الكواكب انتقلت من بابل إلى مصر عن طريق سوريا التي أقامت للإلهة الشمس التي أسمتها (بعل) هيكلا اسمه (بك). ولا تزال مدينة بعلبك اللبنانية تعرف بهذا الاسم إلى اليوم.

١٥- وعبادة الكواكب وإقامة التماثيل لها، قديمة في الجنوب، فالشمس والقمر والزهراء من آلهة الشعوب اليمنية، وعندما تحدث (ديتلف نيلسن) عن عبادة الكواكب في جنوب الجزيرة العربية ذكر الثالوث الكوكبي : الأب ويمثله القمر والأم وتمثلها الشمس والابن وتمثله الزهراء.

وكأنما ديتلف نيلسن عندما قال : [أما تعدد الألهة الذي طرأ فيما بعد، فهو خروج عن الدين الأصلي التوحيدي في القديم] كان يعني وجهة نظر المؤرخين

---

(١) راجع **الرحلة الحجازية** للبتنوني ص ١١٠.

(٢) جاء في **دائرة المعارف الإسلامية** في مادة (الرها) مجلد ٢٦٦/٩ : أن الرها هي (أروقة)، ويعتقد بعض المؤرخين : أن (أور) هي أروقة، وجاء في **دائرة المعارف الإسلامية** أن الرها فيما قبل المسيح كانت مركزًا لعبادة الكواكب شأنها شأن حران، وفي بعض الروايات يقال : إن (حران) هي بلد إبراهيم وحران اشتهرت بصفة خاصة بأنها قصبة الصابئة.

الإسلاميين ولكنه على كل حال لم يخرج عما قاله (ويليم شميد) : إن العرب كانوا في الأصل موحدين.

ولئن استغرب "ديتلف نيلسن" من إهمال القرآن الوثنية القديمة، ومن عدم اهتمامه بذكر آلهة كثيرة كانت لها شهرة كبيرة في جاهلية العرب [ومن ثم فالآلهة التي ذكرت هي عادة آلهة عصر الاضمحلال والتدهور الذي سبق الإسلام . أما فيما يتعلق بعصرها الذهبي فالمصادر العربية الإسلامية تجهلها جهلاً تامًّا كما تجهل العصر العربي الذهبي الجاهلي][(1)] فإنني لا أستغرب معه من ذلك، وإنني قد أدليت بما وصلت إليه في القصص القرآني والغرض منه في الفصل الخاص بالقصص القرآني في الجزء الثاني (مصادر التاريخ العربي) من هذا الكتاب.

١٦- فالوثنية على مختلف أنواعها، ومتعدد صورها، ومتفاوت عصورها، لم تكن بداية التدين في بلاد العرب، وإنما كانت انحرافًا عن الطريق القويم لعبادة الله، وإن ظهور الوثنية في البلاد العربية سبق التاريخ الحقيقي بدهور طويلة. فلقد بدأ الصراع بين الرسل وبين الوثنية من فجر الحياة العربية. وما فجر الحياة العربية منًّا بقريب، إنه يرجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد.

والوثنية في الحجاز لم تذكر إلا بعد إبراهيم. ولم يكن لها مكان في مكة إلا بعد عمرو بن لحي. وزمن عمرو بن لحي يعتبر من أواخر جاهلية ما قبل الإسلام. فمع العهد الخزاعي في مكة ظهرت الوثنية في حرمها. أما قبل ذلك فلم نسمع أن إبراهيم حطم أصنامًا في "أم القرى" مثلما حطم أصنامًا في "أور"، ولم نسمع أن سكان الحجاز ناوأوا إبراهيم وإسماعيل في رفع القواعد من البيت، ولم نسمع أصواتًا عارضت إبراهيم عندما أذن في الناس بالحج، أو عن وثنيين صدوا الذين لبوا النداء فأقبلوا يهللون ويكبرون.

---

(١) التاريخ العربي القديم ص١٧٧ .

فكل ما جاء في المصادر الإسلامية عن الوثنية قبل عصر خزاعة محصور في قصص عاد، وثمود، وأصحاب مدين - في وادي القرى وأرض مدين - ولقد سبق في البحث عن عصور إبراهيم، وهود، وصالح أننا مقتنعون برأي الذين يقولون: إن إبراهيم سبق عصره عصر هود وصالح.

والبحث في وثنية ابن لحي يسوقنا إلى شمال الحجاز، إلى (الحجر) عاصمة ثمود لنعلم: أن آلهة الثموديين تشارك آلهة قريش في أسمائها، ولنعلم: أن من آلهة ثمود صنمًا اسمه (ودّ)، و(ودّ) من الأصنام القديمة التي عاصرت نوحًا، أو هي من قبل نوح، و(ودّ) اسم أطلق على أصنام يمنية[1]. ونحن إذا علمنا كل ذلك يظهر لنا: أن الوثنية انتشرت حول مكة دهورًا ولكنها لم تدخل الحرم المكي إلا في عهد عمرو بن لحي.

والبحث في قصة عمرو بن لحي يؤكد: أن ابن لحي نقل الوثنية من (مآب). من أعمال البلقاء، إذن فإن الوثنية التي جاء بها عمرو بن لحي إلى مكة هي سليلة وثنية ثمود. فحديث الأثريين عن الثموديين يؤكد انتشارهم في شمال الحجاز وجنوب سوريا وصحراء سيناء، وهذه المناطق في عهودها القديمة سكنها الإرميون الذين جاءوا من العراق بعد أن عمروه وأقاموا فيه حضارة انصهرت فيها حضارة الشعوب التي كانت تعيش في العراق من قبل التاريخ، مثل: "الشعب المعيني" الذي سكن شمال الحجاز حقبة من الدهر ثم استوطن اليمن[2].

(١) راجع **التاريخ العربي القديم** ص٤٢، و٤٤ والجزء الأول من **سيرة ابن هشام** ص٣٧.

(٢) راجع بحث معين في الجزء الخاص بشعوب الجزيرة العربية من هذا الكتاب. ولقد عثر الأثريون بين أخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ق.م على نصب عليه نقوش مسمارية جاء فيها أن "نرام سين" حمل على (معان) وجاء ذكر هذه الأمة أمة ماليق في آثار بابل سنة ٣٥٠٠ق.م. **العرب قبل الإسلام** لجرجي زيدان ص١٣٣.

فعلى ذلك تكون وثنية الثموديين قد تأثرت بوثنية بلاد ما بين النهرين منذ وصل المعينيون إلى وادي القرى .

ولقد وصل بحث (ديتلف نيلسن) في أديان الشعوب العربية القديمة المستند على النصوص الأثرية إلى : [أن الثالوث الآلهي عند المعينيين الذين سكنوا (دادان) الاسم القديم للعلا المكون من (عشتر) و(ود) و(نكرح) الشمس والقمر والزهراء هو نفس الثالوث الإلهي عند الجاهليين في اليمن][١].

والوثنية التي جاء بها ابن لحي إلى مكة لم تنل من مكانة الكعبة في نفوس العرب وغير العرب ولا من شرف مكة القديم الذي نوه به المؤرخ الروماني (سيسلاسي)[٢] الذي عاش قبل الميلاد بمخسين عامًا بقوله : (إن مكة أشرف معابد الشرق وأقدمها).

ويقول المؤرخون : إن مما ساعد على انتشار الوثنية في قلب الجزيرة ، حرص بني إسماعيل على تعظيم البيت الحرام والتبرك به والتعبد عنده. فهم كانوا شديدي التعلق به والتعبد عنده والتبرك بحجارته. فإذا ما اضطرتهم الظروف على البعد عنه حملوا معهم حجرًا من حجارة الحرم. فحيثما نزلوا وضعوا الحجر وطافوا به كطوافهم بالكعبة. فمن هنا وجدت فكرة الوثنية طريقها إليهم. فلم يلق ابن لحي معارضة عندما أتى بالأصنام من البلقاء وأقامها حول البيت.

فعلى هذا لم تدخل الوثنية إلى مكة ؛ إلا بعد إبراهيم بأجيال. وبدخول الوثنية إلى مكة ساد نفوذها على الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، فانتشرت بيوت الأصنام في الأحياء العربية الحجازية وفي نجد واليمامة.

---

(١) التاريخ العربي القديم ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) قوافل العروبة ومواكبها لبيهم ص ٣٢ ج١.

وكان من جراء هذا الانتكاس أن تردت عقيدة العربي في حضيض من سخافات نقدها الكثير من عقلاء العرب الجاهليين مثل (قُس بن ساعدة) و(ورقة بن نوفل) و(عبدالله بن جحش) و(عثمان بن الحارث) و(أمية ابن أبي الصلت)؛ بل هزأ منها الأعرابي في صحرائه وسخر من خرافاتها بصورة تتجلى في هذا النقد اللاذع :

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد؟

* * *

أربٌ يبول الثعلبان برأسه ؟ ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب!

ويحدثنا الشهرستاني عن تبلبل العقيدة العربية فيقول : [إن العرب أصناف. فمنهم معطلة ، ومنهم محصلة نوع تحصيل. ومعطلة العرب أصناف منهم : من أنكر الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحي والدهر المفني وإليهم أشار القرآن : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحيَا وَمَا يُهلِكُنَا إِلا الدَّهرُ﴾(1) ؛ ومنهم من أقر بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكر البعث والإعادة وهم الذين أشار إليهم القرآن : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(2) ، ومنهم من أقر بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة ، وأنكر الرسل ، وعبد الأصنام وزعم أنهم شفعاء عند الله في الآخرة ، وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا لها بالمناسك والمشاعر ، وحللوا وحرموا. وهم الدهماء من العرب. ومن العرب من يعتقد التناسخ فيقول : (إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيرًا (هامة) فيرجع إلى رأس القبر كل مئة سنة). ويؤكد الشهرستاني : أن من العرب من كان يميل إلى النصرانية ومنهم من يصبو إلى الملائكة فيعبدونهم. ومنهم من كان يعبد الجن ويعتقد أنهم بنات الله].

---

(1) سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .

(2) سورة يس ، الآية : ٧٨ .

ويفتتح أبو إسحاق إبراهيم النجيرمي رسالته "إيمان العرب في الجاهلية" بقوله: [وكانت العرب في الجاهلية على مذاهب، فكان معظمهم يدين لله تعالى ذكره ويتمسك بإرث من ملة إبراهيم، ويحج، ويتأله، ويعظم الحرم والأشهر الحُرم، ويضع أوزار الحرب، وإن ظفر بعدوه فيها لم يمسسه بسوء. وكانوا أخيافًا. فكان منهم: من يستحل في الحرم المحرم، ومنهم من يحرم المحل والمحرم، ومنهم من يحل عن المحرم ويحرم عن المحلل].

ولقد جاء في كلام صاحب المستطرف عن انتشار الأديان في جزيرة العرب: [فكانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض من قضاعة. وكانت اليهودية في نجد وكنانة وبني الحارث بن كعب، وكانت المجوسية في تميم].

١٧- فمجموعة هذه العقائد والنحل التي تحدث عنها الشهرستاني والنجيرمي والأبشيهي وغيرهم إن دلت على شيء فإنما تدل أولاً على صراع الأديان في أرض الأنبياء - ذلك الصراع القديم الذي شهدته هذه الأرض منذ عصورها الأولى .. ومن المفروض أن تختلف فلسفة المعتقدات حسب تطور الحياة العربية وملابسات العصور. وذلك ما نراه واضحًا في البحوث التي تعمقت في معرفة العقائد التي كان لها تأثيرها على عوالم الماضي البعيد. وفي البحوث التي تحدثت عن وثنية ابن لحي.

والخليق بالإشارة إليه هنا: هو ما يلاحظ على سكان قلب الجزيرة العربية؛ فهم على الرغم من صراع العقائد العنيف الذي كان على أشده عشية ظهور الإسلام، وعلى الرغم من الهجرات اليهودية واحتمائها بسلطان التبابعة في الجنوب، وبأهداف المطامع الكسروية في الشرق، وعلى الرغم من كل ذلك، فلقد كانت الأكثرية في قلب الجزيرة العربية متمسكة بإرث من ملة إبراهيم، تحج وتتأله وتعظم الحرم والأشهر الحُرُم وتضع أوزار الحرب وإن ظفر بعضهم ببعض فيها لم يمسسه بسوء.

فلقد نزحت اليهودية من فلسطين إلى الحجاز، فاستوطن اليهود في (تيماء)، و(المدينة)، و(خيبر)، و(فدك)، و(وادي القرى). ومن المدينة رحلت اليهودية إلى اليمن مع "تُبَّع" الذي كسا الكعبة استجابة لاقتراح أحبار اليهود الذين عاد بهم من المدينة إلى اليمن[1]. ولقد كثرت هجرة النصارى إلى بلاد العرب فانتشرت النسطورية في (الحيرة)، وانتشرت اليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام ووصلت إلى (نجران)، ولقد كانت المجوسية دين الدولة ذات السيادة على العراق - الفارسية.

ولقد كان لهذه الأديان شأنها في مقدرات البلاد العربية السياسية إبان الصراع الذي استمر طويلاً بين فارس والروم.

ومع هذا كله، فإن اليهودية التي وجدت طريقها إلى داخل شبه الجزيرة، والتي كان الأكاسرة يتخذون منها عونًا لدعايتهم ضد الروم لم تستطع أن تحل محل ملة إبراهيم كما كان ينتظر لها ولا سيما أنها ديانة تقوم على توحيد الخالق. بل هي لم تؤثر على الأوس والخزرج الذين جاورهم اليهود واختلطت مصالحهم بمصالح اليهود التأثير المنتظر منها في المدينة، ولم يستطع اليهود أن يلفتوا نظر قريش إلى اليهودية، في الوقت الذي كان اليهود يتعبدون عند البيت ويحترمون الكعبة ويقدسون حرمها[2]. وكذلك لم يكن للنصرانية التأثير المنتظر بالنسبة لقوة أنصارها وأحزابها، وبالنظر إلى أن عقيدة الثالوث المقدس عقيدة قديمة انتشرت في شمال الجزيرة العربية وجنوبها، وبالنسبة لنشاط المبشرين بها، فلقد جاء في تاريخ الطبري: أنه وجد نقش على قبر في قمة الجماء جبل في المدينة المنورة قرأه بعض الذين يعرفون الخط المسند من الفرس، فإذا هو : هذا قبر رسول رسول الله عيسى بن مريم إلى أهل هذه البلاد[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٠ مطبعة الحلبي سنة ١٩٥٥م.

(٢) الرحلة الحجازية للبتنوني ص ١١٣ وما بعدها.

(٣) تاريخ الطبري ١/٤٣٧.

أما المجوسية وأسوأها مذهب المزدكية، فلا غرو إن كان تأثيرها على القبائل العربية ضئيلاً جداً. فالمجوسية دين الأكاسرة لم يكن لها من المكانة بحيث تستطيع أن تقف أمام نصرانية الروم، وذلك ما دعا الأكاسرة أن يتخذوا من اليهودية نصيرًا إزاء المسيحية.

وإذا كانت مكة تشرفت بالبيت الحرام، وإذا كانت جبالها رددت صدى نداء إبراهيم، فكذلك قد شهدت مدنٌ حجازية غير مكة جهاد الأنبياء والرسل، فلقد شهدت الأحقاف بعثة (هود) وشهدت الحجر دعوة (صالح) وشهدت مدين رسالة (شعيب) وشهدت فلسطين كفاح أنبياء بني إسرائيل وغيرهم من دعاة الإصلاح والخلق الفاضل.

وهذا الذي شهدته أودية الجزيرة العربية وجبالها ورمالها - دليل محسوس يؤكد بصراحة لا غبار عليها وبمنطق لا لبس فيه: أن العقلية العربية، صقلتها من أقدم عصور الإنسان تشريعات الأنبياء، فعرفت الحياة وواجب الإنسان فيها، وعرفت كيف تنظم المجتمع الفاضل، وكيف تؤسس الحياة العزيزة.

وإذا كانت الأوضاع العربية لا سيما في قلب الجزيرة قد تدهورت أخيرًا متأثرة بأحداث الزمن الطويل. وبما أحاط بعالمها من شرور الأطماع السياسية؛ فالبلاد العربية كما تعرضت لكوارث الطبيعة التي قدرها الله لها، كذلك كانت هدفًا لأطماع كل من حَلِمَ بالسؤدد والنفوذ على الشرق الأدنى، فهي من ذلك كله ذاقت حلو الحياة ومرها. فبعد أن كانت تسود هذا الشرق العربي جميعه من الفرات إلى النيل، أصبحت تدافع عن حياضها في عقر دارها في "ذي قار" وفي "مكة"، وبعد أن كانت مشاعل الأنبياء تضيء أرضها، أمست في ظلام دامس من الفوضى والجهل واختلاف الكلمة، إلى أن تداركها الله برسول العالم محمد (صلى الله عليه وسلم) فاشرق النور، ووضح

الطريق، وتجلت الفضيلة، فكان لهذه الأمة العربية فضل الجهاد في سبيل الحق والنور. وكان لقلب الجزيرة فضل القيادة الرشيدة العادلة.

وإذا كان هناك من لا يصدق بهذه الحقيقة البينة ما لم ير الدليل المادي فليرجع إلى التاريخ العربي الإسلامي ويقارن ما بين عصر السلف العزيز بإيمانه، القوي بتآزره، الوثاب بإخلاصه وصدقه وتفانيه، وبين عصور من خلفهم ممن أضاع كل ما يفخر به التاريخ العربي.

وإذا كان لنا أن نستشهد بما يؤكد قدم الحضارة في قلب الجزيرة، فإن قدم الأديان في مهابط الوحي أوضح شاهد يؤكد لنا : سبق هذا الجزء للحضارة، وقدم مجتمعاته في التاريخ، كما أن تراثنا الثقافي لغة وشعرًا أنار لنا جانبًا آخر من جوانب الحضارة العربية في هذه الربوع.

البحث الثامن

اللغة العربية هي الأصل للغات العالم العربي القديم

لسان جرهم وعاد هو لسان مضر وإياد.

من موضوعات البحث :

١- البحث عن أم اللغات السامية سار في طريق البحث عن الأرومة السامية.

٢- الجزيرة العربية هي مهد الساميين .

٣- قدامى المستشرقين يؤكدون : أن اللغة العربية هي أم اللغات السامية، والمتأخرون يرفضون البحث في أم اللغات السامية !!

٤- آراء جرجي زيدان وولفنسون وجواد علي في أم اللغات السامية.

٥- أم اللغات المفقودة هي الأصل الذي تفرعت عنه أم اللغات السامية.

٦- وجهة البحث في أم اللغات السامية.

٧- الحقيقة فيما يقال عن اللغة العبرية وأنها الأصل للغات السامية.

٨- أخطاء الذين ظنوا ان اللغة العربية الأولى بادت مع العرب العاربة.

٩- تطور اللغة العربية حقيقة لا ريب فيها.

١٠- لغة الشعوب العربية في الوقت الحاضر.

١١- اللغة العربية في الماضي القديم تأثرت بلغة الأمم التي جاورتها.

١٢- لم يكن للغة العربية حصن غير قلب الجزيرة.

١٣- لقد كانت هناك لهجات عامية في الماضي القديم مثل ما في الحاضر من لهجات يختص بكل واحدة منها قطر من الأقطار العربية.

١٤- الخطوط القديمة وأبجدياتها عامل مهم من عوامل اختلاف اللغة العربية في أقطارها العربية.

١٥- إن التطور لم يخرج اللغة العربية عن أصلها .

اللغة العربية هي الأصل للغات العالم العربي القديم

لسان جرهم وعاد هو لسان مضر وإياد

١- لقد سار البحث عن أرُومة اللغات التي كانت تتكلم بها أمم من العرب في الزمن القديم أطلق عليها المستشرقون في القرن الثامن عشر الميلادي اسم[1] : الأمم السامية في الطريق الذي سار فيه البحث عن الأرُومة العنصرية لهاتيك الأمم العربية.

فكما أن البحث عن الأرُومة السامية سار في طريق التردد والشكوك طويلاً قبل أن يصل إلى الحقيقة التي تؤكد : أن الأمم السامية هي أمم عربية من عنصر عربي، وأن مهدها الأول هو الجزء الذي يحده الهلال الخصيب شمالاً من جزيرة العرب، كذلك سار البحث عن أرومة اللغات السامية في طريق التردد والشكوك قبل أن يصل إلى الحقيقة التي تؤكد : أن اللغات السامية تفرعت من اللغة العربية.

٢- فاستقصاء الحقائق التاريخية أثبت : أن الكلدانيين، والآشوريين، والآراميين، والفينيقيين، والهكسوس كل هؤلاء شعوب عربية انتقلت من أواسط الجزيرة العربية إلى شمالها. فأسست في العراق، وفي سوريا ولبنان وفلسطين، وفي مصر قومية عربية ولغة عربية، وأثبتت بعد ذلك: أن الأمم العربية قبل الإسلام لم تستطع أن تحافظ على قوميتها وعلى لغتها. فكثيرةٌ هي الكوارث التي حطمت قوميتها، وكثيرة هي الأزمنة التي طغت فيها على لغتها صفات ولهجات من لغات العناصر التي احتكت بها في أنهار ومدن الهلال الخصيب، وفي دلتا النيل والشواطئ العربية، فجعلت كل واحدة منها تكاد تكون مستقلة عن الأخرى، من حيث الأبجدية ومن حيث النطق، ومن حيث القواعد والخصائص.

---

(١) لقد اعتبرنا الاسمين (سامي وعربي) مترادفين، فلم نتقيد بواحدٍ منهما في بحوث هذا الكتاب.

واستقصاء الحقائق التاريخية أثبت : أن اللغة التي كان يتكلم بها الساميون في مهدهم الأول هي : اللغة السامية الوحيدة التي احتفظت بصفاتها الأصلية؛ لأنها عاشت داخل الجزيرة. وداخل الجزيرة هو البلد الوحيد الذي لم يشارك الساميين فيه غيرهم من عوالم الماضي التي اكتظت بها ضفاف الأنهار، وسواحل البحار، ومدن الطرق التجارية؛ فقلب الجزيرة هو البلد الذي تمتع الساميون فيه بالاستقلال الكامل في كل عصر من عصورهم، وفي كل لون من ألوان حياتهم، فلم يدخله عليهم غاز إلا وفشل، ولم تجاورهم فيه أمة من الأمم إلا واستعربت، كاليهود الذين استعربوا في المدينة "يثرب" وفي "خيبر" وفي "وادي القرى" ولم يحتفظوا بغير عقيدتهم، وبغير الغريزة الاقتصادية، وبغير المكر اليهودي السيء.

٣- فمما جاء في كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون، وفي كتاب العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان، وتاريخ العرب لجواد علي وفي غيرها من المؤلفات التي اعتمدت في بحثها على الآراء التي سارت في طريق الشكوك: تظهر لنا صورة التردد الذي سبق الاطمئنان إلى الحقيقة القائلة بأن الجزيرة العربية هي مهد الساميين، وأن اللسان العربي هو الأصل للغات السامية. فلقد قال "ولفنسون" في مقدمة كتابه تاريخ اللغات السامية : [بقيت هناك مشكلة أخرى لها خطرها في هذا الموضوع وهي : أي لغة من اللغات السامية أقرب صلة وأقوى شبهًا باللغة السامية الأصلية؟ وهذه لم تحل أيضًا حتى الآن، بل اختلفت فيها أقوال الباحثين أيضًا واضطربت آراؤهم. فقد كان أحبار اليهود في العصور القديمة يعتقدون : أن اللغة العبرية هي أقدم لغة في العالم. وسرت هذه العقيدة من اليهود إلى غيرهم من الساميين حتى إن العرب في القرون الوسطى كانوا يعتقدونها، ثم جاء المستشرقون بعد ذلك فذهبوا مذاهب شتى، فالعالم "أولهوزن" يقول : إن العربية هي أقرب لغات الساميين القديمة، وأيد رأيه هذا بجملة أدلة ارتاح لها الكثيرون من علماء الإفرنج، وأما المستشرقون الحديثون،

فينظرون إلى هذه المشكلة بعين غير التي كان ينظر بها سابقوهم فهم يرون : أن من العبث أن يبحث المرء في لغات الساميين عن أقربها من السامية الأصلية][1] .

ثم قال أخيرًا مقتنعًا بالحقيقة التي تؤكد : [أن من مميزات اللغة العربية: أنها تشتمل على عناصر قديمة جدًّا من اللغات السامية الأصلية ، وهذا يدل على أن اللغة العربية كانت موجودة في مهد اللغات السامية ، أو في ناحية قريبة منها ، أو أن العناصر التي نزحت إلى البلاد العربية كانت من أقدم الأمم السامية][2] .

أما المستشرقون المتأخرون الذين قال عنهم ولفنسون : إنهم يرون أنه من العبث البحث عن أم اللغات السامية ، فهؤلاء عندما يبحثون عن لغة من اللغات وصلاتها بأخواتها الساميات يرجحون : أن لهذه اللغات أمًّا وطنها (الجزيرة العربية) ، فلقد جاء في كلام (هومل) : [فمن المحقق الآن أن القرابة قوية جدًّا بين أبجدية النقوش العربية الجنوبية وبين الأبجدية الفينيقية ، لكن الخلاف حول درجة هذه القرابة ونوعها. فإما أن الأبجديتين نشأتا من أبجدية واحدة ، أو أن إحداهما تفرعت عن الثانية ، ولكن إلى جانب هذه الاحتمالات وتلك الآراء يجب أن تذكر الظروف المحلية التي قد تزيد المسألة صعوبة ، فعلينا قبل كل شيء أن نسلم بوجود حلقة اتصال مفقودة. ووطن الأبجدية الأصلية سواء كانت هذه الأبجدية فينيقية أو عربية جنوبية ، مثلاً هل هذا الوطن هو شرق بلاد العرب أو أرض كنعان أو بلاد العرب الجنوبية؟][3] .

ومن رأي (هومل) : الاهتمام بالعلاقة الموجودة بين الكتابة المصرية القديمة ، وبين الأبجديتين القديمتين أو إحداهما : [كما أنه توجد اعتبارات أخرى جديرة بالاهتمام

---

(١) تاريخ اللغات لولفنسون ص٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٨.

(٣) التاريخ العربي القديم ص٦٠ ، ٦١ .

كالعلاقة بين تلك الأبجدية السامية والأبجدية المصرية القديمة التي عرفت حوالي عام (٤٠٠٠) ق.م.][1] .

فهذه الظنون التي انطلقت تبحث عن وطن اللغة الأم، لم تذهب إلى غير داخل الجزيرة العربية. فأرض كنعان الأولى هي : اليمامة وسواحل الخليج العربي. وأرض كنعان الثانية هي : سوريا ولبنان وفلسطين (سوريا الكبرى). ولم يقل أحد : إن سوريا هي الوطن الأول للغات السامية؛ لأن الكنعانيين هاجروا من وطنهم الأول بكثير من حضارتهم وفنهم في الملاحة، وحرصوا على أن يطلقوا على بعض مدنهم في سوريا ولبنان أسماء مدنهم في الخليج العربي. فمن غير المحتمل أن يكون هؤلاء الكنعانيون تركوا لغتهم في الخليج ليتخذوا لغة جديدة في لبنان. والعربية الجنوبية لا يتجاوز تاريخها في الجنوب إلى أكثر من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، بينما الأبجديات السامية يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد بكثير.

إن الأبجدية السامية دخلت إلى وادي النيل قبل عصر الأسرات، كما أثبت ذلك (بريستد) في كتابه (مصر من أقدم العصور)[2] ، ولذلك قال هومل : يجب الاهتمام بالعلاقة بين الأبجدية السامية والمصرية القديمة التي عرفت حوالي عام (٤٠٠٠) ق.م.

ثم جاء بعد (هومل) و(ولفنسون) جواد علي، يفند بعض الآراء التي تذهب إلى أن أفريقية الشرقية هي مهد الساميين، وبذلك تكون لغتها هي أم اللغات السامية، فقال : [وهذه نظرية غضت الطرف عن الاعتبارات التاريخية. فمن الممكن إرجاع ما لاحظه علماء اللغات من وجود صلات لغوية بين اللغات السامية واللغة المصرية القديمة إلى عوامل الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية، وعن طريق سيناء إلى أفريقية مثل

---

(١) التاريخ العربي القديم ص ٦١.

(٢) مصر من أقدم العصور ص ١٧.

هجرات الهكسوس، وهم من أصل سامي جاءوا إلى مصر من بلاد العرب، وإذا سوغ علماء النظرية الأفريقية لأنفسهم الاستدلال على أفريقية الساميين من وجود القرابة اللغوية بين اللغة المصرية مثلاً واللغات السامية، فإن من الممكن إرجاع هذه القرابة إلى أثر تلك الهجرات السامية في اللغة المصرية. وأما تقارب الحبشة من اللهجات العربية الجنوبية، وكتابة الأحباش حتى اليوم بقلم شبيه بالمسند، فلا يكون دليلاً على هجرة الساميين من أفريقية عن طريق الحبشة إلى جزيرة العرب، إذ يجوز العكس، وقديمًا هاجر الساميون من العربية الجنوبية إلى الحبشة، والساميون هم الذين كونوا دولة أكسوم التي كانت تتكلم باللغة الجعزية] [1] .

وجاء جواد علي يقول عن الأقلام : المسند والثمودي واللحياني والصفوي [يتبين من انتشارها في منطقة واسعة خاصة في الأرضين التي تسكنها قبائل عربية خالصة بعيدة عن مؤثرات (بني إرم) ومن تقاربها من المسند، أنها تفرعت من (أبجدية) واحدة، كانت الأبجدية الرائجة في بلاد العرب قبل الميلاد وبعده] [2] .

ونحن إذا تعمقنا مع الآراء المستشرقة التي جمعها جواد علي ولخصها كما يأتي : [وكان من جملة العوامل التي ألهبت نار الحماسة في نفس علماء التوراة والساميات البحث عن اللغة السامية الأولى، أو أقرب لغة سامية إليها، القصص الواردة في التوراة عن سام، وعن لغات البشر، والطوفان وما شاكل ذلك. ثم وجد المستشرقون المعاصرون أن البحث في هذا الموضوع ضرب من العبث؛ لأن هذه اللغات السامية الباقية حتى الآن هي : محصول سلسلة من التطورات والتقلبات لا تحصى مرت بها

---

(١) جواد ١/١٥٥، ١٥٦ .

(٢) جواد ٣/٤٢٥ .

حتى وصلت إلى مرحلتها الحاضرة، كما أنها حاصل لغات ولهجات منقرضة، واللغة السامية القديمة لم تكن إلا لغة محكية زالت من الوجود دون أن تترك أثرًا][1] .

نجد جواد علي يكرر ما قاله ولفنسون عن المستشرقين المحدثين وأنهم يرون: من العبث البحث عن أم اللغات السامية، ويزيد عليه السبب الذي من أجله كره المستشرقون البحث فيها، وأنه يرجع إلى عدم اقتناعهم بما في بحوث علماء التوراة.

وكذلك جرجي زيدان يرى : [أما أم اللغات السامية فلا وجود لها الآن، وقد ظن بعض فلاسفة اللغة أنها العبرانية، وزعم غيرهم أنها العربية، وغيرهم أنها البابلية، ولا تخرج أقولهم عن حد التخمين][2] ؛ لأنه يعتقد : [أما مسألة مهد الساميين فلا تزال من المسائل الغامضة التي يجب تركها حتى تتسع معارفنا بما يكشفونه من الآثار العربية[3] والآشورية والبابلية] .

فهو يربط البحث في أم اللغات بالبحث في مهد الساميين؛ لأنه يقول بالحقيقة التي لا ينكرها باحث : [فإن الأمم التي تفرقت منه "مهد الساميين" كانت تتكلم عند تفرقها لغة واحدة هي اللغة السامية الأصلية][4] فعلى ذلك فإن أم اللغات السامية لا تعرف في رأي جرجي ما لم يعرف مهد الساميين.

٤- فآراء هؤلاء الأعلام الذين عنوا بالتاريخ العربي القديم : جرجي زيدان، إسرائيل ولفنسون، جواد علي، هي كما جاءت في مؤلفاتهم:

---

(١) جواد ١/١٦٧ .

(٢) العرب قبل الإسلام ص٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ص٤٢ .

أولاً : جرجي زيدان - إنه يربط البحث في أم اللغات السامية بالبحث في مهد الساميين. وهذا هو المعقول.

ولكن البحث في مهد الساميين كما رأينا في رد جواد علي، على الذين يقولون: إن السامية والساميين هم في الأصل من أفريقيا، قد انتهى إلى أن جزيرة العرب هي منطلق الهجرات السامية[1]، وجرجي زيدان نفسه عندما بحث في عنصر البابليين وفي عنصر الكنعانيين، وفي عنصر "الإرميين" و"الأنباط" و"التدمريين". وفي عنصر "الهكسوس" أكد : أن هذه الشعوب ترجع إلى الأرومة العربية وأنها هاجرت من داخل الجزيرة العربية إلى أطرافها[2].

إذن : جرجي زيدان الذي قال أولاً بضرورة ترك البحث في أم اللغات السامية؛ لأن الأقوال التي قيلت في هذا الصدد لا تخرج عن حد التخمين، والذي يرى: أن أم اللغات السامية هي اللغة التي كانت تتكلم بها الشعوب السامية في مهدها، قد رجع إلى الحقيقة التي تثبت أن اللغة العربية هي أم للغات: البابليين، والكنعانيين، والإرميين، والهكسوس، والتدمريين، والنبط، وبطبيعة الحال هي أم لغة :"المعينيين"، و"السبئيين"، و"الثموديين"، و"اللحيانيين" في أطراف الحجاز وأقاصي اليمن، لأن هذه الشعوب جميعها شعوب عربية أقلتها جبال الجزيرة وأوديتها وهضابها، وأول ما تحركت ألسنتها تحركت بلغة هذه الجزيرة وطن "الإرميين" و"الكنعانيين" و"العماليق" الأولين.

ثانيًا : "إسرائيل ولفنسون" - وإسرائيل ولفنسون رجع عن تردده عندما قال: إن اللغة العربية إما أن تكون موجودة في مهد اللغات السامية، أو في ناحية قريبة منها، أو أن العناصر التي نزحت إلى البلاد العربية كانت من أقدم الأمم السامية. ومما جاء في

---

(١) عناصر شعوب الجزيرة العربية في الجزء الرابع من هذا الكتاب العرب في **أحقاب التاريخ**.

(٢) أكد جرجي زيدان في كتابه **العرب قبل الإسلام** : عروبة هذه الشعوب.

بحث ولفنسون عن لغتي : البابليين والكنعانيين: [وكما أننا لا نعرف بالضبط الموطن الأصلي في بلاد العرب للجموع السامية التي فتحت العراق، وكذلك لا نعلم بالضبط الموطن الأصلي للكنعانيين والآراميين من هذه الجزيرة. لكن الذي نرجحه أن نزوحهم من هذه الجزيرة حدث قبل (٢٥٠٠ عام ق.م) حين جرت سيول القبائل الكنعانية إلى بلاد سوريا وفلسطين][1] .

فإسرائيل ولفنسون هنا متفق مع جرجي زيدان في أن الجزيرة هي مهد الساميين، وإنما الذي يشك فيه هو الجزء الذي هاجر منه الساميون، أهو "نجد" وما جاوره؟ أم هو "الحجاز" وما جاوره؟ أم هو "اليمن" وما جاوره؟

ثالثًا : جواد علي - وجواد علي أخذ بقول ولفنسون عن إهمال المستشرقين المتأخرين البحث في أم اللغات. وفسر ذلك الإهمال بأنه نتيجة الشك فيما جاء في المصادر الإسرائيلية، وهذا وحده لا يبرر الإهمال ولا يجعل الباحث يتعلق بأقوال هؤلاء المتأخرين من المستشرقين؛ لأنهم لم ينقضوا تحقيق المستشرقين المتقدمين مثل (أولهوزن) بتحقيق يقنع الباحث، فإرسال الشكوك وحدها بدون أدلة تثبتها لا يكفي لإلغاء تحقيقات ذات حيثيات وشواهد.

٥- على أننا إذا ما رجعنا إلى ما جاء في المصادر الإسرائيلية عن عالم ما بعد الطوفان وعن عوالم ما قبل الطوفان، نجد البحوث الأثرية تثبت الكثير مما قاله الإسرائيليون وغير الإسرائيليين من الباحثين القدامى. فما جاء في كتاب "قصة الحضارة"، وكتاب "بلاد ما بين النهرين"، وكتاب "حضارة العرب" لغوستاف ليبون، وكتاب " التاريخ العربي القديم"، وغيرها من المؤلفات المستشرقة يؤكد ما قاله المؤرخون القدماء عن عوالم الماضي البعيد.

---

(١) تاريخ اللغات لولفنسون ص ٥٤.

ثم ليكن ما جاء في المصادر الإسرائيلية فيه مبالغة كبيرة، وفيه خيال بعيد الاحتمال، فإن مما لا شك فيه: أن الأجيال التي سبقت الساميين وعاشت في الشرق العربي قبل الطوفان هم سلف لخلفهم الساميين. فإن تكن هناك سلسلة من التطورات فإن عوالم ما قبل الطوفان هي التي مرت بها سلسلة تلك التطورات والتقلبات التي لا تحصى حتى وصلت لغتها إلى المرحلة التي وجدها الساميون فيها، فالحقيقة المنطقية إذن تقرر : أن اللغة الأم للغات السامية هي فرع من أصل، وهذا الأصل يرجع إلى أم لغات عالم ما قبل الطوفان.

فما من أحد يقول : إن الساميين هم الجيل الإنساني الأول حتى يقال: إنهم هم الذين صنعوا اللغة الأم، وإن هذه الأم السامية طواها الزمن فلا عين لها ولا أثر. فالساميون في المصادر العربية والإسرائيلية هم أبناء "سام بن نوح" وسام بن نوح، ونوح من قبله، هما شخصيتان كريمتان تاريخيتان عاشتا في عصر سبقته عصور زخرت بعوالم وحضارات، والساميون في البحوث المستشرقة هم الشعوب التي هاجرت من داخل الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب وإلى مصر في أزمنة ما بعد الطوفان.

فإذا كانت هناك أم للغات لم تعرف فهي : اللغة الأصل التي تفرعت منها أم اللغات السامية.

فبناء على ذلك، فإن ما قاله جواد علي عن سلسلة التطورات التي لا تحصى ، وعن اللغة السامية القديمة وأنها كانت لغة محكية زالت من الوجود ، لا ينطبق على اللغة السامية الأصلية التي كان الساميون يتكلمون بها في مهدهم الذي هاجروا منه إلى العراق وسوريا ومصر، وإنما ينطبق على الأم التي منها تفرعت اللغة الأصل للغات العراقيين والسوريين والمصريين من الشعوب السامية القديمة.

فنحن إذا قابلنا رأي جواد علي : [أن هذه اللغات السامية الباقية حتى الآن هي محصول سلسلة من التطورات والتقلبات لا تحصى مرت بها حتى وصلت إلى مرحلتها

الحاضرة، كما أنها حاصل لغات ولهجات منقرضة، واللغة السامية القديمة لم تكن إلا لغة محكية زالت من الوجود دون أن تترك أثرًا][1] ورأي ولفنسون: [ومن مميزات اللغة العربية أنها تشتمل على عناصر قديمة جدًّا من اللغات السامية الأصلية][2] إلى آخر ما جاء في كلامه الذي نقلنا نصه آنفًا، بما قاله المحققون العرب القدامى: [إن اللغات الواقعة بين أظهرنا هل، هي: بالاصطلاح، أو التوقيف؟ إن التوقيف وقع في الابتداء على لغة واحدة، وما سواها من اللغات وقع التوقيف عليها بعد الطوفان من الله تعالى في أولاد "نوح" حين تفرقوا في أقطار الأرض، وإذا حصل التوقيف على لغة واحدة جاز أن يكون ما بعدها من اللغات اصطلاحًا، واختلفوا في لغة العرب، فمن زعم أن اللغات كلها اصطلاح. فكذا قوله في لغة العرب. ومنهم من قال: هي أول اللغات، وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفًا أو اصطلاحًا، وقال بعضهم: إن اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربي إلى أن بعد العهد وطال ثم حرف وصار سريانيًّا][3].

وقال الإمام الرازي عندما بحث في أصل اللغات: [لم لا يجوز أن تكون هذه الألفاظ وضعها قوم آخرون قبل آدم][4].

نحن إذا قابلنا هذه الظنون بعضها ببعض نجدها تدور في فلك واحد، وحول نتيجة واحدة على ما بينها من تفاوت في العقائد والمنطق. فالحقيقة التي تواجه الباحث سواء سار مع الذين يؤمنون بالطوفان وقصة نوح عليه السلام، أو سار مع الذين يؤمنون بالنظريات الجيولوجية، فإذا هو سار مع المؤمنين بنوح والطوفان، برزت هذه الحقيقة أمامه تؤكد له: أن نوحًا والذين نجوا معه كانوا يتكلمون بلغة يرجع أصلها إلى

(١) جواد ١/١٦٧.
(٢) تاريخ اللغات السامية ١٦٨.
(٣) المزهر ١/٢٧، ٢٨، ٣٠.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥.

أم لغات ما قبل الطوفان ، وإذا هو سار مع الذين قسموا الماضي القديم إلى عصور: أولها العصر الحجري ، ثم العصر النحاسي إلخ ، فإن الساميين في بحوث هؤلاء ليسوا من الأجيال الحجرية ، وإن الحقيقة التي وصل إليها هؤلاء تؤكد له : أن الساميين ورثوا من الأجيال التي تقدمتهم لغة تفرعت عن أصل قديم.

وإذا كان هناك من يقول : إن الأمم التي ورثت الجزيرة العربية من الأجيال ، الحجرية تناست لغة أجدادها ، ووضعت لغة لا أثر فيها للغة الآباء والأجداد ، فإن ذلك يحتاج إلى سبب من الأسباب التي تستلزم أن تترك الأمة لسانها القديم كليًا. ولم يثبت التاريخ سببًا استلزم أمةً من الأمم في الشرق الأدنى أن تترك لغتها كليًا ، ما دام لها وجود وكيان. وعلى فرض احتمال ذلك ، فإن العرب في جزيرتهم قبل هجراتهم كانت لهم لغة يتكلمون بها ، سواء كانت تلك اللغة هي لغة جدودهم القدماء ، أو كانت لغة لا أثر فيها للغة جدودهم القدامى ، وإن هذه اللغة التي تكلم بها العرب في جزيرتهم قبل هجراتهم هي : اللغة الأم التي تفرعت عنها لغة المهاجرين إلى بابل ، وآشور ، وإلى سوريا ، ولبنان ، وفلسطين ، وإلى طور سيناء ، ودلتا النيل ، والصحراء العربية على ضفاف النيل الشرقية.

إن جميع مصادر التاريخ العربي القديم أثبتت : أن الشعوب السامية هاجرت من داخل الجزيرة إلى أطرافها ، وأكدت أن هذه الشعوب التي عرفت باسم : "البابليين" ، و"الكنعانيين" قطعت مرحلة طويلة في الحضارة قبل أن تهاجر. وأنها كانت ذات أديان وعقائد ، وذات سفن وخبرة بالملاحة ، وأنها كانت تملك مناجم ، وذات علم بالتعدين؛ فشعوب بلغت هذا المستوى من الحضارة لا يمكن أن تعيش بدون لغة ، ولا يمكن أن تجهل الكتابة والقراءة ، فلا تكون لها لغةٌ ولا تكون لها أبجدية ولا يكون لها خط.

وإن جميع مصادر التاريخ العربي القديم أثبتت : أن العوامل التي أخضعت لغات الساميين في العراق ، وفي سوريا ، وفي مصر ، لمؤثرات العناصر غير السامية ، لم يكن

واحد منها موجودًا في قلب الجزيرة، فالنتيجة المنطقية إذن: أن لغة الساميين في قلب الجزيرة التي توارثها الأبناء عن الآباء هي اللغة الأصل للغات الساميين، واللغة التي توارثها الأبناء عن الآباء في قلب الجزيرة، هي اللغة العربية.

٦- وهنا وبعد هذا الحديث الطويل جدير بنا أن نحدد وجهة البحث في هذا النقاش: إننا نعني بأم اللغات السامية، اللغة التي تفرعت عنها هذه اللغات: البابلية، والآشورية، والكنعانية، والإرمية، والمعينية، وأخواتها الجنوبية، وكذلك الثمودية، وأخواتها اللحيانية، والصفوية، وكذلك التدمرية، والنبطية. وإننا لا ننفي: أن هذه اللغة الأصل للغات السامية قد تفرعت من أصل قديم لا يوجد له اليوم أي أثر، وقد تظهر البحوث في المستقبل القريب أو البعيد أثرًا لهذه اللغة، يتمنى رؤيته الباحثون، وقد تظل جميع آثارها مقبورة إلى يوم يبعثون، وإننا مقتنعون بالأدلة التي تؤكد: أن اللغة العربية هي الأصل للغات السامية التي تطورت مع الأوضاع في العراق، وفي سوريا ومصر، وفي شمال الحجاز وسواحله، وفي اليمن، وعمان، والخليج العربي، وأن هذا التطور أبعدها عن اللغة الأم المتمسكة بصفاتها الأصلية في قلب الجزيرة العربية، تلك الصفات التي تظهر واضحة كلما بعدنا عن مناطق الاحتكاك بالعناصر غير العربية، وما زال يبعدها كما يقول "سيديو": [وداوم سكان البراري على التكلم بلغة الحجاز ونجد التي هي لغة العرب العاربة، وكان أهل اليمن يتكلمون بلغة حمير][1].

٧- ومن الجدير بالبحث بعد أن حددنا اتجاهه في موضوع أم اللغات السامية أن يظهر ما أخفاه قول ولفنسون ومن اقتنع معه: بأن اليهود والعرب كانوا مقتنعين بأن العبرية هي أم اللغات السامية.

فأولاً: إن كان من اليهود القدامى من اقتنع بأن العبرية هي أم اللغات السامية وحاول أن يقنع العرب الذين كانوا في وقت ما يثقون بكل ما يعزى للتوراة؛ فإن اليهود

(١) تاريخ العرب العام لسيديو ص ٣٢.

المتأخرين أخفقوا في وضع اللغة العبرية في مرتبة اللغة الكنعانية، ولم يجدوا دليلاً يثبت سامية اللغة العبرية غير افتراض عروبة العبرية في الأصل، وأنها اشتقت من اللغة التي اشتقت منها لغة الكنعانيين، كما نجد ذلك واضحًا في بحث العبرية والجعزية الآتي في هذا الجزء.

ثانيًا : إن ما جاء في تاريخ الطبري عن العرب البائدة - يؤكد : أن الرعيل الأول من أبناء سام كانوا يتكلمون اللسان المضري[1] ، وما جاء فيه عن لغة المستعربة (ويقولون لبني إسماعيل العرب المستعربة؛ لأنهم إنما تكلموا بلسان هذه الأمم حيث سكنوا بين أظهرهم). ويؤكد : أن لغة العرب البائدة انتقلت إلى العرب المستعربة قبل أن يهاجر يعقوب إلى مصر وقبل أن يهاجر موسى ببني إسرائيل من مصر - وأن ما جاء في تاريخ الطبري من روايات تتحدث عن تبلبل الألسنة في العراق وقدم السريانية، فهو لايعدو ما قيل عن الخط القرشي وصلته بالسريانية، وما هذا الارتجاج الذي نشاهده في بعض الروايات العربية إلا من تأثير الخيال الإسرائيلي الذي تسلط على بعض الروايات التي اعتمدت على المصادر اليهودية دون أن تدرك ما في بعضها من أنانية أضاعت قيمة الكثير مما تحمله الأسفار من حقائق تاريخية.

وقد يكون من تأثير الروايات الإسرائيلية اقتناع محمد بن سلام الجمحي الذي كان يعتقد : أن لغة العرب الذين نزل فيهم القرآن هي لغة إسماعيل، وأن لغة إسماعيل هي لغة غير لغة العرب العاربة؛ لأن لغة العرب البائدة على رأيه قد بادت معهم[2] .

٨- فكثيرٌ من الباحثين في اللغة العربية يعتقد : أن شعوب "عاد"، و"ثمود"، و"طسم"، و"جديس"، و"جرهم" الأولى، و"العماليق" قد بادت ولم تترك خلفًا يرثها ولا

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) طبقات فحول الشعراء للجمحي ص ١٠.

تراثًا ثقافيًا يشير إلى وجودها. فعلى هذا الاعتقاد لم يتجاوز هؤلاء بتاريخ اللغة العربية إلى ما قبل القرن الخامس للميلاد. وقد أخذ هذا الاعتقاد يؤثر على بحوث بعض المتأخرين مثل الدكتور "عبدالواحد" الذي قال في كتابه فقه اللغة : [وعلى ضوء ما وصل إلينا من آثارها - اللغة العربية - يمكن تقسيمها إلى قسمين:

١- العربية البائدة.

٢- العربية الباقية .

فالبائدة تطلق على لهجات شمال الحجاز من حدود "الإرميين" وفي داخل هذه الحدود ، والباقية نشأت ببلاد نجد والحجاز وانشعبت منها اللهجات التي نتكلم بها في العصر الحاضر في البلاد العربية ، وقد وصلت إلينا العربية الباقية عن طريق آثار العصر الجاهلي. والقرآن والحديث ، وآثار العصور الإسلامية المختلفة ، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يكاد يتجاوز القرن الأول للميلاد ، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد][(١)] .

أليس من الغريب أن يعتقد أحد : أن الأرض ابتلعت الشعوب العربية الأولى بكل مقومات حضارتها فأمست كأن لم تكن بالأمس ؟!! أو ليس من الغريب أن يصدر الحكم بالإبادة على لغة الرعيل الأول من العرب ، وأن يحدد تاريخ اللغة العربية بهذه السهولة دون التعرض بالنفي أو الإثبات إلى ما قاله المؤرخون العرب الثقات عن اللغة التي كانت تتكلم بها الشعوب التي عرفت في التاريخ العربي بالعرب البائدة ، ودون الأخذ بالنصوص الأثرية التي تؤكد : أن لغة شمال الحجاز بالرغم من احتكاكها بعناصر أجنبية ما زالت إلى ما بعد الميلاد محتفظة بكثير من عربيتها - أو رفضها وتفنيدها وإثبات أخطائها؟! فإذا كانت تلك حال لغة الشمال فكيف بلغة المدينة ومكة والحجاز؟!

---

(١) فقه اللغة للدكتور عبدالواحد ص٧٥ .

إن النقوش الثمودية واللحيانية التي ظهرت بعيدة في تركيب جملها عن اللغة العربية - بالرغم من اشتمالها على حروف عربية - يرجع تاريخها إلى عصور متأخرة، وفي العصور المتأخرة ازدحمت المناطق الشمالية بالعناصر غير العربية : إسرائيلية، ويونانية، ورومانية، وفارسية. أما النقوش المعينية الشمالية التي يرجع تاريخها إلى ما قبل منتصف الألف الثانية قبل الميلاد. فقد قال عنها "هومل" : [ويعتقد أيضًا أن لغة هذه النقوش المعينية قريبة جدًا إلى العربية القديمة يعني عربية الشعر الجاهلي؛ إلا أنها أقرب إلى الحبشية][1] وقرب النقوش المعينية من الحبشية لا يستغرب بعد الذي عرفناه عن الهجرات السامية إلى الحبشة ومنها، فاللهجات الأفريقية استوطنت جنوب الجزيرة منذ عصورها القديمة.

ولقد جاء في بحث "ولفنسون" في لغة الإرميين بعد احتكاكهم بالعبريين وباليونانيين والرومانيين : أن لغة الإرميين أصبحت رطانة في مجموعها عبارة عن الآرامية، والعبرية، واليونانية، والرومانية.

لا شك في أن الأحداث الخطيرة التي اقتحمت الحياة العربية في الهلال الخصيب كان لها أثرها على لغة العرب الذين أسسوا المجتمع العربي في العراق، وفي سوريا؛ فلقد تتابعت الدول : البابلية، الحثية، الآشورية، الفرعونية، الفارسية، اليونانية، والرومانية، والكسروية الساسانية - وهذه الدول كما تراها مختلفة العناصر، و مختلفة الحضارات واللغة والثقافة، واختلاف العنصر والحضارة واللغة لا بد أن يؤثر في اللهجات وفي الخطوط، وهذا ما حدث بالفعل في السنين التي أخذ النفوذ العربي فيها ينكمش إلى داخل الجزيرة، وأخذ المجتمع العربي يعود إلى النظام القبلي. وأخذت الدولة البيزنطية تمد نفوذها من سوريا إلى شمال الحجاز، وأخذت الدولة الساسانية

---

(١) التاريخ العربي القديم ص٦٢ .

تمد نفوذها على ساحل الخليج العربي مهددة "نجدًا" وزاحفة إلى "اليمن" تزاحم الأحباش عليه.

فهذه الأحداث وما خالطها من تطورات، تبين لنا العوامل التي باعدت بين اللغة العربية الأم في داخل الجزيرة، وبين لغات الشعوب التي تمركزت في العراق وفي سوريا وسيناء والصحراء العربية الكبرى .. تلك الأحداث التي تفاقمت آخر الأمر فحطمت القومية العربية في الهلال الخصيب، فانعزل العراق وانعزلت سوريا بصحرائها عن الجزيرة العربية، وأصبحت اللغة العربية في اليمن في عداد اللغات غير العربية كما قال ابن العلاء : ما لغة حمير وأقاصي اليمن بلغتنا. فضاق نطاق القومية العربية وباتت جزيرة العرب في رأي البعض لا تتجاوز الحجاز ونجدًا واليمامة وبعضًا من تهامة.

فنحن كلما توغلنا في عصور التاريخ العربي وجدنا اللغة العربية في شمال الحجاز ووجدنا شبهها يزيد بلغة الشعر الجاهلي، وكذلك نحن إذا ما بعدنا عن المدن التجارية والموانئ البحرية نجد اللغة العربية قليلة التأثر بغيرها، ولكن مع هذا كله لا يمكننا أن نقول : إن لغة عاد، وجرهم الأولى، وثمود، والعمالقة هي مثل لغة "حسان بن ثابت"، وشاعر البردة "كعب بن زهير بن أبي سلمى". فالقرون الطويلة التي تفصل بين قريش والأوس والخزرج، وبين جرهم والعماليق، لابد أن تحدث فرقًا في نطق الكلمات ومعانيها، وفي الأسلوب والتركيب والاصطلاح، ومن قبل فرقوا بين العرب العاربة، وبين العرب المستعربة. ولكن الفرق بين لغة العاربة، ولغة المستعربين، لم يبلغ إلى حيث يقال : إن لغة العرب العاربة غير لغة العرب المستعربة، والدليل على ذلك لغة النقوش المعينية الشمالية التي سبقت الميلاد بأكثر من خمسة قرون، وما قيل عن الشبه بين لغتها ولغة الشعر الجاهلي بالرغم من وجودها في منطقة ازدحمت فيها العناصر ولهجاتها.

ومما يسترعي الانتباه ما جاء في المصادر العربية عن العرب المستعربة. فلقد جاء في تاريخ ابن خلدون : [وإنما سمي أهل هذه الطبقة بهذا الاسم العرب المستعربة؛ لأن

السمات والشعائر العربية لما انتقلت إليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة بمعنى أنهم صاروا من حال لم يكن عليها أهل نسبهم، وهي اللغة العربية التي تكلموا بها، فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم : استنوق الجمل، واستحجر الطين، وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدم الأمم جيلاً كانت اللغة العربية لهم بالأصالة وقيل العاربة][1] .

ولقد شط بعض الباحثين العرب في تصوره تطور اللغة العربية في عصر العرب المستعربة، فقال محمد بن سلام الجمحي في تفسيره ما يروى عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : [أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم؛ ولكن العربية التي عنى محمد بن علي : اللسان الذي نزل به القرآن وتلك لغة العرب العاربة على ما يبدو من حديثه - عربية أخرى غير كلامنا هذا][2] .

فإذا كانت لغة إسماعيل غير لغة العرب العاربة "على رأي الجمحي" فمن أين تعلمها ومع من كان يتكلم بها ؟ إن ابن كثير يؤكد لنا : [أن إسماعيل تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذها من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم][3] .

إن مما لا شك فيه : أن الوضع العربي في الحجاز تطور بعد إقامة البيت الحرام والدعوة للحج إليه، فلقد توافدت الأمم من كل فج في هذا الشرق العربي لتؤدي مناسك الحج وتشهد منافع لها، فكان على الحجازيين ولا سيما أهل مكة وما جاورها أن يستقبلوا وفود الحجاج وأن يختلطوا بهم ويتحدثوا إليهم، فمن هنا وجدت الألفاظ والأسماء غير العربية طريقها إلى اللغة العربية .. بيد أن العرب كما قلت حرصوا على أن يعربوا ما جد على لغتهم ويخضعوه لمقاييسها؛ زد على ذلك التطور العام، وانسحاب

---

(١) تاريخ ابن خلدون ص ٧٠ .

(٢) طبقات محمد بن سلام الجمحي ص ١٠ .

(٣) تاريخ ابن كثير ١/ ١٢١ .

كثير من القبائل العربية من سوريا والعراق إلى أطراف الحجاز ونجد، وهجرات غير العرب إلى البلاد العربية مثل: اليهود في المدينة وخيبر وفي وادي القرى، ومثل بقايا الفرس في جزيرة العرب.

٩- لا شك في أن اللغة العربية، تطورت وتهذبت واتسعت ولا تزال تتسع، وأنها في تطورها سايرت الأحداث والبيئات، فتطورها واتساعها في العراق غير تطورها واتساعها في داخل "نجد" و"الحجاز". فإذا كان للأحداث والبيئة العراقية شأن في هزّ قواعدها وتحريف لفظ حروفها، فإن للأحداث العربية داخل الجزيرة وبيئة قلب العروبة شأنًا في صيانة مقوماتها وقواعدها وخصائصها ونطقها عن التحريف والتغيير.

أما التطور الطبيعي، فمن الحقائق المسلم بها: أن مفردات اللغة منها الذي يحافظ على وجوده كأسماء الأعلام والكلمات التي لا غنى عنها لحياة الإنسان العامة، ومنها ما يبلى ويقدم كأسماء مستحدثات الأجيال والكلمات التي تخص حياة قبيلة دون أخرى. فما من لغة تقيدت بمفرداتها ومصطلحاتها في كل عصورها، فلابد للمفردات أن تزداد كلما ازدادت الحياة سعة، ولا بد لقواعدها أن تراعى في المستحدثات بالقياس والمصطلحات، ولابد للهجتها أن تتطور بتطور البيئات، ولابد لآدابها أن تحلق مع أخيلة الأجيال ولكن تطور اللغة شيء، وموت اللغة شيء آخر.

١٠- إن تطور اللغة العربية لم يقف عند حد زيادة المفردات وضبطها بالمقاييس اللغوية، وإخضاع الكلمات المأخوذة عن اللغات غير العربية لقواعد اللغة ومقاييسها، بل تجاوزه إلى استخدام مفردات اللغة وتجديد أسلوبها وتراكيبها. فنحن اليوم نستخدم كثيرًا من المفردات في معان بعيدة الصلة بها، لم يستخدمها العرب في صدر الإسلام لأداء هذه المعاني، ونؤلف حديثًا من كلمات هذه اللغة بأسلوبنا الحاضر على غير ما ألّفها أسلوب الماضين ولكن كل هذا لم يخرج اللغة العربية عن أصلها العربي.

ولاشك أيضًا في أن أولئك العرب القدامى الذين انتقلوا من رمال اليمامة، وهضاب نجد، وجبال الحجاز، وأودية تهامة إلى العراق وسوريا، قد تأقلموا هناك بطبيعة الأرض التي انتقلوا إليها، وخضعوا فيها لناموس التطور .. فمن الحقائق التي لاريب فيها : أن العرب لم يستطيعوا أن يثبتوا القومية العربية بكل مقوماتها في العراق، وفي سوريا، وفي مصر؛ إلا بعد الفتح الإسلامي. فبعد الفتح الإسلامي انتصرت القومية العربية نهائيًّا وضمنت البقاء والخلود في أطراف الجزيرة، وانتصرت اللغة العربية لغة القرآن والحديث والفقه الإسلامي.

على أننا نجد اللغة العربية بعد الإسلام وبعد كل تلك الجهود الجبارة التي بذلت لخدمتها، والتي بدأها "أبو الأسود الدؤلي" بوضع نواة القواعد العربية وبعد كل ذلك الاهتمام الكبير الذي تمثل في حماس الدول الإسلامية العربية للغة العربية وآدابها، ولتعريب الإدارة الدولية والعلوم والفنون اليونانية والفارسية؛ نجدها مع كل ذلك خضعت لقاعدة المقايضة : خذ وهات. فإذا كانت الشواهد التاريخية أثبتت أن الأمة الغالبة تفرض عقائدها، وتقاليدها، ولغتها على الأمة المغلوبة. فالناس كما يقولون على دين ملوكهم، فإن مما ليس منه بد أن الأخذ مما للمغلوبين من طقوس مذهبية، وتقاليد اجتماعية، ومفردات ومصطلحات لغوية، واقع رضي الغالبون بذلك أم لم يرضوا.

فإذا كانت هذه الحال بعد الإسلام، فكيف تكون الحال قبل الإسلام. أيام هاجر العرب إلى "بابل" وإلى "سوريا" و"سيناء" و"مصر" وهم لا يعتزون بمثل هذا الدين الإسلامي، وهم لا يحفظون كتابًا مثل القرآن العربي؟!

فلا عجب إذا ما غشي اللغة العربية ما غشيها في العراق، وفي سوريا، إبان العهد الحمورابي في سواد العراق، والعهد الكنعاني في سوريا الكبرى، فظهرت لغة نقوشهم

بصورة بعيدة الشبه عن اللغة العربية الأم، فالساميون الذين أخضعوا السوموريين لحكمهم لم يستطيعوا القضاء نهائيًّا على الدين والحضارة واللغة، فكان من ذلك أن تأثر الساميون في العراق بدين المغلوبين، واقتبسوا خطهم وشوهت لغتهم السامية بعد أن امتزجت بعناصر كثيرة من المغلوبين[1]. فلا عجب أن تطورت اللغة العربية في قلب الجزيرة أسلوبًا وخطًّا وسعة في عصورها الجاهلية، وأن تطورت أسلوبًا وخطًّا وسعة في عصورها الإسلامية.

١٠- ولماذا نذهب إلى الماضي: البعيد منه أو القريب، وفي الحاضر الأمثلة الكثيرة؟! فالمجتمع العربي اليوم بالرغم من وعيه وانطلاقه، وبالرغم من اهتمام الدول العربية بالقومية العربية، وإنشاء المجامع اللغوية التي اهتمت وما زالت تهتم بشئون اللغة وتعريب ما يجد من مصطلحات ومستحدثات، إما بالاستفادة من الكلمات النائمة في بطون القواميس، وإما بإخضاع الجديد من المستحدثات لقواعد اللغة وصرفها وبالرغم من أجهزة الإعلام التي تملكها الدول العربية: صحافة، وإذاعة، ونشرات ثقافية، وبالرغم من تقارب المناهج الدراسية إلى غير ذلك مما قفز بالثقافة العربية من الخصوصية القطرية إلى العمومية القومية[2] بالرغم من كل ذلك نرى الفرد في هذا المجتمع يتكلم بلغة نصفها عربي ونصفها خليط من مفردات ومصطلحات غير عربية، فما أكثر الكلمات غير العربية واللهجات الدخيلة في لغة الشوارع والأسواق التجارية، وفي لغة الصناعة والزراعة والطب والسياسة، وما أكثر الفوارق بين لغة المجتمعات العربية!

ولكن مع هذا هل يمكننا أن نقول: إن لغة امرئ القيس، وعنترة قد بادت؛ لأن كثيرًا من مفرداتها لا يعرفها إلا الراسخون في اللغة، ولأن كثيرًا من الكلمات جدت على اللغة العربية، وكثيرًا من الكلمات استخدمت اليوم في معان لم تستخدمها فيها الأمم

---

(١) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص٢٣.

(٢) لقد نشرت كلمة لي تحت عنوان حول المجمع اللغوي المقترح في جريدة البلاد الصادرة بالعدد ١٦٤٣ في ٢٠ صفر سنة ١٣٨٤هـ الموافق ٣٠ يونيو ١٩٦٤م بينت فيها تطور اللغة العربية.

العربية في جاهلية ما قبل الإسلام وفي صدر الإسلام؟؟. إن دهشة الحجازي قبيل الإسلام، وفي صدر الإسلام لو قرأ مثل هذه الرسالة التي هي مألوفة في العصر الحاضر : [أبرق الميكانيكي المختص بالخط الحديدي يطلب تقوية الطاقة الكهربائية ليمكن استخدامها في لحام الأكسجين] لا تنقص عن استغراب الحجازي اليوم عندما يقرأ وصف (أم غيلان) موقف ضرار بن الخطاب بن مرداس الشاعر ودفاعه عن نفسه : [ما رأيت نشرة أفكل أقرب إلى حسن جلاد منه] فالميكانيكي والأكسجين كلمتان أضيفتا إلى اللغة العربية كما أضيف من قبل الإستبرق وغيره.

لا شك أن للزمن والبيئة وتطور الحياة أثرًا كبيرًا في لغة الأجيال العربية القديمة منها والحديثة، وإنما هذا الأثر يقل ويكثر بقدر ما يقل الاحتكاك ويكثر، فلذلك كانت اللغة العربية في (تدمر) متأثرة بلغات العبرانيين، واليونانيين، والرومانيين أكثر مما تأثرت بهذه اللغات في (بطرا).

١١- فاللغة العربية غلبت على نطقها، وعلى كثير من خصائصها في شمال الهلال الخصيب، وحافظت على كثير من صفاتها في شمال الحجاز ونجد، وتغلبت على غيرها في جبال الحجاز وفي داخل نجد، فالعبرية مثلاً لم تجد مجالاً في "وادي القرى"، وفي "يثرب"، و"خيبر" مثل ذلك المجال الذي وجدته في فلسطين.

فعن سلامة لغة القبائل التي تعيش داخل الجزيرة العربية من الألفاظ الدخيلة ومن الاختلاف في مخارج الحروف يقول (بروكلمان) : [أما أهل شمال تهامة وهضبة نجد فإنهم وإن تقدموا منذ زمن طويل قبل الميلاد نحو سوريا وبلاد ما بين النهرين، فقد احتفظوا بطابع سلالتهم الأصلي على مستوى أنقى. وإن كانت بذرتهم الأولى تتألف من العرب الرحل، وتؤيد لنا ذلك أيضًا لغة شعرهم التي يسهم فيها (العباد)[1] من نصارى الحيرة، بمثل رعاة الغنم الوثنيين من قبيلة هذيل في جبال الحجاز][2] .

---

(١) **العباد** : اسم أطلق على نصارى الحيرة.

(٢) **تاريخ الأدب العربي** ١/ ٤١ .

وعن تأثر لغة العرب الذين جاورتهم جاليات أجنبية بألفاظ ومخارج الكلمات ولهجات تلك الجاليات، ينقل لنا جواد علي عن كتاب (الطواف حول البحر الأرتيري) الذي عاش مؤلفه في القرن الأول للميلاد : [إن سكان سواحل البحر الأحمر الذين كانوا يقيمون بين مدينة (لويكة كومة) وبين (مخا)[1] على الساحل الحجازي يتكلمون بلهجات مختلفة ولغات متباينة، قل منهم من يفهمها عن الثاني، فبعضها بعيد عن بعض بعدًا كبيرًا][2] .

١٢- فقلب البلاد العربية هو الأرض التي ظلت العروبة فيها غير مشوبة بما خالط الحياة العربية في أطراف الجزيرة شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وسكان قلب الجزيرة العربية هم الذين استطاعوا أن يحتفظوا بالصفة العربية لغة وخلقًا وحرية، فكل دخيل وصل إليهم انصهر في البوتقة العربية وانطبع بالطابع العربي، فبعد أن قام العرب بهجراتهم التي تكلمنا عن أسبابها في البحث الخاص بالهجرات العربية في الجزء الرابع من هذا الكتاب، وبعد أن التقوا في مهاجرهم بشعوب آسيا الوسطى وشواطئ البحر الأبيض، وشرق الخليج العربي كما التقى بهم المهاجرون إلى أرضهم، في سوريا، وفي العراق، وفي سواحل الخليج العربي من الجزيرة. وشواطئ البحر الأحمر، وفي اليمن وحضرموت، وبعد أن اختلطت اللغات والتقاليد والعقائد في تلك المجتمعات بالمزيج من العناصر : أصبحت اللغة في سوريا رطانة قوامها مجموعة من اللغات واللهجات، وانتابها في السواحل تبلبل جعل الجار لا يفهم لغة جاره كما قال صاحب (الطواف حول البحر الأرتيري).

ومن الثابت : أن الاتصال بين سكان الهلال الخصيب وبين سكان الأجزاء الأخرى من الجزيرة لم ينقطع. فكما كانت جماعات عربية تنتقل من الحجاز ونجد ومن اليمن

---

(١) حقق موضع هاتين المدينتين في الجزء الثالث : **جغرافية الجزيرة العربية القديمة**.

(٢) **تاريخ العرب لجواد** ٢١٢/١ .

إلى الشمال، كانت جماعات من الشمال تنتقل إلى داخل الجزيرة. فمع العائدين من أرض الفرات والنيل وسوريا: عماليق وإرميين، دخلت بعض اللهجات وبعض الألفاظ غير العربية فتولاها المجتمع العربي في قلب البلاد العربية، أو إن شئت فقل: المجمع اللغوي الفطري - بالتعريب وفرض قواعد اللغة العربية عليها، فها نحن نرى الكلمات الأعجمية التي وردت في القرآن الكريم، وفي أشعار العرب: اتخذت الصفة العربية، ولولا الرجوع إلى القواميس والبحث عن أصلها لما عرفت أعجميتها، وهذا ما جعل المؤرخين العرب يسمون عرب الطور الجاهلي الثاني: العرب المستعربة، ولا يبعد أن يكون هذا من أسباب اختلاف اللهجات العربية، واختلاف بعض الكلمات في الشمال عنها في الجنوب، وأن يكون من ذلك الاختلاف - الاختلاف الذي نلاحظه بين لغات القبائل العربية مثل: هذه البئر ذو حفرت وذو طويت أي التي حفرت والتي طويت. ومثل: هل من ام برام صيام في ام سفر؟ أي هل من البر الصيام في السفر؟

فمما لا شك فيه: أن الصلات التي استمرت في اليمن بين الأحباش وبين الحميريين زادت في مسافة الفرق بين لغة حمير ولغة مضر.

فإذا كانت لغة اليمنيين في الجنوب تختلف عن لغة الحجازيين في الشمال اختلافًا جعل (ابن العلاء) لا يرى الاستشهاد بلغة اليمن في قواعد اللغة العربية ويقول: [ليست لغة حمير بلغتنا ولا لسانها بلساننا] فإن هذا الاختلاف لم يكن إلا بعد أن احتك اليمنيون بالأحباش، وإن في بقاء اللهجة (الأمهرية)[1] في المناطق المتطرفة من بلاد اليمن إلى هذا القرن الذي نعيش فيه، دليلاً ناطقًا على أن اللغة العربية في اليمن: قد تأثرت بلهجة الشعوب القاطنة في السواحل الغربية من أفريقيا، فكما انتقلت مع

(١) جاء في ملحوظات (أتولتمان) على كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون: لغة مهرى وشحر ومسقط هي لغات مستقل بعضها عن بعض وهي وسط بين اللهجات العربية الجنوبية القديمة والأثيوبية، تاريخ اللغات ص ٢٧٩.

المهاجرين اللغة السامية من الجزيرة العربية إلى أفريقية من قديم الزمن، كذلك انتقلت مع المهاجرين من أفريقية هذه اللهجات التي تلاحظ في لغة اليمنيين.

١٣- ولا شك في أن هذا الذي يلاحظ على لغة الجنوبيين وتأثرها بمختلف اللهجات هو نتيجة حتمية للاختلاط، فمن المفروض أن يتأثر العرب في تلك المجتمعات المؤلفة من عناصر عدة بلغات غيرهم كما يتأثر غيرهم بلغتهم، وأن يجد الكثير من الكلمات الأعجمية طريقه إلى داخل البلاد العربية، كما وجد الكثير من الكلمات العربية طريقه إلى خارج الجزيرة، وأن تختلف مخارج كثير من الكلمات العربية. فلقد استعربت كلمات أعجمية نطق بها العرب بالأحرف العربية وبمخارجها وبلهجتها، واستعجمت كلمات عربية فنطق العجم بها بالأحرف الأعجمية وبمخارجها وبلهجتها ولقد كان من نتيجة الاختلاط أن تفرعت من اللغة العربية لغات عامية تمتاز كل واحدة منها بلهجة وكلمات أجنبية فرضتها على اللغة الأصلية العناصر التي احتك بها العرب، وقد تكون الفوارق بين هذه اللغات العامية في الماضي أعمق من فوارق اليوم بالنسبة لصلات الشعوب ببعضها، فلقد كانت هذه الصلات شيئًا لا يذكر إذا ما قيست بوسائل اليوم. فمما لا مراء فيه: أن الصلات الوشيجة التي تربط شعوب اليوم قللت من الفوارق اللغوية، ولكنها لم تمحها. فإننا ما زلنا نجد فوارق كبيرة بين لغة العامة في مصر وبين لغة العامة في العراق.

فإننا اليوم إذا ما استعرضنا لغة العامة في العراق نجد لهجتها وكثيرًا من مفرداتها: مزيجًا من الفارسية والتركية والإنكليزية، وإذا ما بحثنا عن الكلمات العربية في لغة الجزائريين نجد نسبتها جد ضئيلة. ونجد الكلمات العربية عند الجزائريين أكثرها بعيد عن لغة قريش، وقريب من لغة الفرنساويين.

وها نحن الحجازيين، لا تزال في لغة سكان المدن منا بعض الكلمات واللهجات الأعجمية، فلا تزال النسبة التركية مستعملة عندنا فنقول: "القهوجي، والجزمجي"،

ولا نزال نسمي غرفة الاستقبال "سلام لك" إلى غير ذلك من الأسماء والاصطلاحات التركية التي حملها إلينا النفوذ العثماني، كما هو الحال في مصر وفي سوريا .. بينما لا تزال قبائل هذيل تتكلم لغة الشعر والأدب العربي التي نتعب في دراستها وفهم قواعدها.

فإلى وقت قريب كانت اللهجة التركية والأسماء التركية شائعة في رسائلنا وفي وثائقنا الشرعية وفي معاملاتنا الرسمية.

فهذه الفوارق التي نشاهدها اليوم بين لهجات الشعوب العربية في "مكة" و"المدينة"، وفي "الرياض" و"حائل"، وفي "الأحساء" و"القطيف"، وفي "دمشق" و"بيروت"، وفي "بغداد" و"الموصل"، وفي "الكويت" و"عمان"، وفي "صنعاء" و"حضرموت"، وفي "الخرطوم" و"القاهرة" و"تونس" و"الجزائر" و"مراكش" - لا بد أن يجد الباحثون في اللغة العربية القديمة مثلها وأكثر منها في "مكة" و"المدينة" و"مدين"، وفي "اليمامة" و"عمان"، وفي "سبأ" و"معين" و"حضرموت"، وفي "مصر" و"سيناء"، وفي "القدس" و"صيدا"، و"بابل" و"آشور" - ولا بد أن يجدوا فوارق في النقوش التي تتفاوت أمكنتها وتتفاوت أزمنتها ويتفاوت علم وتفكير الذين سجلوا ذكرياتهم وأخبارهم باللغة العربية.

فبالله عليك تخيل معي مجلسًا يضم واحدًا من عرب الجزائر وواحدًا من عرب نجد وواحدًا من عرب عمان وفكر معي كيف يستطيع أن يتفاهم هؤلاء؟؟

١٤- ثم الخطوط التي استخدمت في تدوين اللسان العربي : "المسماري" و"المسند" و"الفينيقي" و"الكلداني" و"الإرمي" .. إلخ، وأخيرًا "النبطي" الذي تطور كما يقول أكثر علماء الآثار وخطوطها إلى الخط العربي، هل كانت جميعها متقاربة بشكل لا يمكن معه وجود فرق في مخارج الحروف؟ وهل كانت جميعها في مكان واحد، وفي زمن واحد، فتكون الفوارق في المقومات، والخصائص، والأصوات، والقواعد، وأصول المفردات؛ نتيجة لاختلاف كلي بين لغة الثموديين في وادي القرى، وبين لغة

الحمورابيين في وادي الفرات؟ أم أن تلك الفوارق نتيجة لتفاوت العصور واختلاف الأجناس التي احتك بها البابليون في العراق واحتك بها الحجريون في الحجاز؟؟

نحن إذا ما رجعنا إلى ما قيل عن الخط "المسماري" وأنه سوموري الأصل، وأن الإرميين "الحمورابيين" استخدموه في تدوين لسانهم وزادوا فيه حروفًا لم تكن في السومورية[1]، لا نستبعد أن يكون تدوين اللغة الإرمية بالقلم المسماري السوموري قد أضاع بعض حروفها وأثر على مخارجها، لاسيما إذا قرأها غير العربي الإرمي بعد آلاف السنين. إن مثل ذلك كمثل الأحرف الفارسية فيما لو اتخذناها لكتابة اللغة العربية، وها نحن نرى الأسماء العربية التي دونت باللغة الإنجليزية ثم أعيدت إلى اللغة العربية؛ تعود لنا محرفة النطق، فنحن نقرأ اسم (قتبان) الدولة اليمنية في بعض المؤلفات التاريخية كذا (قطبان) إلى غير ذلك مما حرفه الناقلون عن المستشرقين، كما أننا نحن العرب قد حرفنا كثيرًا من الأسماء الأعجمية، بل حرفنا بعض الكلمات العربية واستخدمنا بعضها في معان لم يستعملها فيها العرب الجاهليون، ولقد هجرنا بعض الكلمات فأصبحت غريبة في مجتمعنا، وأحيينا كلمات أكل الدهر عليها وشرب. فمما لا شك فيه أن الكلمات العربية التي نستعملها اليوم، وأن الكلمات العربية التي كان العرب يستعملونها في جاهليتهم هي في اللغة العربية سواء، وأن الفرق بين لغة القواميس وبين لغة الصحف، نشأ من استعمال بعض الكلمات وهجر البعض الآخر، وبالنسبة للمعاني التي اتخذت لها مفردات اللغة العربية في الماضي ومعانيها في الحاضر.

١٥- أجل! لا بد من أن تكون فوارق بين لغة الحجاز ونجد قبل الميلاد بألف عام وبين لغة الحجاز ونجد بعد الميلاد بخمسمائة عام، مثل الفوارق التي نجدها إذا ما

---

(١) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ٥٨.

قابلنا بين اللغة العربية في الحجاز ونجد في صدر الإسلام، وبين اللغة العربية فيهما في أواخر العهد العثماني ، ولكن تلك الفوارق لا تحمل على الاعتقاد بأن لغة العرب البائدة: "عاد" و"ثمود" و"العماليق" و"جرهم الأولى" إلخ.. قد بادت وأن اللغة العربية في أزمنة ما قبل الميلاد لا تمت بصلة إلى اللغة العربية في أزمنة ما بعد الميلاد.

ولا بد أن تكون فوارق بين لغة العرب في قلب الجزيرة، وبين لغة العرب في أطرافها، ولا بد لهذه الفوارق من الظهور على نقوش الآثار. ولا نستبعد أن تكون ترجمة المستشرقين لها وترجمتها من لغاتهم إلى اللغة العربية قد زادت في تلك الفوارق. ولكن تلك الفوارق لا تحمل على الاعتقاد بأن اللغة العربية لا تصلح لأن تكون الأم للغات السامية.

فكثير من المستشرقين يصرّ على أن لغة النقوش المعينية القديمة هي القنطرة إلى البابلية والمصرية القديمة ، وهي قريبة جدًّا إلى العربية القديمة عربية الشعر الجاهلي؛ إلا أنها أقرب ميلاً إلى الحبشية، فالقرابة قوية جدًّا بين النقوش العربية الجنوبية وبين الأبجدية الفينيقية لكن الخلاف في درجة القرابة ونوعها[1] .

فهذا التحقيق المستشرقي أثبت لنا : صحة ما استعرضناه من قبل وأكد لنا : تأثير الاحتكاك على اللغة، فالشعب المعيني الذي احتك بالبابليين، واحتك بالمصريين، واحتك بالأحباش، تأثرت نقوشه بلهجات ونقوش تلك الشعوب، وبذلك أقيمت القناطر التي عبرت بها اللغات واللهجات من مكان إلى آخر.

---

(١) التاريخ العربي القديم ص٦٠، ٦٢ ويقول فرتز هومل في ص٦٠ عن القرابة بين الأبجديتين: فإما أن الأبجديتين نشأتا عن أبجدية واحدة وهي بمثابة الأم لهما وأن هذه الأبجدية الأم كانت موجودة حوالي سنة ٢٠٠٠ق.م. وإما أن الأبجدية العربية الجنوبية تفرعت عن الأبجدية الكنعانية مع تغيير بسيط أو العكس هو الصحيح أعني أن الأبجدية الكنعانية هي التي تفرعت.

فمهما طال البحث في أصل اللغة العربية وأبجدياتها وحروفها، ومهما جمع البحث من الآراء والنتائج التي وصلت إليها، فإن من المرجح جدًّا أن اللغة العربية القديمة في قلب الجزيرة هي لغة العرب التي لم يشبها ما خالط لغة أبناء عمومتهم الذين نزحوا إلى المناطق المزدحمة بالعناصر غير العربية والذين عرفوا في البحوث المتأخرة بالساميين.

ومن المرجح جدًّا: أن اللغة العربية هي أم اللغات السامية، ولقد سبقت الأدلة التي تؤكد: أن اللغة التي كان الساميون يتكلمون بها في مهدهم الأول هي: الأم، وأن هذه الأم قد احتفظت بصفاتها الأصلية في البلد الذي لم يشارك الساميين فيه غيرهم من عوالم الماضي التي اكتظت بها ضفاف الأنهار وسواحل البحار، ولم يكن هناك بلاد تمتع الساميون فيها بالاستقلال الكامل في كل ناحية من حياتهم غير قلب الجزيرة العربية، ولغة قلب الجزيرة العربية تتفق المصادر العربية على أنها اللغة العربية.

ومن المؤكد: أن اللغة العربية التي كانت تتحدث بها الشعوب التي عرفت في التاريخ العربي بالعرب البائدة عاد، ثمود، طسم، جديس، العماليق، جرهم الأولى .. إلخ، هي اللغة التي كانت تتحدث بها "قريش" و"الخزرج" و"غطفان" و"هوازن" .. إلخ، وأن ما دفن وتطور من الكلمات التي كانت مستعملة في عصور العرب البائدة والتي قد تظهر على النقوش الأثرية هو مثل ما دفن من الكلمات التي كانت تستعمل في جاهلية ما قبل الإسلام، والتي نجدها في بطون قواميسنا العربية.

فلقد أكد لنا الطبري بكثير من روايات المؤرخين[1]: أن ولد إرم بن سام ابن نوح، "غاثر" و"عاد" و"عبيل" و"ثمود" و"جديس". كانوا قومًا عربًا يتكلمون بهذا اللسان المضري، فكانت العرب تقول لهذه الأمم العرب العاربة؛ لأنه لسانهم الذي جبلوا عليه.

---

(١) تاريخ الطبري ١/١٤٠ وما بعدها.

ولقد جاء في كلام (بروكلمان) عن لغة الشعر العربي : [وقد استوعبت لغة الشعر هذا كل خصائص الأصل اللغوي السامي أكمل استيعاب، وإن لم تحتفظ في جميع نواحيها بأقدم الصيغ والقوالب ولم تضارعها لغة من نسبها السامي في مرونتها ودقتها في التعبير عن العلاقات التركيبية](1) .

ولقد مر بنا ما جاء في تحقيق (فرتز هومل) عن اللغة المعينية وقربها جداً إلى العربية القديمة عربية الشعر الجاهلي - ولقد أكد هذا الرأي (أولسهوزن) فقال : [إن اللغة العربية هي أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة](2) .

ولقد أثبت التحقيق العلمي : أن كثيراً من الكلمات العربية باقية على أصلها القديم يستعملها العرب إلى ما بعد الإسلام مثل : (اليم) بمعنى البحر والماء. و(العم) بمعنى الخلق الكثير و(أرخ) بمعنى وقت إلى غير هذه الكلمات التي تجدها في البحوث اللغوية.

هذا ولا يستبعد أن نجد أدلة غير هذه إذا ما بحثنا عن الخطوط القديمة التي دونت بها اللغة العربية.

---

(1) تاريخ الأدب العربي ١/ ٤٢ .

(2) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص٧ .



البحث التاسع

تاريخ الخطوط التي دونت بها اللغة العربية وأبجديتها

من موضوعات البحث :

١- ظنون المستشرقين تخطئ وتصيب .

٢- أين كان مولد الأبجدية الأم ؟

٣- لم تكن اللغة العربية - إبان الهجرات القديمة - اللغة الوحيدة في الشرق العربي



تاريخ الخطوط التي دونت بها اللغة العربية وأبجديتها

حق علينا أن نعترف بأن الفضل في معرفة الخطوط القديمة التي دونت بها اللغة العربية يرجع إلى النصوص التي اكتشفها الباحثون عن الآثار، وأن الفضل في اتساع دائرة التحقيق في الخطوط الأثرية يرجع إلى المستشرقين الذين بذلوا مجهودًا كبيرًا في دراسة الآثار وتحقيق تواريخها.

١ - وحق علينا ونحن نعترف بفضل الآثار وبجهود المستشرقين : ألا ننسى أن كثيرًا من الآراء المستشرقة في كثير من بحوث اللغات السامية وأبجديتها وخطوطها؛ لا تعدو الظنون التي قامت على الاجتهاد، وأن المجتهد قد يخطئ وقد يصيب، زد على ذلك اختلاف الآراء وتعارضها وما يترتب على هذا الاختلاف من ضرورة التقصّي للأخذ بالأصح وترك السقيم؛ فمن أمثلة هذا الاختلاف، رأي الدكتور (ديتلف نيلسن) الذي يؤكد : [أن الشبه بين العربية الجنوبية والسامية الشمالية الآرامية والكنعانية ضعيف جدًا ولو أنها ترجع جميعها إلى عصر واحد][١] فهذا الرأي يتعارض مع رأي الدكتور (فرتز هومل) : [فمن المحقق الآن أن القرابة قوية جدًا بين أبجدية النقوش العربية الجنوبية، وبين الأبجدية الفينيقية، لكن الخلاف حول درجة القرابة ونوعها، فإما أن الأبجديتين نشأتا عن أبجدية واحدة هي بمثابة الأم لهما، وأن هذه الأبجدية الأم كانت موجودة حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م. وإما أن تكون إحدى الأبجديتين متفرعة عن الثانية][٢].

---

(١) التاريخ العربي القديم ص ٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص٦٠.

ويرى "ديتلف نيلسن" : أن الصفويين هم مثل سائر القبائل العربية هاجروا من جزيرة العرب إلى الشمال فسكنوا في منطقة الصفاة : [فالصفويون إذن كما يرى "ديسو" في بحثه عن هذه القبائل لم يكونوا أول، أو آخر من سار في هذا الطريق إلى البلاد الموعودة، بل هم أول من خلف آثارًا في هذا الطريق؛ فالصفويون هم الوحيدون الذين نعرف شيئًا عنهم قبل أن يمتزجوا في الشعوب السامية]، وقد علق "جواد علي" على هذا الرأي فقال : [إن كلمة الصفويين لا تعني شعبًا معينًا أو قبيلة معينة وإنما هي اصطلاح أوجده (هاليفي) ليطلق على الكتابات التي عثر عليها في مواضع متعددة؛ لذلك يجب ألا يفهم أننا نقصد في بحثنا هذا جماعة خاصة أو قبيلة خاصة][1] .

فعلى الذي يريد أن يستخلص نتيجة مرتبطة الحلقات تلقي الضوء ولو قليلاً على أصل الأبجديات والخطوط التي دونت بها اللغة العربية في مختلف أقطار الجزيرة العربية، أن يتذرع بالصبر والأناة في بحثه عن الأدلة التي تبين كيف تطورت الأبجدية العربية وخطوطها إلى الصورة التي هي عليها اليوم، وأن يدور مع الآراء والظنون بيقظة وانتباه وحذر.

٢- وأول نقطة يبدأ منها الدوران هي : معرفة أين كان مولد أم الأبجديات السامية؟

في رأي البعض : أن الإشارة هي اللغة الأولى التي خاطب بها الإنسان أخاه الإنسان ثم أخذت الإشارة تتطور إلى رسوم يعبر بها الإنسان عن غرضه، ومن هنا بدأت الأبجدية تتكون، وبدأت حروفها تتبلور إلى أن وصلت إلى الشكل الذي وجدها عليه الأثريون.

وفي ظنون القدامى من المؤرخين العرب : أن محاكاة الأصوات هي الخطوة الأولى التي حاول فيها الإنسان أن يعبر بلسانه عما يجول في خاطره، فأصل اللغة في رأي هؤلاء [إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء،

---

(١) جواد ٣/٤٣٦ والتاريخ العربي القديم ص٤٧ .

وشجيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك][1] .

على أنه مهما كان أصل الأبجدية، ومهما كان أصل اللغة، فإن الشعوب السامية : "البابلية" و"الآشورية" و"الكنعانية" و"الإرمية" و"الهكسوس" انتقلت من الجزيرة العربية إلى أطرافها بعد أن قطعت مرحلة طويلة في الحضارة والثقافة، واجتازت مرحلة الإشارة ومحاكاة الأصوات؛ فتاريخ المعابد في داخل الجزيرة العربية، وتاريخ استخراج النحاس في عمان، وتاريخ الملاحة في شواطئ الخليج العربي، أقدم من تاريخ الهجرات السامية .. ومما لا يقبل الشك فيه : أن هذه الشعوب انتقلت إلى مهاجرها قارئة كاتبة بأبجدية وسعت ما يستلزم العبادة من أدعية وصلوات، وما يستلزم التجارة بالنحاس، والذهب، والبخور، والأخشاب .. من اعتمادات وعقود، وما يستلزم النقل البحري من اتفاقيات ومستندات، وإن كانت بدائية، فهي على كل لا بد أن تكون مستندات وعقودًا تضمن الحقوق.

فلقد افترض جواد علي في كلامه عن الكتابات : "المسندية" و"اللحيانية" و"الثمودية" و"الصفوية" : أنها متفرعة من أصل واحد [والأقلام المذكورة حاشا : النبطي المتأخر، متقاربة بعضها من بعض متشابهة في رسم الحروف، تفرعت على ما يظهر من أصل واحد. وهو على الجملة أقدم عهدًا من القلم النبطي المتأخر، يتبين لنا من انتشارها في منطقة واسعة خاصة في الأرضين التي تسكنها قبائل عربية خالصة بعيدة عن مؤثرات (بني إرم) ومن تقاربها من المسند أنها تفرعت من أبجدية واحدة كانت الأبجدية الرائجة في بلاد العرب قبل الميلاد وبعده][2] .

---

(١) المزهر ١٥/١ .

(٢) جواد ٤٢٥/٢ .

فهذا الذي يفترضه جواد علي في القرون الأخيرة التي سبقت الميلاد والقرون الأخيرة التي سبقت الخط القرشي بعد الميلاد افترض في أبجديات العصور المتقدمة "الكنعانية" و"المعينية"، فحول هذا الافتراض حام جرجي زيدان عندما قال: [وبسبب ناموس التدرج تشعبت لغة بدو الآراميين إلى اللغات: البابلية والإرمية والسبئية أو الحميرية ولغات عرب الحجاز وغيرها ومن جملتها لغة صدر الإسلام][1] وعن الأبجديتين الكنعانية والمعينية قالوا: إن القرابة بينهما قوية جدًّا فلا يبعد أن تكون الواحدة مشتقة من الثانية إذا لم تكن أرومتهما واحدة، ووطن هذه الأرومة إما أن يكون أرض كنعان أو بلاد العرب الجنوبية[2].

٣- على أن هذا لا يعني أن الأبجدية العربية أو أن اللغة العربية إبان الهجرات السامية الأولى هي اللغة الوحيدة التي سادت منطقة الهلال الخصيب من الجزيرة العربية، وأن الأبجدية العربية هي الأبجدية الأولى التي عرفها سكان العراق وسوريا ومصر.

فلقد أثبت البحث: أن البابليين دونوا لغتهم بالأبجدية السومورية المسمارية، وأنهم زادوا على هذه الأبجدية بعضًا من حروف أبجديتهم، واستغنوا عن بعضها بما في المسمارية من حروف تؤدي معناها[3].

ولقد اختلف المستشرقون في أي الأبجديتين الصوريتين أقدم؟ هل هي أبجدية وادي النيل الهيروغليفية؟ أو هي أبجدية أرض الفرات المسمارية؟، فمن العلماء من رأى أن الأبجدية الأولى هي التي ظهرت في العراق في (كلديا) بتأثير عبادة النجوم، ومن تلك الرموز التي وضعها الكهنة للنجوم أخذت الأبجدية الأولى: "الألف با" التي صارت أمًّا

(١) العرب قبل الإسلام ص٩٦.

(٢) التاريخ العربي القديم ص ٦٠.

(٣) العرب قبل الإسلام ص٥٨.

لمجموعة من الأبجديات. ومن القائلين بهذه النظرية والمدافعين عنها - هومل - الذي أنكر أن تكون مصر هي المهد الأول للكتابة[١] .

وبعد فالذي يتبين لنا من هذه الأدلة التي استعرضناها : أن الأبجدية الأم هي أبجدية مهد الساميين - الجزيرة العربية - الأبجدية التي تنتمي إليها أبجدية الكنعانيين التي عاصرت الأبجديتين الصوريتين : السومورية ، والفرعونية والتي صانها الكنعانيون عما أصاب أبجدية البابليين في العراق.

والذي علينا بعد هذه الأدلة التي تقدمت هو : البحث في الخطوط السامية وأبجدياتها التي دونت بها اللغات السامية في الجزيرة العربية؛ لنكون على بينة من هذه الخطوط.

ففي معرفة الخطوط وتواريخها وتطوراتها الكثير مما ينير بعض الجوانب من التاريخ العربي القديم.

(١) جواد ٢٠٢/١ وجاء في تحقيق "ديورانت" : أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومورين : **قصة الحضارة** ٤٤/٢ .



البحث العاشر

الخط البابلي الآشوري

من موضوعات البحث :

١- التدوين بالخط المسماري أثر على اللغة العربية .

٢- كيف حرفت اللغة العربية في بابل ؟

٣- انتشار الخط المسماري .

٤- اختلاف الرأي في رسم الخط المسماري

٥- لم دون البابليون بالخط المسماري ؟

الخط البابلي الآشوري

من التكرار الذي لا لزوم، له إعادة الكلام عن الساميين في العراق، وأنهم من الأرومة العربية، وأنهم نزحوا من مكان ما في الجزيرة العربية إلى شمالها وتسموا هنالك بأسماء اختلف في أصلها، فقال بعضهم: إنها في الأصل أسماء للأرضين التي حلوا بها مثل: آشور وعيلام، وبابل. فآشور في اعتقاد البعض اسم أرض أو بلد في شمال العراق، والعليم في اللغة العربية الماء الذي علته الأرض[1]، وقال بعض النسابين: إن آشور وعيلم اسمان لابنين من أبناء سام.

١- فمنذ استطاع العرب بقيادة (سرجون) الأول إعادة العراق الجزء الطبيعي من الجزيرة العربية إلى عروبته سياسيًا وحضاريًا، بدأوا يدونون لغتهم بالخط المسماري السوموري، وأخذوا يضيفون إليه حروفًا من لغتهم في الوقت الذي أضاعوا فيه بعضًا من حروف لغتهم، مثل حروف التضخيم والتفخيم العربية: (الطاء والظاء والضاد) ومن حروف الحلق (الحاء والعين والغين والهاء)[2].

واختلاط الأبجديتين العربية والسومورية، واتخاذ الخط المسماري للتدوين هو صورة من صور الحضارة العربية التي قامت في العراق، فلقد نشب في العراق منذ القدم صراع عنصري بين العرب والعناصر الأخرى. فبالانتصار العربي الذي أحرزه (سرجون الأول) انتصرت الحضارة العربية التي لم ترفض ما وجدته مفيدًا لها من الحضارة السومورية ولكنها حرصت على أن تطبعه بالطابع العربي ما استطاعت، وبذلك أتيح للعرب أن يقضوا على كل ما هو سوموري، فلم تقم للسومورية بعد ذلك

---

(١) **تاج العروس** مادة علم.

(٢) **تاريخ اللغات السامية** لولفنسون ص٣٩.

الانتصار العربي قائمة ولم يعد اسم السوموريين في العراق إلى الوجود مرة ثانية. واختفت اللغة السومورية ولم تعد باقية إلا في الطقوس الدينية[1] .

ولكن العرب مع ذلك الانتصار، أضاعوا كثيرًا من الصفات العربية بتأثير البيئة والعناصر التي كانت تعيش في العراق قبل الفتح العربي. ففي مقدمة هذه الصفات التي لم يستطيعوا الحفاظ عليها : اللغة، إذ كان من العسير على السوموريين وغير السوموريين أن ينطقوا باللغة العربية مثلما كان ينطق بها العرب، فكان مثل اللغة العربية في بابل مثل اللغة العربية في البربر. كما يقول ولفنسون : [بعد أن تغلب العرب على البرابرة فقد أخذت اللغة العربية تتغير شيئًا فشيئًا بسبب اختلاط العرب بالبربر وجعلت تتأثر باللغة البربرية تأثرًا ظاهرًا حتى تكونت من النطق المشترك لهجة جديدة بعيدة عن اللهجة العربية الصرفة][2] .

٢- ويوضح لنا ولفنسون اتساع الفجوة بين اللغة العربية وبين لغة الآثار البابلية عندما صحح اسم (حمورابي) الملك العربي الذي أطلق اسمه على أبرز الدول العربية القديمة في العراق، فلقد افترض أن هذا الاسم مركب مزجي وأن أصله بالنسبة للغة العبرية (عمو) اسم إله من أقدم آلهة الساميين و(ربي) بمعنى ربي فيكون الاسم في الأصل (عمو ربي) أي (الله ربي)[3] .

وفي رأيي : أن هذا الاسم بالنسبة للغة العربية هو في أصله ومعناه العربي : (رب الشعب) أو (سيد الشعب) فإن هذا الاسم أقرب على مركز حمورابي في الشعب البابلي وفي العقائد البابلية فكلمة (عامو) في اللغات السامية معناها الشعب[4] وحرف الواو

---

(١) **بلاد ما بين النهرين** ص ٢٠.

(٢) **تاريخ اللغات السامية** ولفنسون ص ٣٩ .

(٣) ولفنسون ص٢٦ .

(٤) **العرب قبل الإسلام** لجرجي زيدان ص٥١ ، ٦٧ .

(و) يزاد في اللغة البابلية في آخر كثير من الكلمات علامة للرفع[1] مثل (عام - عامو، أمة - امتو، وبرق برقو إلخ). وفي اللغة العربية (العم) جماعة من الناس كما في الصحاح وقيل من الحي وزاد بعضهم: (أن العم الخلق الكثير) وهذا ما عناه الشاعر عندما قال:

"يريغ إليه العم حاجة واحد فأبنا بحاجات وليس بذي مال"[2]

فاللغة العربية كما تقدم هي أصل للغة البابلية وفي اللغة العربية كثير من الكلمات التي ما زالت حية منذ آلاف السنين مثل (اليم. أرخ. أم. أخ. أمة .. إلخ).

على أنه مهما تكن صحة اسم حمورابي. فإن البحث الذي أثاره ولفنسون في تفسير هذا الاسم يدلنا على اتساع الفجوة بين اللغة العربية وبين اللغة البابلية، كما جاءت في الكتابات الأثرية، ولقد زاد في اتساع هذه الفجوة: أن الذين قرأوا نقوش الآثار البابلية لا يعرفون اللغة العربية كما يعرفها مؤلفا "تاج العروس" و"لسان العرب"، وأن الذين قرأوا هذه الخطوط ليسوا من أولئك الذين عاشوا في العراق قبل أربعة آلاف سنة، فكم حرف المستشرقون الأسماء والكلمات العربية القريبة العهد منا، فكيف بالأسماء والكلمات القديمة العهد؟؟. إنهم حرفوا اسم (أبي علي بن سينا) فقالوا عنه: (أفيسنا) واسم ابن رشد فقالوا عنه (أفيروس) واسم ابن الهيثم فقالوا عنه (الهايزيم) وأبو القاسم فقالوا عنه (البوكاسيس)[3].

٣- والخط المسماري الذي عاش في بابل ثلاثة آلاف عام أي إلى القرن الأخير الذي سبق الميلاد والذي انتشر في: عيلم، والفرس، وإرمينيا، وفلسطين. والذي كان الفرعون المصري (حوتب) الرابع يراسل به أمراء فلسطين؛ هو في بحث ولفنسون أوسع الخطوط القديمة انتشارًا، ولكن ما اقتنع به ولفنسون في بحثه الذي جاء فيه:

---

(١) جرجي زيدان المصدر نفسه ص٧٣ وولفنسون ص٢٨٣ وما بعدها.

(٢) تاج العروس مادة عم.

(٣) التاريخ الجغرافي القديم المقدمة ص م.

[ويمكننا أن نقول : إن انتشار هذا الخط لم يكن له نظير في العصور القديمة ، ولم يعرف لخط من الخطوط انتشار واسع كهذا إلا بعد انتشار الخط اللاتيني والعربي](1) ، ولم يقتنع به جواد علي الذي يقول : [وبذلك ثبت علميًا أن الخط المسند كان معروفًا قبل الإسلام في كل شبه جزيرة العرب ، وربما كان القلم العام للعرب قبل المسيح](2) فالخط المسند في رأي جواد كان في زمنه أعم من الخط المسماري.

٤- وكذلك يختلف ولفنسون مع جرجي زيدان في شكل الخط المسماري؛ فجرجي زيدان يثبت بمصادره أن الخط المسماري صوري مثل الهيروغليفي المصري فهو يقول: [وكان القلم المسماري في أصل وضعه صوريًا مثل الهيروغليفي المصري ثم تشوه شكله بالاستعمال وباستخدام المسامير في طبعه على الطين](3) .. بينما يقول ولفنسون : [وليس يجري الخط المسماري على نظام الخط الهيروغليفي الذي يعتمد على الصور ، ولا على النهج الكنعاني الذي يعتمد على الحروف ، بل له نظام خاص ليس بصوري وليس بحرفي ، وقد نشأ على نظامه هذا في أحواله الخاصة وتدرج فيه تدريجًا طبيعيًا محضًا](4) .

بيد أن ولفنسون تراجع أخيرًا فلم يذهب بعيدًا عما قاله جرجي زيدان عندما قال : [ويستعمل الخط المسماري على نوعين من العلامات ، ويشتمل النوع الأول منهما على علامات تعبر عن معنى كلمات كاملة كانت في بادئ أمرها صورًا كالخطوط الهيروغليفية ، ولكنها بعد استعمال القلم المسماري انقلب شكلها وصارت خطوطًا لا علاقة بينها وبين الصورة الأصلية التي تعبر عنها](5) .

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص٤٠ .

(٢) جواد ١٩٤/١ .

(٣) جرجي، العرب قبل الإسلام ٥٨ .

(٤) تاريخ اللغات لولفنسون ص٣٤ .

(٥) المصدر نفسه ص٣٥ . يوضح ولفنسون النوع الثاني بالحروف في الجداول التي أثبتها في كتابه. وحيث إن المهم هو التراجع الذي ظهر في كلامه عن النوع الأول. نكتفي بهذا القدر من كلامه.

فالذي يظهر مما جاء في كلام ولفنسون عن انتشار الخط المسماري أولاً، وما جاء فيه عن اختلاف الخط الكنعاني - الحرفي - ثانيًا، أنه يقصد بما جاء في كلامه عن انتشار الخط المسماري في الهلال الخصيب ووصوله إلى مصر؛ أن هذا الخط كان معروفًا وشائعًا في كثير من البلاد العربية، لا أنه كان خط الشعوب العربية مدى ثلاثة آلاف عام، وهذا هو المعقول، وهذا الذي أكده ولفنسون نفسه عندما قال عن الخط المسماري: [ولا على النهج الكنعاني الذي يعتمد على الحروف] فالخط الكنعاني معاصر للخط المسماري، والخط الكنعاني كما سيأتي هو إما أن يكون الأصل للخطوط العربية جميعها ما عدا البابلي المسماري، والمصري الهيروغليفي، أو من الأرومة التي تفرعت عنها هذه الخطوط. وذلك ما سيظهر لنا واضحًا في البحث الآتي: الخط الفينيقي وأبجديته.

والذي يظهر أيضًا: أن الخط المسماري كان في بدايته صوريًّا، وأنه خرج عن صوريته للأسباب التي ذكرت، مثلما كانت اللغة البابلية التي دونت به عربية وأنها خرجت عن عربيتها بتأثير أبجدية هذا الخط وبتأثير نطق العناصر التي كانت تتكلم بها.

والذي لا شبهة فيه أن الخط المسماري هو من أقدم الخطوط التي دونت بها اللغة العربية ومن أشهرها ومن أكثرها شيوعًا.

٥- وإنما السؤال الذي يقتضي البحث الجواب عنه، هو: لم ترك البابليون أبجديتهم وخطها ودونوا لغتهم بالمسمارية؟ ولم لم يفعلوا كما فعل أبناء عمومتهم الفينيقيون؟

ومما يلاحظ أن العرب الذين هاجروا إلى سوريا استطاعوا الحفاظ على لغتهم أكثر مما حافظ عليها البابليون؛ لأن العرب في سوريا لم يواجههم وَضْعٌ كالذي واجه

العرب في العراق. فلقد حفل العراق بحضارة السومريين التي اعتبرت أقدم وأعرق من الحضارة المصرية، فكان على العرب وقد تم لهم النصر السياسي : أن يحرصوا على الاستفادة من حضارة العراق لإقامة دعائم الحضارة العربية. فالقضاء على الأبجدية السومورية معناه القضاء على ثقافة غنية بموادها، فلذلك نراهم قد اتخذوا الخط السوموري خطًا للغتهم مع إضافة الحروف التي لا بد من إضافتها؛ تاركين لنشوء الحضارة العربية في ربوع العراق وارتقائها تعريب الخط السوموري. وفعلاً أخذ هذا الخط يفقد صوريته بفعل النقش بالمسمار كما علله المستشرقون، أو بعوامل بابلية كما هو المنتظر من الحضارة التي قضت على كل ما هو سوموري في العراق. ولقد رأينا كيف اختلف جرجي زيدان، وولفنسون في حقيقة الخط المسماري : أهو صوري مثل الهيروغليفي أم لا؟ ولقد رأينا كيف ساد الخط الإرمي أخيرًا في العراق.

البحث الحادي عشر

الخط الكنعاني - الفينيقي

من موضوعات البحث :

١- كنعان وفينيق اسمان أطلقا على شعب واحد .

٢- الشبه بين لغة الساميين في الهلال الخصيب مثل الشبه بين لغة الساميين في الجنوب .

٣- ليست الأبجدية الفينيقية مشتقة من الهيروغليفية المصرية .

٤- لم يأخذ الفينيقيون الاختزال من المصريين .

٥- اللغة العبرية وخطها مشتقان من اللغة الكنعانية وخطها .

٦- اليمنيون ينكرون اشتقاق القلم المسند من القلم الكنعاني.

٧- اللغتان : الكنعانية والبابلية صنوان .

٨- الخط الكنعاني أصل للإرمي .

٩- إن التغيير الذي يلاحظ على اللغة الفينيقية وخطها المتأخر هو : تطور لا بد منه.



الخط الكنعاني – الفينيقي

١ - لا فرق بين الاسمين (الكنعاني) و(الفينيقي)، فاسم (كنعان) الذي أطلق على سوريا - فلسطين - أصله في تحقيق الدكتور فيليب حتي : (حوري) ومعناه (الأرجوان)، والأرجوان في اللغة الكنعانية يسمى (كنع)، وعلى أساس ذلك نسبت تلك القبائل التي عرفت الأرجوان وتاجرت به بالكنعانية - أي الأرجوانية - واسم (فينيق) أصله إغريقي ومعناه أيضًا "الأرجوان" وقد أطلقه الإغريق على القبائل الكنعانية، فالفينيقية في اللغة الإغريقية معناه الأرجوانية كما أن الكنعانية في اللغة الحورية معناه الأرجوانية، ثم أصبح اسم فينيقي في أوائل القرن الثاني عشر مرادفًا لاسم كنعاني[١] .

أما في غير تحقيق (فيليب حتي) فاسم كنعان أصله سامي ومعناه الأرض المنخفضة، وأما عند النسابين فكنعان اسم الجد الأول للشعوب الكنعانية، وذلك جريًا على القاعدة التي سار عليها النسابون في إرجاع كل أمة من أمم الماضي إلى جد واحد أسموه بالاسم الذي عرفت به تلك الأمة مثل : "آشور" و"قحطان" و"سبأ" إلخ.

ومن الثابت في تحقيق المؤرخين عربًا ومستشرقين : أن الشعوب العربية التي انتقلت من الجزيرة العربية إلى شمالها في سوريا في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد لم تكن هي تلك الشعوب التي انتقلت من منخفض الساحل الشرقي للخليج العربي وعرفت في المصادر الإسرائيلية باسم كنعان فحسب، بل منها العماليق، ومنها شعوب ذكرتها التوراة بهذه الأسماء : اليبوسي، والأموري، والفريري، والحوبي، والجرجاشي[٢] ، وأن هذه الهجرات الكبيرة سبقتها هجرات التجار وطلاب المراعي من البادية.

---

(١) لبنان في التاريخ ص ٨٢ .

(٢) ولفنسون ص ٥٦ وتاريخ القدس لعارف باشا ص١١ وما بعدها .

٢- وفي رأي بعض المستشرقين : أنه كان بين اللغة الكنعانية واللغة البابلية شبه كبير اعتمد عليه ذلك البعض فاعتبر اللغتين كتلة لغوية واحدة تماثل الكتلة اللغوية الجنوبية المكونة من اللغات السامية في جنوب الجزيرة والحبشة ، واستنتج ولفنسون من ذلك : [أن كل تلك القبائل السامية التي نزحت إلى العراق وسوريا وأسست فيهما الحضارة ، كانت قبل نزوحها في منطقة واحدة تتكلم بلغة سامية ذات لهجات متقاربة](١) .

٣- وفي رأي بعض آخر من المستشرقين : أن الأبجدية الفينيقية مشتقة من الهيروغليفية على أساس أن الهيروغليفية أقدم الأبجديات، وقد عارض "هومل" هذا الرأي منكرًا أن تكون مصر هي المهد الأول للكتابة ، وذهب مع الذين يقولون : [إن الأبجدية الأولى ولدت في العراق في (كلديا) بتأثير النجوم](٢) .

ولقد اتخذ أنصار الرأي القائل بأن "الهيروغليفية" هي أم "الفينيقية" ، من الكتابة (الطورسينائية) التي عثر عليها مؤخرًا في شبه جزيرة سيناء ، والتي يعود تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ق.م، دليلاً يرجح رأيهم. فقالوا عن هذه الكتابة : إنها الحلقة المفقودة التي تربط بين الفينيقية والهيروغليفية.

والذي يبدو من تعارض هذه الآراء : أن الفينيقيين الذين نزحوا من شرق الجزيرة العربية والذين يمثلون الأغلبية في سوريا ولبنان كانوا من الثقافة والحضارة في مستوى جعلهم في موقف الند من الحضارتين المعاصرتين السومورية والفرعونية ، وجعل لهم السبق في ملاحة البحر الأبيض المتوسط.

وإذا نحن لا حظنا : أن هؤلاء الفينيقيين لم يتخذوا أحد الخطين : السوموري ، والمصري خطًا لهم، نجد أنفسنا أمام افتراض قمين بالاهتمام - يشجعنا على أن

---

(١) **تاريخ اللغات السامية** لولفنسون ص ٥١.

(٢) جواد ٢٠٢/١ .

نرجح أن الفينيقيين حملوا من وطنهم الأول خطًا حرفيًا قد يكون في مرتبة الهيروغليفي نضجًا أو أكثر، حرصوا على الاحتفاظ به في وطنهم الثاني، مثلما حملوا معهم صناعة السفن وفن الملاحة وتقدموا بصناعتهم فأنتجوا "القزاز" وبعض الصناعات التي يعتز بقدمها لبنان.

٤- ونحن إذا ما اعترفنا بكل هذه الحقائق التي قدمتها لنا آثار الفينيقيين، نقف مترددين فيما قاله بعض المستشرقين عن الفينيقيين، وأنهم أخذوا قاعدة الاختزال من الفراعنة، لا سيما إذا ما نحن اقتنعنا ولو ببعض ما قاله (ديورانت) في كتابه قصة الحضارة عن الكتابة التصورية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة، وأنها قد انتقلت إلى مصر من بلاد السوموريين[١]، وبما قاله (بريستد) في كتابه مصر من أقدم العصور: [والمعروف أن أقوامًا ساميين من عرب آسيا غزوا وادي النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة][٢] وبما قاله ولفنسون: [فالكنعانيون هم الذين اخترعوا السفينة واهتدوا إلى عمل الزجاج ووضعوا نظام الحساب، وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسماري والهيروغليفي][٣].

والاعتراف بهذه الحقائق يبعث الشك فيما نقله جواد علي عن بعض العلماء الذين يرون: أن الأبجدية الأولى هي وليدة الهيروغليفية، وأن الأبجدية الفينيقية مشتقة من الهيروغليفية، ويذهبون إلى أن الفينيقيين الذين كانوا أول من عمم طريقة الكتابة بالحروف الهجائية قد أخذوا أصولها من مصادر مصرية[٤]. فإن الهوة كما يقول جواد

---

(١) قصة الحضارة ٢/٤٤.

(٢) مصر من أقدم العصور ص١٧.

(٣) ولفنسون ص٥٢.

(٤) جواد ١/٢٠٣.

علي بين الكتابتين كبيرة، وإذا كانت نقوش طور سيناء التي يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد هي دليل أصحاب الرأي القائل: إن عمال مناجم طورسيناء اهتدوا إلى التدوين بالحروف الأبجدية من الفكرة المصرية في التدوين، فإن العكس يمكن أن يفترض أيضًا فيكون العمال قد اهتدوا إلى هذه الأبجدية من الفكرة الفينيقية؛ فإن طور سيناء من منازل الساميين منذ القرن الأربعين قبل الميلاد كما جاء في تحقيق جرجي زيدان وفيليب حتي[1]، وأن العلاقات بين سكان بلاد العرب الجنوبية والشرقية وبين سكان الجزيرة العربية في الشمال العربي كانت قوية. ويقول عنها "هومل": [وهذه الحقيقة لم يتنبه إليها أحد من قبل، وهذه الصلة القوية لم تقدر حق قدرها عندما نعنى بدراسة الفترة السابقة لتاريخ المعينيين، فمن المحقق الآن أن القرابة قوية جدًّا بين أبجدية النقوش العربية الجنوبية وبين الأبجدية الفينيقية، فإما أن تكون إحداهما تفرعت عن الثانية أو أنهما تفرعتا من أبجدية كانت موجودة حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م][2].

فموقف الشك الذي لم يجعلنا نجزم برأي في أي الأبجديتين الصوريتين السومورية أو المصرية كانت هي الأقدم؟ وإن كنا نرجح أن الحضارة في بلاد ما بين النهرين هي أقدم من الحضارة المصرية، يؤكد لنا: أن الأبجدية الكنعانية ليست من الأصل الفرعوني ولا من الأصل السوموري، إنها كنعانية من أصل عربي تطورت كما هو

---

(١) **العرب قبل الإسلام** ص١٣٤، ويقول حتي في **تاريخ العرب** (٤٠/٤١): قد سلك طريق سيناء مهاجرون ساميون حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد. ويرجح جواد علي: أن مواطن العماليق تقع بين كنعان ومصر في برية سيناء وتيه بني إسرائيل وأن العماليق كانوا يسكنون في أواسط فلسطين ويظن أن المعينيين الذين حاربهم (حزقيال) سنة ٧٢٦ وسنة ٦٩٧ق. م، قد يكونون من المعينيين الذين في الشمال وقد تكون لهم صلة بموضع معين المصرية. **تاريخ العرب** لجواد ٢/ ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦١.

(٢) **التاريخ العربي القديم** ص٦٠.

المفروض بعد طول إقامتها في سوريا، ويجعلنا كذلك - كما سيأتي في البحوث القادمة في هذا الجزء - لا نجزم برأي في أي الخطين أخذ الاختزال عن الآخر: الخط الفينيقي أو الخط المصري، وإن كنا نرجح: أن الخط الفينيقي سبق الخط المصري على منطقة خليج السويس وصحراء سيناء؛ لأن الساميين احتلوا هذه المنطقة وانتشروا في أراضي الدلتا والصحراء العربية ونشروا لغتهم فيها وصبغوها بالصبغة السامية قبل أن يتسع النفوذ السياسي المصري، وذلك ما أكده بريستد في كتابه مصر من أقدم العصور، وقال به جرجي زيدان.

٥- ونحن إذا كنا نرى ولفنسون متحمسًا في دفاعه عن اللغة العبرية لحد افتراض ما لا يفترض ولزوم ما لا يلزم، فهو لا يرضى بأن تكون اللغة العبرية مقتبسة من اللغة الكنعانية[١]، وهو تارة يجعل الآرامية والعبرية صنوين للكنعانية فيقول: [إذ كيف يعقل أن تكون الكنعانية أصلاً والعبرية فرعًا حين يثبت أن الكنعانية والعبرية والآرامية إنما هي فروع لأصل واحد مشترك بينها][٢]، وتارة أخرى يجعل اللغة الكنعانية هي بعينها العبرية: [وأما من جهة اشتقاق الكلمات، فإن الكنعانية هي بعينها العبرية][٣]. فإننا لا نتحمس معه؛لأننا رأيناه عندما يتكلم عن الخط المسند وصلته بالجعزية يقرر: أن الخط العبري مشتق من الكنعاني: مثلما اشتق منه الإرمي والمسند [وكما أن الأقلام الآرامية والعبرية مشتقة من الكنعانية فإن أقلام المسند مشتقة أيضًا منها][٤].

وإننا سوف نتعرض لهذا الموضوع بإيضاح أكثر في بحث اللغتين العبرية والجعزية الآتي في هذا الجزء.

---

(١) ولفنسون ص٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص٦١.

(٤) المصدر نفسه ص٢٤٢.

٦- وكذلك نحن نرى اليمنيين ينكرون : أن المسند مشتق من الخط الكنعاني، ففي رأيهم أن الكتابات اليمنية أقدم زمنًا من أقدم الكتابات المعينية، ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى رأي "هومل" في القرابة بين الأبجديتين : الأبجدية المعينية الجنوبية والأبجدية الفينيقية الشمالية، ولقد وضح جواد علي الفرق بين الأبجديتين وذكر الحروف التي تشتركان فيها، والحروف التي تختص بها كل واحدة منهما ثم قال : [وليس بمستبعد أن تكون الأبجديتان قد تفرعتا من أصل واحد](١) .

وبتتبع المصدر الذي اعتمد عليه جواد علي في رأيه هذا نجده يشير إلى الصفحة ٢٤٢ من تاريخ اللغات السامية لولفنسون - وبالرجوع إلى ما جاء في كتاب ولفنسون نجده يقابل بين رأي (هومل) الذي نقله كالآتي : [لكن العالم هومل قد قال : إن الخط المسند هو الأصل الذي اشتق منه الخط الكنعاني، ودليله على ذلك : أن نماذج من الكتابات المعينية التي وصلت إلينا أقدم من النماذج الكنعانية] - وبين رأي العالم (ليتسيرسكي) الذي نقله كالآتي : [ينكر صحة هذا الرأي ويقول : إن وجود نماذج معينية أقدم من الكنعانية لا يثبت أن الخط الكنعاني مشتق من المعيني؛ لأن الكتابات المعينية تستعمل حروفًا يظهر أنها قد انتقلت من حالة بدوية إلى حالة حضرية راقية، أما الكتابات الكنعانية القديمة التي وصلت إلينا مع أنها متأخرة عن المعينية فهي أقرب إلى الأصل وذلك؛ لأنها حروف بسيطة في الرسم ولا أثر فيها للتطور والانتقال من حالة إلى أخرى](٢) .

فلعل جواد علي - اعتمد في رأيه على ما جاء في كتاب "التاريخ العربي القديم" عن الأبجدية المعينية(٣) ، فقد كان رأي "هومل" هناك : إما أن يكون الخط المسند مشتقًا من الكنعاني وإما أن يكون الخط الكنعاني مشتقًا من المسند أو أن يكونا مشتقين من أصل واحد.

---

(١) جواد ١/ ٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه ص٢٤٣ .

(٣) التاريخ العربي القديم ص٦٠ .

٧- ومهما يكن المصدر الذي اعتمد عليه جواد علي، فإن اشتقاق الخطين من أصل واحد هو الرأي المرجح، فكل الأدلة تشير إلى وجود أصل للخط الحر في غارق في القدم، وكل الأدلة تشير إلى أن ذلك الأصل القديم يمثل اللغة الأم للغات السامية، وكل الأدلة تشير إلى أن اللغة الأم التي ما زالت موضع البحث والتحقيق فيها حتى اليوم هي : لغة الوطن الأول للساميين، وكل الأدلة تشير إلى أن الوطن الأول للساميين يقع في المنطقة الممتدة من الخليج العربي للبحر الأحمر جنوب الهلال الخصيب من الجزيرة العربية.

وكل هذه الأدلة تؤكد أخيرًا : أن اللغة العربية هي الأم وأن أبجديتها هي الأصل.

إذن فلا غرابة : أن كان هناك تشابه بين الخط الفينيقي، والخط المسند، والخط الارمي، والخط اللحياني، والخط الثمودي، والخط الصفوي، والخط النبطي، وأخيرًا الخط القرشي؛ فإن الأصل واحد. وإن العوامل التي جعلت للجنوبيين: المعينيين، والسبئين، والحميريين كيانًا مستقلاً، وجعلت للشماليين : الكلدانيين، والآشوريين، والفينيقيين، والإرميين، ومن خلفهم كيانًا مستقلاً، هي العوامل نفسها التي جعلت لهذه الخطوط أشكالاً تميز الواحدة عن الأخرى.

٨- وإذن فلا غرو : إن اعتبر الكثيرون : الخط "الكنعاني" وأبجديته أصلاً للخطوط "الإرمية" التي ظهرت بعدها، وإن اعتبر الخط الإرمي أصلاً للخط "التدمري" و"السرياني" و"النبطي" وبعض خطوط النقوش الثمودية، واللحيانية ونقوش النمارة التي كتبها اللخميون على قبر امرئ القيس عاهل الحيرة، فإن الخط الكنعاني وأبجديته هو أقدم خط حافظ بعض الشيء على أصله العربي، وإن سكان سوريا وشمال الحجاز كانوا كما يقول ولفنسون: حريصين على لغتهم أكثر من البابليين؛ فلذلك نجدهم لم يتخذوا أحد الخطين : المسماري السوموري والهيروغليفي المصري خطاً لهم.

وعن الخط الكنعاني يقول ولفنسون : [فلا غرو أن أصبح الخط الكنعاني أساسًا لجميع خطوط العالم المتمدين في الشرق والغرب][1] .

---

(١) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص٥٢ .

٩- وأخيرًا لا بد لنا أن نوضح شيئًا عن اللغة الفينيقية بالنسبة للغة الكنعانية وهل اللغتان : الكنعانية والفينيقية كالاسمين : كنعان وفينيق يرجعان إلى أصل واحد لا فرق بينهما؟ فنحن بعد أن تحدثنا عن الاسم الكنعاني والفينيقي، أخذنا نتكلم تحت هذا العنوان (الخط الكنعاني ـ الفينيقي)، عن الخط الكنعاني والفينيقي على أساس أنهما شيء واحد، ولم نشر إلى الفرق الذي ظهر بينهما أخيرًا، فلقد جاء في تحقيق المطران الدبس : [وتتفرع الكنعانية إلى فرعين : العبرية والفينيقية، فالفينيقيون وإن كانوا من ولد كنعان فقد كان لهم لغة مخصوصة قريبة من اللغة العبرانية لكن بين الفرعين فروقًا تجعل كلا منهما فرعًا متميزًا عن الآخر، فيظهر أن العبرانية كانت لغة الكنعانيين سكان الجبال في فلسطين، والفينيقية لغة السواحل، وقد دلتنا آثار هذه اللغة على أنها كانت ثلاث لهجات أو فروع: فرع (جبيل) وهو الأقرب إلى العبرانية، وفرع (صيدا) وهو الأهم والأكثر انتشارًا ويمكن اعتباره مثالاً لهذه اللغة، ثم الفرع (البوني) وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا إلى قرطاجنة][1].

والذي يظهر من كلام المطران الدبس : أن اللغة الكنعانية في آخر أمرها ككل لغة تأثرت بالعناصر التي خالطت الكنعانيين وخالطها الكنعانيون، فتفرعت إلى فروع منها ما عرف بالفينيقي وأخذ كل فرع يستقل عن الأصل حتى أصبحت اللغة الفينيقية في رأي جواد علي كما رأيت لغة قائمة بذاتها لا تذكر إذا ما ذكرت اللغة الكنعانية.

ولقد بحث الدكتور وافي في اللغة الكنعانية، فجعل في كتابه "فقه اللغة" عنوانًا خاصًا بها كما جعل عنوانًا خاصًا باللغة الفينيقية، ولكنه مع ذلك لم يفصل هذه عن تلك فلم يخرج القارئ من بحثه بغير النتيجة التي تؤكد : أن اللغة الفينيقية المتأخرة هي طور من أطوار اللغة الكنعانية في الأرضين التي ذكرها المطران الدبس.

---

(١) تاريخ سوريا للدبس ١٤٢/١ /١٤٣ .

البحث الثاني عشر

الخط المسند وأبجديته

من موضوعات البحث :

١- الأبجدية الجنوبية وخطها المسند هما في الأصل شماليان .

٢- الرواية العربية تتفق مع آراء المستشرقين على أن المعينيين والسبئيين سكنوا شمال الحجاز قبل أن يؤسسوا دولهم في الجنوب .

٣- القرابة بين الخط المسند وأبجديته وبين الخط الكنعاني وأبجديته توشجت أواصرها في الشمال .

٤- لماذا انعدم الشبه بين الخط المسند والخط الإرمي ؟

الخط المسند وأبجديته

١- لقد أصبح من الحقائق الثابتة : أن الأبجدية الجنوبية وخطها المسند كانا من الأبجديات الشمالية وخطوطها ، وأن الخط المسند الذي ولد في الشمال نما وترعرع واشتد في الجنوب، فأول الكاتبين بالخط المسند هم المعينيون كما يسميهم المستشرقون، والمعينيون كما يرجح هم قوم عاد الذين تحدثت عنهم المصادر العربية، وأصبح من الحقائق الثابتة : أن المعينيين ليسوا من الشعوب القحطانية[١] ، وكذلك السبئيون؛ لأن المعينيين في الجنوب أقدم من القحطانيين، ولأن المعينيين والسبئيين عاشوا طويلاً في الشمال قبل أن ينتقلوا إلى الجنوب. ويقول جرجي زيدان : (وقد جاء ذكر المعينيين في سفر الأخبار الثاني ٢٦ عدد ٧ وأعانه الله "عزيا" على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمين بجوار "بعل" وعلى "المعونيين" ويظهر أنهم أقدم من ذلك بكثير؛ لأنهم عثروا على أمة بهذا الاسم ذكرت في أقدم آثار بابل بين أخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ق.م، وقد يتبادر إلى الذهن أنهم المرادون بقول المصريين القدماء "من" أو "معن" ويريدون بها أمة من الشاسو عمالقة مصر في أثناء استيلائهم على وادي النيل كما ظن "جلازر" ولكننا نستدل مما وقفنا عليه من أحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية ومن أسماء رجالهم وآلهتهم أن أصلهم من عمالقة العراق بدو الآراميين الذين كانوا في أعالي جزيرة العرب قبل ظهور دولة حمورابي بعدة قرون)[٢] .

وفي تاريخ العرب لجواد علي أخبار متناثرة ذكرها جواد في مناسبات مختلفة. فمما جاء في تاريخه : أن الكتابة المعينية قد استخرجت من (الجوف) ومن (ديدان) أيضًا

---

(١) جرجي زيدان ص١٣٢ .

(٢) جرجي زيدان "العرب قبل الإسلام" ص١٣٢ ، ١٣٣ .

حيث كانت من أهم مواطن المعينيين[١] و(ديدان) يقول عنها ياقوت الحموي : إنها مدينة حسنة في طريق البلقاء من ناحية الحجاز.

ومما قاله جواد : وفي وادي القرى مواضع قديمة منها "العلا" وتقع على مقربة من خرائب (ديدان - دادان) التي كانت مقر المعينيين في الشمال، والتي أشير إليها في العهد القديم[٢] ومما قاله : و(يثرب) من المواضع التي يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد، وهي يثرب في الكتابات المعينية وكانت من المواضع التي سكنتها جاليات معين ثم صارت إلى السبئيين بعد زوال مملكة معين[٣] .

وجاء في تحقيق ولفنسون عن الخطين الثمودي والنبطي : [من رأي "جلازر" أن لفظ - معين مصران - الذي ورد في كتابات مصرية، إنما يدل على بطون معينية وجدت في مصر. هي الشاسو][٤] .

ورأي (جلازر) لم يرض به جرجي زيدان كما رأيت ، لأن من رأيه: أن المعينيين هم من عمالقة العراق. وذهب (هومل) إلى أن المعينيين أقاموا حصونًا تحمي الطريق التجاري المار بمكة والمدينة والعلا فقال[٥] :[واستتبع هذا النظام خلق المستعمرات المعينية التي نجدها في "العلا" شمال "المدينة" ففي ذلك المكان اكتشف (أوتينج) خمسًا وعشرين قطعة من نقوش معينية دونت في زمن لن يكون أحدث من منتصف الألف الأولى قبل الميلاد، وكما يستنتج أيضًا من أسماء بعض الملوك الواردة في تلك النقوش: أن تلك المستعمرات عمرت في الشمال حوالي قرنين] .

---

(١) جواد ٣٨٤/١ .

(٢) جواد ١٧٨/٤ .

(٣) جواد ١٨١/٤ .

(٤) ولفنسون ١٧٥/١٧٦ .

(٥) **التاريخ العربي القديم** ص٤٢ ، ٤٣ .

أما تاريخ المعينيين في الجنوب، فإن الظنون التي اختلفت في تحديد بدايته لم يتعد بعضها الألف الأخيرة التي سبقت الميلاد، بينما ذهب آخرون إلى أن في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، كانت بداية عهد المعينيين في الجنوب - إن هذه الظنون لم تختلف كثيرًا في نهايته، فهي تكاد تجمع على أن القرن السابع قبل الميلاد كان نهاية سلطان المعينيين، وبداية السلطان السبئي .

فالسبئيون كما خلفوا المعينيين في الشمال خلفوهم في الجنوب. ولقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن سبأ : [وأقدم ما نعرف عن سبأ هو : الإشارة السامية التي وردت في النقوش المسمارية، ويرجع تاريخ أقدم الإشارات إلى القرن الثامن قبل الميلاد في حين أن الوثائق التاريخية، المستمدة من بلاد الجزيرة ترجع بعصر السبئيين إلى سنة ٢٥٠٠ق.م، ويرى (هومل) أن السبئيين كانوا سكنة الجوف الشمالي وأنهم دخلوا جنوب بلاد العرب أول ما دخلوا من الجوف الشمالي في القرن الثامن ق.م][١] .

٢- والمؤرخون العرب في مؤلفاتهم لم يذهبوا بعيدًا عندما تكلموا عن سكان شمال الجزيرة وجنوبها، عما جاء في النصوص التي اعتمدها المستشرقون. فلقد جاء في تاريخ الطبري : [فعمليق أبوالعمالقة كلهم أمم تفرقت في البلاد وكان أهل المشرق، وأهل عُمان، وأهل الحجاز، وأهل الشام، وأهل مصر، منهم، ومنهم جبابرة الشام الذين يقال لهم الكنعانيون][٢] .

وإلى إرم تنسب المصادر العربية الشعب العادي، والشعب الثمودي، والشعب النبطي، وعاد في المؤلفات العربية بلغ ملكها مصر والشام والعراق وامتدت سيادتها إلى نجد وإلى الحجاز، ويقول المؤرخون : إن عادًا الثانية كانت باليمن، وإن ثمود

---

(١) الدائرة ١١/١٦٨، ١٧١ .

(٢) تاريخ الطبري ١/١٤٠ .

انتشرت من وراء مدائن صالح شمالاً إلى جبال صنعاء جنوبًا، ولقد جاء في معجم[1] ياقوت: (قرح) هو سوق وادي القرى، وقيل بهذه القرية مهلك عاد. وبين قرح وبين الحجر - حجر ثمود - ثمانية عشر ميلاً، وجاء في نهاية الأرب للقلقشندي عن بادية الشام: [ومن بادية الشام مدين وكانت منازل العاربة من عاد وطسم وجديس وأميم وجرهم][2].

أما سبأ فبنص القرآن على أنها عاصرت سليمان بن داود، ويرجع تاريخ سليمان إلى الألف الأخيرة قبل الميلاد، وحيث إن سبأ لم تنتقل إلى اليمن إلا في القرن الثامن قبل الميلاد رجح الكثيرون: أن مملكة سبأ كانت في عهد سليمان في شمال الحجاز[3].

فأقوال هؤلاء الباحثين في تاريخ الشعوب العربية القديم كما تراها تجمع على نتيجة واحدة تثبت: أن كتبة الخط المسند وأصحاب الأبجدية الجنوبية الأولين هم من الشعوب العربية التي انتقلت من وطنها الأول في وسط الجزيرة إلى شمالها في العصور الغارقة في القدم، وكذلك كتبة الخط الكنعاني وأصحاب الأبجدية الشمالية انتقلوا من وطنهم الأول في جزيرة العرب إلى الشمال في أزمنة ما قبل التاريخ.

٣- فمن المعقول: أن تنشأ من القرابة العنصرية ومن الجوار ومن المعاصرة - القرابة الأبجدية التي لاحظها (هومل) - بين الأبجديتين الفينيقية والمعينية، ومن المنتظر أن يحدث الالتباس في أي الأبجديتين هي الأصل والثانية هي الفرع؟ فكلا الشعبين: "المعيني" و "الكنعاني" من الشعوب العربية القديمة التي تنقلت في شمال الحجاز وفي سوريا وفي باديتها. وليس بمستنكر إن رجحت الظنون: وجود أبجدية تعتبر أمًّا للأبجديتين: الفينيقية - الكنعانية - والمعينية عرفها الشعبان في وطنهم الأول. فكلا

---

(١) مادة قرح المعجم و١٦١/٨ تفسير الطبري.

(٢) نهاية الأرب للقلقشندي ص٧.

(٣) جواد ٣٥٤/٢.

الشعبين هاجر من الجزيرة العربية. والمصادر العربية تؤكد : أن أبناء إرم - وأبناء عمليق كانوا يتكلمون بهذا اللسان المضري[١] ، والمصادر المستشرقية تؤكد : أن لغة مهد الساميين هي أم اللغات السامية وأبجديتها هي الأصل للأبجديات السامية.

فمن الظنون التي أصبحت في مرتبة اليقين : أن الأبجدية والخطوط الأولى للمعينيين والسبئيين الذين تنقلوا في الهلال الخصيب وفي مصر واستوطنوا شمال الحجاز، وعاشوا في "وادي القرى" وفي "يثرب" قرونًا قبل أن ينتقلوا إلى الجنوب ويكون لهم اليمن وطنًا ، هما من أبجديات وخطوط الشماليين ، فمما جاء في كلام جواد علي عن الخطوط العربية [أما المسند فقد رأى كثير، منهم العلماء أنه اشتق من الأبجديات السامية الشمالية][٢] .

ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن التحقيق يرجح : أن الكنعانية الشمالية والمعينية الجنوبية إن لم تكن إحداهما مشتقة من الثانية فإنهما من أصل واحد ، ومن المفروض أن يتطور الخط المسند والأبجدية المسندية في الجنوب بعد أن استوطن المعينيون ومن بعدهم السبئيون اليمن ، وأسسوا إمبراطورية كان لها شأن لا يستهان به في سياسة البلاد العربية وثقافتها وحضارتها ، مثلما تطورت الخطوط الشمالية بفعل الأحداث السياسية والعناصر الأجنبية التي تدفقت على سوريا وباديتها وعلى شمال الحجاز وسواحله. ومن المتوقع أن يحدث التطور هنا وهناك فواصل بين لغة الجنوبيين وأبجديتها وخطوطها ، وبين لغة الشماليين وأبجديتها وخطوطها.

٤- ولكن الذي يلفت النظر هو : لماذا يجمع الباحثون على أن الخط الإرمي بعيد كل البعد عن الخط المسند ما دام الخطان مشتقين من الخط الكنعاني؟

---

(١) تاريخ الطبري ١٤١/١ .

(٢) جواد ٢٠٩/١ .

وبينما التحقيق أثبت : أن ثمود والنبط يجمعهم عنصر واحد ، فقد كان يقال لقوم عاد في دهرهم : عاد إرم ـ فلما هلكوا قيل لثمود : ثمود إرم ، فلما هلكت قيل لسائر بني إرم أرمان فهم النبط[1] . والشعوب التي تجمعت في سوريا وفلسطين وبادية الشام تحت اسم (إرم ـ أرمان) منهم الإرمي نسبًا ومنهم العمليقي والجرهمي ـ وأثبت أيضًا : أن الثموديين عاشوا على مقربة من منازل النبط. فمما حققه (دوتي): [أن الحجر هي موضع (الخريبة) في الوقت الحاضر لا مدائن صالح التي هي في نظره حجر النبط والتي تقع على مسافة عشرة أميال من موضع الخريبة][2] .

فواحد من هذه العوامل : وحدة العنصر ، ووحدة التاريخ ، والوحدة الجغرافية ، يكفي ، لأن يجعل بين الشعبين صلات لغوية وخطية ، ولكن مع كل هذه العوامل لم تتبين للباحثين صلة بين الخطين "الإرمي" و"النبطي" الحديث وبين هذه الخطوط ـ فقالوا : إن الخط المسند واللحياني والثمودي والصفوي من أرومة واحدة ، وإن الخط الإرمي والنبطي من أرومة واحدة.

إنني لم أجد تعليلاً لذلك فيما اطلعت عليه من بحوث المحققين في الأبجديات السامية وخطوطها ، وإنني بما وصلت إليه في بحث بين المصادر المختلفة يتبين لي أن الإرميين في غرب الهلال الخصيب امتزجت بهم عناصر كان لها نفوذها في سوريا مثل: الإسرائليين الذين استطاعوا أن يؤسسوا ديانة ودولة في زمن أنبيائهم ، ومثل: الرومانيين الذين احتضنوا (أذينة) و(الزباء) زمنًا أطاحوا بالدولة العربية التدمرية. ولقد سبق السلطان الروماني الغزو الإسكندري ، والغزو الفارسي ، وغزوات الآشوريين الذين كانت سياستهم تقوم على الفتك وتشتيت العدو وإحلال الموالين مكانه ،

---

(١) تاريخ الطبري ١/١٤٣ .

(٢) جواد ١/٢٤٩ .

والحروب التي كانت سجالاً بين العراقيين والمصريين والتي كانت سوريا ميدانها الدامي. فكل هذه الأحداث جعلت اللغة الإرمية في هذا الصقع من الجزيرة تنمو نموًا ليس من صالحها، فكانت كما قيل عنها: رطانة تخالطها كلمات يونانية وكلمات رومانية.

وكل هذه الأحداث جعلت لغة وخطوط الإرميين المتوغلين في شمال العراق تنمو نموًا أصح من لغة الإرميين السوريين، ولكنها في تقدمها المطرد أخذت تبتعد شيئًا فشيئًا لا عن الخط المسند ولغة الجنوبيين فحسب، بل عن خطوط ولغة : اللحيانيين، والثموديين وغيرهم من شعوب شمال الحجاز فاتساع الفجوة بين الخطين اللذين سار كل منهما في واد، محا كل شبه بينهما، فلقد تطور الخط الإرمي إلى الخط السرياني، وأخذت لغة الإرميين تستوعب أخيلة الشعراء، وفلسفة اليونان، في الوقت الذي أخذت اللغة الجنوبية وخطوطها تعتز بإمبراطورية المعينيين والسبئيين الذين أخذوا يعنون بلغتهم وبخطهم ويحرصون على أن يكون له ولها صفات ممتازة حتى قيل : إن الحميريين كانوا لا يسمحون بتعلم الخط المسند إلا لمن يحظى بإذن منهم.

فإذا كان انتقال المعينيين والسبئيين إلى جنوب الجزيرة أنشأ فوارق بين الخط المسند، وبين الخط الثمودي واللحياني، بالرغم من الصلات السياسية والاقتصادية التي تربط بيئتهم إلى العصور المتأخرة، فحري بتوغل الإرميين في الشمال، وتوغل المعينيين والسبئيين في الجنوب، بأن يحدثا مثل ذلك الاختلاف بين الخطين.

ولذلك بقي الشبه واضحًا بين الأبجدية الكنعانية الشمالية والأبجدية المعينية الجنوبية، وانعدم بين الإرمية التي توغلت في الشمال، وبين المعينية التي توغلت في الجنوب، فإن أحداثًا وأجناسًا طورت تاريخ الإرميين ولغتهم وخطهم في الشمال كما طورت أحداث وأجناس تاريخ الجنوبيين ولغتهم وخطهم في اليمن وما حوله.

إن الحقيقة التي تستشف من الأقوال التي جمعناها من مختلف المصادر تؤكد لنا : أن الخط المسند هو في الأصل خط شمالي تفرع من أصل الخطوط الثمودية واللحيانية والكنعانية، ثم بنزوح المعينيين إلى اليمن أخذ الخط المعيني يتطور ببطء في زمن المعينيين، وبسرعة في زمن السبئيين، فلما جاء الحميريون تم تطوره وزخرفه[1]، وتؤكد لنا كذلك : أن الخط الذي تحمس لتطويره وتحسينه عواهل اليمن، عاد متطورًا مع قوافل معين وسبأ وحمير، ومع حاميات الحصون التي أقامتها الإمبراطوريات اليمنية على الطريق التجاري، فزادت صلته بالخطوط: الثمودية، واللحيانية، والصفوية التي هي بدورها تطورت بعد أن نزح المعينيون ومن بعدهم السبئيون إلى الجنوب. أما الخط الإرمي الذي اختلط بالعبرية والرومانية واليونانية في غرب الهلال الخصيب والذي توغل في الشمال الشرقي من الهلال الخصيب؛ فقد كان بعيدًا عن كل مؤثر جنوبي.

---

(١) جواد ١/١٩٩ .

البحث الثالث عشر

الخط الإرمي

من موضوعات البحث :

١- هل هناك فرق بين الاسمين : "إرمي" و "آرامي"؟

٢- من متاعب الباحث في لغة الإرميين اضطراب التحقيق في عنصر الإرميين وأصل لغتهم .

٣- اللغة الإرمية تغلبت على اللغة العبرية منذ القرن الثاني قبل الميلاد .

٤- الإرميون عرب في بعض التحقيقات وغير عرب في تحقيقات أخرى!!

الخط الإرمي

١- لم يعتمد جرجي زيدان في تحقيق اسم "إرم" إلا على المصادر غير العربية فقال: [كان الساميون في أعلى جزيرة العرب قد خيم بعضهم في البادية بين العراق والشام، وكان سكان المدن يسمون أهل تلك البادية (آراميين) أي أهل الجبال، وأهل ما بين النهرين يسمونهم (عمورو) أي أهل الغرب، ثم إن اسم عمورو تطور إلى اسم عرب(١)].

ولو رجع جرجي زيدان إلى المصادر العربية لوجد في معاجم اللغة: أن(أرام. كسحاب "جبل" و"ماء"، بديار جذام بأطراف الشام) وأن الفيروزأبادي قال: [والصحيح أنه جبل فيه ماء] وأن ياقوت ضبط اسم هذا الجبل فقال: [إنه - إرم - اسم جبل من جبال حسمى من ديار جذام بين أيلة وتيه بني إسرائيل] ولوجد أيضًا: أن إرما اسم ابن من أبناء سام إليه تنسب القبائل الإرمية، ولا يعارض الفيروزأبادي الذين يقولون: إن إرما اسم بلد الإرميين أو قبيلتهم(٢).

فعلى ذلك: إن اسم إرم يطلق على سكان بادية الشام جميعهم، سواء كانوا من أبناء إرم أو من العماليق أو من غيرهم. فهو كما قال الفيروزأبادي: اسم بلد أو قبيلة، وأن اسم إرم يطلق في غير بادية الشام على الذين هم من نسل إرم كما يقول النسابون، فقيل لعاد إرم عاد، ثم قيل لثمود إرم ثمود، ثم قيل للنبط أرمان(٣) وعلى ذلك: إن الفرق بين اسم (إرم) و(آرام): أن اسم إرم وآرام بمعنى واحد يطلقان على سكان البادية من أرض الشام، وأن (إرم) وحده يطلق على القبائل التي انتسبت إلى إرم في أنحاء الجزيرة العربية.

---

(١) العرب قبل الإسلام ص٤٣.

(٢) مادة (إرم) تاج العروس ومعجم ياقوت.

(٣) تاريخ الطبري ص١٤٣ ج١.

ولو رجع جرجي زيدان إلى المصادر العربية لوجد : أن العرب بينما هم يدخلون الهلال الخصيب والصحراء العربية المصرية في حدود جزيرة العرب، ويؤكدون: أن قبائل عربية هي : عاد، وثمود، وطسم، وجديس، والعماليق، وجرُهم، قد نزحت من قديم الزمان إلى الهلا الخصيب، وإلى الصحراء العربية الممتدة من البحر الأبيض إلى ما بعد أسوان، ويؤكدون : عروبة دول تدمر، وبطرا، والقدس، ودمشق، إذا هم بعد ذلك يقولون : إن الجزيرة العربية هي : الحجاز، ونجد، وتهامة، واليمن، والعروض، ويختصر بعضهم جزيرة العرب على الحجاز ونجد ويخرجون اليمن؛ لأن لغة اليمن قد خالطتها لغات أفريقية[1] .

وكذلك فعل المستشرقون، فهم في الوقت الذي يؤكدون فيه : أن الساميين هم قبائل عربية نزحت إلى العراق، وإلى سوريا وباديتها، وإلى مصر، من أواسط الجزيرة العربية - يجعلون العرب في الهلال الخصيب :أمة، ويجعلون العرب في باقي الجزيرة العربية: أمة ثانية تفصل الواحدة عن الثانية، الفواصل التي تفصل بين الروم والفرس والعرب.

فاختلاط الإرميين بالعناصر غير العربية جعل لهم وللغتهم صفة خاصة لا تنطبق على الصفة العربية ولا على لغتها، فكان لزامًا على المحقق أن يفصل بين العرب الخلص وبين الإرميين الخليط، وما يقال عن الإرميين يقال : عن البابليين، وعن الكنعانيين، وعن الهكسوس، وهذا ما حدث ويحدث في كل العصور العربية.

٢- فالحقيقة التي تظهر من دراسة هذا التناقض، تتضح فيما قيل عن الإرميين وأنهم كغيرهم شعب من الشعوب العربية التي هاجرت إلى أطراف الجزيرة ولم تستطع

---

(١) راجع مقدمة معجم ما استعجم للبكري، وراجع الجزء الثالث "جغرافية الجزيرة العربية" من هذا الكتاب ففيه النصوص التي تثبت أن الصحراء العربية والهلال الخصيب هما من أقطار الجزيرة العربية.

أن تحافظ على قوميتها العربية وتفرضها على العناصر التي كان لها في كثير من الأوقات الغلبة في الهلال الخصيب، فالحقيقة التي لا غبار عليها هي : أن القومية العربية لم تستطع أن تحافظ على كل صفاتها في العراق، وفي سوريا، وفي مصر إلا بعد الفتح الإسلامي، وأن اللغة العربية لم تتمكن من السيادة الكاملة في المناطق العربية إلا بفضل القرآن الذي أنزل بلسان عربي مبين.

وهذا التناقض الذي تجده في أقوال الذين حققوا عناصر الأمم السامية تجد مثله في أقوال الذين حققوا لغاتها : والتناقض في أقوال محققي لغات الساميين يوجه الانتباه إلى ما في تحقيق الخط الإرمي من صعوبة بالنسبة لاختلاف الآراء فيه اختلافها في العنصر الإرمي. فبينما ترى الباحثين في اللغة الإرمية يؤكدون : أن اللغة السامية في سوريا حافظت على ساميتها أكثر مما حافظت عليها اللغة السامية في العراق، نراهم مرة ثانية يتحدثون عن اللغة الإرمية، وعن خطوطها على أساس أنها لغة لا تمت إلى لغة مهد الساميين - البلاد العربية - بسبب.

فأنت إذا ما رجعت إلى ما جاء في تاريخ اللغات السامية، وجدت ولفنسون يسير في ركب الذين يؤكدون : أن الإرميين هم من القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة، وأن منازل الإرميين في سوريا هي أقرب من غيرها إلى قلب الجزيرة، فلذلك استطاعت اللغة الإرمية أن تحافظ على مقوماتها الأصلية أكثر من البابلية، ويقول : [ومن الظواهر الجديرة بالملاحظة، أن اللغة البابلية أضاعت كثيرًا من الألفاظ السامية والتوت ألسنتها عن النطق السامي لبعض الحروف، وذلك لخضوعها للنفوذ السوموري، في حين حافظت القبائل السامية التي هاجرت إلى فلسطين وسوريا على المادة الأصلية، والنطق الصحيح للغتها السامية، وذلك لأن الهجرات السامية الآتية من الصحراء متجهة نحو البلاد المأهولة لم تنقطع عن هذه البلاد في زمن من الأزمان،

فكان الساميون دائمي الاتصال بأبناء عنصرهم البدويين فاستطاعوا أن يحافظوا على لغتهم السامية، وأن يمنعوا عنها عوادي التغيير والتحريف][1] .

وقد أكد ولفنسون بعد هذا[2] : أن الخطوط الآرامية تفرعت عن الخط الكنعاني وأن بعضها قريب من الأصل، والبعض نحا نحوًا جديدًا إلى أن تغير تغيرًا ظاهرًا، وأكد الصلة التي تربط بين الخط الإرمي القديم، والخط الإرمي التدمري، والخط الإرمي النبطي، بمصور وضح أشكال هذه الخطوط.

٣- وقال عما آلت إليه اللغة الإرمية : [وفي القرن الثاني ق.م. أخذت اللغة الإرمية تتغلب شيئًا فشيئًا على عقلية اليهود حتى عمت كل بلاد فلسطين، وتكونت فيها لهجات آرامية جديدة غير اللهجة التي كان يتكلم بها أجدادهم في العصور التي نزلت فيها أسفار العهد القديم، وصار لهذه اللهجة من القوة والنفوذ ما لم يكن للهجة الأولى، فقد بسطت سلطانها في جميع أقسام البلاد وأصبحت أقوى من اللغة العبرية الأصلية، وقد كانت هذه الرطانة في مجموعها عبارة عن الآرامية والعبرية، وقد أخذت الكلمات الآرامية صبغة عبرية في الوضع والنطق، وكانت تلك الرطانة مشوبة بألفاظ يونانية ورومانية][3] .

ويقول ولفنسون : [وأما في شمال العراق، فقد نمت اللغة الآرامية منذ أقدم الأزمنة التاريخية وأنتجت ثمارًا كثيرة في أنواع المعارف الإنسانية من علم وأدب ودين وكان مركزها في مدينة (حران) ونواحيها، وقد ارتفعت هذه المدينة بعد أن اتصلت بالفلسفة اليونانية القديمة وكانت الديانة فيها خلاصة من الديانات الشرقية الوثنية][4] .

---

(١) تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ص١١٩ .

(٣) ولفنسون ص١٢٥

(٤) المصدر نفسه ص١٤٥

٤- فهذا الذي نجده في تاريخ اللغات السامية والذي يعبر عن آراء المستشرقين يفهم منه : أن الإرميين عرب ، وأن هؤلاء العرب قد حافظوا على لغتهم من عوادي التحريف والتغيير، حينًا من الزمن، وأن اللغة الإرمية عندما خالطتها اللغة العبرية تأثرت بها - بالعبرية - في الوضع والنطق، كما خالطتها ألفاظ يونانية ورومانية ، فأصبحت الإرمية رطانة مشوبة بألفاظ يونانية ورومانية وعبرية ، وأن اللغة الإرمية في غرب الهلال الخصيب التي أصيبت بالعبرية قد حرمت من التقدم والتطور المركز الذي ظهر واضحًا في اللغة الإرمية في شرق الهلال الخصيب الشمالي ، فقد نمت هناك وأنتجت ثمارًا كثيرة.

وهذا الذي يؤكده ولفنسون مع المستشرقين لا يخرج الإرميين عن عنصرهم، ولا يخرج اللغة الإرمية عن عروبتها ، فهي لغة عربية خالطتها العبرية وانضمت إليها كثرة من الألفاظ اليونانية والرومانية. فأصبحت على ما أصبحت عليه اللغة المعينية والسبئية في اليمن بعد أن خالطتها الأمهرية وأضيفت إليها كثرة من ألفاظ اللغات الأفريقية.

ولكن إذا ما رجعت إلى ما جاء في تاريخ العرب لجواد علي تجده يقول[1] : [لا يمكن أن يقال : إن جميع من كتب بلغة الإرميين وقلمهم هم منهم ، ؛ لأن الإرمية كانت قد تغلبت على أكثر لغات الشرق الأدنى وصارت لغة الكتابة والتدوين قبل الميلاد وبعده بقرون، تغلبت على العبرانية مثلاً وزاحمتها حتى فضلت عليها عند المتكلمين بها من الخاصة والعوام إلى نهاية القرن السابع بعد الميلاد ، فلا عجب إذن إذا ما دون النبط أو غيرهم من العرب بالإرمية لغة الفكر والثقافة وتكلموا بلغة أخرى هي لغة اللسان، وقد كان الأعاجم في الإسلام يتكلمون بألسنة أعجمية ويدونون باللسان العربي لسان العلم والفكر والقرآن] .

---

(١) جواد ٣/١٠ .

فيسترعي انتباهك فيما جاء في كلام جواد ـ اعتباره الإرمية أمة غير عربية. فعلى رأيه أن العرب الذين كتبوا بالإرمية ليسوا إرميين، إنهم كالفرس الذين كتبوا بالعربية وهم ليسوا عربًا.

فلعل جواد علي يقصد بالعرب القبائل العربية التي تسكن أرضًا عربية لا تشوب عربيتها شائبة. فلقد قال عن الأقلام التي انتشرت في الجزيرة العربية : [تبين من انتشارها في منطقة واسعة خاصة في الأرضين التي تسكنها قبائل عربية خالصة بعيدة عن مؤثرات بني إرم](١) . فهو لذلك فصل العرب عن الإرميين كما فصل بعض العرب من قبل : اليمنيين عن العرب عندما أوشكت لغتهم أن تستعجم، فإن الإرميين في سوريا، وإن كانوا في طليعة الشعوب العربية التي حافظت على لغتها ومنعت عنها عوادي التغيير والتحريف(٢) كما قال ولفنسون، فإن اللغة الإرمية كغيرها من اللغات العربية خضعت أخيرًا للتغيير والتحريف حتى أصبحت باعتراف ولفنسون نفسه الذي قال مرة ثانية عن اللغة الإرمية في سوريا : [وقد كانت هذه الرطانة في مجموعها عبارة عن الآرامية والعبرية وقد أخذت الكلمات الآرامية صبغة عبرية في الوضع والنطق وكانت تلك الرطانة](٣) .

على أن جواد علي الذي جاء بعد ولفنسون لا يقر كما رأيت انحدار اللغة الإرمية إلى مستوى الرطانة، فهو يؤكد : أن تطورًا حدث في لغة الإرميين الغربيين وأن هذا التطور لم يهبط بها إلى مستوى العبرية آنذاك، فقد كانت في تحقيقه في مستوى أرقى من العبرية جعل الكثير من المتكلمين بالعبرية من الخواص والعوام يفضلونها على العبرية(٤) .

---

(١) جواد ٤٣٥/٣ .

(٢) تاريخ اللغات ولفنسون ص٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص١٢٥ .

(٤) جواد ١٠/٣ .

والذي يلاحظ على ما جاء في تحقيق جواد علي : أنه في الوقت الذي يجنح فيه إلى أن الأبجدية الكنعانية وأبجدية المسند المعينية تفرعتا من أصل واحد[1] يجعل أبجدية وخط الإرميين والنبطيين في جانب، وأبجدية وخط المسند والثمودي واللحياني والصفوي في جانب آخر[2] . لأنه جعل الكنعانية شيئًا والفينيقية شيئًا آخر عندما أخذ يقارن بين أبجدية المسند وبين أبجديات الشمال[3] فهو بناء على ذلك مقتنع بأن الإرمية لا تمت بصلة إلى الكنعانية وبذلك انقطعت في بحثه الصلة بين الإرمية والنبطية، وبين المسند والثمودي، واللحياني، والصفوي[4] .

بيد أن التحقيق أثبت : أن الكنعانيين هم الفينيقيون، فاسم فينيقي أطلق على الساميين في سوريا جميعهم وفيهم الكنعانيون كما مر بنا. ولقد سبق أن تحدثنا عن اسم كنعان وفينيق، وعن اللغة الكنعانية والخط الكنعاني واللغة الفينيقية والخط الفينيقي[5] .

وأنا لا أريد أن أكرر الكلام في الخط المسند؛ لأن الخط المسند له موضوع خاص سبق هذا البحث (الخط الإرمي) وإنما الذي أريد أن أقوله هنا : إن الأبجدية الإرمية ذات صلة وثيقة بالأبجدية الكنعانية التي تقدمتها وهي بصلتها هذه تمت بقرابة إلى الأبجدية الجنوبية التي اختلفت الآراء في صلتها بالكنعانية. أهي فرع من الكنعانية؟ أم الكنعانية فرع منها؟ أم هما فرعان من أصل واحد؟ وإلى أن الخطوط الثمودية، واللحيانية والصفوية المتأثرة بالخط المسند تمت بصلة إلى الإرمية ما دامت الكنعانية

---

(١) جواد ٢١٠/١ .

(٢) جواد ٤٢٥/٢ .

(٣) جواد ٢١٠/١ .

(٤) جواد ٤٢٥/٢ .

(٥) راجع بحث الخط الكنعاني الفينيقي المتقدم في هذا الجزء.

هـي أم الإرمية وصنو المسند إذا لم تكن أصلاً له كما قال ولفنسون : [وكما أن الأقلام الآرامية والعبرية مشتقة من الكنعانية ، فإن أقلام المسند مشتقة أيضًا منها](1) ، فكل هذه الخطوط كانت متجاورة في شمال الحجاز وجنوب سوريا ، وكل هذه الخطوط وأبجديتها ولغتها ترجع إلى أصل واحد نشأ في قلب الجزيرة العربية. ولقد تطورت الأبجديات وخطوطها بتأثير الزمن وطوله ، والبيئات وتطورها ، والأحداث السياسية والاقتصادية ونتائجها ؛ فكل ذلك فرض على شعوب شمال الحجاز ونجد وجنوب سوريا ، أن تحتك بالأمم التي توافدت عليها من الشمال ، ومن الغرب ، ومن الشرق ، مهاجرة ، أو غازية ، أو مارة مع قوافلها إلى سواحل البحار.

والاحتكاك مهما كان سببه لا بد أن يكون له أثره في اللغة والتقاليد ، وإننا لنرى صورة ذلك الأثر فيما قيل عن اللغة الإرمية ، وأنها أخذت في سوريا تتحول بتأثير البيئة والأجناس التي خالطتها إلى رطانة . بينما كانت في شمال العراق تتقدم باطراد مستفيدة من الثقافة اليونانية وفلسفتها حتى أصبحت لغة العلم والأدب والتدوين.

وكما استطاع الإرميون في شمال العراق أن يصلوا بأبجديتهم وخطهم إلى مستوى أرفع مما كان عليه المستوى اللغوي في سوريا ، استطاع النبط أن يعودوا بالإرمية إلى حافة القاعدة العربية على ما صادفته اللغة الإرمية في "تدمر" من تحول نحو اليونانية والرومانية.

وإنا لنجد أثر ذلك التقارب الواضح في تداخل خطوط الثموديين مع خطوط النبطيين وبتعلق الحيريين بالخطوط النبطية الإرمية ؛ عندما نبحث في الخط النبطي والخطوط الثمودية واللحيانية والصفوية.

---

(١) ولفنسون ص٢٤٣ .

البحث الرابع عشر

الخطوط : اللحيانية ، الثمودية ، الصفوية

من موضوعات البحث :

١- أصل هذه الخطوط .

٢- أصحيح ما يقال : إن الخط الثمودي القديم هو أصل الخطوط السامية الجنوبية ؟

٣- نتائج البحث في أرومة هذه الخطوط الثلاثة .

٤- الحجاز سوق ثقافية قديمة .

الخطوط : اللحيانية ، الثمودية ، الصفوية

١- هذه الخطوط الثلاثة - من الخطوط التي انتشرت في أماكن كثيرة من البلاد العربية. ولكنها في تاريخ الجزيرة لا تعتبر من الخطوط الشمالية "خطوط الهلال الخصيب"؛ لأنها من فصيلة الخطوط الجنوبية ، ولا تعتبر من الخطوط الجنوبية "خطوط الجنوب العربي" لأن مناطقها من أقسام الجزيرة العربية الشمالية. ولقد جاء في تعليق "مراد كامل" على كتاب الفلسفة اللغوية لجرجي زيدان اعتمادًا على تقسيم جماعة علم اللغات بباريس : [واللغات السامية الجنوبية تنقسم بدورها إلى شمالية وجنوبية. والشمالية هي : الصفوية ، والثمودية ، واللحيانية ، والعربية الفصحى والجنوبية لغات نقوش بلاد اليمن : المعينية ، والسبئية ، والحضرية ، والقتبانية ، والأوسانية ثم لغات الحبشة الجعزية والأمهرية وإلخ][1] .

فعلى ذلك تكون هذه الخطوط جنوبية بالنسبة للفصيلة التي تنتمي إليها ، وشمالية بالنسبة لمناطقها التي ظهرت فيها. ولقد جاء في كلام جواد علي : أن اللحيانية ، والثمودية والصفوية تشتمل على كلمات وصيغ مخصوصة لا تختلف عن اللغة العربية التي نكتب بها ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نعدها عربية شمالية أو عربية جنوبية[2] .

وهذه الخطوط في رأي الباحثين تفرعت من الأرومة التي تفرع منها الخط المسند ، ولكنها ليست من الخط المسند؛ بل هي خطوط مستقلة لها صفاتها ومميزاتها. وفيما سبق بحثنا في الآراء التي تقول : إن خطوط شمال الحجاز حاشا الخط النبطي المتأخر متقاربة ومتأثرة بالخط المسند. ولقد ذهب بنا البحث مع الذين يقولون: ما دام أن

---

(١) الفلسفة اللغوية ص٣٦ .

(٢) جواد ٢١/١ .

الخط المسند منقول عن الخط الكنعاني مثلما كان الخط الإرمي منقولاً عنه، فإن الأصل للخطين واحد؛ ويقولون : ما دام أن هذه الخطوط الثلاثة التي ظهرت متأثرة بالخط المسند، منبثقة من الأصل الذي انبثق منه المسند، فإن الأصل لخطوط جنوب الجزيرة وشمالها واحد. فالذي يستثنى من خطوط الجزيرة هو : الخط المسماري السوموري، والخط الهيروغليفي الفرعوني، فإنهما خطان اعتمدا على الصورة، يرجح الكثير من المحققين أنهما من أصل واحد.

ولما كان لكل من : الكنعانيين، والمعينيين، والإرميين، والسبئيين، واللحيانيين والثموديين وغيرهم من شعوب الجزيرة دول جمعها الزمن تارة وفرقها أخرى كان لابد مما كان؛ حدوث هذه الفوارق بين الخطوط، والفوارق التي يحدثها الزمن الطويل لابد أن تتفاوت حسب الأسباب التي فرقت بين هاتيك الأمم واستمرارها واتساع الفرقة وما يكتنفها من عوامل ومؤثرات.

فهكذا تطورت الخطوط. فأخذ كل واحد منها يختص بشكل وخصائص . منها ما هو متشابه، ومنها ما هو غير متشابه. فمن الخطوط المتشابهة: المسند، واللحياني، والثمودي، والصفوي، فحول هذا التشابه حامت الظنون، فبعضها اقتنع بأن أصل هذه الخطوط واحد، وأن الزمن هو الذي فرق بينها. وبعضها ذهب إلى أن هذه الخطوط متأثرة بالخط المسند للصلات التي تربط بين هذه الدول وشعوبها وبين المسنديين. ويرى (هوبرت كريمة) : أن الخط الثمودي القديم هو أصل الخطوط السامية الجنوبية[1] .

٢- ورأي - هوبرت كريمة - على انفراد له وجاهته، فثمود عاصرت قوم عاد وورثت الأرض بعدها، ومنازل ثمود الأولى هي بإجماع الأغلبية من المستشرقين والعرب في وادي القرى على مقربة من منازل عاد الأولى، فلقد جاء في معجم ياقوت

(١) جواد ١/٢٥١ .

عن "قُرْح" : وقرح (سوق وادي القرى وقيل بهذه القرية كان هلاك عاد قوم هود)[1] . وبين "قرح" وبين (حجر ثمود) ثمانية عشر ميلاً[2] ، ولقد جاء في كلام جواد علي[3] : [أن بطليموس عين موضع عاد وجعلهم غرب شبه الجزيرة العربية على مقربة من ثمود وكلاهما كان يسكن أعالي الحجاز ، والذي ذكره بطليموس أقرب إلى الصواب. فمنطقة حسمى هي أقرب إلى هذا الوصف من مناطق الرمال ، ولم يعين القرآن موضع الأحقاف وإنما عينه المفسرون].

فعلى ذلك لا يبعد أن يكون الخط الثمودي القديم هو الخط نفسه الذي كان يكتب به قوم عاد ، ولا يبعد أن يكون خط قوم عاد وأبجديته هو الأصل لخطوط الجزيرة ، فلقد فسر قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[4] أي ساكني الأرض بعد قوم نوح[5] ، فعاد ورثت الأرض بعد قوم نوح ، وثمود ورثت الأرض بعد عاد.

بيد أن هذه الأدلة كما نراها لا تقطع بأن المعينيين الشعب الأول الذي كتب بالخط المسند هم قوم عاد. وإنما هي ترجح ذلك ، لذلك لا يمكننا أن نصر على أن خط المعينيين هو خط قوم عاد ولكننا لا نستبعد أن يكون خطهم وخط الكنعانيين من أصل عربي قديم ، يرجح أن يكون ذلك الأصل هو الذي عرفه العاديون والثموديون ومن في طبقتهم من شعوب شمال الحجاز.

فعلى ذلك يكون المسند المتطور في اليمن هو من الأرومة الثمودية أو من الأصل الذي تفرع منه القلم الثمودي.

---

(1) المعجم مادة قرح .

(2) تفسير الطبري ١٥٩/٨ .

(3) جواد علي ٢٤٨/١ ، ٢٣٤/١ .

(4) سورة الأعراف، الآية : ٦٩ .

(5) تفسير الطبري ١٥٢/٨ .

ورأي "هوبرت" هو على النقيض من رأي جواد علي، ورأي "جواد علي" في موضوع أصل هذه الخطوط غير مستقر فهو يقول هنا : [ويرى العلماء : أن الأقلام الثلاثة المذكورة وهي : الثمودي والصفوي واللحياني، قد اشتقت من المسند، فإن التشابه في تعدد أشكال الحرف الواحد عن المسند، والظاهر أنها تفرعت منه في القرون الأخيرة قبل الميلاد بعد تزعزع كيان الحكومات المركزية في اليمن وظهور حكومات مستقلة في الأرضين التي كانت خاضعة لحكم معين وسبأ](١) .

ثم يقول مرة ثانية في بحثه عن صلة هذه الخطوط بالخط الإرمي : [والأقلام المذكورة - حاشا القلم النبطي المتأخر - متقاربة بعضها من بعض متشابهة في رسم الحروف، تفرعت على ما يظهر من أصل واحد](٢) .

فالفرق بين قول جواد علي أولاً، وقوله ثانيًا : واضح، والفرق بين القولين يظهر لنا عدم استقرار رأيه وتردده.

وأخيرًا نجد جواد علي : اقتنع بأن المسند وهذه الخطوط الثلاثة تفرعت من الأرومة التي كانت رائجة في بلاد العرب حيث يقول : [إن الكتابات التي صنفها المستشرقون : المعينية واللحيانية والثمودية والصفوية، والكتابات التي دونت بالمسند

---

(١) جواد ٢٠١/١ .

(٢) جواد ٤٢٥/٣، والرأي الذي أبداه جواد علي أولا بني - كما يبدو - على ما جاء في كلام ولفنسون : (وهذا القلم الثمودي مشتق من القلم المسند، ويحتمل أنه جاء إليهم عن طريق قبائل معين التي استوطنت في الحجاز. **تاريخ اللغات السامية** ص١٨٠) والقلم الثمودي الذي يتكلم عنه ولفنسون: قلم متأخر لا يتجاوز أقدم نقش منه سنة ١٠٦م، **اللغات** ص١٧٨، ففي هذا التاريخ لم يبق لدولة معين ولا لدولة سبأ وجود، حيث قامت دولة الحميريين في سنة ١١٥ق.م. "جرجي زيدان، - **العرب قبل الإسلام** ص١٤١" . فلا بد أن ولفنسون كان يقصد الخط المسند الحميري الذي رجع إلى شمال الحجاز مع قوافل اليمنيين ناضجًا ومزخرفًا، فكان له بعض المؤثرات على خطوط شمال الحجاز.

وعثر عليها في الكويت وفي الأحساء، وكتابات دونت بالقلم النبطي المتأخر : هي أقدم ما وصل إلينا بلهجة تقارب لهجة القرآن. والأقلام المذكورة حاشا النبطي المتأخر. متقاربة بعضها من بعض متشابهة في رسم الحروف . يتبين من انتشارها في الأرضين التي تسكنها قبائل عربية خالصة بعيدة عن مؤثرات "بني إرم" ومن تقاربها من المسند أنها تفرعت من أبجدية واحدة كانت الأبجدية الرائجة في بلاد العرب قبل الميلاد وبعده أيضاً][1] ؛ فجواد علي في تحقيقه الأخير على ما يبدو يعني بالكتابة المعينية مخلفات المعينيين الذين سكنوا أعالي الحجاز خاصة "العلا" وعاشوا هناك قبل الميلاد[2]، وتحقيق جواد علي الأخير على ما يظهر لا يبعد عن رأي "هوبرت".

هذا ونحن لا ننكر جهود جواد علي ، فقد نشر لنا في أجزاء كتابه "العرب قبل الإسلام" ما وصل إليه الباحثون عن هذه الخطوط، فلقد جاء في مؤلفه عن اللحيانيين [وقد عثر على أكثر الكتابات اللحيانية في موضع يسمى اليوم "خربة" و"الخريبة" وهو خرائب تقع على مسافة "كيلو متر" واحد إلى الشمال من "العلا" يظهر أنها بقايا مدينة قديمة][3] ، وجاء عن القلم اللحياني : [أنه مثل القلمين الثمودي والصفوي قريب من المسند، وأما لغة الكتابة فلغة عربية شمالية على اصطلاح المستشرقين ولكنها قريبة أيضًا من اللهجات العربية الجنوبية][4] ، والقلم اللحياني عثر عليه في الحجاز ويوجد فيه حروف: "الذال" و"الثاء" و"الغين" و"الضاد" و"أفعل التفضيل" وعلامة التنبيه التي هي من الخصائص البارزة للغة العربية. ويقول عن تاريخه : إن الخلاف فيه كبير [فمنهم من يرفعه إلى القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد في أقل تقدير، ومنهم من

(١) جواد ٤٢٥/٣ .

(٢) المصدر نفسه ٤٢٥/٣ .

(٣) جواد ٤٢٧/٣ .

(٤) جواد ٤٢٦/٣، ٢٠٠/١ .

ينزله إلى ما بعد الميلاد][1]. ويقول عن القلم الثمودي وأبجديته : [وحروف الصفوية والثمودية كحروف العربية الشمالية عددًا[2] . وأبجدية الثموديين في رأي (ليتمان) وسط بين الصفوية والمسند العربي الجنوبي وكتابات الثموديين عليها في الغالب صور حيوانات][3] . وقال عن القلم الصفوي : [عثر عليه في منطقة الصفاة شرق الشام وفي بادية الشام وخطوطه قريبة من كتابة لحيان وثمود[4] ، وقريبة من خط المسند ، وتتألف الأبجدية الصفوية من ثمانية وعشرين حرفًا[5] ، وتاريخ الكتابة الصفوية يرجع إلى سنة ١٠٦ بعد الميلاد ، وفي هذه السنة كانت الحرب قائمة بين النبط والرومان[6] ، وفي هذه الكتابات ظهر حرفا الجر (من) و(مع) العربيان وأضيفت صيغة المنعوت إلى النعت كما في العبرانية المتأخرة][7] .

٣- فكل هذه الأقوال التي جمعها جواد علي من مصادره تصل بنا إلى أن هناك أصلاً عربيًا قديمًا تفرعت منه الخطوط والأبجديات الجنوبية والشمالية ، وأن هذه الخطوط تنقلت بلغتها مع الشعوب العربية من شمال الحجاز ، ومن نجد واليمامة إلى جنوب الجزيرة وشمالها. ومن البحر الأحمر إلى الخليج العربي، ثم تلاقت في منتصف الألف الأخيرة قبل الميلاد في شمال الحجاز متطورة متأثرة بما خالطها في مهاجرها : في العراق، وفي سوريا ، وفي مصر ، وفي اليمن، وفي سواحل الجزيرة. وإننا لنلمس هذا

---

(١) جواد ٣/٤٢٧ .

(٢) جواد ٣/٤٢٧ ، ١/٢٠٠ .

(٣) جواد ٣/٤٣٠ .

(٤) المصدر نفسه ١/٢٠٠ .

(٥) المصدر نفسه ٣/٤٣١ .

(٦) المصدر نفسه ٣/٤٣٢ .

(٧) المصدر نفسه ٣ص٤٣٢ . (ويلاحظ أن "مع" ظرف لا حرف جر).

التطور وهذا التأثر فيما لاحظه المحققون على الخطوط الثمودية بالنسبة لأخواتها اللحيانية والصفوية. فلقد قالوا : إن الخط الثمودي متأثر بالمسند الجنوبي، وإن حروف الخط الثمودي والخط الصفوي كحروف العربية الشمالية عددًا وقالوا : إن أغلب الكتابات الثمودية عليها صور حيوانات، وإن الأبجدية الثمودية وسط بين الصفوية والمسند العربي الجنوبي، فعلى ذلك فإن الخط الثمودي المتأخر تطور بتأثير الاحتكاك إلى خط تأثر بالخط المسند فشابهه، وتأثر بأبجدية الشماليين، فكانت حروفه كحروف العربية الشمالية عددًا ، وتأثر بالخطوط الصورية: المسماري والهيروغليفي فرسمت على أغلب كلماته صور الحيوانات.

ثم لمّا تألق الخط الإرمي وانتشر بواسطة النبط الذين تزعموا القضية العربية في شمال الحجاز وجنوب سوريا ، تداخلت الخطوط النبطية والثمودية بالشكل الذي يشير إليه جواد علي : [وهناك عدد من النصوص الثمودية يعود عهدها إلى العهد النبطي ويشغل حيزًا من الزمن حوالي مئتي سنة قبل الميلاد وثلاث مئة سنة بعده. وتمتزج في مثل هذه النصوص الثمودية بالنبطية وقد عثر على بعض نصوص نبطية في الحجاز ظن أنها من النصوص الثمودية](١) .

٤ - والذي يظهر من هذا كله أن شمال الحجاز كان ملتقى الثقافات، وكان مجالا لصراع لغوي أبجدي بين المسند والإرمي. فلقد تزاحم الخطان في هذه المنطقة : المسند الخط الذي حظي بعناية واهتمام تبابعة اليمن، والإرمي الخط الذي تسامت به لغة الإرميين في الشمال الغربي من العراق إلى مستوى ثقافي خلب الأنظار؛ فحرصت شعوب شمال الحجاز على أن تدون به وثائقها وآثارها ، وإن كانت لم تتخل عن لهجتها وخطها الشعبي في شئونها الخاصة فكانت الغلبة في آخر الأمر له.

---

(١) جواد ١/٢٥١ .

والذي يبدو أن الخط الإرمي من بداية الجولة لم يقنع بأن تكون له مؤثرات على الخطوط التي كانت في منطقة نفوذه فحسب مثلما قنع الخط المسند. فلذلك برزت صفاته كاملة في الآثار التي دونت به. فكل ما حدث من اختلاف ما هو إلا نتيجة التطور ونتيجة التفاوت في الثقافة، وفي إجادة ودقة الكاتبين، فلقد جاء في حديث (ليتمان) عن بعض النقوش الثمودية : [أن كاتبه ما كان يعرف اللغة الآرامية معرفة صحيحة؛ لأنه أراد أن يستعمل ألفاظًا آرامية فخانه الجهل بها واضطر إلى أن يضعها في قالب عربي وأن يستعمل معها بعض الكلمات العربية][1] .

ويبدو أيضًا أن اللغة الإرمية تطورت مع الخط الإرمي بالرغم من حرص الإرميين على لغتهم الأصلية فتحرفت كلماتها فكانت لها صفة جعلت الباحثين يعتبرونها لغة قائمة بذاتها فيقولون : كانت العرب تكتب باللغة الإرمية وتتكلم في منازلها لغة اللسان - العربي - كما كان الفرس يفعلون ذلك بعد الإسلام يكتبون بالخط العربي وباللغة العربية ويتكلمون في دورهم باللسان الفارسي .

---

(١) ولفنسون ص١٧٨ .

البحث الخامس عشر

العبرية والجعزية وخطهما

من موضوعات البحث :

١- الدكتور ولفنسون يبحث عن دليل يثبت قدم اللغة العبرية .

٢- الحيرة التي وقع فيها ولفنسون وقع فيها من قبل عشرين قرنًا يوسف اليهودي. لقد وجد الإسرائيليون في فلسطين أممًا متمدينة منذ زمن طويل.

٣- العنصر الإسرائيلي أقلية ضئيلة في جموع المهاجرين مع موسى عليه السلام .

٤- العبرية فرع من الكنعانية امتزج بالإرمية وأخذ الكثير من العربية.

٥- ولفنسون يعترف أخيرًا بأن اللغة العبرية وخطوطها مشتقة من الكنعانية.

٦- اللغة الجعزية وقلمها .



العبرية والجعزية وخطهما

١ - أنا لا أقلل من أهمية تحقيق الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه تاريخ اللغات السامية. فلقد أصبح هذا الكتاب مرجعًا لبعض الباحثين في اللغات السامية، وأنا عندما رجعت إلى كتاب تاريخ اللغات السامية أبحث فيما جاء فيه عن اللغة العبرية وجدت الدكتور ولفنسون يتلمس الأدلة التي تثبت : أن اليهود قبائل عربية هاجرت من شبه الجزيرة إلى فلسطين كما هاجر إليها العماليق والإرميون والكنعانيون وغيرهم من القبائل العربية ، عندما قال : [ولأن بني إسرائيل جاءوا بلغتهم العبرية من الجزيرة العربية؛ كانت مميزات الحياة الصحراوية بارزة في هذه اللغة ، وقد توارث الإسرائيليون هذه الميزات إلى أن استوطنوا فلسطين ، فلم يكونوا يستنكرون على الأديب أن يستعمل التشبيهات الصحراوية والخيال البدوي][1] .

فالدكتور ولفنسون لم يجد دليلاً غير مميزات الحياة الصحراوية يؤكد : أن اللغة العبرية جاءت من الجزيرة العربية مثل بقية اللغات السامية ، ولما لم يجد ما يوضح الناحية التي جاءت منها هذه اللغة العبرية قال : [إذن فترجيح أن بني إسرائيل نزحوا من اليمن أمر لا يمكن الاطمئنان إليه؛ لأن الشعوب العبرية لم توجد في كل العصور التاريخية إلا في شمال الجزيرة على أطراف فلسطين. وأما ما كان في العصور المظلمة التي سبقت التاريخ ، فمن العبث المحض أن يبحث فيه؛ لأنه لا دليل ولا شبه دليل ينير الطريق أمام الباحث][2] .

ومن أين يجد الدكتور ولفنسون دليلاً أو شبه دليل يعتمد عليه في إقناع القارئ بأن اللغة العبرية هي في مصاف اللغات السامية القديمة؟ إنه ترك النصوص اليهودية وراء

---

(١) ولفنسون ص٨٨ .

(٢) ولفنسون ص٨١ .

ظهره؛ لأنه ليس فيها ما يؤكد : أن اللغة العبرية هي في مرتبة اللغة الكنعانية التي انتشرت في سوريا وفلسطين قبل أن يهاجر إبراهيم عليه السلام، وأخذ يبحث بين ظنون المستشرقين، فلم يجد سوى مميزات حياة الصحراء ، وميزات حياة الصحراء في بحوث المستشرقين، يصفها لنا غوستاف ليبون : [وبقي بنو إسرائيل حتى في عهد ملوكهم بدويين أفاقين مفاجئين مغيرين سفاكين مولعين بقطاعهم مندفعين في الخصام الوحشي. فإذا ما بلغ الجهد منهم ركنوا إلى خيال رخيص تائهة أبصارهم في الفضاء كسالى خاملين من الفكر كأنعامهم التي يحرسونها][1] .

وفي الواقع أن الباحث اليهودي المتعصب ليهوديته يقع في حيرة إذا ما أراد أن يجعل للإسرائيليين تاريخًا عريقًا ، فلقد جاء في كلام (جون ويلسن) عن الهكسوس وما كتبه عنهم في العهد القديم (يوسيفوس) يوسف اليهودي: [وهذه القصة ، قصة مغرضة؛ لأن يوسيفوس كان يريد أن يثبت أن الهكسوس هم بنو إسرائيل][2] .

٢- فما أشبه الليلة بالبارحة ، فالحيرة التي وقع فيها إسرائيل ولفنسون وقع فيها من قبل يوسف اليهودي منذ عشرين قرنًا ، فمثلما حاول يوسف أن يجعل بني إسرائيل في مرتبة الأمم السامية ذات التاريخ القديم، حاول ولفنسون أن يجعل اللغة العبرية في مرتبة اللغات السامية ذات التاريخ القديم، فلم يجد أمامه غير الحياة البدوية فتعلق بها. وأخذ يبحث في ظنون المستشرقين عن هذه الحياة البدوية ولكنه لم يتعرض لما جاء في كتاب اليهود في تاريخ الحضارات لغوستاف ليبون الذي قال عن بني إسرائيل : [وعندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم من باديتهم ليستقروا بفلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدينة منذ زمن طويل][3] .

---

(١) اليهود ص٣٠.

(٢) الحضارة المصرية ص٢٦٦ .

(٣) اليهود ص٢٠ .

٣- وكذلك هو لم يبحث في المصادر الإسرائيلية؛ لأن تاريخ بني إسرائيل في المصادر الإسرائيلية واضح وضوحه في المصادر العربية، فالأسرة النبوية الكريمة أسرة يعقوب "عليه السلام" لها كل المميزات التي تحلى بها إبراهيم جدها الأعلى: نضج التفكير، سمو المبادئ، ثقافة دينية عالية، ولكن ليس بنو إسرائيل كلهم هم من الأسرة الكريمة، فلقد قال ابن خلدون، في مقدمته: [فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون، والمدة بينهما على ما نقله المسعودي الذي قال: [دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفسًا، وكان مقامهم في مصر إلى أن خرجوا مع موسى إلى التيه، مئتين وعشرين سنة، تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة. ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد من سبعين فقط إلى ستمائة ألف أو يزيد][١].

فهذه هي الحقيقة في تاريخ الأسرة الكريمة التي هاجرت إلى مصر بكاملها. ثم عادت مع موسى وهارون يتبعها الذين وجدوا في شريعة موسى العدالة والحرية والمساواة التي لا تقرها الفرعونية المصرية آنذاك. هذه هي الحقيقة التي جاءت في المصادر الإسرائيلية والعربية والتي أكدتها تحقيقات المستشرقين: [ولحق ببني إسرائيل عدد من المصريين الساخطين ومن الأسارى ومن العبيد المتمردين][٢].

وبعد أن وصلت هذه الجموع الغفيرة إلى الشاطئ الشرقي من البحر الأحمر، جبنت أن تخوض المعركة بجانب موسى ضد جبابرة فلسطين: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[٣]، هنالك دعا موسى ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ

(١) المقدمة تحقيق عبدالواحد ١/٢٢١.

(٢) اليهود ص٣٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٢.

الْفَاسِقِينَ ۞ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [١].

٤- ففي تلك الأرض التي تاهوا فيها أربعين سنة أخذت أخيلتهم تتأثر بطبيعة الصحراء وأخذت شمس التيه تبخر من نفوسهم طبيعة الخنوع والخور، إلى أن فنى ذلك الجيل الرعديد في الأربعين عامًا، ونشأ بعده جيل صحراوي استطاع أن يدخل فلسطين تحت راية آل إسرائيل فوجد نفسه أمام أمم متمدينة منذ زمن طويل، ووجد نفسه مضطرًا إلى أن يأخذ مقومات لغته وخصائصها من الكنعانية. ويتخذ الإرمية وخطوطها لتدوين أحداثه، ثم يطول الزمن، وبظهور دولة أنبياء بني إسرائيل وباحتكاك اليهود بالشعوب العربية، أخذت لغتهم تستقل بصفات وخصائص لم تخل من الصفات الإرمية ومن الكلمات العربية، فمثلما كان لاختلاط اليهود بالعرب في الحجاز، وفي نجد، وفي اليمن تأثيره على حياتهم فتشعبوا قبائل وبطونًا تخلقت ببعض الأخلاق القبلية العربية، كان له تأثير على لغتهم التي انزوت في آطامهم عندما لم تجد القدرة على الظهور بجانب العربية التي انطلقت بها ألسنة اليهود من غير العرب في جنوب فلسطين وعلى سواحل البحر الأحمر[٢] كذلك تأثر اليهود في العراق وفي سوريا بحياة العرب الإرميين الذين تطورت بهم بيئة الهلال الخصيب، وتطوروا بها إلى ما وصلت إليه الثقافة الإرمية واللغة الإرمية والخط الإرمي. وإنك لتجد في الكثير من تحقيقات المستشرقين التي جمعها محمود كامل في كتابه الدولة العربية الكبرى، أقوالاً تبين مدى تأثر اليهود ولغتهم بالإرميين ولغتهم.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٢٥ و٢٦.

(٢) في الجزء الخاص بشعوب البلاد العربية من هذا الكتاب وفي بحث اليهودية واليهود في البلاد العربية تعرض البحث لحقيقة اليهود في الجزيرة العربية.

ولقد حاول الدكتور ولفنسون أن ينفي تفرع اللغة العبرية من الكنعانية ، فقال : [إن بعض المستشرقين كانوا يطلقون على العبرية والآرامية هذا الاصطلاح : لهجتي اللغة الكنعانية ، وهو اصطلاح يتسرب إلى الذهن منه أن هاتين اللغتين مشتقتان من الكنعانية وهو خطأ صريح لا أصل له من الصحة؛ لأن العبريين من بني إسرائيل وغيرهم قد جاءوا بلغتهم من موطنهم الأصلي ولم يقتبسوها من الكنعانيين بعد اتصالهم بهم. فليس يصح إذن أن يقال عن اللغة العبرية إنها فرع من الكنعانية أو إنها لهجة كنعانية ، وكل ما يمكن أن يقال في هذا الشأن إنما هو : أن اللغة العبرية واللغة الكنعانية كانتا لغة واحدة لهجت بها تلك الأمم التي سكنت فلسطين وطورسينا في مدى قرون معينة ، فلما تفرقت تلك الأمم وتباعدت اختلفت لهجاتها وتميزت، فكانت إحداهما العبرية وكانت الأخرى الكنعانية وذلك سبب التشابه بين هاتين اللغتين][1] .

فحيرة الدكتور ولفنسون جعلته يفهم الحقيقة على غير واقعها فيتصور العبرية صنوًا للكنعانية ويقرر للإسرائيليين تاريخًا قديمًا بدأ في فلسطين مع التاريخ الكنعاني في فلسطين وسوريا ، والحقيقة أن تاريخ الكنعانية في سوريا يرجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. أما تاريخ العبرية فلا يتجاوز القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وجعلته يتناسى أن الإسرائيليين لم يختلطوا بالكنعانيين في سوريا وفلسطين إلا بعد هجرة موسى، ويتناسى ما قاله أولاً : [لأن الشعوب العبرية لم توجد في كل العصور التاريخية إلا في شمال الجزيرة على أطراف فلسطين].

فلقد كان عليه أن يثبت أن اللغة العبرية أقدم من هذه الهجرة. كان عليه أن يثبت أن العبرية هي لغة (أور) في زمن إبراهيم وأن العبرية هي لغة يعقوب وبنيه قبل هجرتهم إلى مصر. وأن يثبت أن العبرية كانت لغة بني إسرائيل في مصر لا سيما أنه قد أتاحت له

(١) ولفنسون ص٧٩ .

وظيفة تدريس بعض اللغات السامية بالجامعة المصرية فرصة لا إخاله قد ضيعها، فهو قد بحث في الآثار المصرية عن كل ما يتعلق باللغات السامية وقال عن العبرية : [ينقسم تاريخ اللغة العبرية منذ نشأتها عند بني إسرائيل إلى طورين مختلفين : يشتمل الأول منهما على التوراة وبقية أسفار العهد القديم المعروفة، ويشتمل الطور الثاني على سائر المصنفات الإسرائيلية التي ظهرت بعد ختام العهد القديم][1] ، ثم تغلبت عليه غريزة المحقق فقال : [ومن المحتمل أن يكون اليهود قد أخذوا نظام الأبجدية عن الكنعانية، لأن هذا نظام موجود من زمن بعيد في الآداب الإسرائيلية بدليل أن بعض المزامير وجد مكتوبًا به][2] ، ثم اعترف أخيرًا بأن القلم العبري مشتق من الكنعاني بصريح هذه العبارة : [كان من السهل حل رموز حروف المسند على المستشرقين لشدة تشابهها مع الكتابة الكنعانية القديمة ، وكما أن الأقلام الآرامية والعبرية مشتقة من الكنعانية، فإن أقلام المسند مشتقة منه][3] .

٥- فلقد رجع الدكتور عن اعتراضه على الذين قالوا : إن العبرية فرع من الكنعانية عندما اعترف بأن نظام الأبجدية العبرية أخذ من نظام الأبجدية الكنعانية، واعترف بأن الخط العبري مشتق من الخط الكنعاني، وكذلك اعترف بأن العبرية منذ نشأتها عند بني إسرائيل انقسمت إلى طورين اشتمل الأول منهما على التوراة ، فتاريخ التوراة حديث بالنسبة لتاريخ الكنعانية، واعترف بأن شعوب بني إسرائيل لم توجد إلا في أطراف فلسطين في كل عصور تاريخهم وعصور بني إسرائيل في فلسطين بدأت مع إسرائيل، فكل هذه الاعترافات تثبت ما نفاه الدكتور ولفنسون أولاً [وهو اصطلاح

(١) ولفنسون ص٨١، ٨٢.
(٢) ولفنسون ص١٠٢ .
(٣) ولفنسون ص٢٤٢ .

يتسرب إلى الذهن منه أن هاتين اللغتين مشتقتان من ا لكنعانية وهو خطأ صريح لا أصل له إلخ].

٦- أما اللغة الجعزية وخطها، فهي أعرق من العبرية في ساميتها. فالساميون هم الذين نقلوها من الجزيرة العربية إلى أفريقية .. بينما العبرية لم تدخل في جامعة اللغات السامية إلا بعد أن هاجر موسى ومن اتبعه واستظل بعدالة شريعته إلى فلسطين.

ولقد جاء في تاريخ العرب لجواد علي : [وقديماً هاجر الساميون من العربية الجنوبية إلى الحبشة وكونوا دولة "أكسوم" التي كانت تتكلم باللغة الجعزية، وهي لغة سامية، كما أن قلمها الذي يشبه القلم المسند هو وليد القلم العربي الجنوبي وأن الأجاعزة أصحاب اللغة أقدم من هاجر من اليمن إلى الحبشة][١] .

إن الصلات السياسية والاقتصادية والثقافية التي توشجت بين اليمن وبين الحبشة بفعل تبادل الهجرات، قديمة وعريقة. ولقد خيل لليونانيين أن الحبشة تمتد من أفريقيا إلى شواطئ الخليج العربي فأطلقوا اسم إثيوبيا على المنطقة الممتدة من الحبشة إلى عمان. وإن البحث في صلات الحبشة باليمن، وفي اسم إثيوبيا في المؤلفات اليونانية له موضعه في الجزء الثالث : "جغرافية البلاد العربية" من هذا الكتاب. ولذلك فإنني لا أرى ضرورة لامتداد البحث عن الجعزية وعنصر المتكلمين بها إلى أكثر من الخلاصة التي نقلناها عن "جواد علي" والتي عرفنا منها ما هي الجعزية؟ ومن هم المتكلمون بها؟ وما هو قلمها؟

---

(١) جواد ١/١٥٦ .

البحث السادس عشر

الخطوط : التدمري، النبطي، السرياني

من موضوعات البحث :

١- تدمر بين شقي المطامع الاستعمارية : الفارسية والرومانية .

٢- لم يفد بروز الدولة العربية في تدمر – اللغة الإرمية وخطها .

٣- ظهور الدولة النبطية .

٤- لماذا اتخذ النبط الخط الإرمي ؟

٥- في شمال العراق ظهر الخط السرياني.

٦- نهاية الخط النبطي هي بداية الخط القرشي – جد الخطوط العربية بعد الإسلام .

الخطوط : التدمري، النبطي، السّرياني

١ - كان نجاح تدمر السياسي أكبر نجاح عرفه تاريخ الإرميين السياسي في هذه المنطقة، فلقد دوى اسم (أذينة) ومن بعده (الزباء) في أرجاء الهلال الخصيب، فاهتزت المطامع الواقفة بالمرصاد على جانبي الدولة التدمرية: مطامع الفرس من الشرق، ومطامع الروم من الغرب. والمطامع إذا ما تزاحمت فاز من بينها من تقنع بالصداقة والتعاون وكذلك فعل الروم الذين فازوا على الفرس بصداقة تدمر وبالتعاون معها بادئ الأمر فكان لهم ما أرادوا عندما قلبوا لها ظهر المجن آخر الأمر.

وكان النشاط الاقتصادي الذي نعمت به "تدمر" بفضل إستراتيجية موقعها بالنسبة للطريق التجاري الممتد من البحر الأحمر إلى الخليج العربي، أكبر من أن يستغله الإرميون. فلقد برق اسم "تدمر" فأقبل الطامحون في العمل والكسب. والمكاسب إذا ما تأكدت هان لطلابها ركوب الوعر.

فسرعان ما اتسعت رقعة المملكة التدمرية وارتفع شأن عواهلها، وسرعان ما ازدحمت المملكة التدمرية بالتجار والمرتزقة، وسرعان ما غاصت اللغة الإرمية التي شرقت من قبل بلهجات العناصر الإسرائيلية التي هاجرت مع موسى، في مزيج من اللهجات واللغات : عبرية، وفارسية، ورومانية، ويونانية، حتى لم يبق من عربيتها غير نزر لا كته ألسنة مستعجمة في نطقها فحرفته عن أصله.

فتدمر في المصادر العربية والإسرائيلية مدينة في طرف البادية التي تفصل الشام عن العراق، بناها سليمان بن داود. وقد جاء في شعر النابغة الجعدي: أن جن سليمان بنوها بالصفاح والعمد. وتدمر في بحوث المستشرقين من المناطق الخصبة الواقعة شرق أرض كنعان والتي استولت عليها قبائل عربية بعد سقوط الدولة البابلية، كتبت بالقلم

الإرمـي[1] . ولم يـبرز تـاريخ تدمـر السياسـي إلا مـن القـرن الأول للمـيلاد. ولم يلمـع تاريخها العربي إلا في عهد أذينة والزباء.

٢- فلم يكن في الأحداث التي ساعدت "أذينة" على النهوض بمملكة تدمر والبروز في الدولة الرومانية ومن بعده الزباء ما أفاد تطور اللغة الإرمية؛ فالنقوش التدمرية، وأقدمها لا يتجاوز تاريخه سنة (٩) ق.م. نمّت عن ثقافة خليط عربية من الطراز الإرمي ورومانية ويونانية. ولقد جاء في بحث جواد علي : [والكتابات التدمرية هي : التي درسها المستشرقون وترجموها وشرحوا ما جاء فيها : بالإرمية واليونانية ثم اللاطينية والعبرانية][2] .

٣- فبسقوط "تدمر" وجد العرب أنفسهم في شمال الجاز ونجد[3] أمام خطر الرومان، فلم يكن لهم بد من الوقوف في وجه المطامع القيصرية. واقتحام المعارك التي حالفهم الحظ فيها في البداية فكونوا : الدولة النبطية التي امتد نفوذها إلى رقعة كبيرة في شمال الحجاز ونجد وجنوب سوريا إلى دمشق وشواطئ البحر الأحمر ، ثم هم لم يطيقوا صبرًا أمام الحملات التي والت تجهيزها إمبراطورية لا تنضب مواردها ، فتشتت شمل الدولة وتفرقت العناصر التي انضوت تحت لوائها ، فتحصن العرب في داخل جزيرتهم، وضرب على البقية التشرد فصاروا في عداد مجهولي النسب من بقايا الشعوب القديمة التي فقدت قوميتها.

---

(١) جواد ٧٦/٣ .

(٢) جواد ٧٥/٣ .

(٣) جواد ١٣/٣ ، من رأيه أن النبط أقرب إلى قريش وإلى العدنانيين، وفي الجزء الثالث بحث خاص بأصل النبط وكذلك في الجزء الخاص بدول الجزيرة بحث طريف عن دولة النبط.

ويحدثنا جورج كيرك في كتابه (موجز تاريخ الشرق الأوسط) عن النبط : [وبمثل ذلك أخذت شعوب أخرى تتكلم اللغة العربية تتوافد فيما بعد من الطرف الشمالي من بلاد العرب وفي طليعتهم النبطيون الذين أخذوا من سنة (٣٠٠) قبل الميلاد ينزلون الجزء الجنوبي من بلاد الأردن حول معقلهم المشهور (بطرا)][1] .

٤- ويقول جواد علي : [وقد سبب تدوين النبط كتاباتهم بالإرمية خسارة فادحة لنا لاتقدر بثمن؛ لأنه حرمنا الحصول على نصوص بلهجات عربية قديمة][2] . ولم أجد ما يبرر اتخاذ النبط القلم الإرمي الذي شط به التطور في الهلال الخصيب عن أصله العربي كما شط بلغته، غير ما قيل عن تقدم الثقافة وتحسن القلم الإرمي، وانتصار القلم الإرمي على أقلام شمال الحجاز الثمودي واللحياني والصفوي بما فيها المسند، وقد سبق البحث في تلك الأقلام.

ويضاف إلى هذا ما جاء في حديث (أثينودورس) الذي ولد وعاش بين النبط: عن العدد الكبير من الرومان ومن الغرباء من الجنسيات الأخرى في الدولة النبطية، فلابد لمثل هذه المجموعة من لغة وخط تتفاهم وتتعامل بهما. والخط الإرمي ولغته التي انتشرت في الهلال الخصيب يكفلان التفاهم ويساعدان على تقوية الرابطة بين عناصر الدولة النبطية وتوجيه الجميع إلى ما استهدفته الدولة النبطية من حضارة لو لم يقض عليها الاستعمار الروماني لكان لها شأن في البلاد العربية. ولقد جاء في كلام جرجي زيدان : [فالعرب الذين كانوا يخالطون العالم المتمدين بالتجارة أو السياسة في ذلك العهد اضطروا إلى معرفة لغة رجال الدولة أهل الوجاهة لاستخدامها في المخابرات والتدوين، فتعلموا اللغة الآرامية وكتبوا بالقلم الآرامي لسهولته. ثم تنوعت هذه الأقلام بتوالي الأجيال، فتفرعت إلى عدة فروع عرفت بالأقلام الآرامية، أشهرها عند

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ص١٨ .

(٢) جواد ١٣/٣ .

الساميين القلم التدمري في (تدمر) والنبطي في (بطرا) وغيرها ؛ وأشكالها متشابهة مثل تشابه تلك اللغات](1) .

ونحن عندما بحثنا في الخط التدمري لم نجد للعرب في تدمر ميلاً في تخليص اللغة والخط الإرميين من مؤثرات العناصر غير العربية ؛ ولعل ذلك راجع إلى الصلات الوثيقة التي كانت تربط الدولة التدمرية بالدولة الرومانية. أما في بطرا(2) فالذي يبدو، أن العرب كان لهم ميل في إعادة الصفات العربية إلى اللغة الإرمية، ظهر واضحًا في النقوش النبطية.

ولعل الإرميين أنفسهم ضاقوا ذرعًا بما خالط لغتهم في المناطق الغربية من الهلال الخصيب، فانتحوا الجانب الشمالي الشرقي يطورون لغتهم وقلمهم ويضعون لهما أساسًا قويًّا يتحمل الفلسفة اليونانية ومتطلبات الدول المجاورة.

٥- فهنالك في شمال العراق كان الخط الإرمي يتطور إلى الخط السرياني ويتخذ (الرها - أورفا) قاعدة له، ولقد وصل تحقيق جواد علي إلى أن : [السريانية كلمة حديثة عهد يراد بها اللغة الإرمية. وأن الاسم "السرياني" لا يرتقي على كل حال أكثر من خمسمائة سنة، أو أربعمائة سنة قبل الميلاد، وأما إطلاق اسم السرياني على الإرميين الشرقيين أي إرمي العراق فقد حدث بعد الميلاد](3) .

فلقد عني الإرميون في العراق بتقدم لغتهم وخطهم حتى أصبحت اللغة الإرمية لغة العلم والأدب والتدوين، وحتى أصبح الخط الإرمي في شكله السرياني الجميل. ولقد

---

(١) العرب قبل الإسلام ص٩٤ .

(٢) بطرا في المصادر العربية : هي الرقيم وتقع على فرسخ من عمان على تخوم البادية أما اسم "بطرا" فهو يوناني.

(٣) جواد ٣/ ١١ .

كلف الإرميين هذا التطور البعد بلغتهم وخطهم عن اللغة الأصل وخطوطها داخل الجزيرة العربية وجنوبها. فمما جاء في كلام ولفنسون عن اللغة الإرمية: [وإذا قررنا أن للغة الآرامية تأثيرًا عظيمًا في نشأة اللغات السامية، فإن لخطوطها فضلاً أعظم في ظهور خطوط كثيرة لأمم متمدينة. ولا شك في أن الخطوط الآرامية انتقلت إلى قبائلها من الخط الكنعاني. ونريد بذلك أنهم اختاروا لأنفسهم الخط الكنعاني يوم كانوا في حالة البداوة، ثم تصرفوا فيه تصرفًا غير قليل إلى أن ظهرت اللغة الآرامية بمظهر المتفوق واختارتها أمم كثيرة للمكاتبات الرسمية، واقتضى الحال أن يستعمل بعضها الخط السرياني كما فعل الفرس في عهد الدولة الساسانية، ثم انتشر هذا الخط في داخل آسيا من الأقاليم المغولية إلى جهات الصين. وكفى الخط السرياني فخرًا أنه أثر تأثيرًا شديدًا على جميع الخطوط العربية بواسطة الأقلام التدمرية والنبطية، مما لا يشك فيه العلماء المستشرقون][1].

وما جاء في كلام ولفنسون عن الدور الذي قام به الخط الإرمي في الخطوط العربية، يسهل لنا مهمة البحث في الخط النبطي بعد أن عرفنا ما يلزم البحث عن الخط السرياني، فكل ما جاء في كلام ولفنسون واضح إذا ما فهمنا من كلامه أنه يعني بالخط السرياني الخط الإرمي عندما قال: [وكفى الخط السرياني فخرًا] فالفخر يرجع إلى الخط الإرمي إذا ما أردنا التعميم لا إلى الخط السرياني بالذات.

وهكذا تمخضت الخطوط الإرمية عن الخطين: السرياني[2] ومنشؤه (الرها)، والنبطي وقاعدته (بطرا). ولقد اتجه الخط السرياني شطر الشرق فعبر البلاد العربية إلى إمبراطورية الساسانيين وانتشر داخل آسيا في الأقاليم المغولية إلى جهات الصين.

---

(١) ولفنسون ص١٦٠.

(٢) في **المزهر**: اللسان السرياني منسوب إلى موضع بالعراق يسمى سوري أو "سوريانة" وهي أرض بالجزيرة ١/٣٠.

٦- أما الخط النبطي، فإن نهايته تعتبر البداية لظهور الخط العربي قبل الإسلام. فمثلما كان الخط الإرمي هو حلقة الوصل بين الخط الكنعاني والخط النبطي، كان الخط النبطي حلقة الوصل بين الخط العربي وبين الخط الإرمي.

فهذه الحلقة التي كونها الخط النبطي هي آخر مرحلة لعودة اللغة الكنعانية وخطها إلى وطنهما الأول بعد رحلة طويلة بدأت مع رحلة الكنعانيين في مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد، واستمرت إلى ما بعد هجرة القبائل الإرمية في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

فلقد هاجرت اللغة العربية مع القبائل التي هاجرت إلى فلسطين وسوريا ولبنان، وهناك تطورت مع الأحداث فأخذت من غيرها بقدر ما أعطت في الزمن الطويل الذي عاشته فوق جبال لبنان وعلى سواحل البحر الأبيض، وفي مدن سوريا وأنهارها وصحرائها، وفي فلسطين الميدان الدامي منذ العصور الأولى ، ومن هناك عادت أدراجها شيئًا فشيئًا إلى داخل الأراضي التي بسط النبط عليها نفوذهم ثم انتقلت مع الأحداث إلى (الحيرة) حيث أخذت تظهر بطابعها العربي تدريجيًا.

فأقدم نقش جاهلي قريب إلى العربية من حيث المادة والأسلوب ، النقش الذي عثر عليه على قبر امرئ القيس بن عمرو الذي ملك (الحيرة) ٢٨٨-٣٢٨ بعد الميلاد، والذي دفن في قصر "النمارة" بالحرة الشرقية من جبل الدروز، ويقول علماء الخطوط: إن نقش النمارة ونقوشًا أخرى أحدث تاريخًا منه دونت بالقلم النبطي المتأخر الشبيه جدًا بالخطوط العربية الكوفية من حيث ارتباط الحروف بعضها ببعض، وهذه ظاهرة غير مألوفة في الخطوط النبطية القديمة[١] .

ومن نقوش حجر ثمود المتأخرة ظهر لعلماء الخطوط أنه في القرنين الثالث والرابع كانت اللغة النبطية الآرامية قد أخذت تتلاشى وتندمج في العربية إلى أن تلاشت نهائيًا[٢] .

---

(١) ولفنسون ص ١٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ص١٧٨ ، **قصر النمارة هو** : قصر صغير للروم على مقربة من دمشق.

البحث السابع عشر

الخط القرشي

من موضوعات البحث :

١- يرى الدكتور ولفنسون أن يسمى الخط الذي نكتب به اليوم : الخط الإسلامي : وأنا أرى أن يسمى : الخط القرشي .

٢- الرأي العربي في الخط القرشي : موضوع اختلف فيه المتأخرون .

٣- أخطأ المتأخرون في نقد الرواية العربية وفي تأييدها .

٤- البحث في الخط القرشي يقتضي : البحث في الخط الحيري .

٥- إذا صح: أن خطا انتقل من الشمال إلى الحجاز زمن إسماعيل عليه السلام فهو خط كنعاني أو إرمي.

٦- الخط القرشي اقتبست قواعده وخصائصه من المجموعتين : مجموعة الخطوط الشمالية ومجموعة الخطوط الجنوبية – ولقد غلبت السمة الإرمية النبطية عليه لأسباب منها أسباب سياسية.

٧- آراء المستشرقين اعتمدت أولاً على الرواية العربية. ثم صار اعتمادها على خطوط الآثار.

٨- اتفق المستشرقون المتأخرون على أن الخط القرشي مأخوذ عن الخط النبطي واختلفوا في الجهة التي جاء منها.

٩- هل كان الحجاز خاليًا من الخطوط قبل الخط القرشي؟

١٠- قلب الجزيرة عرف الخطوط العربية القديمة وقد يكون هو المكان الوحيد الذي عاش فيه الأصل القديم للخطوط العربية.

١١- ما هو الخط الذي كانت تكتب به قريش قبل أن تضع الأصل للخط القرشي الذي يعتبر أصلاً للخط العربي في الوقت الحاضر ؟

١٢- تطور الخطوط العربية وتأثيرها على لغات العرب القدماء يشبه تطور الخط القرشي في عصور ما بعد الإسلام

١٣- نتيجة البحث في أصل الخط القرشي .



الخط القرشي

١ - يرى الدكتور ولفنسون : أن يسمى هذا الخط العربي الذي نكتب به: الخط الإسلامي؛ لأن الخطوط العربية في الجاهلية كانت ذات أسماء خاصة تعرف بها ويتميز بعضها عن بعض، فلابد من إطلاق اسم خاص على هذا الخط، واسم "الخط الإسلامي" في رأيه أفضل، ولو كان هذا الخط معروفًا قبل الإسلام، فلأن الإسلام كان هو السبب الجوهري في انتشاره وشيوعه وبقائه إلى الآن .

ورأي الدكتور ولفنسون والأسباب التي بنى عليها :وجيهة ومقبولة لحد ما، ولكن الأفضل في رأيي أن يسمى هذا الخط "الخط القرشي؛" لأن هذا الخط كما يقول ولفنسون سبق الإسلام، ولأن الإسلام الذي كان هو السبب الجوهري في نشوئه وارتقائه وبقائه، كذلك كان هو السبب الجوهري في انتشار اللغة العربية وارتقائها وخلودها، ومع هذا فإن اللغة العربية لم تسم "اللغة الإسلامية" فما زلنا نحن ولا يزال الذين يأتون من بعدنا يقولون : اللغة العربية؛ ولأن الخطوط الإسلامية ليست هي الخط العربي فحسب، بل هناك خطوط تعتبر إسلامية وهي غير عربية.

٢ - ويرى حفني ناصف : أن الرواية التي تنسب لابن عباس، والتي يؤيدها "ابن إسحاق" و"المسعودي" و"الواقدي"، والتي تؤكد : أن الخط القرشي جاء إلى الحجاز من اليمن عن طريق الحيرة كما في كلام ابن عباس: إن قريشًا أخذت خطها من أمية بن حرب، وأمية أخذه عن عبدالله بن جدعان. وهذا أخذه عن أهل "الأنبار" الذين أخذوه عن أهل "الحيرة"، وقد وصل إلى أهل الحيرة من طارئ طرأ عليهم من "اليمن" من "كندة". وهذا الطارئ أخذه من "الخلجان" كاتب الوحي لهود عليه السلام، لها ما يبررها. فمن رأيه : [أن النبط خالطوا الإرميين وكانت علاقاتهم مع اليمن : التجارية

والحكمية تقتضي مبادلة الكتابة بين الطرفين. فيبقى مع كل هذا أن يترك النبط خط اليمن بالمرة، ويقتصروا على الأخذ عن الآرام وحدهم. ثم الرواية العربية متفقة على أن الخط جاء إلى الحجاز عن اليمن، فالذهاب مع هذا وذاك إلى أن الخط لم يجئ إلا من الآرام دون أهل اليمن جحود للإجماع ومصادمة للنقل الذي لا يتفق مع العقل](١) .

ويعارض ولفنسون حفني ناصف في هذا الرأي، ويصف رواية ابن عباس وأقوال الرعيل الذي يؤيدها بأنها مشبعة بروح البساطة والسذاجة حتى لتبدو للباحث أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقائق التاريخية(٢) .

٣- ونحن إذا ناقشنا رأي حفني ناصف نلاحظ عليه ما يأتي :

أولاً : أن حفني ناصف يفرض على النبط الأخذ عن الخط اليمني المسند بناء على الصلات التجارية والحكمية - كما يقول - فهذا الحكم وإن كانت له حيثياته، يختلف مع الواقع، فلم يقل أحد من علماء الخطوط : إن الخط النبطي أخذ عن الخط المسند، بل الإجماع ينص على أن الخط النبطي مأخوذ عن الخط الإرمي.

ولقد سبق البحث في انعدام الصلة بين الخط الإرمي والمسند، وأن ليس هناك سوى النظريات العامة التي تربط الكنعاني وأبجديته بالخط المسند، فالخط هو من الأرومة الكنعانية، فهذه الصلة البعيدة هي التي تربط هذا بذاك.

ثانيًا : يقول حفني ناصف : إن الرواية العربية متفقة على أن الخط جاء إلى الحجاز عن اليمن، وهذا لا يتفق مع الحقيقة، فمن الروايات العربية : أن بني المحصن ابن جندة بن يعصب بن مدين هم الذين نشروا الكتابة، ومن الروايات العربية : أن أول من وضع الخط إسماعيل عليه السلام، ولقد أحصى جواد علي الروايات العربية في

(١) تهميش الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون طبعة النهضة ٣٢/١ .

(٢) ولفنسون ١٩٧ .

موضوع أصل الخط القرشي فبلغت سبع روايات منها : أن نفرًا ثلاثة من طيئ هم: (مرامر) و(عامر) و(أسلم) وضعوا الخط القرشي قياسًا على هجاء السريانية[1] .

ونحن إذا ناقشنا رأي ولفنسون نجده لا يريد أن يكون للخط المسند أي ظل في الخط الحيري وأن رأيه في الرواية التي تقول : إن الخط الحيري أخذ عن اليمن والتي تعلق بها "حفني ناصف" هو : [فليس في استطاعة الباحث أن يرتاح إليها أو يعول عليها؛ لأنه لا علاقة بين الخط المسند السبئي والخط الحيري، ووجود شيئ من وجوه الشبه لا يكفي لإثبات هذا الرأي، بل يرجع إلى أن الخطين اشتقا من أصل واحد هو الكنعاني القديم][2] .

فولفنسون فرض على الحيرة خطًا خاصًا بها في مرتبة الخط المسند عندما قال: إن ا لخطين - المسند والحيري - اشتقا من أصل واحد. وهذا لا يتفق مع الحقيقة، فلم يكن للحيرة خط إلا في العصور المتأخرة، فإذا كان الخط الحيري اشتق من خط، فليس ذلك الخط هو الكنعاني القديم الذي تفصل بينه وبين تاريخ الخط الحيري عشرات القرون. فمن الحقائق التاريخية : أن المنطقة الممتدة من شمال "الحجاز" و"نجد" إلى تدمر و"فلسطين" و"أرض مدين" كانت ملتقى لغات وخطوط تجمعت من الجنوب والشمال والشرق والغرب وتمركزت أكثر ما تمركزت في "الحجر" من أرض ثمود، وفي "العلا" وفي "مدين" ثم بعد زوال الدولة النبطية في سنة ١٠٦م وتفوق الطريق التجاري البحري على الطرق التجارية البرية، وبعد أن قامت دولة المناذرة في سواد العراق اتجهت الأنظار إلى الحيرة عاصمة "المناذرة اللخميين" التي كانت في يوم من الأيام من أعظم العواصم العربية.

---

(١) تاريخ العرب لجواد ١٥٨/١ وما بعدها .

(٢) تاريخ اللغات لولفنسون ص١٩٧ .

ونجد ولفنسون : يستنكر أن تكون الحيرة والأنبار في طبقة واحدة ، فليس من رأيه أن الكنديين والنبط أخذوا خطهم عن المسند وأعطوه الأنبار والحيرة ، ولكون الأنبار والحيرة في طبقة واحدة تعلموه من كندة ومنهم انتقل إلى الحجاز[1] .

فأولاً : من ذا الذي قال هذا؟ إن رواية ابن عباس لم تقل ذلك ، فالذي قاله ابن عباس : إن أهل الحيرة أخذوا خطهم من كندة وأعطوه للأنبار.

ثانيًا : أن (الحيرة) مدينة تقع على ثلاثة أميال من الكوفة ، ويقال : إن (الأردوان) ملك النبط هو الذي بناها وأنزل فيها حلفاءه من قبائل الجزيرة العربية ، ويقال : إن أول من نزل بها مالك بن زهير ، وفي ذلك الزمن بنى خصم أردوان - بابا - الملك النبطي : (الأنبار) على الفرات غرب بغداد على مسافة عشرة فراسخ من بغداد غربًا وأنزل فيها أنصاره من قبائل البادية ، ويقال : إن الحيرة عمرت أولاً ثم اجتاحتها الكوارث التي تحدث عنها التاريخ العربي فعمرت بعدها الأنبار.

فهذا الذي تقوله المصادر العربية عن الحيرة والأنبار لم يأت في البحوث المتأخرة[2] ما ينقضه ، وإنما الذي أتى جديدًا هو النصوص الأثرية والظنون التي أرسلها المستشرقون. وهذا الذي تقوله المصادر العربية لا يختلف مع رواية ابن عباس عن الخط القرشي وأن الأنبار أخذته عن الحيرة. فالأنبار إن لم تكن ورثت الحيرة - كما مر بنا - فليست أقدم منها ، فيصح أن تكون إحدى المدينتين أخذت الخط عن الأخرى.

ونحن إذا أردنا أن نستخلص نتائج للبحوث العربية التي نقبت عن أصل الخط القرشي ، نجد الرأي العربي مختلفًا في أصل هذا الخط ، فلكل رواية وجهة اقتنع بها البعض ، فرواية ابن عباس ليست الرواية الوحيدة أو المجمع عليها ، ونجد في الخلاف

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص١٩٧ وما بعدها .

(٢) معجم ياقوت مادة حيرة وأنبار .

على الناحية التي أتى منها الخط القرشي إلى مكة : حجة القائلين بأن الخط القرشي جاء عن طريق الحيرة أقوى من غيرها[1] .

٤- لذلك علينا أن نبحث عن أصل الخط الحيري أولاً ، والبحث في الخط الحيري يجعلنا نتذكر مرة ثانية : أن الحيرة بعد زوال دول "الحجر" و"تدمر" و"بطرا" تزعمت الحركة الثقافية ، ونتذكر أيضًا : أن صراعًا دار بين الخط المسند المتطور في الجنوب ، وبين الخط الإرمي المتطور في الشمال ، وأن كلا الخطين زاحم الآخر في الحجاز وفي نجد وشواطئ الخليج العربي ، ونتذكر أن هناك من يقول : إن الحيرة نبطية لأن النبط هم الذين بنوها ، ومن يقول : إن الحيرة يمنية لأن الذين أبرزوا هذه المدينة في التاريخ العربي هم آل لخم اليمنيون ، ونتذكر أيضًا : أن الحيرة سكنتها قبائل عربية عدة: منها قبائل من (مذحج) وقبائل (حمير) ومن (طيئ) ومن (كلب) ومن (تميم) ومن (تنوخ) ومن (النبط) ، وأن الشعب الحيري انقسم آخر الأمر إلى ثلاث طوائف :

١- "تنوخ" وهم كانوا أصحاب المظال وبيوت الشعر وينزلون غرب الفرات ، فيما بين الأنبار والحيرة.

٢- "العباد" وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها وهم قبائل شتى.

٣- "الأحلاف" وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ولم يكونوا من تنوخ ولا من العباد[2] .

ونحن إذا تذكرنا جميع ذلك لا نستبعد أن يكون من سكان الحيرة كتاب تختلف خطوطهم ، فالحميريون لابد أنهم كانوا يكتبون بالخط المسند ، والذين هم من ديار ثمود ولحيان ، والذين هم من "الرها" وتخومها لابد أنهم كانوا يكتبون بالخط

---

(١) تاريخ العرب لجواد ٤/٢٠٣ .

(٢) معجم ياقوت مادة "حيرة" .

السرياني، والذين هم من "بطرا" وما حولها لابد وأنهم كانوا يكتبون بالخط الإرمي النبطي.

فالنهاية المتوقعة لوجود مجموعة من الخطوط في منطقة اتخذت قاعدة لكيان سياسي بذل اللخميون كل ما في وسعهم لاستقلاله والحفاظ عليه؛ هي الانصهار في بوتقة المجتمع الكبير ليخرج خط جديد ذو طابع خاص عرف بالخط الحيري، فيه الكثير الغالب من قواعد الخط النبطي وخصائص الخط السرياني، وفيه بعض صفات الخط المسند، وبعض وجوه شبه بالخط الثمودي واللحياني.

فبناءً على ذلك اختلفت الرواية العربية في الخط الحيري فبعضهم قال: إن ثلاثة نفر هم : "عامر" و"مرامر" و"أسلم" سكنوا الأنبار واجتمعوا فوضعوا حروفًا مقطعة وموصولة. فوضع "مرامر" الصور. وفصل ووصل "أسلم". أما "عامر" فوضع الإعجام - وسموا هذا الخط بالجزم لأنه منقطع من الخط الحيري[1]. وجاء في العقد الفريد : [إن النفر الثلاثة "مرامر" و"أسلم" و"عامر" من قبائل طيئ وضعوا الخط في العربية قياسًا على هجاء السريانية][2]، وفي الفهرست لابن النديم : إن مرامر : اسم رجل من أهل الأنبار ، يقال : إنه أول من وضع الهجاء العربي، فانتشر أولاً في الأنبار ثم في الحيرة ثم في الناس جميعًا.

٥- أما الذين يقولون : إن الخط القرشي وضع أيام إسماعيل فأولئك على ما يبدو يرجعون بالخط إلى الأصل القديم الذي انتشر مع الكنعانيين في شمال سوريا.

فالذي يغلب على الظن : أن الخط الذي قد يكون وصل إلى مكة في عصر إسماعيل هو الخط الكنعاني، أو الإرمي، والذي يغلب على الظن : أن ذلك الذي وصل إلى مكة

---

(١) تهميش الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون طبعة النهضة ٣٢/١ .

(٢) تاريخ العرب لجواد علي ١٨٧/١ .

زمن إسماعيل لابد أنه وجد في مكة وفي الطائف وفي المدينة خطوطًا يرجح أنها خطوط قوم عاد وقوم ثمود، وربما أنه وجد الأصل الذي تفرعت عنه الخطوط التي عثر عليها الأثريون في شمال الحجاز. أما النبط الذين ينسب إليهم الخط النبطي فزمنهم بعد إسماعيل بقرون طويلة، وأما خطهم النبطي فلم يبرز في سوريا والحجاز إلا في أزمنة متأخرة، ولئن تعلق بالخط النبطي عبدة الأصنام من العرب، ولئن كانت الوثنية في الحجاز مرتبطة بالوثنية النبطية كما هو واضح في أسماء الأصنام التي وجدت في منطقة الحجر، وقد سبق الكلام في الوثنية والوثنيين، ولئن كانت لغة النبط الإرمية هي لغة الدين عند النصارى في الشرق، ولئن كان عرب نجران الخلص كانوا يعرفون اللغة الآرامية[1]، فإن انتشار اللغة النبطية كان في زمن متأخر بالنسبة لعصر إسماعيل.

ففي الزمن الأخير، توافرت الأسباب لانتشار الخط الإرمي النبطي في المناطق المتوسطة من الجزيرة العربية. فإلى جانب الصلات الوثنية صلات عنصرية مهدت للعلاقات السياسية بين الأوس والخزرج في "المدينة" بالحجاز، وبين الغساسنة في "بصرى" بحوران، قال بوجودها بعض المؤرخين العرب. فكل ذلك يؤكد: أن الخط النبطي الشمالي الذي انتشر في العلا، وحجر ثمود، قد بلغ المدينة فزاحم الخط المعيني والسبئي والذي يغلب على الظن: أن المعينيين والسبئيين قد خلفوه وراءهم بعد أن انتقلوا من المدينة وشمال الحجاز إلى الجنوب.

٦- فعلى ذلك فإن مكة والمدينة هما مثل الحيرة كانتا مجالاً من مجالات تزاحم الخطين: المسند والنبطي.

---

(١) تهميش الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون ١/٣٥.

وعلى ذلك فإن الخط القرشي سواء جاء من الحيرة أو أخذ عن الشماليين، فإنه على ما وصل إليه التحقيق اقتبس من مجموعتي الخطوط العربية : المجموعة الجنوبية، ويمثلها الخط المسند، والمجموعة الشمالية ويمثلها الخط النبطي، وإن الخط القرشي وإن افترض فيه وجود بعض من خصائص المجموعة الجنوبية، فإن مما لا تشك فيه تحقيقات المتأخرين : أن السمة الإرمية النبطية طغت على شكله وتغلبت خصائصها على غيرها، مما جعل الأغلبية من الباحثين ينسبون الخط القرشي إلى الخط النبطي.

فنحن إذا ربطنا تاريخ الخطوط بالتاريخ السياسي في البلاد العربية، نجد للأحداث السياسية نتائج تقوي الدليل على أن الخط القرشي جاء من الشمال لا من الجنوب، وعلى أن الخط الإرمي تفوق أخيرًا على الخط المسند خارج اليمن.

فلقد استخف الأحباش بالحميريين وطمعوا في دولتهم من أوائل العصر النصراني[1]، وفي أوائل القرن الثاني للميلاد بدأت الغارات الحبشية على أطراف اليمن بعد أن مهد طريقها التدخل الحبشي في صميم الحياة اليمنية. ولقد جاء في البحث عن أصل اللخميين في العراق : أن ربيعة بن نصر اللخمي هاجر بقومه "لخم" من اليمن خوفًا من الغزو الحبشي.

وهذا الذي لاحظه وخاف منه زعماء العرب الجنوبيون، لاحظه وخاف منه زعماء العرب الشماليون، فأخذوا يفكرون في إنشاء كيان سياسي مستقل عن اليمن، ولقد كانت أولى الانتفاضات السياسية ثورة كليب بن ربيعة على النفوذ اليمني.

فكل هذه الأوضاع السياسية تفسر لنا جزءاً مهمًا من السر في ترك الشعوب الشمالية الخط المسند واتجاهها إلى الخط الإرمي، وكيف اتجهت قريش إلى الشمال

(١) العرب قبل الإسلام لجرجي ص١٤٦ .

بدلاً من أن تتجه إلى الجنوب؟ وكيف كانت الحيرة في الزمن الجاهلي الأخير مدرسة القرشيين بدلاً من أن تكون صنعاء وارثة الإمرابطوريات الجنوبية هي المدرسة.

على أن كل هذه الأحداث ومسبباتها لم تقطع علاقة الخط المسند ذي التاريخ القديم في الجزيرة العربية بالخطوط الشمالية، ولكنها طورتها وصهرتها، فلا تبدو ظاهرة إلا لمن تفرغ لتحقيقها من علماء الخطوط[1] ، وإن كل هذه الأحداث لم تخرج الخط المسند عن أصله العربي الواضح في أبجديته وفي لغته، وإن خالطتها رطانة سكان الساحل الأفريقي.

٧- ولقد كانت آراء المستشرقين مبنية على الروايات العربية إلى أن ظهرت نقوش "النمارة" على مقربة من دمشق. ونقوش "زيد" قرية بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرق حلب. ونقوش "حران" في جبل الدروز في المنطقة الشمالية ورأوا فيها شبهًا بالخطوط النبطية المتأخرة المكتشفة في "بطرا" وغيرها فأخذ الكثير منهم يرجح : أن الخط القرشي أخذ عن الخط النبطي لوجود الشبه الكبير بين الخط النبطي والخط القرشي.

ولقد قنع برأي المستشرقين "ولفنسون" كما رأينا من قبل . و"جواد علي" الذي يقول: [والواقع أننا لا نستطيع أن نقول : إن الخط الذي نكتب به الآن أخذ عن أهل اليمن الذين كانوا يستعملون المسند في كتاباتهم الرسمية. فبين المسند والقلم الأول الذي كتب به كتاب قريش وأهل المدينة فرق كبير بيِّن ظاهر ، ولعل لانتشار القلم النبطي المتأخر المشتق من قلم بني إرم في العراق وفي بلاد الشام وسهولته وارتباط حروفه بعضها ببعض ارتباطًا تتألف منه الكلمات التي تميز بوضوح بعضها من بعض

(١) لقد سبق البحث في هذه الصلة التي كان سبب وجودها الطريق التجاري في بعض الآراء وفي بعض الآراء الأخرى الأصل الذي اشتق منه المسند والحيرى.

دخلاً في أخذ كتاب قريش قلمهم من هذا القلم وصقله صقلاً تولد منه القلم الذي دون به القرآن وأحجار القبور والمدونات الأخرى][1] .

٨- فبحوث المستشرقين المتأخرة لا يختلف أكثرها في إرجاع الخط القرشي إلى أصل نبطي، وإنما الذي يختلف عليه المتأخرون هو الجهة التي جاء منها الخط القرشي إلى مكة، هل جاء من شبه جزيرة سيناء؟ أو جاء من بلاد الشام من منطقة دولة بني غسان؟ أو من أرض آل المنذر بالحيرة؟ .

والبحث في أية ناحية من هذه الناحيات الثلاث أجدر بإنشاء خط يضبط اللغة العربية ويحفظ الحروف التي امتازت بها اللغة العربية بعد أن ضيعتها الخطوط واللهجات التي اتخذها العرب في العراق، وفي سوريا، وفي شبه جزيرة سيناء والصحراء العربية، يلزمنا بالرجوع إلى أحداث القرن السادس بعد الميلاد؛ وأحداث الشرق العربي في القرن السادس بعد الميلاد جعلت شبه جزيرة سيناء غير قادرة على القيام بمثل هذا العمل الجليل. وأحداث القرن السادس الميلادي وإن جعلت من "بصرى" عاصمة لملوك آل غسان الذين ازدحم بلاطهم بشعراء العرب أمثال حسان بن ثابت لكنها لم تتح لها المكانة الأدبية التي حظيت بها الحيرة.

وإخال فيما تقدم من البحث في الخطوط التي تنازعت البقاء، وكيف كانت الحيرة مجالاً واسعًا للخطوط، وفي النتيجة التي لابد أن يتمخض عنها اجتماع خطوط في دولة حاولت أن يكون لها كيان مستقل ما يجعلنا نرجح رأي القائلين بأن الحيرة هي الجديرة باحتضان اللغة العربية وخطوطها وآدابها، ولقد حدثنا بروكلمان في بحث اللغة العربية الذي تقدم عن الشبه بين لغة نصارى الحيرة وبين لغة رعاة الغنم من هذيل. وفيما سيأتي في الجزء الثاني من هذا الكتاب في بحث مصادر التاريخ العربي في

---

(١) تاريخ العرب لجواد ٢٠٣/٤ .

العصر الجاهلي : تحقيق في الأمية والأميين، وفي هذا التحقيق ثبت أن بعضًا من قريش كانوا يبعثون أبناءهم لتعلم الكتابة في الحيرة.

أما خطوط النمارة، وزيد، وحران، فجميع هذه الخطوط في المنطقة السورية من الهلال الخصيب، فلذلك كانت الخصائص النبطية الإرمية غالبة عليها في أوائل الأمر. ثم أخذت تتلاشى بمرور الزمن، فلقد قيل عن نقش (النمارة) : [إنه مدون باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن ، وإن كتب بالقلم النبطي المتأخر وبأسلوب متأثر بالإرمية]، وقيل عن نقوش (زيد) : [والمهم هو النص العربي ولا سيما قلمه العربي ولا يخلو النص العربي من الأثر الإرمي]. وقيل عن الكتابة التي عثر عليها في موضع "أم الجمال" : [إن لغتها قريبة من اللغة العربية المعروفة وإنها متحررة من النبطية والإرمية إلى حد كبير][1] .

فالذي يظهر من دراسة هذه الخطوة :

أولاً : أن كتبة هذه النقوش، إن لم يكونوا من إرم سوريا فهم قد راعوا البيئة، فما الفائدة من الكتابة على قبر "امرئ القيس" في النمارة بخط لم يكن منتشرًا بين سكان النمارة وما حولها.

ثانيًا : أن خاصة امرئ القيس اليمني الأصل الحيري الموطن، لم يحرصوا على أن تكون الكتابة بالخط المسند، أو بالخط الحيري إذا كان الخط الحيري في ذلك العصر تبلور وأصبحت له صفات خاصة؛ لأنهم على ما يرجح كانوا يعرفون الخط النبطي الإرمي، فالخط النبطي كان منتشرًا في العراق كما كان منتشرًا في سوريا.

على أنني أستبعد أن يكون الخط الحيري في عصر امرئ القيس الذي مات سنة ٣٢٨م، قد تبلور وأصبح خطًا مميزًا بقواعد وخصائص عن غيره من الخطوط.

(١) تاريخ العرب لجواد ١/١٩٠ وما بعدها .

ثالثًا : تطور الخط النبطي وبروز صفات الخط القرشي فيه بالتدريج ، فتطور لغة النقوش وخطوطها من سنة ٣٢٨ وهو تاريخ نقش النمارة إلى سنة ٥١٢ ، وهو تاريخ نقوش زيد ، وإلى سنة ٥٦٨ تاريخ نقوش حران ، يوضح لنا مراحل ذلك التطور وكيف أخذت اللغة العربية تعود مرة ثانية إلى سوريا ، وإلى العراق بخط يميز صفاتها ومخارج حروفها.

ونحن بعد أن رجحنا الرأي المستشرقي القائل بأن الحيرة هي الجهة التي جاء منها الخط القرشي إلى مكة عن غيره من آراء المستشرقين، نرى : أن التحقيقات العربية قد تلاقت مع دراسات المستشرقين، فالخط النبطي كان سائدًا في الهلال الخصيب جميعه، ونرى أن الخط الحيري والخط القرشي لم يكونا صورة طبق الأصل للخط النبطي .. فلو كان كذلك لما أصبح هناك ما يدعو إلى تمييزهما عن الخط النبطي، أو تبديل اسم الخط في الحيرة بالخط الحيري، وفي مكة بالخط القرشي، وإنما الخط الحيري والخط القرشي كانا متأثرين بالخط النبطي أكثر بكثير مما تأثرا بغيره، ولعل سبب ذلك التأثير الكبير الذي كان للخط الإرمي النبطي، بالإضافة إلى الظروف السياسية التي تقدم ذكرها في هذا البحث، والتي ربطت المصالح العربية في داخل الجزيرة بالعواصم الشمالية أكثر مما كانت مرتبطة بعاصمة الجنوب بعد أن تنازع السيادة عليها الأحباش والفرس، أن النبط الإرميين في غرب الهلال الخصيب وشمال الحجاز، أخذوا يدخلون على الخط الإرمي، وعلى لغته ، لغة الحجاز ونجد العربية. فكان الخط النبطي بذلك أقرب الخطوط إلى العربية، وأن السريانيين الإرميين في شرق الهلال الخصيب أخذوا يتسامون بالخط السرياني، فكان له القدح المعلى في مجال الثقافة والأدب والمعارف اليونانية.

ونحن إذا كنا قد اقتنعنا بأن الخط القرشي وضع وانتشر أول ما وضع وانتشر فيما بين الحيرة والأنبار، فإن ذلك لا يعني : أن الخط النبطي والخطوط التي سبقته

كنعانية، ومسندية، وإرمية، وثمودية، لا تمت إلى أصل عربي بسبب، فلقد قدمنا في بحوث الخطوط المتقدمة الأدلة التي تثبت الأصل العربي في تلك الخطوط.

ونحن إذا كنا اقتنعنا بأن الخط القرشي الذي وضع في الحيرة أخذ عن الخطوط التي سبقته، فإن ذلك لا يعني: أن الخط الحيري منذ وضع، وضع بالصورة التي انتقل بها إلى مكة. ففي اعتقادي أن الذين وضعوه سواء أكانوا هم النفر الثلاثة : عامر ومرامر وأسلم، أو كان غيرهم إنما وضعوا أولاً الأساس، كما وضع "أبو الأسود الدؤلي" أساس قواعد اللغة العربية، ثم جاء من بعدهم من حسن الخط ووضح قواعده العربية.

٩- ونحن إذا كنا قد اقتنعنا بأن الخط القرشي أخذ عن الخط الحيري، فليس ذلك معناه : أن أهل مكة والطائف من قريش وثقيف. وأهل المدينة من الأوس والخزرج لم يكونوا يعرفون الكتابة والقراءة. فمكة التي تشرفت بالبيت الذي قدسته شعوب الشرق العربي من قبل الميلاد. لابد أن يكون أهلها قد احتفظوا بشيء من صلوات إبراهيم وأدعيته، وأن يكون لدولهم خط تحرر به مصالح الدولة وتسجل به حقوق الأفراد. ولقد عرفت الطائف بأنها مدينة الكتابة والقراءة في العصور الجاهلية. ومن الحقائق التاريخية التي اعترفت بها البحوث العربية والمستشرقية : أن المنطقة التي تمتد من شمال الحجاز ونجد جنوبًا إلى سواد العراق شرقًا وإلى فلسطين وأرض مدين غربًا، كانت ملتقى ثقافات عربية تجمعت من الجنوب والشمال والشرق والغرب. وتمركزت أكثر ما تمركزت في "حجر" و"العلا" وفي "مدين"، وأن المعينيين والسبئيين في غابر زمانهم كانوا يسكنون في المنطقة الشمالية الممتدة إلى المدينة ووادي القرى، وأنهم خلفوا في الشمال نقوشًا بلغة تشبه لغة الشعر الجاهلي.

ولعل الأصل للخطوط القديمة : الكنعانية، والمعينية، والثمودية، واللحيانية، لم يجد مكانًا يصونه من التحريف والتبديل غير جبال الحجاز وهضاب نجد.

فعاد قوم هود الذين سبق أن رجحنا : أنهم هم المعينيون الذين تحدث عنهم المستشرقون، انتشرت منازلهم في أرجاء الجزيرة العربية .. وفي حديث ابن عباس عن "وادي عسفان" الذي رواه الإمام أحمد : [لقد مر بهذا الوادي، وادي عسفان ، صالح وهود عليهما السلام حاجين يلبيان][1] ، ويؤكد ما جاء في كلام المستشرقين الذين يجعلون منازل عاد بوادي القرى على مقربة من منازل ثمود في شمال الحجاز، فوادي عسفان في شمال مكة فلا يمر به إلا القادمون إليها من الشمال وفي شمال الحجاز كانت منازل المعينيين.

ويقول الطبري عن عبد ضخم بن إرم: كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك، وقال غيره، إنهم أول من كتب بالخط العربي[2] .

والثموديون كانوا منتشرين في الحجاز وفي بعض المصادر العربية : أن "أبا رغال" هو جد ثقيف وأن الثقفيين هم من إرم ثمود[3] .

١٠- فلا غرابة بعد هذا أن ذهب التحقيق بالمستشرقين إلى أن الخطوط : المسند والثمودي واللحياني والصفوي هي فروع من أصل واحد. فالعاديون والثموديون انتشروا في شمال الجزيرة وجنوبها ، كما تؤكد المصادر العربية ، والمعينيون والسبئيون انتشروا في شمال الجزيرة وجنوبها كما تؤكد المصادر المستشرقية ، فسواء كان الخط المسند هو في الأصل خطًا عاديًا كما يفهم من المصادر العربية ، أم كان خطًّا معينيًا كما يقرر المستشرقون ، فإنه في الأصل خط ظهر أولاً في شمال الحجاز ثم انتقل إلى الجنوب، وعلى ذلك قال (هومل) وغيره : إن الخط المعيني الجنوبي هو صنو للخط الكنعاني الشمالي. ولقد سبق البحث في ذلك.

---

(١) تاريخ ابن كثير ١/١٣٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون .

(٣) المصدر نفسه ١/١٣٧ .

ولا غرابة إن ذهب بنا البحث إلى أن الوطن الأصل للخطين : المسند والكنعاني هو : الحجاز ونجد ، وأن المناطق المتوسطة في الحجاز ونجد البعيدة عن ازدحام الجاليات الأجنبية ما برحت محتفظة بهذا الأصل تدخل عليه الجديد الذي يصل إليها بعد صقله وإخضاعه لقواعد لغتها إلى أن تطور في العهد القرشي إلى أرومة هذا الخط الذي نكتب به اليوم.

١١- وإنا عندما نبحث في الخط القرشي يجب علينا أن نسأل عن الخط الذي كانت تكتب به قريش قبل أن تتخذ قلمها الذي يعتبر جدًا للخطوط العربية الحاضرة؟ وعن الخط الذي كانت تكتب به خزاعة ومن سبق خزاعة إلى مكة؟.

ومعرفة الجواب عن هذا السؤال تعود بنا إلى ما سبق الكلام عنه في هذا البحث عن الرواية العربية التي تقول : إن الخط القرشي هو من سلالة الخط الذي وضع أيام إسماعيل، وإلى ما سبق الكلام فيه عن انتشار الخطوط : المعينية ، والسبئية ، والثمودية ، واللحيانية ، والإرمية في الحجاز آنفًا. ونحن إذا رجعنا إلى النتائج التي وصل إليها البحث علينا : أن نتصور الانتشار في أضيق معانيه ، وأن الكتاب في تلك العصور كانوا قلة ، ولا يبعد أن يكون لكل كاتب قاعدته الخاصة. فلقد مر بنا في البحث عن الخطوط التي دونت بها اللغة العربية : [وهناك مخربشات صغيرة خربشها قوم من الرعاة أو رجال القوافل العابرة][1] ، ومر بنا أن خطوطًا متنوعة ظهرت على النقوش التي عثر عليها في شمال الحجاز ، فالمسند ، والإرمي ، واللحياني ، والثمودي ، والصفوي ، والنبطي ، كلها خطوط عرفها الحجاز وعرفتها نجد ، فلثمود آثار في نجد كما أن لهم آثارًا في الحجاز ، والنبط يقال إنهم في الأصل من الصحراء الواقعة شرق فلسطين ، وعلى ما رجحنا أنهم من نجد ، ويقال إنهم كانوا مختلطين بقبائل طيئ.

---

(١) التاريخ العربي القديم ص٤٤ .

وكذلك المعينيون والسبئيون كانوا في الشمال ثم انتقلوا إلى الجنوب فلا بد أن تكون خطوطهما قد انتشرت في الشمال كما انتشرت في الجنوب حتى بلغت سواحل الخليج العربي الشمالية. ولقد أظهرت حفريات أرامكو في المنقطة الشرقية آثارًا مكتوبًا عليها بالخط المسند، وحتى الخط المسماري لابد أن يكون الحجاز ونجد عرفاه.

فمن تاريخ الخطوط وأبجديتها يظهر لنا : أن العماليق والإرميين في الحجاز ونجد كانوا يكتبون بالخط الأصلي الذي تفرع عنه الكنعاني والمعيني، ثم لما أخذ التطور يبعد بين هذين الخطين : المعيني والكنعاني، تكونت مجموعتان من الخطوط : المجموعة الأولى المسند، والثمودي، واللحياني وما تفرع عنها، والثانية الكنعانية والطورسينائية، والإرمية وما تفرع عنها، فمنطقة المجموعة الأولى : من شمال الحجاز إلى شرق "نجد" إلى أقاصي "اليمن" جنوبًا. أما منطقة المجموعة الثانية : فمن شمال "نجد" إلى فلسطين إلى الهلال الخصيب شمالاً، ومن الطبيعي أن تكون خطوط شمال الحجاز، المدينة وما بعدها شمالاً متأثرة بالمجموعة الشمالية، ومن الطبيعي أن يكون تأثير المجموعة الشمالية على مكة وما بعدها جنوبًا وشرقًا أقل من تأثيرها على مدن الشمال، ومن الطبيعي أن يكون لكل خط دوره في الانتشار والذيوع. فمثلاً الخط المعيني في الشمال لابد أنه كان الخط الرئيس للمدينة وما جاورها أيام إقامة المعينيين فيها وتأسيسهم دولة في الشمال. وكذلك كان حال الخط اللحياني، والثمودي، فلابد أن يكون لكل خط زمانه. ولابد أن يكون للتطور أثره في بروز خط عن آخر، ولابد أن يطغى الجديد على القديم. فهذه سنة الحياة .. فعندما ظهر الخط النبطي، وعندما أخذ النبط يعملون على إعادة الخط الإرمي إلى عربيته، وجد هذا الخط النبطي إقبالاً في الحجاز ونجد، فأصبح هو الغالب على شمال الحجاز، فلا يستبعد بعد هذا أن تكون مكة وأن تكون المدينة عرفتا خطوطًا عدة تناوبت المكان الأول. ثم آخر الأمر

ارتأت قريش أن توحد خطها على شكل صحيح فأخذت الخط النبطي أساسًا لتعلمها، وأضافت إليه بعض محسنات خطوط أخرى.

فالذي يظهر: أن تعدد الخطوط في الحجاز واختلاط أكثرها بما هو غير عربي، هو الذي دفع القرشيين آخر الأمر إلى أن يفكروا في توحيد الخط الذي يدونون به، وتثبيته على قواعد عربية؛ ولم يكن القرشيون وحدهم هم الذين فكروا في توحيد الخطوط بعد أن تعددت ودخلتها عناصر غير عربية، فإن الروايات العربية المختلفة في أصل هذا الخط القرشي وكيف نشأ تدلنا على مبلغ اهتمام العرب بموضوع الخطوط وتوحيدها.

١٢- ثم إنا إذا ما رجعنا إلى ما قيل عن الخط النبطي وأنه تكيف بتوالي الأجيال حتى صار إلى الحرف العربي المعروف[١]، وإلى ما يعرف عن الحرف العربي المعروف ومراحل تطوره وتعدد أشكاله من زمن قريب بالنسبة لعمر الخطوط القديمة، وإلى المدى الذي تطور من الرسم الكوفي إلى رسم الرقعة، لا نستطيع بعد ذلك أن نهمل الأدلة التي ترجح لنا: أن تلك الفوارق التي بينها لنا اختصاصيو الخطوط الأثرية هي نتيجة هذه الأسباب التي استعرضناها. وهي فوارق لا تحمل على الاعتقاد بأن لغة العرب البائدة: عاد، وثمود، والعماليق، وجرهم الأولى، وعبد ضخم .. إلخ قد بادت معهم، وأن اللغة العربية في زمنها القديم لا تمت بصلة إلى اللغة العربية في زمنها الحديث، كما تقدم ذلك في بحث اللغة العربية.

فمحال أن تكون جميع الآثار التي نقشت بالخط (المسند) الذي كان معروفًا قبل الإسلام في شبه جزيرة العرب جميعها، والذي قال عنه الأستاذ جواد علي: [وربما

(١) العرب قبل الإسلام جرجي زيدان ص٥٨.

كان القلم العام للعرب قبل المسيح][1] بشكل واحد، ورسم واحد، ولهجة واحدة بالرغم من فوارق الزمن وبالرغم من فوارق البيئة.

أجل ! إننا لا نستطيع أن نهمل ذلك الظن، ونحن نرى كيف تطور الخط القرشي في مدى زمن قصير بالنسبة لعمر الخطوط ومراحل تطورها، وكيف حدث الخلاف في كثير مما كتب بالخط غير المنقوط، فإنا إذا ما رجعنا إلى الأبجدية العربية غير المنقوطة نجد حروفًا متشابهة لا يميز الواحد عن الآخر في الأبجدية الحاضرة غير النقاط مثل [ب. ت. ث. ن. ج. ح. خ. د ذ. ر. ز. س. ش. ص. ض. ط. ظ. ع. غ. ف. ق] فلابد لهذه الأحرف المتشابهة مما يميزها في الكتابة غير المنقوطة.

وإنا إذا ما رجعنا إلى الأبجدية العربية المنقوطة نجد بعض الحروف في خط الرقعة قد اتخذت شكلاً غير شكلها في خط الثلث مثل: (س. ص. ق. ن) في خط الرقعة. فهذه الأحرف في خط النسخ تكتب (ش. ض. ق. ن) ونجد الحروف التي تقع في وسط الكلمة بغير الشكل الذي ترسم به إذا ما وقعت في أول الكلمة أو في آخرها أو مفردة.

ونجد الأبجدية العربية اليوم تتممها (الهمزة) ويتممها (التنوين)، فالهمزة التي تكمل معاني بعض الحروف تأتي أيضًا مفردة لها جميع ما لأي حرف من حروف الأبجدية، وكذلك التنوين هو يأتي في بعض الحالات كحرف قائم بذاته مثل (إذن).

وإلى جانب هذا كله فإن الأبجدية العربية اليوم غير كافية لضبط الكلمات ما لم تشكل الحروف، وهذا الذي جعل النادر جدًا من كتاب اللغة العربية وقرائها هو القادر على نطق الكلمات العربية مضبوطة. فكثيرة جدًا الكلمات التي تحمل كثيرًا من المعاني لا تعرف إلا بالحركات، ولقد نشأت حديثًا فكرة إحداث أبجدية عربية تعرف بها الحركات بدون تشكيل ولكنها لم تتبلور.

---

(١) تاريخ العرب ١٩٤/١ وراجع تاريخ اللغات السامية ص٣٤.

فهذا الذي نلاحظه اليوم يجعلنا نجنح إلى أن أبجديات الماضي قد تكون أجيالها راعت فيها الحركات، فوضعت إلى جانب حروف أبجديتها علامات تشبه الحروف، وهذا الذي نجنح إليه يرجحه ضبط أسماء ملوك الماضي القديم فيما نقل عن المستشرقين، وضبط أسمائهم فيما نقل عن المصادر العربية، وإنك لتجد ذلك واضحًا في أسماء ملوك سبأ، فإذا قرأت أسماءهم المنقولة عن المستشرقين تجدها مكونة من حروف لايبعد أن يكون منها حرف تألف من حرفين لغرض الدلالة على الحركة، بينما تجد هذه الأسماء في المصادر العربية بحروف أقل تجعل الاسم أقرب إلى العربية في الوقت الحاضر. ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن الذين سجلوا لنا التاريخ العربي القديم. منهم من كان يجيد العربية ويعرف جيدًا قراءة الخط المسند مثل الهمداني وغيره.

فها نحن اليوم نستعين بزيادة حرف (الواو) لنميز اسم (عمرو) من اسم (عمر)، ونستعين ببعض الحروف لتميز المثنى والجموع السالمة، فلا يبعد أن يكون الأقدمون قد استعملوا حروفًا خاصة تدل على الحركات، وحروفًا تدل على الجموع وتدل على المثنى. وحروفًا بدلاً من التشكيل وبدلاً من النقاط، فمن ذلك برزت الفوارق بين الأبجديات. ولقد ثبت - كما سبق - أن البابليين كانوا يزيدون الواو علامة للرفع مثل (عم ـ عمو).

على أنه مهما كانت الفوارق بين الحروف وخصائصها ونطقها، فإنها لا تخرج اللغة العربية عن أصلها، فكما لم تخرج الحروف اللاتينية اللغة التركية عن أصلها ولكنها أثرت على بعض مخارج حروفها إذا ما قرئت حرفيًا، وكذلك لا تخرج اللغة العربية عن أصلها الحروف الأعجمية، ولكنها تؤثر في نطقها، ومن هنا تنبعث اللهجة. وهذا سبب من الأسباب التي يجب أن تضاف إلى ما تقدم عن اختلاف اللهجات بفعل احتكاك العرب بغيرهم، وما نجم عن الاحتكاك من تفرع لغة قطرية بجانب اللغة الأم

ثم تغلب الفرع على الأصل. وإلى ما يحتمل حدوثه في ترجمة المستشرقين للآثار العربية من تحريف وأخطاء.

١٣- فاستنادًا إلى كل هذه النتائج التي تقدمت يمكننا أن نقول: إن الخط العربي سار بجانب اللغة العربية في تلك الرحلة الطويلة التي بدأت منذ هجرة الكنعانيين الأولى وانتهت عندما قامت دولتا الحيرة وبصرى العربيتان، وعندما اهتم العرب في الحيرة، وفي الأنبار، وفي مكة أخيرًا بتكوين خط يضبط لغتهم ويحفظ لها نطقها السليم.

واستنادًا إلى كل تلك النتائج التي تقدمت يمكننا أن نقول: إن الخط القرشي هو صفوة الخطوط التي عرفها الحجاز والتي تقدم الحديث عنها، وإن هذا الخط القرشي اعتمد أكثر ما اعتمد على قواعد وخصائص الخط النبطي المتأخر، فلقد كان أقرب إلى اللغة العربية وأسهل من غيره وأكثر انتشارًا.

وبناءً على هذا فإن الذين يقولون: إن الخط القرشي لم يدخله شيء من خصائص مجموعة الخطوط الجنوبية في الوقت الذي يقولون فيه: إن الخط القرشي أخذ عن الخط الحيري، ينسون أو يتناسون ما جاء في تحقيقهم عن صلة الخطوط الجنوبية بالحيرة وبالحجاز مثل: "ولفنسون" الذي أكد أن الشبه بين الخط المسند والخط الحيري جاء عن طريق الخط الثمودي ومثل: "جواد علي" الذي يؤكد انتشار الخط المسند في ربوع البلاد العربية جميعها.

البحث الثامن عشر

الشعر العربي عريق مثل لغته

من موضوعات البحث :

١- في الحجاز تعارفت الثقافات .

٢- أين كانت مدرسة الشعر الأولى ؟

٣- الحجاز أرض الشعر ومسكن النابغين .

٤- تاريخ الشعر العربي قديم في قلب الجزيرة قدم عاد وثمود .

٥- لا شك في وجود الشعر من عصر عاد وثمود، وإنما الشك كل الشك فيما يروى على لسان عاد وثمود من شعر يغلب على الظن : أنه من وضع القصصيين من أمثال ابن شرية .

٦- الفرق بين الشعر القديم والشعر الحديث .

٧- الشعر الموضوع يحرص واضعوه على أن يكون شبيهاً بشعر من نسب إليه.

٨- الأدب العربي دليل يلقي الضوء على الطريق الطويل الذي قطعه تاريخ الأدب العربي .

٩- الاعتراف بشعر القرن الخامس بعد الميلاد دليل على قدم الشعر العربي.

الشعر العربي عريق مثل لغته

١ - ليس علينا من حرج : إن جئنا نحن على أثر من سبقنا ، فلم نستكثر على البلد الذي أذن فيه إبراهيم بالحج فلباه الناس من كل فج : من أرض الفرات ، ومن سفوح الأرز ، ومن ضفاف النيل ، ومن سدود اليمن ، أن يكون ملتقى الثقافات التي وصلت إليها شعوب الشرق العربي في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد.

وليس علينا من حرج : إن نحن لم نستكثر على سكان وادي القرى وأرض اليمامة الذين كانوا همزة الوصل بين الدول العربية في الشمال والدول العربية في الجنوب ، أن يعرفوا شيئًا من ثقافة الجنوبيين ، وشيئًا من ثقافة الشماليين. ولم نستكثر عليهم : أن يستوردوا من الأمم التي اتصلت بهم واتصلوا بها الطريف من ثقافتها وآدابها وآرائها ، ويصدروا إليها ذخائرهم ، وطوارف الفكر العربي الذي انطلق مع آيات الأنبياء إلى آفاق هذا الكون العظيم ، ومن صور الشعور الفياض بكل ما في طبيعة أرضه من جلال وروعة وصفاء ، كما صدروا إليه إنتاجهم من النحاس والذهب والأخشاب. ولم نستكثر عليهم : أن يطبعوا ما عرفوه من الشعوب التي يتاجرون معها بطابع بيئتهم ، ويصبغوه بصبغتها ، ويخضعوه للغتهم ، ويضفوا عليه من خيالهم وأحاسيسهم الجمال الفطري والبيان الساحر.

فنحن كما لا نستبعد على الباحث الذي يتفرغ لدراسة حضارة قلب البلاد العربية : إن هو وجد من الأدلة ما يوضح له من أين أخذ الجرهميون فكرة دفن ثرواتهم في مقابرهم؟ أأخذوها عن السوموريين في العراق؟ فقد كان هؤلاء من قديم الزمان يعتقدون أن الإنسان بعد الموت يحتاج إلى أعوانه ومعداته وثروته في عالم الخالدين. أم أخذوها من الفراعنة المصريين؟ فلقد كان لهؤلاء فلسفة في الموت وفيما بعد الموت

تحدثت وما زالت تتحدث عنها أهراماتهم الشامخة على ضفاف النيل. أم هي عادة قديمة لجدودهم الذين عاشوا في عصر الخصب والأنهار التي كانت تجري في وسط هذه الصحارى القاحلة المستعرة أخذها عنهم من القدم السوموريون في العراق، والفراعنة في مصر، مثلما أخذوا عنهم تجاربهم في زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات؟!

٢- كذلك نحن لا نستبعد على الباحث المتعمق في الأدب الجاهلي القديم: إن هو وجد من الأدلة ما يوضح من أين عرف العرب الشعر؟ هل هم عرفوه من السوموريين في العراق؟ فقد كان هؤلاء في غابر عصورهم يقولون الشعر ويضمنونه آراءهم وفلسفتهم. أو عرفوه من الفراعنة؟ فقد أثبت البحث في تاريخ الفراعنة: شعرًا قديمًا تغنى به سكان وادي النيل. أو الشعر العربي هو من وحي الأرض المقدسة، أرض النور والجمال أرض المهلهل وامرئ القيس والنابغة وحسان، صدره العرب إلى العراق وإلى مصر كما صدروا إليهما معتقداتهم ولغتهم؟!

فإذا كان العرب قد نقلوا إلى العراق وسوريا ومصر لغتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يحفظوا لها جميع قواعدها وحروفها إلا بعد الإسلام، فتفرعت عنها اللغات السامية، لا يبعد أن يكون العرب هم الذين نقلوا إلى أرض الرافدين ودلتا النيل الشعر، ولم يستطيعوا أن يحفظوا له جميع أوزانه وقوافيه، فنشأ منه الشعر في سواد العراق وفي صحراء مصر، فما من شك في صلة العماليق والإرميين الذين نشأوا في قلب الجزيرة العربية بسكان العراق ومصر وسوريا، وما من شك في أن تلك الصلة كانت أعز وأقوى من الصلة التي كانت قبيل الإسلام بين العرب وبين الفرس والرومان - الدولتين المستعمرتين اللتين انقضتا على أطراف البلاد العربية تسومانها الاستعمار والاستغلال.

وما من شك فيما أثبته تاريخ الأدب العربي بعد الإسلام لغير العرب من سكان فارس وما وراءها شرقًا، ولغير العرب من سكان مصر وما وراءها غربًا من نبوغ

وعبقرية في اللغة العربية وآدابها؛ فأمهات المؤلفات اللغوية والأدبية ألفها غير العرب مثل سيبويه والفيروزآبادي، وهيهات أن تميز شعر العربي الأصيل من شعر المستعرب الدخيل، فلقد امتزجت المعارف، والآراء، والشعور، والخيال، فأصبحت جميعها ذات طابع عربي واحد، كما امتزجت العناصر: لغة وعقيدة وتقاليد فأصبحت جميعها ذات طابع عربي واحد.

فإذا كنا نلمح الشعوبية في بعض الشعر الذي نظم في بعض المناسبات، وفي بعض الشعر الذي فاض بحماس العنصرية الكامنة في النفوس، فمثل هذا الذي نلمحه في الأدب العربي كمثل الصفات الجسمية التي تدل على عنصرها مهما امتزجت الدماء واتصل الرحم.

فالشعر في الأصل أحاسيس تجيش في النفس فتنطلق حداء وغناء يترنم به البدوي بين أزهار الربيع، ويشدو به المدني كلما شاهد آية من آيات الجمال، وكلما تأثرت نفسه بمنظر من مناظر الحياة الرائعة أو المروعة.

والأحاسيس التي تجيش في النفوس ليست وقفًا على أمة دون أخرى، وإنما الذي تمتاز به أمة عن أخرى هو البلاغة والبيان، فبقدر ما في اللغة من سعة وجزالة، وبقدر ما في البيئة من انطلاق وروحانية، بقدر ما في الشعر من بلاغة، وفصاحة، ودقة تعبير، وخيال منطلق في آفاق الجلال والحكمة والجمال والخلود.

فسواء لدينا أكان الشعر العربي سابقًا عن الشعر السوموري في العراق، والشعر الفرعوني في مصر؟ أم كان متأخرًا عنهما؟ فإن الذي لا شك فيه هو: بواعث الشعر التي توافرت في مهابط الوحي، ومرابع الحرية، ومشرق النور الحضاري، وعرين العرب الذين أسسوا الدول العربية والحضارة العربية في ربوع الهلال الخصيب، وصحراء سيناء ودلتا النيل من فجر العصر الكلداني في العراق، والفينيقي في سوريا، والعمليقي في مصر.

فإذا كان الشعر عرف في بلاد الرافدين من العهد السوموري، وعرف في بلاد النيل من عهد الأسرات، فليس بعيدًا أو مستنكرًا أن يكون العرب قد عرفوا الشعر من عهد عاد، وجرهم، وجديس، وميزوه عن غيره من الشعر في مصر وفي العراق في عصور ما قبل التاريخ بهذه الأوزان وهذه القوافي، وأضفوا عليه البلاغة الخلابة، والبيان الساحر، بفضل ما يملكون من لغة واسعة مرنة، وبيئة شاعرية مشرقة.

٣- وإذا كان الحجاز عرف في عصوره الجاهلية الأخيرة بأنه أرض الشعر ومبعثه كما جاء في تحقيق مؤلفي قصة الأدب في العالم : [إن مما يلفت النظر : أن أكثر من نبغوا في الشعر كانوا يسكنون شمال الجزيرة العربية، أعني الحجاز وما إليه، فمنهم من كان من أصل يمني رحل إلى الشمال كامرئ القيس من كندة وهي قبيلة يمنية، وحاتم الطائي من طيء كذلك ، أو من أصل عدناني إما من قبيلة ربيعة كالمهلهل وطرفة والأعشى، وإما من مضر كالنابغة وزهير ولبيد][1] .

فإن الحجاز الذي أنجب في عصر الفوضى والظلام فطاحل الشعر الجاهلي الذي نقرأه اليوم معجبين بما فيه من خيال وحكم، قد أثبتت نقوش عصوره الحضارية القديمة : أن لغة سكانه في العصور القديمة كانت هي لغة الشعر الجاهلي كما أكد لنا ذلك "فرتزهومل" في بحث (اللغة العربية هي الأصل للغات العالم العربي القديم) السابق، وكما نلاحظه هنا واضحًا فيما سنعرضه من أقوال المفسرين والمؤرخين وجامعي الشعر الجاهلي، الذين اقتنعوا بأن الشعر الجاهلي يرجع تاريخه إلى عصر العمالقة وعاد وثمود في الحجاز.

٤- ففي طليعة هؤلاء ابن جرير الطبري، وأبو إسحاق النيسابوري، وابن أبي الخطاب القرشي.

---

(١) قصة الأدب في العالم ٣٥٥/١ .

فلقد أثبت الطبري في تفسيره وتاريخه شعرًا لرجال من عاد ومن العمالقة في قصة (عاد) والوفد الذي بعثته عاد ليستقي عند البيت الحرام[1].

ولقد حوت جمهرة أشعار العرب للقرشي بعضًا من شعر عاد. وروى ابن أبي الخطاب القرشي عن المفضل: (وقد قالت الأشعار العمالقة عاد وثمود)[2].

فمن الشعر الذي أثبته الطبري في تفسيره وفي تاريخه نقلاً عن (ابن إسحاق) هذه الأبيات التي جاءت في "قصة عاد"[3]:

أبا سعد فإنك من قبيل ... ذوي كرم وأمك من ثمود

فإنا لا نطيعك ما بقينا ... ولسنا فاعلين لما تريد

أتأمرنا لنترك دين رفد ... ورمل والصواء مع العمود

ونترك دين آباء كرام ... ذوي رأي ونتبع دين هود

وهذه الأبيات التي جاءت في قصة ثمود والتي نسبها ابن إسحاق إلى رجل من ثمود قال عنه: إنه من الذين نجوا من العذاب:

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابا

عزيز ثمود كلهم جميعًا ... فهم بأن يجيب ولو أجابا

لأصبح صالح فينا عزيزًا ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا

ولكن الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهم ذئابًا

(١) تفسير الطبري ١٥٤/٨ وما بعدها.

(٢) جمهرة أشعار العرب للقرشي ص٤١.

(٣) تفسير الطبري ١١٨/٨، وما بعدها.

وفي طليعة الذين انتقدوا هذا الشعر محمد بن سلام الجمحي الذي قال في كتابه "طبقات فحول الشعراء" : [وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد ابن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن عبدالمطلب كتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارًا كثيرة وليس بشعر. وإنما هو كلام مؤلف معقود بقواف، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف السنين؟ والله تبارك وتعالى يقول : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (1) أي لا بقية لهم وقال أيضًا : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى ۞ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾](2).

٥- ونقد الجمحي كما تراه فيه شيء من الصحة وفيه مجرد الانتصار لرأيه الشخصي ، فالصحيح في هذا النقد : الشك الذي يحوم حول الاعتقاد بأن هذا الشعر نفسه قد قيل في عصري عاد وثمود ، وإن كان هناك فرق في جودة الشعر بين المنسوب إلى عاد والمنسوب إلى ثمود فالشعر العادي أفصح وأقوى. مما يدل على أن الناظم ليس هو شخصًا واحدًا. فإن شعرًا تتناوله الأجيال قرنًا بعد قرن رواية لا يمكن أن يحافظ على أصله. وأن هذا الشعر بالذات لا يستبعد أن يكون من وضع القصاص.

أما الانتصار للرأي الشخصي فيظهر واضحًا في اقتصار الجمحي على ما يؤيد رأيه مما جاء في سورتي الأنعام والحاقة ، وما جاء في سورة الأنعام لا يخص عادًا وحدها وإنما هو إنذار عام. وإنما الذي خص قوم عاد في التنزيل الحكيم ما جاء في سورة الأعراف، وما جاء في سورة الأعراف يؤكد : أن الذين لم يبق لهم باقية هم الذين كفروا. أما هود والذين آمنوا فقد خبر القرآن بنجاتهم: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(3).

(1) سورة الأنعام، الآية : ٤٥ .

(2) الطبقات ص٩ ، والآيتان ٥٠ ، ٥١ من سورة النجم .

(3) سورة الأعراف ، الآية : ٧٢ .

وما جاء في سورة الحاقة مختصرًا عن قوم هود وصالح - عاد وثمود - جاء مفصلاً في سورة الأعراف عن قوم عاد كما تقدم. وجاء في سورة هود عن ثمود ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[1]. وجاء في سورة فصلت ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[2].

ولقد جاء في تفسير الطبري لقوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [فأصبح الذين أهلك الله من ثمود في دارهم يعني في أرضهم التي هلكوا فيها وبلدتهم][3][4].

فمن هذا يتضح : أن الجمحي اندفع وراء اعتقاده الشخصي دون أن يستوعب ما ورد في القرآن الكريم عن عاد وثمود. وما ورد في مصادر التاريخ العربي عن قوم عاد بعد الريح الصرصر. وعن قوم ثمود بعد الرجفة وما كان لهم من تاريخ استمر قرونًا بعد هود وبعد صالح.

ثم إنا إذا ما رجعنا إلى ترجمة محمد بن إسحاق نجد الزهري إمام أهل الحديث وعالم الحجاز والشام يقول عنه : [لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل مخرمة] فمولى آل مخرمة من رواة التاريخ الثقات.

هذا إذا ما ناقشنا نقد الجمحي بمنطقه وعلى ضوء الأدلة التي اعتمد عليها. أما إذا ما رجعنا بالموضوع إلى ما جاء في تحقيق الأثريين وبحث مدققي التاريخ العربي

---

(١) سورة هود ، الآية : ٦٦ .

(٢) سورة فصلت ، الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

(٣ ، ٤) تفسير الطبري ١٦٤/٨ . سورة الأعراف، الآية : ٧٨ .

المتأخرين نجد كثيرًا من الأدلة تؤكد لنا : أن للعاديين والثموديين أحفادًا عاشوا بعد سلطانهم الأول وبعد دولهم المتأخرة قبائل متنقلة إلى القرن الخامس بعد الميلاد. فلا يبعد أن يكونوا قد تناقلوا قصصهم وآدابهم جيلاً بعد جيل. ولا يبعد أن يكون من عاصرهم نقل عنهم. ولا يبعد أن يكون ما نقل عنهم أضيف إليه خيال القصاص. وخيال القصاص مهما شطح لا بد أن يكون له أصل من الحقيقة. وعن الخيال في القصص التاريخي بحث تجده في هذا القسم من هذا الجزء في بحث (إرم ذات العماد).

وكذلك نرى الجمحي متحمسًا لرأيه الشخصي عندما استرسل في نقده فقال عن اللغة العربية[1] : [لقد قال محمد بن علي العلوي : أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم، والعربية التي عناها محمد بن علي : اللسان الذي نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا] .

فهو باستدلاله هذا يحاول أن يفرض اقتناعه فرضًا ، فإذا كانت لغة إسماعيل وهي لغة القرآن ولغة العرب عندما أنزل القرآن، ليست من اللغة العربية التي كانت العرب البائدة تتكلم بها ، فمن أين تعلمها إسماعيل؟ ومع من كان يتخاطب بها؟ ولقد مر بنا هذا الحديث.

والغريب أن الجمحي يستشهد بقول (أبي عمرو بن العلاء) : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، فيقول : [فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهنه؟ فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق. ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل][2] .

---

(١) الطبقات ص١٠ .

(٢) المصدر نفسه ص١١ .

فهل لغة اليمن على ما هي عليه ليست من اللغات العربية ؟!

أنا لا أظن الجمحي لا يعلم أن غرض ابن العلاء : هو الاستشهاد بلغة حمير. وإلا فهل لغة اليمن ليست من العربية ولا العربية منها؟![1] .

هكذا نجد مصادرنا العربية مختلفة فيما قيل عن الشعر العربي وقدمه، فريق يؤكد: أن العرب العاربة عرفوا الشعر ونظموه . وفريق ينكر ذلك ويبالغ في إنكاره. فينكر كذلك صلة لغة العرب العاربة باللغة العربية التي نظم بها الشعر الجاهلي المتأخر شعر المهلهل والأعشى وحاتم طيئ .

وهكذا نجد رأي الذين لا يصدقون بأن الشعر عرف من عهد عاد، غير مستقر على أدلة مقنعة غير الشك في أن يكون هذا الشعر الذي رواه ابن إسحاق هو الشعر نفسه الذي قاله الشاعر العادي والشاعر الثمودي، وهذا الشك يشترك فيه أكثر من اعتقد بأن الشعر عرف من عهد عاد.

٦- ونحن هنا مع الأكثرية التي لا تنكر الشعر على العرب البائدة ولكنها تستبعد أن يكون هذا الشعر نفسه نظم في عهد عاد، وكذلك نحن مع الذين لا يستكثرون اللغة العربية على العرب البائدة. ولا يقولون إن لغة جرهم والعماليق وعاد وثمود عربية ولكنها غير العربية التي نظمت بها المعلقات؛ لأننا اقتنعنا في بحث اللغة العربية بأن هذه اللغة التي نعرفها اليوم هي لغة العرب العاربة، وأن تطورها لم يخرجها عن الأصل العربي؛ ولأننا إذا ما رجعنا للشعر الجاهلي نجد في شعر "امرئ القيس" و"عنترة العبسي" ، و"عمرو بن كلثوم"، و"حسان بن ثابت" أبياتًا وقصائد لا يضاهيها في السهولة وسمو المعنى وفصاحة التعبير إلا شعر الممتازين من شعراء العربية في القرن العشرين بعد الميلاد. ونجد تطور اللغة والشعر لم يجعل فوارق بين شعر حسان وابن

(١) راجع بحث اللغة العربية السابق .

كلثوم وبين شعر أبي الطيب المتنبي وأبي فراس الحمداني، ولم يجعل فوارق بين شعر المتنبي وشعر شوقي والرصافي؛ إلا في بعض الكلمات وفي بعض الاصطلاحات والتشبيه إلى غير ذلك مما تفرضه على كل شاعر حياته وما يحيط بها، ومما لا يؤثر على لغة الشعر ولا على أوزانه وقوافيه.

وهذه الفوارق في الأسماء والاصطلاحات والتشبيه وإن كنا نجدها واضحة في شعر كل جيل، فنحن إذا ما قرأنا شعر امرئ القيس وحسان بن ثابت الشاعرين اللذين في حياتهما الكثير مما ليس في حياة الشنفرى وتأبط شرًا، نجد هذه الفوارق واضحة بين شعر حسان بن ثابت وبين شعر الشنفرى. ولقد قال أحد الشعراء الإسلاميين عندما سئل عن روعة التشبيه في شعر الشريف الرضي : من أين لي أن أصل إلى مثل ذلك وهو السري الذي عاش في القصور والحرير والذهب؟! فإن هذه الفوارق لا تكون إلا فيما ليس له وجود في العصر الجاهلي. أما اللغة السهلة والمعاني الواضحة والأمثال المطربة، فكما نجدها في شعر الإسلاميين نجدها في شعر الجاهليين. إننا لنجد حتى في شعر الأعرابي الذي عاش في صحارى الجزيرة وجبالها أبياتًا سهلة واضحة المعنى بليغة الحكمة مثل هذا البيت في قصيدة الشنفرى لامية العرب :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزَّل

* * *

إن كثيرًا من نقاد الشعر الجاهلي الشاكين فيه يبنون شكوكهم على ما في بعض الشعر الجاهلي من السهل الممتنع والكلمات الحية التي تكرر استعمالها في عصور ما بعد الإسلام. وهذا الدليل مقبول إلى حدٍّ ما، ولكن يجب علينا أن نعلم : أن الكلمات العربية المستعملة من العصر الجاهلي إلى اليوم هي عند العربي الجاهلي مثل الكلمات المهجورة التي تعتبر جاهلية إن صح هذا التعبير سواء بسواء. فلا فرق عند الشنفرى إذا

قال : (أرقط. زهلول . عرفاء . جيأل) وقال : (منأى . كريم . قلي . متعزل) فهذه الكلمات كلها من اللغة العربية. وهذه الكلمات كلها استعملها العربي. فإذا ما صادف واجتمعت الكلمات المتداولة في بيت من الشعر الجاهلي وفهمنا معناه بدون الرجوع إلى القاموس، ظننا حينذاك أن الشعر موضوع.

فهل المهجور من اللغة العربية هو وحده اللغة التي كان يستعملها الجاهليون في شعرهم، وفي خطبهم، وفي حديثهم في الأندية والأسواق؟ وهل هذا المستعمل من اللغة العربية لم يكن العربي الجاهلي يعرفه ويستعمله؟!

ثم إن حياة قوم عاد وقوم ثمود التي حدثنا عنها القرآن الكريم، والتي قال عنها صاعد وغير صاعد : إنها حياة دول عظيمة[1] والتي اعتبر المستشرقون أزمنتها من عصور الجزيرة الذهبية[2]، هي ولا شك أفضل بكثير من حياة العصر الجاهلي المتأخرة رفاهية وثروة واتساع أفق وسيادة اعتزت بها الشعوب العربية جمعاء في العراق، وفي سوريا وفلسطين، وفي مصر، وفي اليمن، وفي الحجاز ونجد.

فكل هذه الحقائق وما يترتب عليها تبرر ما جاء في تاريخ الطبري وتفسيره عن وجود الشعر في عصر العرب البائدة : عاد، وثمود، والعمالقة إلخ، وتؤكد لنا : اقتناع العرب القدامى بقدم الشعر الجاهلي. وإن كانت هناك شكوك قوية تحوم حول الشعر الذي تناقله العرب ناسبينه إلى قصة وفد (عاد) إلى مكة، فلو كان العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام غير مقتنعين بقدم الشعر العربي، وقدم اللغة العربية لما أقدم رواة التاريخ مثل : (ابن إسحاق) على نقل هذه الأقوال، ولما أقدم مؤلفو التاريخ العربي مثل (الطبري) على تسجيل هذا الشعر. فكل الشواهد وكثير من النصوص التاريخية تؤكد

---

(١) طبقات صاعد ص٥٤.

(٢) التاريخ العربي القديم ص١٧٧.

لنا : أن الشعر العربي متوغل في القدم. وأن الشعر القديم هو شعر بكل ما تدل عليه هذه الكلمة (شعر) من وزن وقافية ومعنى .

وهذا كله لا ينفي أن يكون ذلك الشعر الذي سجله الطبري وغير الطبري موضوعًا. ونحن لا ننفي ذلك عن الشعر الغارق في القدم؛ لأننا نعرف أن كثيرًا من الشعر المنسوب إلى شعراء جاهليين معروفين هو شعر موضوع.

٧- فنحن إن كنا لا نستطيع أن ننفي : أن كثيرًا من الشعر المنسوب إلى شعراء جاهليين، هو شعر موضوع، فكذلك نحن لا نستطيع أن ننفي عن كثير من الشعر الموضوع باسم شعراء جاهليين، مميزات الشعر الجاهلي، فقد توخى واضعوه محاكاة الشاعر الموضوع باسمه الشعر "أسلوبًا ولفظًا" فعلى ذلك لا يستبعد أن يكون الذين وضعوا شعرًا ونسبوه إلى قوم عاد قد حرصوا على الأسلوب الذي وصل إليهم عبر الأحقاب إن لم يكن يشبهه لهجة وأسلوبًا وخيالاً فهو لا يختلف عنه كثيرًا. وهذا ما يلاحظ على كثير من الشعر المنسوب إلى شعراء جاهليين معروف شعرهم. وليس وضع الشعر باسم شعراء مبرزين مقصورًا على الشعر الجاهلي، بل إننا لنجد بعض القصائد والأبيات دخيلة على شعر فطاحل الشعراء الإسلاميين.

نعم لو لم يكن العرب في جاهليتهم مقتنعين بوجود دولة (عاد) ، وحضارة عاد، وشعر عاد؛ لما تحدثوا عن سلطانها وآثارها وأشعارها. ولو لم يكن العرب في صدر الإسلام مقتنعين بما اقتنع به الجاهليون؛ لما سجل أعلام التاريخ العربي قصص عاد وشعر عاد وما قيل عن إرم ذات العماد[1] .

٨- فمما لا شك فيه : أن الأدب الجاهلي هو من أبرز الأدلة التي تلقي الضوء على الطريق الطويل الذي قطعه الأدب العربي؛ فأشعار الجاهليين وخطبهم وأمثالهم كل

(١) تجد في الفصل الخاص بحضارة اليمن بحثًا خاصًا بمدينة إرم ذات العماد في هذا الجزء.

ذلك هو الأثر الحي للثقافة العربية في قلب الجزيرة. وأشعار الجاهليين وخطبهم وأمثالهم التي تطربنا فصاحتها ونعجب ببلاغتها واتساع أفقها كل ذلك هو أدب عريق قطع مرحلة طويلة حتى بلغ القمة من الجودة وبلاغة التعبير، فما في الشعر الجاهلي من فلسفة وحكم وأمثال، خضعت لموازين الشعر بدون كلفة تشوه المعنى وجمال التشبيه، وتقيدت بالقوافي بدون ركاكة تذهب بروعة اللفظ، وبدون إقواء يؤثر في موسيقاه يدل على قدم الشعر الجاهلي.

فالشعر الجاهلي الذي بين أيدينا لا يمكن أن يكون وليد جاهلية ما قبل الإسلام، بل هو قديم قدم لغة الشعوب العربية التي نشأ بينها إسماعيل. والقول بأن الشعر الجاهلي قديم ليس هو من الموضوعات المستجدة في بحوث الأدب العربي، فلقد وصل إلى هذه الحقيقة من قبل الشعراء الجاهليون أنفسهم. فعنترة العبسي أحد شعراء المعلقات أعلن عن سبق الذين تقدموه من الشعراء إلى المعاني المتألقة بسؤاله: هل غادر الشعراء من متردم؟

ونتيجة عرفت من عهد عنترة ليست في حاجة إلى إطالة الكلام عنها. وإنما الجدير بالبحث هنا هو متى عرف الشعر العربي؟

٩- إن الباحثين في تاريخ الأدب العربي اليوم .. مع اعترافهم بأن الشعر الجاهلي هو نتيجة تطور العقلية العربية التي مرت بها عصور طويلة يقتصرون في بحثهم على ما وصل إلى أيديهم من الشعر الجاهلي الذي لا غبار عليه. وما وصل إلى أيديهم من الشعر الجاهلي الذي زالت عنه أكثر الشكوك لا يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد، ثم هم يسيرون وراء الخيال والظنون في قدم الشعر العربي.

فمما جاء في كلام مؤلفي كتاب قصة الأدب العالمي عن نشوء الأدب العربي: [وأقدم شعر وصل إلينا كان الشعر الذي قيل في حرب البسوس أو قبل ذلك قليلاً. وكان

ذلك قبل الهجرة بنحو قرن ونصف القرن، وقد وصلت إلينا من ذلك قصائد كاملة، محال أن تكون أول محاولة. بل لابد أن تكون قد سبقتها محاولات كثيرة، دخلتها تحسينات كثيرة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، فهذا الوزن الكامل، وامتلاك ناصية اللغة، والقدرة على إجادة التصوير، لا يمكن أن تنشأ ابتداء، ولا بد أن تكون خضعت لقانون النشوء والارتقاء. ولا بد أن يسبق ذلك وزن مخلع قبل أن يهتدوا إلى البحور الست عشرة، ولا بد أن يمر شعرهم بطور التعبير المهلهل والأبيات القصيرة تقال في المناسبات المفاجئة، وأخيرًا يصل إلى ما وصل إليه شعر امرئ القيس وأمثاله، من نظم منسجم، ونفس طويل، وتعبير محكم، ووحدة في القافية][1].

فَظَنُّ مؤلفي قصة الأدب العالمي المدعم بهذا الدليل: [محال أن تكون القصائد الكاملة أول محاولة للشعر الجاهلي، بل لابد أن تكون قد سبقتها محاولات كثيرة دخلتها تحسينات كثيرة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه] ظن يجعله في مرتبة اليقين الاستدلال المنطقي الذي يفرض نفسه.

فالشعر الجاهلي كما جاء في كلام (كارلتون كون) عن منشئه عندما تحدث عن الحضارة العربية والأدب العربي: هو الريشة التي صور بها العربي أهم الأحداث التي تصادفه في حياته مثلما صورها الألماني بالموسيقى والفرعوني بالنحت إلخ[2].

والعربي عرف الحياة وجمالها أيام كانت الجزيرة العربية كما يصفها (كايتاني) الإيطالي. وقال عنها قبله المؤرخون العرب: ذات أشجار وأنهار وجو شاعري. والعربي عرف من صور الحياة شيئًا كثيرًا منذ أن كان يتاجر بالنحاس مع السوموريين، ويقوم بأعباء النقل التجاري في الشرق العربي. والعربي عرف الأحداث السياسية وتحمل

---

(1) قصة الأدب العالمي ١/٣٥٤.

(2) قصة الشرق الأوسط ص٦٢.

الضخم من مسئولياتها منذ أن أسس إمبراطورياته في وادي الفرات، وفي وادي النيل، وملأ جبال الأرز، وشواطئ البحر الأبيض حركة ونشاطًا.

فليس غريبًا أن تؤثر متناقضات الحياة الطويلة التي عاشها العربي في أحاسيسه وانطباعاته، وليس غريبًا أن يجيش في صدره الشعور بمتناقضات الحياة؛ جمالها وعبوسها فيحلق به خياله في أجواء الأحلام تارة، وتارة يدخل به في مجاهل اليأس والألم. ولابد لذلك الشعور أن يتبلور في شكل مادي يبرز الفكرة في صورة تعبر عن خفقات القلب وأنات الضمير.. وأبرز الأشكال التي صور بها العربي أحاسيسه وانطباعاته هو الشعر، وليس من المنطق في شيء إن نحن ظننا أن العربي كان جامد الأحاسيس متحجر الشعور إلى القرن الخامس الميلادي.

البحث التاسع عشر

معالم المجتمع والدولة في قلب الجزيرة العربية

من موضوعات البحث :

١- البحوث الأثرية أزالت كثيرًا من الشكوك التي كانت تغطي حقيقة الجزيرة العربية في ماضيها القديم .

٢- مثلما كانت الصحة هي الباعث الأول للعقل السليم كذلك كان الخصب هو الباعث الأول للنشاط المثمر.

٣- الأثر الذي رأيته في المدينة ينبئ عن حضارة قديمة جدًا .

٤- الثروة العربية في الجاهلية القديمة .

٥- الخيال في القصص العربية مبعثه اقتناع العربي الجاهلي بحضارة أجداده القدامى .

٦- إن المؤرخ العربي اهتم بتاريخ اليمن الحضاري أكثر مما اهتم بتاريخ الحجاز ونجد ؛ لأنه كان لا يملك نصوصًا أثرية .

٧- ما زال الشك قويًّا في بداية تاريخ المجتمع العربي .

٨- معالم التاريخ السياسي القديم في قلب الجزيرة وبدايته .

٩- المرأة في التاريخ الاجتماعي والسياسي العربي .

١٠- وأد البنات في الجاهلية عقيدة وثنية .

١١- العرب في جاهلية ما قبل الإسلام عادوا إلى الحياة القبلية .

تابع موضوعات البحث

١٢- أعداء العروبة قبل الإسلام وبعده هم الذين شوّشوا على العرب وتاريخهم .

١٣- مثل العرب قبل الإسلام مثل العرب بعد الإسلام .

١٤- دراسات المحققين هي التي أنقذت حقائق التاريخ العربي من الخيال والتهم.

١٥- ماهية النظام السياسي داخل الجزيرة العربية ورأي المستشرقين.

١٦- قلب الجزيرة هو ملجأ القومية العربية وحصنها .

١٧- النضال العربي في رأي المستشرقين غارة ووحشية — والغزو الاستعماري سلام ومدنية .

١٨- التحقيق في أسماء الدول والشعوب وتحديد أراضيها هو الذي يستحوذ على اهتمام المؤرخين .

١٩- الفوارق بين المدن التجارية والسواحل، وبين المجتمعات المتحصنة برمال الجزيرة وجبالها؛ لا شك فيها .

٢٠- النظام الذي أسسه قصي في مكة يشبه نظم الدول الحديثة .

٢١- إن للبلدان حظوظاً كما للإنسان .

٢٢- حاضرنا صورة لماضينا .

معالم المجتمع والدولة في قلب الجزيرة العربية

١ - لقد تقشع كثير من الشكوك التي كانت تحول بين محققي التاريخ العربي القديم في الأزمنة المتأخرة، وبين ما كان يقوله المؤرخون العرب في الأزمنة المتقدمة عن الحجاز ونجد واليمامة، وإن هذه البلاد كانت مناطق ذات خصب وثراء ومياه متدفقة، وعن دول العرب وعظمة ملوكها، فآمن الكثيرون بما قاله المسعودي: [وكان الحجاز أشجر بلاد الله وأكثرها ماء][(١)] ، وبما قاله الطبري : [واليمامة إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرًا وأشجارًا][(٢)] ؛ وبما قاله ابن خلدون في تاريخه، وصاعد في طبقاته، عن شعوب عاد؛ وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم، والعماليق، وأنها كانت ذات ملك ضخم وسلطان كبير[(٣)] . وصدقوا بما جاء في جغرافية (بطليموس) عن أنهار الجزيرة التي كانت تنساب في أراضيها وينساب معها الخير العميم، ورجعوا إلى ما قاله (بطليموس) عن المئة والستين مدينة التي كانت تزهو بها شبه جزيرة العرب ، وأخذوا يعنون بتحقيق (إسطفانوس) و(بلي) اللذين توصلا إلى معرفة عدد من أسماء تلك المدن[(٤)] . ولقد جاء في موجز تاريخ الشرق الأوسط : [فمنذ سنة ٨٠٠٠ ق.م. تقريبًا اهتدى الإنسان بعد تجارب شاقة وأخطاء جسيمة إلى استزراع الأغذية النباتية واستئناس بعض الحيوانات النافعة فتسنى له بذلك لأول مرة أن يدرج في مدارج الارتقاء نحو الحضارة][(٥)] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٨١/٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ بحث اليمامة .

(٣) طبقات صاعد ص٥٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢٧/١ .

(٤) التاريخ الجغرافي للقرآن ص٧٢ .

(٥) موجز تاريخ الشرق الأوسط ص٤ .

وبواعث هذا التصديق جاءت في البحوث الأثرية والجيولوجية التي توصلت إلى معلومات لا تختلف كثيرًا عما قاله قدامى المؤرخين. وهذه البواعث هي التي جعلت عددًا من المستشرقين يهتمون بالتحقيق في مواطن الحضارات القديمة في ربوع الجزيرة العربية التي أصبحت قاعًا صفصفًا ليس فيها غير سراب يحسبه الظمآن ماء.

وهذا الذي صدق به الباحثون هو الذي أنبأنا به القرآن الكريم فيما أنبأنا به من أخبار الماضين:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾[1] و﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2] و﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ﴾[3] و﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[4] و﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[5] و﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٦.

(٢) سورة الروم ، الآية : ٩ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٦٩ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية : ٣٣ .

(٥) سورة الشعراء ، الآية : ١٢٧ وما بعدها .

مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [1] و﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾[2].

٢- حقًا لقد مكن الله للذين عاشوا على ظهر هذه الجزيرة قبل الميلاد ما لم يمكن للجاهليين فيما بعد الميلاد ، فارسل على أولئك السماء تمطرهم مدرارًا فأثاروا الأرض، وعمروها ، فكما أن الصحة من بواعث أصالة الرأي وحسن التفكير، فإن الأرض الخصبة تبعث النشاط ورغبة الاستثمار ، وهذا هو سر الحضارة التي حافظت على بقائها في بلاد الهلال الخصيب وعلى ضفتي وادي النيل.

فها نحن نرى اليوم للثموديين الذين كانوا يعيشون في شمال الحجاز متخذين من سهول الحجر حدائق ومن جبالها بيوتًا ، آثارًا بارزة إذا ما رأيتها رأيت فنًا في النحت لا ينقص عن النحت الفرعوني في مصر ، قال عن صلته بالفن الفرعوني البتنوني : [ويظن آخرون أن الثموديين من العمالقة حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر][3]. وقال عن صلة الفن الفرعوني به جورجي زيدان : [واقتبس المصريون من مخالطة العمالقة معارف كثيرة ولا سيما الأبنية فأخذوا عنهم أشكالاً جديدة ويعد أبو الهول المجنح من مبتكراتهم][4] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٤٦ وما بعدها. ولقد جاء في تفسير قوله تعالى في سورة فاطر الآية : ٤٤: ألم يسر هؤلاء المشركون الذين عارضوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في الأرض فإنهم تجار يسلكون طريق الشام فينظروا كيف كانت عاقبة الذين كانوا بها. **تفسير الطبري** ١٤٧/٢٢ .

(٣) **الرحلة الحجازية للبتنوني** ص ٢١٢ .

(٤) **العرب قبل الإسلام** ص٧٢ وكتاب **الدولة العربية الكبرى** لمحمود كامل المحامي ص٣٩/٣٥ .

فمما قاله المؤرخون المصريون عن الحضارة المصرية واتصالها الوثيق بالحضارة العربية في داخل الجزيرة يتبين لنا : أن العمالقة الحجازيين والفراعنة المصريين كانوا على مستوى حضاري لا ينقص هنا في الحجاز عنه هناك في مصر ويتبين لنا : أن الشعبين كانا على صلة ثقافية يتبادلان المعارف والفنون. ثم شاء الله أن يمنى قلب الجزيرة بالجفاف وأن تستمر حضارة مصر بفضل النيل. فمصر كما يقولون : هبة النيل.

٣- وإنني أؤكد :أن لو بحث عن آثار قلب الجزيرة لظهر فيها ما يدل على حضارة لا تنقص عن حضارة الواديين الفرات والنيل. وإنني هنا أذكر أثرًا ضئيلاً ظهر عندما كنت رئيسًا لبلدية المدينة المنورة ، فقد قامت بلدية المدينة بعمل بالوعات لتصريف مياه الأمطار ريثما يتم الإجراء الرسمي الذي تقتضيه الموافقة على المشروع الذي تقدمت به البلدية لإنشاء مجار عامة. فلقد ظهر في إحدى الحفريات أمام باب السور القديم المسمى في العهد التركي "باب بصري" الواقع شمال السور ، والذي أزيل في التنظيمات التي اقتضتها توسعة الحرم النبوي في العهد السعودي - جدار قائم تحت عمق ستة أمتار من ظهر الأرض يبلغ طول حجارته مترًا ونصف المتر ويبلغ عرضها ثلثي المتر منحوتة بطريقة أدق من حجارة مباني الحرم النبوي القديم التي أظهرتها حفريات توسعة الحرم النبوي في العهد السعودي ، وليس طراز نحتها من نوع حجارة آطام اليهود. ولقد بحثت مع بعض الإخوان الذين يعنون بالآثار وبتاريخ المدينة لعلنا نعرف شيئًا عن ذلك الجدار ، فلم نعرف من تاريخه شيئًا غير أنه جاهلي قديم ، قد يكون من عهد العمالقة أو من آثار السبئيين أو المعينيين في يثرب.

٤- ولقد تذكرت هذا السور الذي تراكمت عليه ستة أمتار من أتربة المباني التي أنشئت بعده في مئات السنين عندما قرأت ما جاء في كتاب التاريخ العربي القديم : [أما الآثار التي وجدت خارج بلاد العرب الجنوبية فمعظمها في الجهات الصحراوية

القاحلة، والجبلية الحجرية في شمال غرب البلاد العربية، حيث تكشف لنا القناع عن الحالات المختلفة التي مر بها الطريق التجاري العربي المار بمكة والمدينة، والذي كان يمتد حتى يبلغ البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط ودمشق. وأكثر ما توجد هذه الآثار في المدن التي فقدت كثيرًا من أهميتها القديمة أعني "العلا" و"الحجر" مدائن صالح و"بطراء" و"بصرى" ففيها نجد كثيرًا من الخرائب التي ترجع لا إلى ما قبل الإسلام فحسب، بل إلى ما قبل الميلاد، وأيضًا مما يؤكد أنها كانت قديمًا مركزًا مهمًّا من المراكز التجارية وملتقى للقوافل، وليست هذه القواعد التجارية هي الوحيدة الغنية بالآثار القديمة، فقد عثر العلماء على كثير منها في قلب الجزيرة "نجد" والجانب الغربي لبادية الشام][1] .

ولقد جاء في بحث "جواد علي" عن الميناء الحجازي [لويكة كومة - المدينة البيضاء] : أن هذه المدينة [من أهم الموانئ الحجازية على عهد البطالسة. ويرى بعضهم أن هذا الميناء هو الحوراء[2] مرفأ سفن مصر إلى المدينة، ويظهر أن الحوراء كانت من المواضع الجاهلية القديمة. وقد وجدت بها آثار قصور، ويظهر أن تجارة هذا الميناء كانت عامرة جدًا فكانت القوافل التي تنقل البضائع بين "بصرى" وبين "لويكة كومة" فخمة جدًا حتى كأنها قطع كبيرة من الجيوش تقوم بنقل الأموال من الميناء إلى "بصرى" ومنها إلى السوق، أو بنقل التجارة الواصلة إلى بصرى من العراق أو الخليج أو اليمن ومنها إلى ذلك الميناء لتصديره إلى مصر وحوض البحر المتوسط. ويتبين من إهمال الكتب اليونانية أو اللاتينية ذكر هذا الميناء بعد الميلاد : أن شأنه أخذ بالأفول من ذلك الوقت][3] .

---

(١) التاريخ العربي القديم ص٣٧ ، ٣٨ .

(٢) جاء في **دائرة المعارف الإسلامية** : أن (شبرنجر) تعرف على الحوراء وقال : إنها عين الحورا . راجع مادة الحجاز مجلد ٣١٢/٧.

(٣) جواد ٣٧٩/٢ ورأي (ونست) أنها "لويكة كومة" هي : "المويلح" في الوقت الحاضر ويظن آخرون أنها "عينونة" أو "الخريبة" وهي تابعة لإمارة ضباء على ساحل البحر الأحمر .

ويقول جواد علي : [ورَغمة جزء من أجزاء الجزيرة العربية وقد ذكروا مع "سبأ" في أسفار "حزقيال" في معرض الكلام عن التجارة، فذكر أنهم كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب. وأن أرض رعمة يجب أن تكون منطقة تقع في الأقسام الغربية من شه الجزيرة العربية .ومن الظنون التي تبحث عن "أوفير" ظنون تؤكد : أن "أوفير" في اليمامة][1] أو على شواطئ الخليج العربي.

وقال جواد علي : [وأما اليونان والرومان ففي الأخبار المدونة في كتبهم عن ذهب الجزيرة وجودته ووفرته واستخراجه قطعًا قطعًا نقية من مناجمه ووجود الأنهار التي تحمل مياهها أتربة الذهب وأمثال هذا من قصص ما فيه الكفاية عن رأي القوم في ذهب الجزيرة وكثرته - ولقد أشار الإسلاميون إلى مواضع عدة في جزيرة العرب عرفت بذهبها أو بوجود معادن أخرى فيها][2] .

ويؤكد لنا المؤرخون العرب قصة الكنوز التي عثر عليها (عبدالله بن جدعان) في قبور الجرهميين.

وينقل كرد علي - عن جغرافية إسترابون : [أن كل عربي كان قبل المسيح إما تاجرًا وإما سمسارًا][3] .

وأثبتت بحوث "عبدالله فلبي" في نجد وفي اليمامة وفي منطقة الظهران وشواطئ الخليج ، أن للفينيقيين آثارًا في اليمامة وفي شواطئ الخليج العربي تدل على حضارة قديمة بلغت مستوى لا بأس به وأن نجدًا من الأراضي التي سكنها الإنسان منذ عصره الحجري.

---

(١) جواد ٢٧٨/١ .

(٢) جواد ٤١٥/٢ .

(٣) الإسلام والحضارة العربية ص١٢٠ .

فمجموع هذه الأقوال التي يعثر عليها الباحث في مختلف المصادر - وفي غير مكان واحد من موضوعات التاريخ القديم لقلب الجزيرة - ترسم لنا صورة وإن كانت غير متكاملة، فهي على كل حال تعطينا فكرة عن تلك الحياة الرخية، وعن نشاط الذين أثاروا الأرض وعمروها. وتؤكد لنا: أن عرب قلب الجزيرة تجاوزوا الحياة البدائية بمراحل، فالأمة التي تعرف كيف تستخرج الذهب والنحاس، وكيف تتاجر بالعطور والبخور والتوابل والنسيج والذهب والأحجار الكريمة أمة تعرف بدون شك من معاني الحياة أكثر مما يعرفه سكان الغاب المتوحشون أكلة العقارب والخنافس كما يصفهم الشعوبيون.

٥- فنحن إذا ما رجعنا إلى ما يقال عن: (إرم ذات العماد) ولإرم ذات العماد بحث خاص من حق موضوع: "التاريخ العربي في جنوب الجزيرة العربية وشرقها" القادم في هذا الجزء إلحاق التحقيق في قصة إرم ذات العماد به؛ نجد أن الخيال الذي تفنن في تصوير هذه المدينة اعتمد على الاقتناع بحضارة قوم عاد، وقدرتهم على الإنشاء والتعمير والبذخ في الزخرف والمغالاة في الترف، ونجد الخيال منصرفًا مع اقتناع العربي في القرون الإسلامية الأولى إلى أن قوم عاد وقوم سبأ لم تكن لهم دولة في غير اليمن. فلذلك لم يخالط أخيلتهم شيء من الحقائق التي أثبتت أن دولة عاد الأولى كانت في وادي القرى شمال الحجاز، وأن مملكة بلقيس السبئية كانت من ممالك شمال الحجاز قريبة من مملكة سليمان، حيث إن الحقائق أثبتت أن عادًا الثانية هي التي انتقلت إلى اليمن وأسست دولتها فيه، وأن بداية دولة سبأ في اليمن كانت في القرن السابع قبل الميلاد أي بعد عصر سليمان بن داود بثلاثة قرون.

فلذلك نرى الروايات التي كانت رائجة في العصر الأموي وما بعده غارقة في الخيال الذي يصور مدينة إرم ذات العماد متحركة تارة تكون في الشمال، وتارة تكون في الجنوب، وأن بلقيس سيدة سبأ كانت تملك اليمن في مطلع الألف الأخيرة التي سبقت الميلاد.

٦- فلو أن أصحاب هذه الروايات توافرت لهم المصادر التي تعب الباحثون المتأخرون في تحقيقها؛ لأبدوا شيئًا من الاهتمام بما كان يقوله بعض المحققين القدامى عن قوم عاد وأنهم كانوا في وادي القرى على مقربة من حجر ثمود، وأن لسبأ دولة كانت في شمال الحجاز في المنطقة التي تضم المدينة المنورة - العلا.

ونحن اليوم تنقصنا الأدلة الأثرية التي لا شك في العثور عليها لو تفرغت للبحث عنها هيئات رسمية ذات إمكانات حكومية مثل الهيئات التي كفلت نفقاتها حكومات سوريا في سوريا، وحكومة الأردن في شرق الأردن. فالآثار هي التي يمكن أن تحدد تاريخ الحضارة في الحجاز القديم - الحجاز الذي عمره العماليق والإرميون أيام سلطانهم على مصر وعلى سوريا وعلى العراق، ويمكن الاعتماد عليها في تحديد الحضارة التي تشير إليها بعض آثار اليمامة وما تكشف في أوديتها.

فمما لا شك فيه: أن ما في مدائن صالح، وما في خربات منطقة العلا، وما في حجر اليمامة من آثار هي عناوين بارزة لصفحة مليئة بحضارة عريقة قديمة.

فلقد أكد علماء الجيولوجيا: أن انخفاض مستوى الماء في جزيرة العرب أثر أيما تأثير في حضارة سكانها - أضف إلى ذلك الأسباب التي ذكرها "كارلتون كون" الذي يقول: [إن العصر الثالث الذي أفترضه وأسميه عصر الجمل وتضاؤل التجارة لهو نفس العصر الذي يسميه "ديلافيدا" عصر الظلام. وهو عصر استمر من القرن الثالث حتى القرن السابع بعد الميلاد. وقد نسأل لماذا كان هذا العصر عصر الظلام؟ بما أن شبه الجزيرة كانت دائمًا تعتمد على التجارة الخارجية - فلابد أن أحداثًا خارجية كانت مسئولة عما حدث. ففي هذا العصر تدهورت قوة "روما" وانتقلت سوق التجارة إلى "بيزنطة" وكان للبيزنطيين طرقهم الخاصة إلى الشرق المارة بواحات تركستان إلى شواطئ بحر قزوين ومنخفض القفقاس والشواطئ الجنوبية للبحر الأسود][1].

---

(١) قصة الشرق الأوسط ص١٠٠.

٧- وإنني إخال : أن فيما مر بنا عندما بحثنا في اللغة العربية والخطوط التي دونت بها أدلة كثيرة توضح لنا مختلف الحالات التي مرت على هذا الجزء من البلاد العربية ، والتي انتهت بيقظة قريش واهتمامها بالوضع السياسي عندما أخذت تضيف إلى اهتمامها بالتجارة وأرباحها ، الاهتمام بعلاقتها مع دول ما قبل الإسلام ، وتدعيم الكيان العربي وحمايته مما أصابه في قوميته وفي لغته. وما تلك اليقظة إلا إرهاص لبعثة محمد وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم. ولكنهم كانوا كاليهود في المدينة الذين كفروا لما جاءهم ما كانوا به يوعدون ، فلم يكن موقف عقلاء قريش ومفكريها وغير قريش من الذين أنكروا الوثنية التي أذلت العرب أمثال : أمية بن أبي الصلت ، وعبدالله ابن جحش من الدعوة الإسلامية ، بأفضل من موقف العماليق مع موسى .

ثم التاريخ السياسي القديم لجزيرة العرب - إنه ينبئنا عن وجود دول في الحجاز كان لها شأن في مكة أشار إليه ابن جرير الطبري في تاريخه عندما تكلم عن النسب النبوي ، وكان لها شأن في شمال الحجاز تشير إليه الآثار والخطوط التي أقنعت المستشرقين بوجود دول في شمال الحجاز عرفوا في بحوثهم بأسماء متعددة منها اللحيانيون والمعينيون والسبئيون والددنيون .

وينبئنا : أن العرب الذين انتزعوا بقيادة سرجون "الهلال الخصيب" من الدول القفقاسية والآرية التي عزلته عن البلاد العربية لم تفتهم الفرصة عندما وثب الساسانيون يجددون سلطان فارس القديم. فقد تجمعت قبائل إياد وقضاعة وغيرها من القبائل العربية على حدود "السواد" للذود عن الكيان العربي المحطم وإعادة القومية والأمجاد العربية للعراق ، وينبئنا بغير ذلك من المواقف العربية في تاريخ النضال العربي الطويل.

والحديث عما ينبئنا به التاريخ السياسي القديم لجزيرة العرب ، له بحث في الجزء الخاص به من هذا الكتاب؛ أما هنا فتكفينا الأدلة التي قدمناها. فلو لم يكن

أمامنا غير التجارة دليل لكفى؛ فكيف بنا ونحن نجد الجيولوجيين يؤكدون : أن قلب الجزيرة وجنوبها كانا أسبق من سكان وادي الفرات ووادي النيل إلى استنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة. ونجد من يؤكد : أن العرب في ماضيهم القديم عرفوا طريقة التعدين فاستخرجوا النحاس والذهب من بطن أرض الجزيرة العربية ، ونجد آثار الماضي البعيد تؤكد لنا : أن العرب في جاهليتهم الغابرة كانوا أكثر من تجار ، كانوا مزارعين يستنبتون الأرض حبوبًا وثمارًا ، وكانوا معماريين أشادوا القصور ونحتوا من الجبال بيوتًا ، وكانوا محاربين فتحوا الممالك وأنشأوا الدول.

فالحقائق التاريخية التي انتهت إليها بحوث المتأخرين لم تجعل مجالاً لذلك الشك الذي كان يهيمن على بحوث المستشرقين. ولكن الشك الذي ما زال باقيًا هو : الشك في العصر الذي بدأ المجتمع العربي يقيد الحياة العربية في قلب الجزيرة بالنظم والتقاليد ويفرض عليها الخلق الاجتماعي .

٨- فليس من السهل معرفة التاريخ الذي بدأ فيه سكان قلب البلاد العربية حياتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية على أساس نظام يحمي حقوق الأفراد ويوجه الجماعات إلى ما يسعد حياتها ويرعى مصالحها العامة.

إن التاريخ الاجتماعي والسياسي في الحجاز بدأ على ما أرجح عندما دوى صوت إبراهيم عليه السلام يؤذن بالحج إلى البيت الذي أقيم مثابة للناس وأمنًا. فلقد قام إبراهيم وإسماعيل بأمر من الله يطهران البيت للطائفين والركع السجود ، فتطهير البيت الذي أشار إليه القرآن الكريم اتخذه بعض المفسرين دليلاً على أن العرب في مكة كانوا في وحل من الفوضى الدينية والاجتماعية أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا البيت الحرام في مكة منها.

فبين "حراء وثور" في مكة أذّن إبراهيم بين العرب بالدعوة التي أمر بها : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ

لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1]، ففي مكة وضع أول بيت للناس مباركًا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات ، وفي مكة دعا إبراهيم ربه : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2]، وفي مكة استجاب العرب للنظام السياسي ورضخوا لواجبات الحياة الاجتماعية ورضيت جموعهم بزعامة إسماعيل وخلفائه.

على أنه يوجد من المؤرخين من يقول : إن تاريخ إبراهيم لم يكن البداية للحياة العربية المتحضرة. ويوجد من الأدلة الكثير مما يؤكد قول هؤلاء، فالتجارة العربية وطرقها، وزراعة الأرض وأساليبها، واللغة العربية وخطوطها، كلها أدلة تؤكد قدم الحياة الاجتماعية والحضارة العربية.

وعصر إبراهيم في فلسطين متأخر بالنسبة للدول العربية في فلسطين والحضارة العربية وآثار العاديين في شمال الحجاز. على أن هناك من يقول : إن هودًا نبي قوم عاد وصالحًا نبي قوم ثمود بعثا قبل إبراهيم وقد سبق ترجيح قدم عهد إبراهيم .

والأدلة تثبت أن العماليق والإرميين عندما استولوا على الهلال الخصيب وعلى مصر، كانوا أصحاب عقيدة ولغة ومجتمع متحضر، وكانوا على مستوى أثّر على عقائد السوموريين في العراق، والفراعنة في مصر، وعلى لغتهم ومجتمعاتهم المتحضرة، مثلما تأثروا هم كذلك بتلك العقائد واللغات والمجتمعات.

وإن النصوص الأثرية تنفي كل ما قيل عن بداوة الساميين الذين أسسوا الدول العربية في الهلال الخصيب، وفي الصحراء العربية بوادي النيل، وأنهم كانوا قبائل من

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٧ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٢٩ .

الوحشية في صميمها جهلاً وضيق أفق، لا يعرفون من الحياة غير النهب والسلب ثم العودة إلى رءوس الجبال وبطون الأودية.

وهذه الأقوال التي توجد في مصادر التاريخ العربي صحيحة تؤيدها أدلة قوية، ولكن حلقات التاريخ لابد لها من روابط ولا شيء يربط بين حلقات التاريخ مثل الدين واللغة، وأديان أمم الطور الأول - العرب العاربة - كما رأيناها في بحث الأديان لم تكن لها مثل تلك الرابطة التي أوثقتها صلة إبراهيم واعتمدت على قواعد البيت الحرام. واللغة العربية تفرقت بها اللهجات في الشمال وفي الجنوب حتى خيل للكثير: أن لغة العرب العاربة بادت معهم ولم تبق منها باقية، فمنذ ارتفعت قواعد البيت ارتفعت راية القومية العربية وأصبح لها نقطة ارتكاز وانطلاق، وتأسس المجتمع العربي على أساس التعاون للمصلحة المشتركة والخلق الفاضل الذي دعت إليه ملة إبراهيم، وتأسست الدولة العربية للحفاظ على الحرية والأمن وحماية المقدرات العربية وصيانة المنافع العامة.

فلقد ذكر الطبري في كلامه عن نسب عدنان أسماء ملوك جمعوا شتات العرب في قلب الجزيرة وأمنوا خائفهم، وردوا كل طريد وأصلحوا بين الناس وأقاموا في كل بلد عربي دار ضيافة وبلغوا من الشأو ما جعل "أمية بن أبي الصلت" يفاخر بهم ملوك بني الأصفر القياصرة:

إن الصفي بن النبيت ممالكًا   أعلى وأجود من هرقل وقيصر

والطبري الذي نوه بتلك الأسماء، حرص على أن يسلسلها إلى (قيدار) حفيد إبراهيم.

٩- ومن قصة إبراهيم تتبين لنا جوانب الحياة العربية والمجتمع الذي تأسس في عصر إبراهيم، وحظ المرأة فيه؛ ففي قصة إبراهيم وزيارته لابنه إسماعيل واستقبال زوجه الأولى وتذمرها من الأزمة المالية التي كانت تعانيها أسرة إسماعيل، ثم زيارته

الثانية والحفاوة التي لقيها من زوج إسماعيل الثانية واستقبالها له بالمظهر الذي يليق بربة البيت ولا يخدش سمعة الأسرة أو يكشف واقعها، ووصية إبراهيم لإسماعيل في زيارته الأولى بأن ينفصل عن زوجه المتبرمة الثرثارة التي لا تمثل كرامة الأسرة، ووصيته في زيارته الثانية بأن يحفظ عليه زوجه القنوع الكتوم، دلل على أن المرأة كانت ذات أهمية وشأن في المجتمع العربي.

وكذلك نحن إذا رجعنا إلى قصة وفد عاد التي يتحدث عنها المؤرخون العرب بمنطقهم وبما في أخيلتهم من صور ذلك الماضي البعيد، نجد أن للأم ومكانة بيتوتتها شأنها في الزعامة والرياسة. فلقد أنكر بعض أعضاء وفد قوم عاد الذي جاء إلى مكة يستغفر ويطلب الغيث في ظلال البيت الحرام على رئيس الوفد أن يتنبه ضميره لما في الوثنية من ضلال وجحود فيدعو إلى تركها، فقال له شاعرهم إنك من سراة عاد وأمك من ثمود.

فنحن إذا ما قرأنا هذه القصة لا يمكننا أن نحجز الخيال ونشيح بالبحث عما تنم عنه هذه القصة وما فيها من شبه بالقصص التاريخية في عصور الملكية في أوربا وما كان للمصاهرة بين الملوك من أثر في ربط الأواصر السياسية بين دول ما قبل الحرب العالمية الأولى.

فكل من القصتين يشعرنا بأن العرب في عصورهم الغابرة كانوا يقدرون أثر المرأة في الحياة الاجتماعية العامة وفي تربية النشء، ومكانها في المسرح السياسي، وتقدير المرأة في حياة الأسرة يفرض العناية بإنشائها وإعدادها لتقوم بواجبها، وهذا لا يكون إلا بعد مراحل قطعها الإنسان في طريق تطوره.

ولقد ظل العربي يقدر المرأة في حياة الأسرة، ولقد ظل هذا الاحترام ينبض به قلب العربي الذي يعيش في بطون الصحارى ومنعرج الأودية بعيدًا عن المدن الإسلامية وحضارتها. وإننا لنلمس ذلك الاحترام في ندائه لها وهو يشاورها في أمره وشئونه :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمـي إليك رحـال القـوم والقربـا

مـاذا تـرين ؟ أنـدنيهم لأرحلنـا في جانب البيت أم نبني لهم قببا ؟

وفي الحديث النبوي : "خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء" ، ما يعطينا فكرة صحيحة عن مقام المرأة العربية في صدر الإسلام.

١٠- والذي لا ينكر في جاهلية ما قبل الإسلام : وأد البنت. والوأد في الجاهلية تحدث عنه القرآن الكريم أكثر من مرة ، فلقد قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(١) ، و﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(٢).

وجاء في تفسير الطبري في موضوع هذه الآيات [وقد هلك الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم وتحريم ما حرمت عليهم من أموالهم فقتلوا طاعة لها أولادهم، ونزلت هذه الآية في الذين ذكر الله خبرهم في هذه الآيات من قوله : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾(٣) الذين كانوا يبحرون البحائر ويسيبون السوائب ويئدون البنات. ويقول "قتادة" : هذا صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبي والفاقة. ويقول "عكرمة" : نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر](٤) .

وقال تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٣٧ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٤٠ .

(٣) سورة الأنعام، الآية : ١٣٦ .

(٤) تفسير الطبري ٣٥/٨ وما بعدها .

عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] وجاء في تفسير الطبري : (جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم ألا ساء ما يحكمون)[2] .

وقال تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾[3].

فمن هذه الآيات ومما جاء في تفسيرها ، يظهر لنا أن من وثنيي العرب قبائل خضعت لعقائد انتقلت إليها مع الأصنام التي استوردها العرب من الشمال. فمن تلك العقائد : الأنعام التي حرمت ظهورها . والأنعام التي لا يذكر اسم الله عليها ، ومنها جعل البنات لله والبنين لهم. والوثنية في كل مكان كانت تفرض عقائد تتنافى مع الرحمة والضمير. فلقد كان الفينيقيون في سوريا يقدمون أعز أبنائهم أضحية للآلهة تلتهمه النار حيًّا. وكان البابليون في العراق والفراعنة في مصر يضحون بعفاف بناتهم باسم الآلهة - فوأد البنت أقدم عليه العربي طاعة للشركاء الذين جعلتهم الوثنية أندادًا لله ، ثم استغل هذه العقيدة الضعاف الجهلة ، إما تخلصًا من عبء البنت ، وإما خوفًا من أن تقع غنيمة عدو يمرغ عفافها في وحل الرذيلة.

فالوأد طاعة للوثنية أو خشية إملاق أو سبي لم يكن عامًّا عند العرب جميعهم، وإنما كان في قبائل من ربيعة ومضر. وكانت المرأة في ربيعة ومضر تحتل مكانتها إذا سلمت من القتل : وأدًا ، أو قذفًا من قمة جبل، أو ذبحًا بالسكين مثل المرأة في سائر القبائل العربية. وفي أخبار العرب وقصص حروبها الشيء الكثير عن المرأة العربية في المجتمع العربي.

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٥٧ وما بعدها .

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٨٤ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٣١ .

١١- ونحن إذا ما قلبنا صفحات التاريخ العربي نبحث عن الوضع العربي في جاهلية ما بعد الميلاد ، نجد أولئك الذين حدثونا عن مفاخر المكيين بعد إسماعيل وقالوا : إن للعرب البائدة دولاً ذات عظمة وسلطان كبير، يقولون عن جاهلية ما قبل الإسلام : إن العرب يرجعون في حوادثهم الاجتماعية إلى رؤساء قبائلهم وكلهم يحكمون في مشاكلهم أهل الشرف والأمانة والرياسة والسن والمجد والتجربة فما معنى هذا؟ إنها العودة إلى الحياة القبلية. والعودة إلى الحياة القبلية أمر لا مفر منه في تلك العصور لكل أمة أخنى على كيانها السياسي والاقتصادي الزمن المتقلب.

لذلك نحن لا نجد من المؤرخين من يقول : إن العرب في عصرهم الجاهلي الأخير أنشأوا دولاً كالتي أنشأها الإرميون والعماليق والإسماعيليون في البلاد العربية ، ونجد أكثرية المؤرخين لا تتحدث بغير الجاهلية المظلمة بكل ما ينجم عنها ويترتب عليها ، وبغير الفوضى التي أوشكت أن تعيد العرب جميعهم إلى حياة الغاب التي فارقها الإنسان من أقدم عصوره.

فلقد حجب ظلام هذه الجاهلية ماضي العرب القديم في قلب الجزيرة فظن الكثيرون : أن هذا الظلام مخيم على هذه الأرض منذ الأزل، وأن العرب في هذا الصقع لم تكتحل أعينهم بنور الحضارة.

١٢- ولقد تحمس أعداء العروبة قبل الإسلام وبعده في نشر مثل هذا الظن، كما سنرى في الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربي من هذا الكتاب. وكان من تأثير دعاية خصوم العرب أن انصرفت بحوث المفسرين والمؤرخين إلى الناحية القاتمة من تاريخ عاد ، وثمود ، وجرهم، والعماليق وغيرهم من شعوب الماضي البعيد ، فلم يعن المشتغلون بالتاريخ العربي بغير الإشارة العابرة إلى ما حفل به الماضي العربي القديم، فجل ما قالوه عن ماضي قلب البلاد العربية لا يزيد على كلمات مستعجلة نوهت بما

لعاد وثمود من دول في شمال الحجاز، وبما لطسم وجديس من دول في اليمامة. ولا يزيد عن سرد الروايات التي تحمل الأنباء الغامضة المحجبة بالخيال القصصي عن العماليق والجرهميين وتنازعهما على السلطان في مكة إلى أن أتت خزاعة ومن بعدها قريش، فلم يبق أي أثر للنفوذ الجرهمي في أم القرى وما حولها، فما أكثر ما اجتمع الشمل في مكة وما أكثر ما تفرق كأن لم يكن :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكذلك كان ما يقال عن العماليق الذين انتزعوا السيادة على المدينة من أبناء عمومتهم (عبيل) الذين نزحوا إلى الجحفة فأخذهم سيلها، وما يقال عن تكتل اليهود في المدينة وتسلطهم على اقتصادياتها، وكيف قضوا على شأن العماليق؛ ولولا الأوس والخزرج الذين استوطنوا المدينة وهيمنوا على مقدراتها السياسية لكان لليهود ما أرادوه. وكذلك كان ما قالوه عن طسم وجديس في اليمامة، وما قالوه عن سكان جبلي طيئ - أخبار قصيرة وكلمات متناثرة في بطون التفاسير والمؤلفات التاريخية والأدبية.

ولكن هذه الكلمات الموجزة المستعجلة على إيجازها وغموضها، وهذه الروايات التي تحوم حولها الآراء منتظرة التحقيق العلمي لتحكم لها أو عليها - تؤكد لنا على إيجازها وغموضها والشكوك التي تحيط بها : أن للعرب في ماضيهم القديم شأنًا أكثر بكثير مما كان للعرب في جاهلية ما قبل الإسلام؛ فالمؤرخون أمثال : الطبري، وصاعد، وابن خلدون وإن لم يجدوا من الأدلة ما يدعم إشارتهم إلى دول الحجاز في مكة وفي وادي القرى وسواحل الحجاز، أو يوضح شيئًا من النظم التي قام عليها المجتمع في أم القرى، وفي المدينة، وفي الطائف، وفي الحجر، وفي مدين، وفي اليمامة وقريتها[1]، فإنهم كانوا على ثقة من وجود نظم إدارية وسياسية واقتصادية قامت عليها الدول

(١) القرية : حاضرة اليمامة في العصور القديمة.

العربية التي وصفها صاعد بأنها دول ضخمة ذات سلطان كبير، فالسلطان الكبير لا يقوم على غير نظام يصحح الأوضاع ويجعل للدولة نفوذها في التخطيط الإداري، والسياسي والاقتصادي.

١٣- فمثل العرب قبل الإسلام مثل العرب بعد الإسلام، فأين الدولة العربية التي تضارع الإمبراطورية التي ترأسها الأمويون؟ وهل وجد في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ملك أو رئيس دولة عربية يقول مثل ما قال هارون الرشيد (الخليفة العباسي): أينما تمطري فخراجك لنا؟ لقد رجع العرب بعد أن رفع رايتهم الإسلام ووحدت كلمتهم شريعته ونور عقولهم هديه، إلى وضع لا يفضل الوضع الجاهلي بأكثر من الإيمان بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسوله. أما الفوضى الإدارية، وأما النعرة القبلية، أما الجهل والفقر فما أشبه اليوم بالأمس.

ولماذا نرجع إلى الأمس وهذه الأمم العربية اليوم وقد ساعدها انشقاق الدول الكبرى إلى معسكرين شرقي وغربي، وقد أفاء الله عليها من الموارد ما جعلها في طليعة القادرين على تمويل كل ما يكفل لها المجد والسؤدد والنفوذ الذي لا حد له في المجال الدولي، لا تزال في مفترق الطرق؟!

فلا غرو إذن: إن رأينا العرب بعد دولهم الأولى التي سادت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، ودوخت السوموريين في العراق واقتحمت على القوطيين وادي النيل، يرجعون القهقرى إلى الحياة القبلية وتقاليدها التي يشير إليها الطبري، ولا غرو أن وصف المؤرخون عصر الجاهلية الأخير بعصر الظلام.

١٤- ثم التاريخ العربي الإسلامي هو كذلك أوشك أن يضيع، وأوشكت حقائقه أن تغطيها أخيلة القصصيين الذين اتخذوا من خلفاء بني أمية وبني العباس أبطالاً لروايات خيالية كادت تفني شخصيتهم الحقيقية. وأكثر من هذا فقد صوروا سياسة

علي بن أبي طالب بما شاءته الدعاية الأموية، ثم أ معنوا في اتهام الأمين العباسي بالغباء والسذاجة تحقيقًا لرغبة المأمون وسياسته، إلى غير ذلك مما شوه الكثير من حقائق التاريخ الإسلامي العربي، لولا أن تداركت التاريخ العربي دراسات الأكفياء من المحققين.

وهكذا أوشك أن يضيع علينا إلى الأبد التاريخ العربي القديم لولا أن تداركته الدراسات الأثرية، فطورت البحث في أحداث الماضي الغابر. فبعد أن كانت أخباره قصصًا خيالية ليست بذات شأن يذكره المؤرخ الذي لا يحفل بغير ما هو منطقي معقول، أصبحت موضوعات تاريخية ذات أهمية في بحوث المؤرخين، فأخذوا يسألون وهم يبحثون في نظم الدول العربية التي قامت في الهلال الخصيب وفي مصر وشمال الحجاز وفي الجنوب : في اليمن وحضرموت وعمان : هل كان لدول قلب الجزيرة نظم على غرار نظم هاتيك الدول الشمالية والجنوبية؟ .. وهل خضع العرب داخل جزيرتهم للكية كملكية الآشوريين في الشمال، والتبابعة في الجنوب؟ أو كان النظام السياسي في قلب الجزيرة يتفق وما عرف عن صرامة العرب، وشجاعتهم. وإبائهم، وتعشقهم الحرية التي لا حدود لها؟

١٥- إن المستشرقين المتأخرين عندما يبحثون في هذه الناحية لا يزيدون شيئًا على ما يقوله (ديورانت) : [وأما من بقي من الساميين في بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو وأنشأوا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من : طاعة وصرامة خلقية، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنينة، والشجاعة العمياء التي تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قربانًا للآلهة. على أن الدين لم يكن جدّيًا بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد بالإسلام. ولم يعنوا بالفنون، وملاذ الحياة؛ لأنهم كانوا يرونها خليقة بالنساء ومن أسباب الضعف والانحلال وظلوا وقتًا ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى. تتكدس في ثغورهم غلات جزائر الهند، وتحمل قوافلهم تلك الغلات

وتنقلها في الطريق البرية غير الآمنة إلى فينيقية وبابل، وشادوا في قلب الجزيرة العريضة : المدن والقصور والهياكل ، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجيء إليها ورؤيتها ، ولقد بقي هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم محافظين على عاداتهم وأخلاقهم](١) .

وديورانت على ما يظهر : فرض الوضع العربي عشية ظهور الإسلام على جميع أطوار العرب في تاريخهم الطويل، عندما قال : [على أن الدين لم يكن جديًّا بين هؤلاء الأقوام، ولم يعنوا بالفنون وملاذ الحياة] ؛ فالحياة الدينية قد تقدم الكلام عنها ، وكذلك تقدم الكلام عن آثار العلا والحجر واليمامة ثم إن ما جاء في كلام ديورانت نفسه : وشادوا في قلب الجزيرة العريضة : المدن والقصور والهياكل، يثبت أن العرب في قلب الجزيرة كانوا يعنون بالحياة وملاذها وبالعقائد وطقوسها ، وإنما الذين كانوا لا يعنون بملاذ الحياة هم القبائل الرحل. وفي كل أمة : حاضرة وبادية ، ومما لا جدل فيه أن ملاذ الحياة تختلف باختلاف البيئة ؛ ثم السعادة وملاذ الحياة ما هي؟ وأين تكون؟ لقد اختلف الناس في مكانها. هل هي مضمخة بالعطور تتثاءب في القصور الفخمة؟ أو هي منطلقة بين خيام الصحراء المتواضعة وبين الحقول النضرة.

وكذلك فعل "كارل بروكلمان" عندما بحث في أوليات الأدب العربي فقال : [إن سكان شبه جزيرة العرب منذ القدم ينقسمون إلى مجموعتين شعبيتين تفصل فروق بعيدة العمق إحداهما عن الأخرى، ففي السهل الساحلي الخصيب في الجنوب، وفي السفوح الزراعية الكثيرة والمتدرجة وراء ذلك السهل في تصاعد يبلغ مرتفعات شاهقة ، اختلط (من قديم) الجنس الشرقي الذي يكون نواة الأصل السامي بعناصر من أجناس البحر الأبيض المتوسط، وعناصر زنجية في بعض الجنوب، لما يبدو من امتداد

---

(١) قصة الحضارة ٢/٣٠٩ .

العلاقات بالساحل الإفريقي المقابل إلى زمن ما قبل التاريخ، وهكذا أوطن السكان هنا في زمن مبكر، وأنشأوا بفضل موقعهم الجغرافي على طريق التجارة الهندي المصري عمرانًا ماديًا رفيعًا، على أنه وإن كانت دولهم سبأ، ومعين، وحمير، قد أرسلت قوافل تجارية إلى الشمال في بلاد الشام كما أنزلت جاليات من معين في بلاد (العلا) القريبة من مدائن صالح، فقد حال تكوين هذه الدول الإقطاعي دون نمو نظام سياسي دقيق، أو قيام سلطان قوي، لتغلب سادتهم على الملوك، وتناهت حضارتهم العقلية إلى قيام تشريع ينظم جميع العلاقات الملكية بعناية ودقة. ولكن نقوشهم الكثيرة العدد حيث كانت ليست ذات غناء للنظرة التاريخية. أما أهل شمال تهامة وهضبة نجد فإنهم وإن تقدموا منذ زمن طويل قبل الميلاد نحو سوريا وبلاد ما بين النهرين، قد احتفظوا بطابع سلالتهم الأصلي على مستوى أنقى، وكانت بذرتهم الأولى تتألف من العرب الرحل الذين حفظت لهم حياة البداوة عقولهم وأجسامهم غضة ناضرة، ولم تقم لهم مستعمرات حضرية إلا على طريق التجارة في أراضي الحجاز الساحلية، ولكن العرب أقاموا في هذه المدن متميزين في أحياء وقبائل مثل أبناء عمومتهم من البدو الرحل. ولم تنشأ إمارات عربية إلا في أطراف الصحراء وتحت تأثير الدولتين العظميين : بيزنطة الرومية وفارس، فقد قامت إمارتا دمشق والحيرة اللتان جمعتا أيضًا في بعض الأحيان مجموعات كبيرة من البدو، تحت سيادتهما][1] .

فبروكلمان وأمثاله من المستشرقين المتأخرين لا يذهبون ببحوثهم إلى عصور ما قبل الميلاد. فلذلك تراهم عندما يبحثون عن صلات المعينيين والسبئيين بالشمال الحجازي لا يذكرون غير الصلات التي كانت تربط بين العلا في شمال الحجاز وبين معين وسبأ في الجنوب. أما عن تاريخ المعينيين والسبئيين القديم في شمال الحجاز فهم

---

(١) تاريخ الأدب العربي ص٤١ ، ٤٢ .

لا يتحدثون عنه، ولذلك رأيناهم ينكرون ما اقتنع به من سبقهم من المستشرقين في موضوع اللغات السامية، ولا يهتمون بما يقولونه عن اللغة العربية وإنها هي أم اللغات السامية.

فهم كما تراهم لا يلقون بالا، لا إلى ما جاء في بحوث من سبقهم من المستشرقين، ولا إلى ما جاء في المؤلفات العربية عن نشوء المجتمع المكي بعد بناء البيت وعن دول: عاد، وثمود، وعبد ضخم، وطسم، وجديس في مكة، والمدينة، والحجرين: حجر ثمود وحجر اليمامة، والطائف؛ لأن النقوش التي وصلت إلى أيديهم ليست ذات غناء للنظرة التاريخية على تعبير بروكلمان، ولأن أهل التوراة لا يعرفون شيئًا عن أخبار عاد ولا ثمود ولا هود ولا صالح ولا أحد من العرب العاربة؛ لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم إنما هو لمن كان في عمود النسب ما بين موسى وآدم، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود ذلك النسب، كما يقول ابن خلدون[1].

١٦- ولعل (سيديو) أحد القلائل الذين أشاروا إلى الوضع السياسي في قلب البلاد العربية في كلامه عن التنافس بين الكنعانيين والإسماعيليين: [ولكن مع بدء تنافس الأرومتين الكبيرتين: العرب المتعربة، والعرب المستعربة، فكان يبحث عمن يكون رئيسًا ليتبعه الجميع عند الإغارة، وعن المكان الذي يكون مركزًا للشعب العربي، وكانت لكلا الحزبين قاعدته وودّ بنو إسماعيل أن تكون الصدارة لمكة فاستندوا في دعواهم إلى قدسية ما تحتويه من الآثار. وود بنو قحطان أن تكون صنعاء عاصمة لبلاد العرب، ولم ينته الصراع بين الفريقين إلا في القرن السادس حين كسبت مكة دعواها، أي حين رأى محمد إمتاع بلاده بالوحدة الدينية، وظلت نجد والحجاز سالمتين من أي تسلط أجنبي فإليهما وجب أن تلجأ كل قومية عربية لتنير الخارج فيما بعد. ولم تقع

(١) تاريخ ابن خلدون ١/٣٧ و ٣٨ طبعة النهضة.

فيهما دولة متسلسلة المراتب كدولة التبابعة، فكانت تملكها قبائل مستقلة راضية بأن تدير أمور نفسها بنفسها مضحية بكل غال لوقاية حريتها، ولم يتغير منظر هذه القبائل ولا تاريخها منذ قرون، فكانت كالمجتمعات الصغيرة المتماثلة في الطباع والعادات والأخلاق، المنفصل بعضها عن بعض في النظام السايسي][1] .

فهؤلاء القلائل، وإن كانوا يستبعدون في بحوثهم أن يكون للعرب دول في جزيرتهم، وإن كانت بحوثهم مقتصرة على عرب ما قبل الإسلام، فهم مع كل ذلك لم يسقطوا من بحوثهم ما فطر عليه العرب من صرامة وأنفة وانطلاقية، ولم يحرموا العرب الذين ظلوا داخل جزيرتهم من التطلع إلى الاستقرار السياسي. وهم في بحوثهم المتأخرة متأثرون بما جاء في الآثار الآشورية وفي النصوص الرومانية والفارسية عن العرب الذين كانوا يناوئون كل نفوذ أجنبي، والذين كانوا يطمحون لإعادة السلطان العربي إلى الهلال الخصيب، فما أشبه الدولة الآشورية بالدولة العباسية، فكلتا الدولتين العربيتين وطدت دعائمها بسيوف غير عربية أدت دورها في الكيد للعرب والحط من شأنهم؛ ولم تكن دولة فارس أو إمبراطورية الرومانيين بأقل حقدًا على العرب وطمعًا في أرضهم من الاستعمار الحديث. وهكذا مني العرب بالشعوبية والاستعمار قبل الإسلام وبعده.

١٧- وهؤلاء القلائل عندما يقولون : إن العرب متأهبون للإغارة على مجاوريهم ينسون الأسباب التي دعت الأمم العربية إلى خوض الحروب مع جاراتها منذ القدم، فلقد اقتطع السوموريون العراق من الجسم العربي، ثم لم يكفهم هذا حتى طمعوا في شمال الجزيرة ومواردها، فكانت حملات العرب القديمة على العراق دفاعًا عن الوطن العربي وفي سبيل الذود عن خيراته. وكذلك عندما تجمعت قبائل إياد وقضاعة لإعادة

---

(١) التاريخ العربي العام ص٣٤ ، ٤٩ .

الجزء الذي سلبته الدولة الفارسية ، اعتبر المستشرقون هذا النضال العربي غارات قبلية هدفها السلب والنهب.

وأغرب ما في الأمر : أن المستشرقين عندما يذكرون النضال العربي يصفونه بغارات بربرية ، وعندما يذكرون الغزو الآري من عهد الإسكندر الأول ومن بعده الروماني الذي استمر إلى الحروب الصليبية إلى حملات نابليون إلى الحروب الاستعمارية التي شنها الغرب على هذا الشرق العربي، لا يذكرون البربرية السفاحة والوحشية المفترسة التي يمثلها الغزو الاستعماري بأبشع صورها المروعة.

أليس هذا مما يبعث الشك فيما يقوله المستشرقون عن العرب في هذه الناحية ، ولا سيما الذين عاصروا الاستعمار الغربي ووقفوا بجانب دعايته التي بذلت كل ما في وسعها لتغطية الحقيقة العربية؟

والمهم الذي يعني البحث هنا : أن المستشرقين في مختلف العصور لم يستطيعوا أن ينكروا وجود الأسر الاجتماعية في مدن قلب الجزيرة العربية ، ولم يستطيعوا أن ينكروا انقياد العربي للزعامة التي لا يرى فيها غضاضة عليه ، ولا يجد فيها ما يحرمه حريته وحقوقه إن هو سار خلفها .

وإذا كان المستشرقون الذين سبقوا الاستعمار الغربي أو الذين عاصروا اشتغال الغرب عن الشرق العربي بالدولة العثمانية وتحطيمها ، قالوا بقدم الحضارة العربية وبقدم الأسر الاجتماعية وبقدم الدولة العربية ، فإن هؤلاء قلة ، والقليل منهم : هم الذين يمثلون الرأي المعتدل الذي تجنب حملات المستشرقين الذين تأثروا بالحروب الصليبية ، وتجنب اتهامات الذين وقفوا في صف الاستعمار الغربي. فلذلك نرى الحقائق التي جاءت في أقوالهم يغشاها بعض ما أثاره التعصب المسيحي ضد الإسلام وأنصاره العرب ، وبعض ما أثارته الدعاية الاستعمارية.

وإذا كنت أنا هنا قد سبقت الخطة المرسومة لهذا الكتاب التي منها وضع بحث خاص بالمستشرقين وبما أفادوا به التاريخ العربي، وبما جنوه عليه يأتي في الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربي، فإن عذري هو ضرورة البحث في موضوع المجتمع العربي. وإذا كنت أنا هنا قد قسوت كما قد يظن، فإنني قد قلت من قبل وقلت هنا وأقول فيما يأتي من أجزاء الكتاب : إن البحوث المستشرقة أفادت التاريخ العربي كثيرًا وجنت عليه كثيرًا، وإن في بعض البحوث المستشرقة تحقيقات معتدلة رصينة أنارت جوانب من التاريخ العربي لم تكن واضحة، ومن تلك الجوانب : التاريخ العربي القديم.

١٨- فالتحقيق المعتدل وإن لم يؤكد لنا : أن دول "عاد" و"ثمود" و"جرهم" و"العماليق" كانت على مستوى دولي كالذي كانت عليه دول اليمن والعراق ، لم يستكثر على قلب الجزيرة إنشاء دولة مدبرة لأمرها متأهبة للإغارة على مجاوريها إذا ما أراد مجاوروها الاعتداء عليها.

والذي يستحوذ على اهتمام المؤرخين في العصر الحاضر هو تحقيق أسماء الدول والشعوب والأمكنة التي وردت في التوراة وفي المصادر البابلية والآشورية، وتطبيقها على أسماء الدول والشعوب والأمكنة التي وردت في القرآن الكريم وفي الأدب العربي الجاهلي، ثم تحديد أزمنتها وناحيتها ولو على وجه التقريب؛ وإنك لترى مدى الجهود التي بذلت في هذا السبيل، والنتائج التي وصلت إليها، في الأجزاء الخاصة بجغرافية البلاد العربية القديمة وشعوب الجزيرة ودولها.

فالتحقيق المعتدل لم يحكم ولن يحكم على العرب الذين توصلوا بمعارفهم إلى ما في بطن أرضهم من نحاس وذهب، وتاجروا بإنتاجها المعدني والزراعي، وبنوا القصور والمصانع، وجهزوا الجيوش ونظموها بأنهم قبائل رحل لا يستقر بها المقام في أرض حتى تنزح إلى أخرى.

فمما لا مراء فيه : أن الجيوش العربية التي فتحت الهلال الخصيب إلى أعالي الفرات ووادي النيل إلى أقصى الضفة الشرقية، وركزت القومية العربية في كل جزء من أجزاء الجزيرة العربية بتشريعات دينية وإدارية واقتصادية ، لم تكن قبائل متوحشة جل همها الإغارة والنهب والسلب.

١٩- ولكن هذا كله لا ينفي الرأي القائل بأن للعرب في قلب الجزيرة نظامهم الخاص، وتقاليدهم العريقة القريبة من النظام القبلي، فنحن نرى في كل عصر من عصور الشعوب وفي كل قطر من أقطار الأرض فرقًا واضحًا بين حياة سكان العواصم المزدحمة بمختلف العناصر والأخلاق والأفكار واللغات، وبين سكان المدن البعيدة عن مثل ذلك الازدحام.

وتبرز هذه الفوارق في الدولة الإسلامية بصورة واضحة، فالخلفاء الراشدون في المدينة لم يقيموا وزنًا للمظاهر التي كان يهتم بها معاوية وخلفاؤه الأمويون في دمشق، والمنصور وخلفاؤه العباسيون في بغداد .. وعندما انتقد الخليفة الراشد "عمر بن الخطاب" وأنكر على قادة الجيش الإسلامي في فلسطين مظاهر الأبهة التي أضفوها على أنفسهم؛ أقنعه معاوية بأنهم في بلد المظاهر فلا يكون للقيادة نفوذها ما لم تكن لها أبهتها.

على أن المدينة المنورة التي لم تقم وزنًا لمظاهر الدولة وتقاليدها ، هي التي وضعت الأسس الإدارية للدولة الإسلامية العربية.

لا شك في أن هناك فوارق بين الحياة العربية في قلب الجزيرة وبين الحياة العربية في أطرافها التي اكتظت بعناصر لها تقاليدها وحضارتها ولغتها ، فها نحن في عصرنا لا نزال نرى الفوارق واضحة بين أوضاع الدول العربية ومظاهرها ونظمها الإدارية والقضائية وتقاليدها الاجتماعية في داخل الجزيرة، وبين أوضاع الدول العربية ومظاهرها ونظمها وتقاليدها الاجتماعية في أطراف الجزيرة.

فلئن كانت بلاد الأنهار، وشواطئ البحار، وجوانب الطرق التجارية شهدت مجتمعات تألفت من عناصر تقلبت بها الظروف تارة غالبة وتارة مغلوبة، ولئن كانت القاعدة العامة تؤكد: أن حضارة العنصر الغالب وتقاليده ولغته ونظمه تطغى على حضارة العناصر المغلوبة وتقاليدها ولغتها ونظمها، فإن هذا ليس معناه أن العنصر المغلوب يتجرد من كل أخلاقه وعاداته وأفكاره، أو أن العنصر الغالب لا تتأثر تقاليده وعاداته ولغته وأفكاره بشيء مما يفرضه عليه الاختلاط بالعناصر التي تعيش معه والتي غلبت على أمرها.

فلابد لدستور الدولة وتشريعاتها من مراعاة الأقليات مهما صغر شأنها، ولابد لتقاليد المجتمع من أن تتألف من عادات العناصر التي يتكون منها المجتمع ولابد لأساليب حياتها من أن تتدخل في تطوير العرف الاجتماعي.

٢٠- ولهذه الأسباب كان المجتمع المكي له تقاليد لم تخل من العادات والطباع التي تأثرت بها قريش من احتكاكها بحجاج البيت الحرام، وبما عرفته في رحلاتها لسوريا والعراق ومصر والحبشة؛ ولهذه الأسباب كان لزامًا على "قصي بن كلاب" أن ينظم الوضع الاجتماعي والإداري في مكة بما يتفق مع مركزها، ويحدد واجبات الحج الضخمة التي على قريش أداؤها. فيعين المسئوليات ويقسمها بشكل قد نكون مبالغين إذا قلنا : إنه يشبه تشكيل الوزارات وتحديد مسئولياتها في الوقت الحاضر.

٢١- فعلى كل باحث في التطور الاجتماعي، وفي النظم السياسية في الشرق العربي، أو في أية أرض تضم مجموعة من الدول ذات العنصر الواحد، سواء أكانت تلك الأرض شرقية، أم كانت غربية أن لا يغفل عن البيئة، ومؤهلاتها، وإمكاناتها، والفرص التي تتخطى شعوبًا لتصل إلى شعوب أخرى، وأن لا يغفل عن أن هذه الفرص كالحظوظ الفردية التي تهجر هذا لتحتضن ذلك، فكثير من الأقطار العربية، بل كثير

من المدن في القطر الواحد ، دارت بها عجلة الزمن من شاهق المجد والثروة والنور إلى أسفل سافلين من الانطوائية والفقر والظلام.

فقليلة جدًا الأقطار التي تملك من المؤهلات والإمكانات ما يمكنها من الاحتفاظ بحضارتها ومستواها السياسي، ولكن مهما أقفرت الأقطار من أسباب الظهور على المسرح الدولي، فإنها لا تعدم نظمًا تحمي حقوق الأفراد ، ولا تعدم تقاليد تسير عليها حياة المجتمع.

فإذا كان الأقدمون قالوا من قبل : إن لكل زمان دولة ورجالاً ، فإنني أقول هنا : إن لكل دولة ورجال أسبابًا تهيئ لها ولهم البروز تحت الشمس. فمن أسباب بروز الدولة العربية في العصر الحاضر ونبوغ رجالاتها في المجال السياسي، ومن بواعث التنظيم الذي يكفل تطور المجتمع : الثروة البترولية التي أعزت الشواطئ العربية على الخليج العربي وسلطت عليها الأضواء بعد أن انزوت في غياهب الفقر والجهل منذ أن أقفرت موانئُها من السفن التجارية التي كانت تتهادى في بحارها كأنها الأعلام.

فهذه الشواطئ التي كانت إلى وقت قريب منزوية منطوية على نظمها وتقاليدها العتيقة، أصبحت بقدرة قادر ذات دستور دولي، وذات وزارات وأعضاء في المجالس العالمية لهم صوتهم ولهم مكانتهم المرموقة.

فليس شأن هذه السواحل اليوم بأكثر من شأن وادي القرى وعواصم الدول التي لمعت في الماضي العربي القديم، وليس شأن هذه السواحل بالأمس، كشأن مكة ذات السؤدد الخالد والمجد الذي لا يأفل ما دام هذا البيت قائمًا مثابة للناس وأمنًا.

وليس من المنطق في شيء إن نحن حكمنا على دول قلب الجزيرة القديمة بأنها كانت على غير نظام، وحكمنا على مجتمعاتها بأنها كانت على غير تقاليد توثق الروابط بين الجماعات، بناء على الوضع الجاهلي الأخير، فإذا كانت عجلة الزمن

دارت بالأمم العربية فاختفت عظمتها وانزوى سؤددها وغشي أرضها ظلام جاهلية ما قبل الإسلام، فإن هذه هي سنة الحياة وليس العرب وحدهم هم الذين تقلب بهم الزمن.

٢٢- قد لا يكون وضع الشعوب العربية اليوم صورة طبق الأصل لوضع الشعوب العربية في أمسها البعيد، ولكنه يعطينا فكرة قريبة في اعتقادي من الواقع، عن ذلك الفرق الذي كان بين نظام الدولة وبين حضارة المجتمع وتقاليده في قلب الجزيرة، وبين نظام الدولة وبين حضارة المجتمع وتقاليده في الهلال الخصيب شمالاً وفي بلاد السدود جنوبًا.

ولست في حاجة هنا إلى أن أقول: إن المقارنة بين الحاضر والماضي، تعني الماضي البعيد، وإنما أنا في حاجة إلى التنويه بما كانت عليه دول العماليق والإرميين والسبئيين من بأس شديد وقوة دولية فعالة. فهي التي كانت سيدة الموقف في الشرق العربي. وهي التي رسمت الحدود السياسية للجزيرة العربية. وهي التي ثبتت القومية العربية في العراق وفي سوريا ولبنان وفلسطين، وفي صحراء سيناء ودلتا النيل والصحراء العربية في شرق وادي النيل، وفي الجنوب الغربي من الجزيرة العربية.

ولكن مع كل ذلك، فإن التاريخ العربي لم ترتبط حلقاته؛ إلا من بعد مطلع الألف الثانية قبل الميلاد.

البحث العشرون

متى عرف العرب الملاحة ؟

من موضوعات البحث :

١- عمرو بن كلثوم وكارلتون كون .

٢- هل العرب في الخليج العربي هم وحدهم الذين ركبوا البحر؟ رأي مؤلف كتاب الملاحة والعرب .

٣- رأي في تحقيق مؤلف "الملاحة والعرب" .

٤- تاريخ الملاحة في البحار العربية .



متى عرف العرب الملاحة ؟

١- ذكرني ما قاله (كارلتون كون) في كتاب قصة الشرق الأوسط : [فإن الملاحة في الخليج تعود إلى أيام السوموريين والبابليين. وتذكر في السجلات الإسفينية المعاصرة : أن بحارة كانوا يعيشون على سواحل "قُطَر" يدعى "الأراضي البحرية" . والظاهر أن المقصود بهذه التسمية هو المناطق الساحلية الواقعة على الجانب الغربي من الخليج العربي والمناطق الواقعة على مصب النهرين وكذلك جزيرة البحرين. ومن الجائز أنها كانت تشمل في وقت من الأوقات "اليمامة"](١) .

ذكرني قول (كارلتون كون) هذا بشعر "عمرو بن كلثوم" الذي جاء فيه : "ووجه البحر نملؤه سفينا". لقد كنت أسأل كلما قرأت هذا البيت : ماذا يعني ابن كلثوم بقوله : ووجه البحر نملؤه سفينا !؟ إنه ولا شك يبالغ كعادة الشعراء ، ولكن مهما كانت المبالغة كبيرة مكشوفة ، فإن الخبر المبالغ فيه لابد أن يكون له ظل من الحقيقة. وأشعار العرب في الفخر والحماسة تكثر فيها المبالغات. فقصة ركب النميري في الأدب العربي معروفة ، فعلى ما في قصة النميري من مبالغة مفضوحة فإن هناك حقيقة في القصة هي : أن النميري شق الرمال راكبًا على حماره الذي أثار شيئًا من الغبار؛ فالاعتراف بالمبالغة في الشعر الجاهلي لا ينبني عليه تكذيب كل ما جاء في شعر الجاهليين ، لا سيما ما جاء في قصائد الشعراء الذين كان لشعرهم أهمية في نظر القبائل العربية أولئك الذين نال شعرهم من الإعجاب والتقدير ما رفعه حتى عُلق على جدار الكعبة. فما كان ابن كلثوم في حاجة لأن يفتخر بادعاء كهذا لا يعود عليه بغير الهزء الذي يربأ ابن كلثوم بنفسه عنه لاسيما في مثل هذه القصيدة التي كان ينشدها وهو يعلم أن هذا الشعر سوف تتناقله الألسنة؛ فإما أن ترتفع به مكانته الأدبية أو تنخفض إلى المستوى الذي لا يرضيه.

---

(١) قصة الشرق الأوسط ص٧٩ .

قد يبالغ ابن كلثوم في وصف السفن وأنها من الكثرة بحيث تغطي وجه البحر، فالمبالغة في الشعر يطرب لها العربي، ولكنه لا يمكن أن يدعي لقومه سفنًا لو كان قومه من (طيئ) فليس كل ما يدعيه فطاحل الشعراء الجاهليين من الذي ينطبق عليه المثل العام أكذبه أعذبه.

كل هذا جال في خاطري عندما بدأت أكتب في هذه الناحية من التاريخ العربي القديم، فالباحث في التاريخ القديم يلفت نظره الخبر القصير والمنظر العابر. فبعض الأخبار القصيرة تكون مفتاحًا لبحث طويل يسفر عن نتائج ذات شأن في التاريخ، وبعض المناظر العابرة توحي بما يبعث الخيال إلى ما وراء سحب الماضي، فكثيرًا ما تخيلت قوافل الجاهليين وهي تسير في فلاة الجزيرة، كلما تذكرت القوافل التي كانت تسير إلى وقت قريب، قطارات في أودية الحجاز وبين جباله وزرافات ووحدانًا في صحارى نجد وبين هضابها.

فكل من يطالع التاريخ العربي القديم يعرف أن التجارة العربية كان اعتمادها على القوافل التي كانت تجوب أنحاء الجزيرة العربية مارة بمدنها التاريخية، وأن النشاط التجاري داخل الجزيرة العربية ضعف بعد أن أنشأ الفراعنة أسطولاً تجاريًّا، وبعد أن أخذت الأساطيل الرومانية والحبشية تمخر عباب البحار العربية؛ ويعرف : أن عرب الحجاز ونجد كانوا في صدر الإسلام يتهيبون ركوب البحر، وأن عمر بن الخطاب خاف على المسلمين من ركوب البحر بعد أن وصفه له عمرو بن العاص، ويعرف أن ما جاء في الشعر الجاهلي عن الملاحة يعني الملاحة في الخليج العربي، فعمرو بن كلثوم لا يقصد بوجه البحر البحر الأحمر، "وطرفة" عندما وصف السفينة في شعره نسبها إلى البحرين :

كأن حدوج المالكية غُدْوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد

عَدَولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورًا ويهتدي

يشق حَبَاب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد

* * * *

٢- ولكننا مع ذلك نسأل : هل كان سكان الساحل الشرقي من الجزيرة العربية؟ وهل كان سكان شواطئ الجزيرة العربية على البحر الأبيض هم وحدهم الذين كانوا يركبوا البحر، ويشقون بسفنهم أمواجه، فيستقبلهم سكان شواطئ البحر الأحمر بالإعجاب والدهشة دون أن يفكروا في إنشاء السفن وركوب البحر إلى ما بعد الإسلام؟

إن الجواب عن هذا السؤال وعن كثير من الأسئلة التي يجدر بالبحث أن يذكرها ويجيب عليها لمعرفة متى بدأ العرب يركبون البحر، وأي البحار التي ركبوها؟ يأتي إذا ما ناقشنا كتاب "الملاحة والعرب" لجورج فضلو حوراني، فلقد انفرد هذا الكتاب بالملاحة عند العرب، وجمع مؤلفه الآراء والنتائج التي انتهت إليها المصادر التي اعتمد عليها. ولقد وصل مؤلف هذا الكتاب في بحثه إلى : [أن العرب قبل بزوغ التاريخ بوقت طويل كانوا كغيرهم من الأمم يصنعون القوارب من الجلود، أو جذوع الأشجار المجوفة أو أية مادة أخرى ملائمة ويمخرون المياه الهادئة بالمجداف الصغير. وقد تطورت الملاحة في معناها الصحيح عن هذه الأعمال الساذجة عندما أقدم الناس على التوغل في البحر، فبدأ العرب يطورون ملاحتهم فأقاموا صاريًا شراعيًّا ووكلوا أمرهم إلى الرياح في البحر العريض وإلى رحمة آلهتهم. وقد حدث هذا أيضًا قبل التاريخ، والمظنون أن السفن العربية الشراعية كانت تثبت ألواحها بخيوط من ليف، ومن الممكن أن الشراع كانت مربعة ولم تكن ممتدة بين مقدم السفينة ومؤخرها كما كانت في العصور التاريخية ولكن هذا بعيد عن اليقين].

ووصل البحث به إلى [أن الموقع الجغرافي في نواح عامة معينة يساعد على تطور الملاحة في شواطئ الجزيرة العربية، فهي تحد من ثلاث جهات بخط ساحلي بالغ الطول يدور من خليج السويس إلى رأس الخليج العربي، وتمتد بالقرب من هذه السواحل أخصب بقاع الجزيرة وهي اليمن وحضرموت وعمان، ولم يكن الاتصال بينها بحرًا أشد هَولاً من عبور الصحارى والجبال التي تفصل بينها برًّا، والأهم في

البواعث على نشاط الملاحة في البحار العربية هو : البحر الأحمر في الغرب والخليج العربي في الشرق يكملهما النيل والفرات ودجلة ، وهما ممران طبيعيان للملاحة في حوض البحر المتوسط وشرق آسيا ، فكان العرب يطلّون من كلا جانبي جزيرتهم على طريقين من الطرق التجارية الكبيرة في العالم][1] .

ثم هو بعد أن وصل به البحث إلى كل ذلك عاد فقال : [لا يمكن الانتفاع انتفاعًا كاملاً بمزايا هذا الموقع الجغرافي إلا بعد التغلب على صعاب معينة ، فالجزيرة العربية لا تنتج ولم تنتج أبدًا الخشب الصالح لبناء السفن القوية ، وهي لا تشتمل أيضًا على الحديد لدق السفن بالمسامير، كما أنها ليست قريبة من أي بلد ينتجه. وليست فيها أنهار صالحة للملاحة.وما فيها من الموانئ الممتازة قليل. وكان البحر الأحمر الذي يمتد ١٢٠٠ ميل يفصل في العصور القديمة بين مصر والجنوب الغربي من الجزيرة العربية أكثر مما يقرب بينهما ، وكان النصف الشمالي من هذا البحر خاصة ينطوي على عقبات كأداء ، فعلى جانبيه صحراء لا ماء فيها تمتد مئات من الأميال ، والشعاب المرجانية الضخمة تحف كلا الساحلين، وتمتد في بعض المواضع بعيدًا في البحر فكان تلافي الاصطدام بها يتطلب معرفة وحنكة عظيمتين، وكانت الجزر المرجانية تعين على القرصنة التي كان البدو الجياع على كلا الجانبين يميلون إليها أشد الميل ويعدونها امتدادًا بسيطًا لغاراتهم في الصحراء؛ ولأن البحر خال من الموانئ الصالحة أو يكاد. وكانت الملاحة شمالاً صعبة بوجه خاص على الملاحين الأوائل؛ لأن الرياح الشمالية كانت تهب جنوبًا على هذا الجانب من البحر طوال العام ، فأقام العرب طرقًا للقوافل على طول الساحل الغربي من جزيرتهم بدلاً من أن يواجهوا أهوال البحر الأحمر ، وكانت الأحوال أوفق في الخليج العربي. ولكن هنا أيضًا كان الماء الصالح للشرب شحيحًا على كلا الجانبين ولهذا لم تكن (عمان) وثيقة الاتصال بأرض الجزيرة وإيران.

---

(١) العرب والملاحة ص٢٣ وما بعدها .

وفي المحيط الهندي كانت السواحل المؤدية إلى الهند خرابًا يبابًا ولم يكن الاستعانة بالرياح الموسمية لعبور البحر العريض بين الجزيرة والهند وشرق أفريقيا إلا ريثما يمكن بناء سفن تستطيع احتمال هباتها العاتية. هذه العقبات كان لابد من التغلب عليها بالحيلة والاختراع حتى يمكن الإفادة من المزايا الطبيعية، ولكن مال جنوب الجزيرة الغربي وعمان إلى البقاء في عزلتهما وذلك لأنه لم يكن من اليسير على العرب إذا لم يكونوا على صلة دائمة بمراكز الحضارة القديمة في مصر وغرب آسيا والهند أن يأخذوا عنها ما عرفته من تحسينات في بناء السفن والملاحة، بل إن المواد اللازمة لبناء السفن القوية كان لابد من جلبها من الهند][1] .

٣- ونحن قبل أن نناقش ما جاء في كلام جورج حوراني الذي نقلناه من كتابه، نلفت نظر القارئ إلى ما قاله (الخشاب) في تصدير كتاب الملاحة والعرب : [إن المؤلف "جورج حوراني" بنى رأيه على أساس كتب صعبة تحتاج إلى كثير من الجهد ومزيد من المعرفة، فهو لا يزال يأخذ برأي "بيرين" الذي يقول : بأن الدولة الإسلامية قد فصلت بين دول البحر الأبيض المتوسط وبين المسلمين] فالذي يعتنق النظريات المبنية على أدلة تحتاج إلى كثير من الجهد ومزيد من المعرفة دون تحقيق ورجوع إلى الحقائق في التاريخ الإسلامي، لا يستبعد أن يتعلق بنظريات خيالية عن جغرافية البلاد العربية وموارد الجزيرة العربية وعن العربي ومبلغ كفايته في بناء الحضارة وإمكاناته.

ونحن إذا أردنا أن نناقش ما جاء في كلام الحوراني، نجده أولاً يؤكد لنا قدم الملاحة في جزيرة العرب وينوه بالصفات الطبيعية الممتازة للسواحل العربية الممتدة من شمال البحر الأحمر إلى شمال الخليج العربي، ثم نجده ثانيًا يتهم العرب بالجهل في فن الملاحة ويسلب من السواحل العربية كل مميزاتها.

---

(١) المرجع السابق.

فالذي فات جورج حوراني في البحث : تعيين العصر الذي عرف فيه العرب الملاحة ، فلقد قال لنا : "كارلتون كون" في قصة الشرق الأوسط : إن الأراضي البحرية التي عاش عليها بحارة من قديم الزمان هي : المناطق الساحلية الواقعة على الجانب الغربي من الخليج العربي ، والمناطق الواقعة على مصب دجلة والفرات وجزيرة البحرين. ومن الجائز أنها كانت تشمل في وقت من الأوقات "اليمامة" فهذه المناطق كانت أوطانًا للكنعانيين قبل أن يهاجروا إلى سوريا ، وهجرة الكنعانيين إلى سوريا كانت في الألف الثالثة قبل الميلاد ، إذن فالعرب عرفوا الملاحة في الخليج العربي قبل الألف الثالثة التي سبقت الميلاد. ولقد قال (سرجون)[1] : إنه جعل سفن "ملوخة" (بلاد العرب)، وسفن "ماجان" عمان مورد النحاس، وسفن "ديمور" جزر البحرين/ تلقي مراسيها أمام "أكاد" عاصمة سرجون[٢] .

وكذلك فاته أن يوضح كيف كان يكمل النيل البحر الأحمر. فهو لم يذكر القناة التي بدأ حفرها الفراعنة وجددتها إمبراطورية "دارا" الفارسية وأتمت ما نقص منها ، وحاولت الدولة العربية الإسلامية الاستفادة منها ، والتي كانت في القديم همزة الوصل بين النيل والبحر الأحمر. ولعله كان يقصد أن النيل كان في العصور المجهولة يتصل بالبحر الأحمر فلذلك لم يذكر هذه القناة؛ لأن في قوله : إن النيل يكمل البحر الأحمر كما يكمل دجلة والفرات الخليج، شمولاً للحالتين .

وفاته الرجوع إلى التاريخ العربي القديم ليعرف : أن الحديد وصل إلى مصر في قديم الزمان عن طريق الجزيرة العربية ، فعلى ذلك فإن العرب عرفوا الحديد واستخدموه في مختلف شئونهم، فأنّى له أن يقول : والجزيرة لا تشتمل أيضًا على الحديد لدق السفن بالمسامير، كما أنها ليست قريبة من أي بلد ينتجه؟

---

(١) راجع كتاب "ماذا حدث في التاريخ" ص١٤١ .

(٢) اسم عاصمة "سرجون" ثم أطلقت على مملكة سرجون، وتقع المدينة في مكان اقتراب نهر دجلة من الفرات.

وفاته الرجوع إلى التاريخ العربي القديم؛ ليعرف أن العرب كانوا يتاجرون بالأخشاب والنحاس مع السومريين، فالذي يصدر الأخشاب والنحاس في استطاعته أن يستورد الخشب الصالح للسفن من الهند أو من لبنان أو من غيرها. ولم يكن موضوع الخشب معضلة وقفت في وجه الملاحة الكنعانية لا في الخليج العربي ولا في البحر الأبيض. فإذا كانت الجزيرة لم تنتج الخشب الصالح لبناء السفن القوية، فإن في إمكان سكانها أن يستوردوه. وفاته أن يتذكر أن على النصف الشمالي من البحر الأحمر قامت موانئ تاريخية، حفلت بالسفن منها موانئ بلاد مدين، ومنها الحوراء - لويكة كومة - ومنها ينبع البحر، ومنها جدة. فلم يكن الماء معضلة حالت دون إنشاء الموانئ على البحر الأحمر في ماضيه ولا في حاضره.

وفاته أن الملاحة في البحر الأحمر لم تشل حركتها الشعاب والجزر المرجانية، فهذه السواحل العربية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال فيها موانئ لا تزال على حالتها الطبيعية، ومع ذلك فهي تستقبل عشرات السفن الشراعية. فهو لو قام برحلة في شواطئ البحر الأحمر، لرأى ما رأيته أنا من مرفأ الوجه في الشمال إلى مرفأ جازان في الجنوب، ولرأى موانئ ترسو عليها عشرات السفن الشراعية التي صنعت بطريقة بدائية والتي يدير دفتها ربابنة بدائيون في معلوماتهم عن البحر والملاحة، ربما كان الكنعانيون في الماضي البعيد أكثر معرفة ومهارة من هؤلاء. وربما كانت سفنهم أكبر وأمتن من السفن التي رأيتها في الوجه، وفي أملج، وفي ينبع، وفي جدة، وفي جازان.

وفاته أن يعين الزمن الذي تبدلت فيه حال الرياح التي قال عنها :وكانت الملاحة شمالاً صعبة بوجه خاص على الملاحين الأوائل؛ لأن الرياح الشمالية كانت تهب جنوبًا على هذا الجانب من البحر طوال العام. فهل كانت تلك الرياح بعد التاريخ وبعد سفن المعينيين التي كانت تجوب البحر الأحمر وسفن المصريين؟! ولماذا هي اليوم لا تؤثر على السفن الشراعية؟

وفاته كذلك أن يعين الزمن الذي أصبحت فيه السواحل المؤدية إلى البحر الهندي خرابًا يبابًا. وأن يعين هاتيك السواحل التي تصورها قفرًا لا أنيس فيها ولا سامر. فإن

هـذه الصـورة لا تـتفق مـع الـتاريخ العـربي القـديم، فالسـواحل العـربية مـن حضـرموت وعمـان وقطـر وهجـر - الأحسـاء - إلى العـراق حفلـت في ماضيها القديم بنشاط تجاري قليل المثيل في العصور القديمة. وليست الشواطئ هذه هـي وحدها التي عمرت بالسكان في قديم زمـان البلاد العـربية دون سـواهـا، فالجزيـرة العربية ذات شـواطئ لها ماض في الملاحـة، وبحـار الجزيـرة ذات شـأن في تـاريخ الـنقل الـتجاري البحـري مـنذ فجـر التاريخ العـربي. ولقـد كـان الخلـيج العـربي بالـذات مجـالاً واسـعًا للسـفن الـتجارية بـين شـبه الجزيرتين العربية والهندية.

وفاتـه كـذلك أن يعـين الـتاريخ الـذي نضـبت فيـه سـواحل النصـف الشـمالي للبحـر الأحمـر مـن المـاء. فـإن سـواحل النصف الشمالي من تهامة على البحر الأحمر قد عمرت بـدول ذات تـاريخ حضـاري معـروف، فـبلاد مـدين، ومـنازل ثمـود مـنها مـا هـو بعيـد عـن شـواطئ البحـر الأحمـر، ومـنها مـا هـو مطـل عليه، ولقـد ازدهـرت شـواطئ هـذا القسـم مـن السـاحل العـربي بموانـئ تعتبـر مـن أهـم موانئ البحـر الأحمـر إن لم تكـن أهـمها مثل : (لويكة كومة) التي مر ذكرهـا .

وفاتـه كـذلك أن يعـين الزمـن الذي مال فيه جنوب الجزيرة الغربي وعمان إلى البقاء في عـزلة وانفصـال عـن عـالم ذلـك الـزمن، فالقسـم الجـنوبي الغـربي من الجزيرة كان ذا صـلة بمصـر الفـرعونية مـن قـديم الـزمان، وصـلاته بالحبشـة ليسـت بـالتي تخفـى علـى أحـد. وعمـان التي صدرت النحاس إلى العراق من فجر التاريخ لها صلاتها بالعراق. ولها صلاتها بالهند وإيران، ولها صلاتها بداخل الجزيرة العربية.

وفاتـه كـذلك أن يـأتي بالأدلـة الـتي تثبت : أن العـرب علـى سـاحل البحـر الأحمـر جميعهم بـدو جياع يميلون إلى القرصنة. وفاتـه أن يوضـح كيـف كان هـؤلاء البدو الجياع خطـرًا علـى الملاحـة في البحـر الأحمر. فالقرصان لا يكون خطرًا ما لم يكن ملمًّا بالبحـر وأحـواله قديـرًا علـى ركـوبه بسـفن معـدة لمطـاردة الفريسـة، وفاتـه أنـه هـو نفسـه قـال :

[فإذا كان المعينيون والسبئيون يقومون ولا ريب برحلات بحرية إلى مصر في القرن الثالث قبل الميلاد. صح لنا أن نسأل كم قرنًا كانوا يزاولون ذلك من قبل][1] ، وقال : [وجميع الشواهد تدعو إلى الاعتقاد أن مدن بلاد العرب وسوقطرة كانت في هذه الفترة مراكز التجارة بين مصر والهند في جميع صورها][2] .

فمؤلف "الملاحة والعرب" كما يظهر مما قاله أولاً عن المميزات الطبيعية لسواحل الجزيرة، ومما قاله ثانيًا عن العوامل التي محت كل تلك المميزات، ذو شك يمنعه من أن يستقر على رأي أو يجزم بنتيجة بعد بحثه الطويل. فهو كما تراه قد بلغ به الشك منتهاه، فلم يستقر على جواب للسؤال الذي تترتب عليه نتيجة مهمة في تاريخ الملاحة في البحر الأحمر: [صح لنا أن نسأل كم قرنًا كانوا - المعينيون والسبئيون - يزاولون الرحلات البحرية] فلقد جاء جوابه غير واضح يغمره الشك والتردد : [إن التوابل العربية كانت تستعمل في مصر في التحنيط وتقديم القرابين آلافًا متعاقبة من السنين. فهل كان يؤتى بها في سفن عربية خلال الفترات الواقعة بين الرحلات المعروفة القليلة التي قام بها المصريون إلى الجنوب؟ إن هذا يبدو ممكنًا في ضوء الأدلة التي انحدرت إلينا من أوائل العصر الهلينسي. ولكن لا يمكن إثبات شيء، لأن الطريق الآخر طريق القوافل عبر صحارى بلاد العرب وسبأ كان قائمًا أبدًا][3] .

إن أهمية الطرق البرية أمر مسلم به. فالقوافل البرية التي كانت تجوب الجزيرة العربية ونشاطها الذي عرف من فجر الحياة العربية والذي أتاح تبادل السلع والتسوق بها في العراق والهند وعمان وحضرموت واليمن والحبشة ومكة والمدينة ووادي القرى وأرض مدين وفلسطين ومصر وبلاد الهلال الخصيب، فربط هذه الأسواق بالطرق

(١) الملاحة والعرب ص٦١ .

(٢) المصدر نفسه ص٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ص٦١ ، ٦٢ .

البحرية في ذلك الزمن من الصعوبة بمكان؛ فليس من قدرة السفن الشراعية أن تعبر المحيط الهندي من شبه الجزيرة الهندية إلى باب المندب رأسًا دون أن تلجأ على شواطئ عمان وحضرموت واليمن حتى تصل بسلام إلى باب المندب، ثم عليها أن تقطع ألفًا ومئتي ميل حتى تصل إلى شبه جزيرة سيناء، فكم كان يكلفها هذا الطريق مالا ووقتًا؟ هذا إذا سلمت من العوادي.

لقد ركبت من (بمباي) في الهند إلى (عدن) في اليمن إحدى عابرات المحيط التي تقوم من أستراليا إلى لندن في فصل الشتاء. وفي فصل الشتاء يهدأ المحيط الهندي. ولقد راعني أن تتأرجح هذه العابرة على سطح البحر النائم كتأرجح الزورق البخاري إذا ما تعطلت آلته، فما بالك بالسفن الشراعية إذا ما خاطرت بنفسها فخرجت عن مياه الخليج إلى عرض البحر الكبير، وإذا ما أيقظت عواصف المناطق الاستوائية الصيفية هذا البحر العظيم؟!

إن الطريق السليم العواقب للسفن الشراعية هو الخليج العربي، وإن على السفن التي تحمل السلع الهندية أن تقبل ثمن ما يدفع لبضائعها في أسواق الخليج العربي، فإنه أكثر ربحًا لها بالنسبة للنفقات التي تتحملها البضائع فيما إذ واصلت السفينة سيرها على باب المندب ومنه إلى شواطئ البحر الأحمر الشمالية.

فلذلك كان للقوافل الصحراوية أهميتها في نقل البضائع التي ترد من الهند إلى أسواق الأقطار العربية. وفي نقل البضائع التي تصل إلى سيناء وسوريا والتسوق بها في المدن العربية، ولذلك كانت المدن التي قامت على هذا الطريق أسواقًا تجارية تباع فيها السلع وتشترى.

وقد لا يذهب بنا الخيال بعيدًا إذا نحن ظننا أن القافلة التي تقوم من عمان ليست هي القافلة التي تصل إلى شبه جزيرة سيناء وتدمر، وأن البضاعة التي تنقل من عمان ليست تحمل رأسًا إلى مصر، فإن في كل مدينة تجارًا يستوردون من الشرق والغرب ويصدرون إلى الشرق والغرب.

ولقد تحدثت أخبار الماضي القديم عن القوافل المعينية التي كانت تسير في خفارة مراكز أقامها المعينيون والسبئيون في طريق قوافلهم. وتحدثت الأخبار القديمة عن تجارة مكة والقوافل المكية، وعن تيماء وتدمر وغيرهما من المدن العربية التجارية.

فمجموع هذه الأسباب جعل النقل البري عماد التجارة العربية في عصور ما قبل الميلاد .. بيد أن مجموع هذه الأسباب لم يقض على المجال البحري قضاء مبرمًا، فلقد كان المجال البحري واسعًا أمام السفن العربية في الخليج العربي التي كان عليها نقل البضائع من الهند ومن إيران وإليهما، وكان عليها نقل البضائع التي تخص مصر وشعوب البحر الأبيض المتوسط من منطقة باب المندب ومن سواحل اليمن على البحر الأحمر.

ففي ما سمعناه عن السفن المعينية والسبئية في القرن الثالث قبل الميلاد ما يؤكد لنا الأسباب التي أتاحت المجال للنقل البحري، وأن هذه الأسباب توافرت أكثر من ذي قبل بعد ما منيت الجزيرة العربية بالجفاف الذي جعل النقل البري في الأرض القفر كثير المشاق والمتاعب، وبعد أن أصبحت تطورات الحياة تدفع العرب لركوب المخاطر في سبيل ما يؤمن لها حياتها. ففيما حدثنا به المؤرخون عن عير فارس التي يسيرها كسرى من المدائن إلى عامله في اليمن نلاحظ متاعب مرهقة وتكاليف باهظة، فلقد كانت عساكر كسرى تخفر العير من المدائن إلى الحيرة، ثم تكون خفارتها على (النعمان) من الحيرة إلى اليمامة، ثم تكون خفارتها على (هوذة بن علي الحنفي) إلى بلاد تميم، ثم تكون خفارتها على بني تميم إلى أن تصل إلى اليمن[1].

ومع هذا كله، فإن صعاب النقل البري كانت أسهل من صعاب النقل البحري إذا ما اضطرت السفن إلى الخروج إلى عرض المحيط الهندي. وإن يوم (الصفقة)[2] يؤكد لنا :

(١) **الأغاني** ١٦/٧٥.

(٢) **يوم الصفقة** : يسمى أيضًا يوم المشقر. والمشقر : حصن بالبحرين. وسمي "الصفقة"؛ لأن كسرى أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر. وهو يوم من أيام العرب مع الفرس.

أن ركوب المحيط الهندي على السفن الشراعية يكلف باهظًا لا يقدر عليه إلا المضطر القدير الذي يملك من الإمكانات ما يذلل له كثيرًا من المصاعب والأخطار .

٤- ولهذا كله ، فإن النشاط البحري العربي لم يتجاوز الخليج العربي والبحر الأحمر إلى المحيط ، وإن النشاط البحري العربي في شواطئ هذين البحرين أقل بكثير من نشاط العرب البحري في البحر الأبيض المتوسط.

ومن البدهي أن تشارك العرب في النشاط البحري الأمم التي تشاركها في بحارها ، ومن المتوقع أن لا يذكر نشاط عرب قلب الجزيرة البحري في ظلمة جاهليتهم المتأخرة بالنسبة للنشاط الروماني والحبشي والفارسي والهندي. ومن الطبيعي : أن يتفوق الهنود والفرس في الخليج العربي. وأن يتفوق الرومانيون والأحباش في البحر الأحمر بفضل إمكانات هؤلاء وأولئك وتقدم دولهم ، كما تفوق الفينيقيون من قبل بفضل إمكانات سوريا ولبنان. وبفضل خبرتهم وسابق تجاربهم في الخليج العربي.

ومن الطبيعي أن يتلاشى في العرب نشاطهم البحري قبل ظهور الإسلام ، كما تلاشى نشاطهم في جميع مجالات الحياة من جراء الأحداث التي حاقت بالبلاد العربية آخذًا بعضها برقاب بعض.

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا أن نقول : إن تاريخ الملاحة في الخليج العربي يعود إلى ما قبل الألف الثالثة التي سبقت الميلاد. أما الملاحة في البحر الأحمر ، فلم يتأكد من نشاطها إلا بعد منتصف الألف الأخيرة قبل الميلاد. ولكنها بدون شك أقدم من ذلك التاريخ بكثير، فالسفن في البحر الأحمر لم تصل إلى ما وصلت إليه سفن المعينيين والمدينيين؛ إلا بعد مراحل طويلة اجتازتها الملاحة العربية.

البحث الحادي والعشرون

الكلمة الأخيرة عن التاريخ الحقيقي لقلب الجزيرة

من موضوعات البحث :

١- المناطق المتوسطة في الجزيرة العربية لم تتأخر عن ركب الحضارة في الماضي القديم .

٢- تحديد الزمن الذي بدأ فيه التاريخ الحقيقي في قلب الجزيرة العربية هو مشكلة المؤرخين .

٣- مع مطلع الألف الثانية قبل الميلاد دخل قلب البلاد العربية باب التاريخ الحقيقي .

الكلمة الأخيرة عن التاريخ الحقيقي لقلب الجزيرة

١- لقد أثبت البحث في حضارة قلب الجزيرة، وفي الأدب الجاهلي، وفي الشعر العربي، وفي اللغة وخطوطها، وفي الأديان وقصص الأنبياء، وفي الملاحة العربية ونصيب السواحل القريبة منها : أن سكان المناطق المتوسطة من الجزيرة العربية كانوا مع الطليعة التي أسست الحياة الإنسانية ومهدت السبيل في البر وفي البحر للحضارة العربية.

ففي وادي القرى وسواحل البحر الأحمر، وفي اليمامة وسواحل الخليج العربي، عاشت شعوب : عاد، وثمود، والعماليق، والدادانيون، والمدينيون، والكنعانيون، وطسم، وجديس، وغيرها من الأمم الغابرة، وكل هذه الأمم اعتبرت من الأمم البائدة. ومن هذه الأمم أمم يرجع تاريخها في قلب الجزيرة العربية إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد مثل : الكنعانيين الذين عاشوا في اليمامة وعلى شواطئ الخليج العربي قبل هجرتهم إلى سوريا، ومثل : الشعوب الإرمية والعمليقية التي عاشت في وادي القرى وفي مكة والمدينة قبل أن يهاجر إبراهيم إلى سوريا، ويرفع قواعد البيت الحرام في الحجاز، ولكل من هذا الأمم آثار كشف التنقيب عن بعضها في اليمامة وفي وادي القرى ولا يزال بعضها دفينًا في جوف الصحراء الصامتة.

ونحن إذا تمسكنا بالأدلة التي تؤكد أن الوطن الأول للجنس السامي العربي[1] هو قلب الجزيرة العربية، وأن العرب الذين عاشوا في نجد والحجاز منذ العصر الحجري كانوا أساتذة سكان الواديين: النيل والفرات في استئناس الحيوانات واستنبات

---

(١) إنني مع الذين يقولون بأن الساميين هم العرب، ولقد أيدت هذا الرأي بأدلة تجدها في الجزء الخاص بشعوب الجزيرة العربية.

الحبوب، وأن العرب الذين أسسوا الدول الإرمية والعمليقية في العراق وفي سوريا، وفي مصر، كانوا أصحاب حضارة ولغة وعقائد بدليل الحضارة العربية في العراق التي تغلبت على الحضارة السومورية، وبدليل الحضارة العربية في مصر التي تبدو واضحة في لغة الفراعنة وفي آثار دلتا النيل وصحراء سيناء، ونحن إذا تمسكنا بهذه الأدلة لا نكون خياليين إن قلنا : إن ماضي العرب القديم لم يكن مظلمًا كما صوره الكثير من المؤرخين.

إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن للعرب في داخل جزيرتهم تاريخًا لا يقل توغله في أعماق الماضي عن توغل تاريخ السوموريين في العراق، فمن الحقائق التاريخية : أن السوموريين في العراق كانوا يستوردون النحاس من عمان. وعصر السوموريين في العراق انتهى قبل الألف الثانية قبل الميلاد. ومن الحقائق التاريخية : أن (سرجون) الذي أسس الدولة العربية في العراق ووصل سلطانه إلى سوريا ولبنان، لم تخضع لسلطانه الدول العربية في سواحل الخليج العربي، وفي اليمامة، فكانت تلك الحروب التي أشارت إليها آثار (سرجون).

واعتمادًا على هذه الحقائق نقول غير مبالغين: إن العرب الذين عرفوا كيف يستفيدون من معادن الأرض، وعرفوا كيف يكونون جيوشًا تؤسس دولاً عربية في العراق، وفي سوريا، وفي مصر؛ تبسط نفوذها وحضارتها ولغتها على العناصر التي أتت من شمال العراق ومن جنوب مصر وغربها لتشاركهم في أوطانهم وتقاسمهم خيراتها، لا بد أن يكون لهم تاريخ حافل بالأحداث التي تمر بكل أمة أقامت مدنية وأنشأت أدبًا ونظمت جيشًا يغزو ويفتح.

٢- وهذه الحقائق لم يختلف عليها الذين بحثوا في التاريخ العربي القديم، وإنما الذي هم فيه مختلفون هو : تحديد زمن الأحداث وعصور الأنبياء والملوك. وإن الذي

أعجزهم هو : معرفة المدى الذي بلغته الحضارة العربية في قرونها الأولى. ولقد مرت بنا في بحث دول ما قبل التاريخ وسني حكمها : أسباب الخلاف بين المؤرخين الذين حددوا السنين لدول ما قبل التاريخ. ولسوف تأتي في البحث عن عناصر الجزيرة العربية وقبائلها : بواعث الخلاف بين النسابين في تعيين القبائل وتحقيق أرومتها، وكيف ورط تشابه الأسماء التي ظهرت في بلد واحد بعض النسابين فخلط بين القبائل؟ وكيف غلط البعض الآخر فنسب قبيلة واحدة مرة إلى سام، ومرة إلى حام، ومرة إلى يافث، الأصول الثلاثة لشعوب الجزيرة العربية في بحوث الأنساب ؟!

والخلاف في عصور الأنبياء والدول ما زال موجودًا في البحوث التاريخية حتى اليوم. فزمن (سرجون) و(حمورابي) و(إبراهيم) عليه السلام، ودولة العماليق في مصر، يختلف فيه المطران الدبس في تاريخ سوريا وجرجي زيدان في العرب قبل الإسلام وفيليب حتي في تاريخه : العرب، وسوريا، ولبنان في التاريخ، ونادي في التاريخ الجغرافي للقرآن، والبتنوني في الرحلة الحجازية، والعقاد في الثقافة العربية، وجواد علي في تاريخ العرب قبل الإسلام !!

ولقد تقدم التحقيق في عصر إبراهيم وسيأتي التحقيق في عصر "سرجون الأول" و"حمورابي".

فالخلاف في تحديد الزمن للتاريخ الحقيقي ما زال مشكلة المشكلات. فقد يثبت تاريخ دولة ما عند مؤرخ بنص من النصوص، فيؤكد ذلك المؤرخ : أن تاريخ الدولة يبدأ بموجب النص الذي وصل إليه في عام كذا قبل الميلاد أو بعده. ويعثر مؤرخ آخر على نص غير الذي عثر عليه غيره، فيحدد تاريخًا آخر كما أشرت إلى ذلك من قبل، وكما ترى ذلك الخلاف وأسبابه واضحًا في تعيين زمن الدولة المعينية في اليمن.

ولقد قلت من قبل : إن بداية التاريخ لكل أمة من الأمم هو رهن المعلومات التي عرفت عنها. وقد تتجدد المعلومات عن أمة واحدة بما يصل إليه البحث عن آثارها.

ولم تسلم من هذه الشكوك الأمم التي اكتشفت آثارها. ففي رأي الكثير أن تحديد زمن (مينا) الفرعون الأول الذي وحد الوجهين القبلي والبحري غير واقعي؛ فلقد شك هؤلاء في أن يكون عام ٣٥٠٠ق.م. هو العام الذي اعتلى فيه الملك (مينا) العرش الفرعوني. ولقد أشرنا من قبل إلى ما قيل عن التواريخ التي وضعها الكاهن المصري لما بعد عام ٢٠٠٠ق.م.

٣- فنحن إذا أردنا أن نحدد التاريخ الحقيقي لقلب الجزيرة العربية، فليس لدينا دليل أقوى وأثبت من البيت الحرام الأثر الخالد على مر الأجيال. ولا شك في أن الذي أقام قواعد البيت الحرام هو إبراهيم وابنه إسماعيل. وتحقيقات المؤرخين في عصر إبراهيم تحوم حول مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، فبناء على ذلك كله فإننا نرى أن التاريخ الحقيقي لقلب الجزيرة بدأ مع الألف الثانية قبل الميلاد.

ونحن بهذا التحديد لا ننكر تاريخ العرب في قلب الجزيرة العربية قبل إبراهيم وإنما نقول: إن الشكوك في تاريخ عرب قلب الجزيرة قبل إبراهيم أكثر كثافة من الشكوك التي تغطي حقائق التاريخ العربي بعد إبراهيم، وإن تاريخ قلب الجزيرة ربطت حلقاته بعد إبراهيم: اللغة، والعقائد، وأحداث الشعوب التي عاشت حول البيت الحرام.

البحث الثاني والعشرون

التاريخ العربي في جنوب الجزيرة العربية وشرقها

من موضوعات البحث :

١- الجزيرة العربية وطن بناة الحضارة الأولى .

٢- غموض التاريخ القديم في الجنوب والشرق من الجزيرة العربية .

٣- تاريخ شواطئ الخليج العربي والجنوب غارق في الأساطير .

٤- التاريخ اليمني خدم أكثر من تاريخ الخليج .

٥- تعدد المصادر من مشكلات التحقيق .

التاريخ العربي في جنوب الجزيرة العربية وشرقها

١- إن كل صقع في جنوب الجزيرة وشرقها جدير بالبحث المستفيض والتحقيق العميق، فالباحث في تاريخ هذه المناطق لا يصل إلى شيء من حقيقة ما شهدته من حضارات ودول وأحداث ما لم يبحث في المصادر ويجمع منها الأخبار المتناثرة في النصوص والمراجع عن ماضي اليمن وسواحل الخليج. فكل سهل من سهولها وكل جبل من جبالها أهل ببناة الحضارة الإنسانية في الشرق العربي، ومرت به أحداث كان لها شأنها في الماضي القديم.

وبناة الحضارة في هذا الشرق هم طليعة البشر الذين خرجوا من حياة الغاب يؤسسون القرى والمدن. ويضعون الحجر الأساس للمجتمع الإنساني الذي تطور ولا يزال يتطور مع الزمن.

ومن سنة الله في أرضه أن لا يدوم حال على حال. فمن سره زمن ساءته أزمان، وما أكثر الأزمان التي أساءت إلى هذه المناطق وأهلها في هذه الألوف من السنين التي مرت بها، فقلبت كيان حضاراتها القديمة، وقضت على نشاطها التجاري، وجعلت منها أرضًا بلقعًا كأن لم تكن بالأمس ذات حضارة مرموقة وذات ثراء تحسد عليه.

٢- فأنَّى لي، وأنَّى للذين تقدموني، أن أعرف أو يعرفوا غير القليل عن تلك الحضارات التي لمعت قبل خمسة الآف من السنين؟ فمصادر تاريخ هذه الأصقاع من الجزيرة العربية لم يعلم من حقائقها غير النزر اليسير الذي ترامى إلى مسامع المؤرخين مما تناقلته الأجيال بعد الأجيال، ولم ينكشف لها من آثاره غير القليل الذي وصلت إليه معاول المستكشفين. فأنت إذا ما اطلعت على ذلك النزر من أنباء الغابرين في المؤلفات العربية تجده غارقًا في خيال المؤرخين الذين حدثونا عن (قوم عاد) وعن

(طسم) و(جديس) و (بار) و (العماليق) وغيرهم من سكان العروض الأقدمين. وأنت إذا ما اطلعت على تقارير الأثريين تجدها غارقة في ظنون حائرة وآراء مترددة لم تقتنع إلا بالقليل من تاريخ الكنعانيين في اليمامة وفي البحرين وفي سواحل الخليج العربي. ومما تركوه من آثار ونقوش تتحدث عن تاريخ (سرجون) البابلي وجنوده الذين بلغوا الشواطئ العربية على الخليج وما تاخمها كما بلغوا شواطئ لبنان وما تاخمه.

فلعل الله الذي بعث إلى هذه الأرض العربية من كشف عن كنوزها الطبيعية، وأيقظ فيها الحياة من نومها العميق الطويل، يخلق الأسباب التي تساعد على كشف سرها الدفين، فيعرف الناس كيف يحيى الله العظام وهي رميم!!

فما أشبه العظام الرميم بآثار الحضارات التي شهدتها شواطئ الخليج العربي من العراق إلى عمان قبل آلاف السنين، والتي تطل رؤوسها على الحياة المنبعثة في أرضها بفضل آلات التنقيب عن البترول وإخراجه من أعماق الأرض وتكريره وتصديره إلى مشارق المعمورة ومغاربها.

٣- أجل! إن تاريخ شواطئ الخليج العربي وإن شهد له المؤرخون والأثريون بالقدم، وإن كان فيه بعض الحقائق التي لا مرية فيها، فإن أكثر ما يرويه المؤرخون أساطير تحتاج إلى ما يزيل عنها ألوان الخيال والمبالغات الخرافية ويجعل منها بحوثًا تاريخية منطقية، وإن أكثر ما يقوله الأثريون ظنون وآراء تحتاج إلى ما يؤكدها ويجعل منها أدلة قطعية يعتمد عليها.

وكذلك تاريخ الجنوب من الجزيرة العربية لم يسلم من تلك الأساطير ولا من تلك الظنون والآراء التي ما فتئت في حاجة إلى ما يجعلها بعيدة عن الريبة والشكوك.

٤- على أن التاريخ العربي في اليمن أكثر وضوحًا لأسباب منها: أن دولة التبابعة الحميريين هي آخر الدول العربية الكبرى التي قامت في عصور ما قبل الإسلام، فكان

من حقها أن يتحدث العرب عن هذه الدولة وسيادتها والأحداث التي مرت بها ، وكان من الضروري أن يحرص ملوكها على نشر مآثر أجدادهم وما وصل إليه مجد الدول العربية في معين وسبأ وحضرموت؛ ومنها أن القرآن الكريم أشار إلى سبأ وملكتها وإلى سد مأرب وأصحاب الأخدود ، فكان لزامًا على المفسرين أن يبحثوا في تاريخ مملكة سبأ ، وسد مأرب وأصحاب الأخدود ؛ ومنها أن اليمن بلاد البخور الذي كان فراعنة مصر مغرمين بحرقه في معابدهم، فلذلك كانت منطقة باب المندب مطمع أنظار فراعنة مصر من أبعد عهودهم، فتحدثت آثارهم عن الحملات التي شنها الفراعنة على هذه المنطقة من قبل الميلاد بأجيال، ومنها أن الرجال الذين عنوا بالتاريخ العربي في صدر الإسلام كان أكثرهم يمنيين مثل الهمداني وابن الكلبي وعبيد بن شرية ونشوان الحميري. ومنها أن اليمن على الرغم من سياسة العزلة فقد خاطر كثير من رواد الآثار الأوربيين في سبيل البحث عن آثار اليمن القديمة فحالف بعضهم التوفيق فقدم للعلم ثروة تاريخية لا بأس بها.

٥- على أن تعدد المصادر وإن كان مفيدًا ؛ إلا أنه متعب للباحث المحقق الذي يهدف إلى إزالة الشكوك والغموض عن الحقائق التاريخية ، ولا سيما أن كثيرًا من المؤلفات العربية الموضوعة في التاريخ اليمني زاخرة بالمبالغات التي لا تتفق مع المنطق والتي جعلت الكثير من الحقائق في تلك المؤلفات مشكوكًا فيها.

فلقد أطلق المؤرخون العرب القدامى والمفسرون العنان لأخيلتهم بعد أن اطلعوا على ما نقل إليهم عن الأسفار وما عرفوه من مصادر يونانية أطلقت اسم العربية السعيدة على الأرض الممتدة من بادية الشام إلى المحيط الهندي.

وإذا ما جنح المؤرخ إلى الخيال أضاع الثقة فيما يقوله وعرض للشك والريبة الحقائق التي أجهد نفسه في جمعها ، فأي قارئ لا يخامره الشك فيما يقال عن سني حكم التبابعة الأولين وأعمارهم التي بلغت المئات من السنين؟

ولعل ابن خلدون هو أول من شهَّر بهذه المبالغات وجاهر بأن ما يقال عن إرم ذات العماد هو من خرافات القصاص نقلها ضعاف المفسرين. ولقد تعرض لهذه المبالغات بالنقد والتفنيد محققو التاريخ العربي في العصر الحديث، فمما جاء في نقد جورجي زيدان : [فأدخل المفسرون عند تفسيرهم ما ذكره القرآن عن عاد مبالغات رواها كعب الأحبار وعبدالله بن سلام اليهوديان ووهب بن منبه المجوسي وغيرهم][(١)] .

وينقد جواد علي رواية كعب الأحبار بقوله : [ويظهر أن كثيرًا من أخبار عاد وضعت في أيام معاوية بن أبي سفيان الذي كان له ولع خاص بالاطلاع على أخبار الماضي فجمع لذلك في قصره جماعة اشتهرت برواية هذا النوع من القصص وفي مقدمة هؤلاء كعب الأحبار][(٢)] .

فلولا ما بذله الرواد المستشرقون في سبيل البحث الأثري، ولولا ذلك النزر اليسير الذي وصل إليه تحقيقهم لاعتبر التاريخ العربي في جنوب الجزيرة وشرقها إلى ما قبل الإسلام تاريخًا أسطوريًا بكل ما فيه من حقائق ، ولما اعترف محققو التاريخ في العصر الحديث بشيء مما قاله المؤرخون العرب. فبعد الكشف عن الآثار اليمنية اعترف (ديتلف نيلسن) بما في الرواية العربية من حقائق كان المستشرقون يعتبرونها خيالاً محضًا ، فلقد قال هذا المؤرخ : [فمن هذه الصورة المتعددة الألوان التي نكونها من مجموعة هذه النقوش نتبين الثقافة الحقيقية التي نمت وازدهرت في الشرق الأدنى، كما نتبين أيضًا هذه اللغة الغامضة الواردة في كتاب العهد القديم والتي كثيرًا ما تحدثنا عن السبئيين وثروتهم من الذهب والأحجار الكريمة ومختلف أنواع البخور. ويكفي أن نشير هنا إلى قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان والواردة في سفر الملوك الأول الإصحاح

---

(١) العرب قبل الإسلام ، ص١٨ .

(٢) تاريخ العرب ٢٤٢/١ .

العاشر. كما تمكنّا هذه الآثار العربية الجنوبية أيضًا من معرفة بلاد العرب السعيدة التي شاد بذكرها اليونان والرومان حتى إن روما رغبت يومًا في الاستيلاء عليها فسيرت قبل الميلاد جيشًا لقي حتفه في الصحارى المترامية في بلاد العرب. ولولا هذه الآثار ما استطعنا إدراك كنه ما جاء في المصادر العربية وما يحدثنا به العرب عن اليمن وحكامها وبروجها وقصورها][1] .

ونحن إذا أردنا أن نقرر شيئًا عن التاريخ الحقيقي لجنوب الجزيرة، فعلينا قبل ذلك أن نناقش بعض القصص المتواترة في مؤلفات المؤرخين. ونحن إذا بحثنا في القصص البارزة في تاريخ الجنوب القديم التي كانت وما زالت مجال تحقيق وتفنيد؛ فإننا نجد مدينة (إرم ذات العماد) قد شغلت كثيرًا من الباحثين، فلقد كان موضوع هذه المدينة مضمارًا لمختلف الظنون - شكًّا فيها وتصديقًا بها - ونجد البحث في مدينة (إرم ذات العماد) التي لم يخلق مثلها في البلاد يوضح لنا مدى الحضارة العربية في اليمن وحدود تاريخها. فالحضارة كما قلنا من قبل: هي السطور الأولى للتاريخ.

(١) كتاب تاريخ العرب القديم، ص٣٠.



البحث الثالث والعشرون

إرم ذات العماد

من موضوعات البحث :

١- "ابن قلابة" الذي تعزى إليه قصة إرم ذات العماد .

٢- كعب الأحبار كان مبالغًا في ادعائه .

٣- الحقيقة في قصة إرم ذات العماد يحجبها الخيال مثل كل قصة "تاريخية" .

٤- دولة عاد من أبرز دول الماضي .

٥- اعتراف المستشرقين بالمصادر العربية عن تاريخ اليمن .

٦- إرم ذات العماد في آراء المفسرين .

٧- هل يستطيع التحقيق الوصول إلى حقيقة إرم ذات العماد؟

٨- حقيقة الجدل الذي دار حول إرم ذات العماد .

٩- ما الحقيقة التي نستفيدها من قصة إرم ذات العماد ؟

إرم ذات العماد

١- حقًا إن كثيرًا من الخيال يبدو على قصة (ابن قلابة) الذي يقال إنه رأى مدينة من ذهب وفضة بين كثبان الأحقاف، وكثيرًا من الادعاء يظهر على الجواب الذي قيل إن كعب الأحبار ردّ به عندما سئل عما رواه (ابن قلابة) ؛ فلم يكن ابن قلابة من الرواد الباحثين ليدرك حقيقة الآثار التي بدت له من بين الرمال، أو ينظر إليها نظرة المكتشف الخبير. ولم يكن ابن قلابة من رجال التاريخ الذين عرفوا بثقة الرواية، فإذا صح أنه رأى تلك الآثار التي تحدث عنها، فإن ظهورها أمامه عفوًا هو ولا شك مفاجأة كان لها تأثيرها على تصور ما رآه. وإذا صح ما نقل عن ابن قلابة، فإن أكثره من المبالغات التي لم يبخل بها ابن قلابة عندما رأى الناس يعجبون مما رأى، فالمبالغة في تضخيم الحدث الذي ينفرد به شخص واحد قاعدة تكاد تكون عامة لا يشذ عنها غير الثقات الذين يعتزون بصدقهم، وأمانة روايتهم، ويقدرون مسئولية ما يقولون. ولم يثبت أن ابن قلابة من هؤلاء. وإذا صح أنه رأى تلك الآثار، فإن ظنه وظن الذين استمعوا لما يقوله ذهب بهم إلى ما يجول في أخيلة ذلك الجيل عن مدينة إرم ذات العماد.

٢- وفي جواب كعب الأحبار ادعاء ظاهر؛ فالتوراة لم تذكر شيئًا عن قوم عاد ونبيهم هود، ولم تذكر شيئًا عن ثمود ونبيهم صالح، ولم يستطع الذين حاولوا أن يفسروا بعضًا مما جاء في سفر الملوك عن أخبار قلب الجزيرة وجنوبها الإتيان بنص من التوراة يذكر قوم عاد، أو قوم ثمود فضلاً عن الإتيان بنص صريح يشير إلى إرم ذات العماد. ولقد وضح لنا ذلك في فصل المصادر الإسرائيلية في الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربي من هذا الكتاب.

فما هو مستند كعب الأحبار عندما أجاب معاوية بن أبي سفيان على ما يقوله ابن قلابة عن تلك المدينة التي عثر عليها في الأحقاف [والذي نفس كعب بيده لقد ظننت

أني سأسأل قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها. ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين. لمن هي؟ ومن بناها؟ أما تلك المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وصفت له. وأما الذي بناها فهو شداد بن عاد. وأما المدينة فهي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، يا أمير المؤمنين والذي نفس كعب بيده ما خلق الله شيئًا في الأرض إلا وقد فسره في التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيرًا وإن هذا القرآن أشد وعيدًا وكفى بالله شهيدًا][1].

ألست ترى معي في جواب كعب الأحبار ادعاء ظاهرًا؟ أولست ترى أن كعب الأحبار أراد بجوابه هذا أن يظهر أمام معاوية بأنه عليم بكل أخبار الماضين؟ أولست ترى معي أن استناد كعب الأحبار إلى التوراة لا يقره كل من يرجع إلى التوراة فلا يجد فيها شيئًا عن شداد بن عاد، وعن إرم ذات العماد؟ .. فأي ادعاء أكثر من قول كعب: والذي نفس كعب بيده إنني علمت بأنني سأسأل قبل أن يسألني أحد؟ وقوله: إنها إرم ذات العماد التي يعثر عليها في خلافتكم رجل صفاته تنطبق على صفات عبدالله بن قلابة؟[2]

٣- ولكن مع هذا كله وبالرغم من الشكوك التي تغشى هذه القصة، فإن القارئ يشعر بأن هناك حقيقة بنى عليها الخيال. فالأحداث التاريخية التي تتضمنها النوادر والقصص الشعبية، لا بد أن يكون للفصول التي اختارها المؤلفون لقصصهم فيها ظل من الحقيقة. فقصة سيف بن ذي يزن مثلاً من القصص التي شطح بها الخيال الروائي، وهي مع ذلك تشير إلى فصل من فصول التاريخ اليمني. فسيف بن ذي يزن شخصية تاريخية سجل في تاريخ اليمن انتصار التبابعة على الأحباش، وسجل عليه تاريخ اليمن اطمئنانه لحلفائه الفرس الذين كانوا يبيتون خططهم لاستعمار البلاد العربية، وأثبت عليه عدم تقديره روح الانتقام التي كانت تكمن في نفوس الأحباش في

(١) **قصص الأنبياء** للثعالبي ص ١٤٢.

(٢) **دائرة المعارف الإسلامية**. مادة إرم ٦٣٤/١.

اليمن، فراح ضحية الاعتماد على حراسه الأحباش، وضاع استقلال اليمن ضحية اطمئنانه للفرس واستعانته بهم.

أما جن سيف بن ذي يزن، وسحرته وخادم لوحه عيروض ابن ملك الجن الأحمر، وأخته عاقصة بنت ملك الجن الأخضر، وأما فتوحاته التي بلغت مشارق الأرض ومغاربها، وأما تفجيره أنهار سوريا ومصر، وأما بناؤه المدن التاريخية مصر وتدمر و... و... إلخ فهي من نسج الخيال.

لا شك في أن كثيرًا من الأخبار التاريخية التي تناقلها المؤرخون اتخذها القصصيون مادة لقصصهم وبنوا على الخبر القصير قبابًا من الخيال. بيد أن الخيال مهما تجسم أمامنا فهو على كل حال لا يخلو من حقيقة. فقصص سيف بن ذي يزن، وعنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي وغيرها من القصص التي مثلت دور البطولة فيها شخصية تاريخية، كلها قصص فيها ظل من الحقيقة وفيها بعض الأخبار التاريخية التي تناقلها المؤرخون العرب مغلفة بخيال القصة. ولا شك في أن الأخبار التي تناقلها المؤرخون لها قيمتها على ما في الكثير منها من مبالغات. فجرجي زيدان الذي قال عن روايات المؤرخين القدامى: إنها خرافات تخالف العقل والنصوص التاريخية. لم ينكر الحقائق التاريخية التي تكمن وراء خيال المؤرخين. فمن رأيه [أن ما يرويه العرب لا يخلو من حقيقة لابد من استخراجها ولا يكون ذلك إلا بالمقابلة بينها وبين مصادر تاريخية غير عربية أو قراءة الآثار][1].

فمما لا أشك فيه أن قوم عاد برزوا في الجزيرة وأنهم كانوا أصحاب قوة وبأس شديد، إذا بطشوا بطشوا جبارين، وأنهم كانوا أغنياء مترفين يبنون في كل ريع آية. ومما أرجحه أن قوم عاد لم تنشأ دولتهم في اليمن وتقبر فيه، بل كانت لهم دولة في

---

(١) **العرب قبل الإسلام**، ص١٢٦ وص٢٣.

وادي القرى، وأن نفوذهم امتد على كثير من ربوع البلاد العربية أيام دولتهم في الشمال وأيام دولتهم في الجنوب.

فلا يبعد على قوم عاد أن يقيموا مدنًا في شمال الحجاز، وفي أطراف العراق، وفي قلب اليمن، وأن يضفوا عليها مظاهر الأبهة والفن سيما في بلاد اليمن التي عرفت بترف دولها وثروات أرضها. فلقد جاء في دائرة معارف وجدي : [أن أهل اليمن لم يقلوا عن أهل مصر وفينيقية مدنية في العصور القديمة إذ كان منهم الملوك الفاتحون والتجار المتنقلون وكان لديهم مدن عامرة وآثار جميلة][1] .

ويقول غوستاف ليبون : [ومن الأدلة على ازدهار مدن اليمن في القرون القديمة ما كان لها من الصلات التجارية الواسعة بالبلاد الأخرى، وبما أن علاقات العرب التجارية العالمية استمرت ألفي سنة، وقد ورد ذكرها في التوراة، فإننا نقول : إن العرب ضربوا بسهم وافر في ميدان الحضارة وإنه كان لمخازنهم من الأهمية ما لمخازن البندقية في إبان عظمتها][2] .

٥- فلم يكن اعتراف غوستاف ليبون وديتلف نيلسن اللذين نقلنا رأيهما في المصادر العربية فيما تقدم وغيرهما من المستشرقين مجرد استنتاج وظن. فلقد وضعت النصوص الأثرية بين يدي محققي التاريخ العربي من الأدلة ما جعلهم يستأنفون دراسة تاريخ اليمن القديم وتحقيق ما جاء في الروايات العربية عن اليمن ودوله وحضارته على ضوء المعلومات التي وصلت إليهم.

ومن الضروري أن يتدخل منطق العصر الحاضر وموازينه في دراسة المؤرخين المتأخرين، فأخذ بعضهم يناقش ما قاله مؤرخو العرب عن قوم عاد وأنهم كانوا في

---

(١) دائرة معارف وجدى ٢٤١/٦ .

(٢) حضارة العرب ،ص٩٥ .

وادي القرى[1] ، وعن سبأ التي عاشت في شمال الحجاز ، وهل كانت حاضرة بلقيس ملكة سبأ في اليمن أو في شمال الحجاز؟ وتردد الكثيرون في تصديق ما قيل عن "إرم ذات العماد" وساروا خلف ابن كثير[2] وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين العرب الذين لم يطمئنوا إلى ما قيل عن إرم ذات العماد ، وقد وجد هذا الكثير في اختلاف المفسرين في تفسير ما جاء عن "إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد" ما قوى ترددهم.

٦- فلقد اختلف المفسرون في تفسير ما جاء في القرآن الكريم عن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، فكان قول الذين يعتقدون أن إرم ذات العماد هي مدينة لم يخلق مثلها في البلاد موضع شك ومثار جدل.

ففسر البعض إرم ذات العماد : أن (إرم) كلمة تعني شعب عاد ، وأن كلمة (العماد) تعني عماد الخيام ، فعلى ذلك فإن إرم ذات العماد تعني شعب عاد أصحاب عمد الخيام. فلقد جاء في تاريخ ابن كثير : [فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام][3] .

وتفسير هذا البعض كما تراه بعيد الاحتمال ، فليس من المنطق أن يبني قوم عاد قصورًا ضخمة لا يسكنونها ، إنما القريب من المنطق أن تكون العماد أعمدة القصور التي كان العاديون يبنونها ، فلقد أصبح من الحقائق التاريخية أن الأعمدة من فن البناء العربي القديم.

كما أن زعم الذين قالوا إن إرم مدينة تدور في الأرض ، فتارة تكون في الشام وتارة في اليمن وتارة في الحجاز ، ضرب من الخيال البليد[4] . وإنني أظن أن أولئك الذين يقولون بأن مدينة إرم تدور في الأرض قد اختلط عليهم الأمر فساروا مع الخيال

---

(١) معجم البلدان .مادة قرح .

(٢) تاريخ ابن كثير ١/ ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ص١٢٠ وما بعدها .

(٤) تاريخ ابن كثير ١/ ١٢٠ .

الساذج، دون أن يتنبهوا إلى ما جاء عن قوم عاد في القرآن الكريم ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١)، ودون أن يلقوا بالا إلى تلك الآثار المنتشرة في الجزيرة العربية والتي ينسبها العرب إلى قوم عاد، فلو أنهم تنبهوا إلى كل ذلك لقالوا: إن لقوم عاد مدنًا في الحجاز وفي الشام وفي اليمن بدلاً من قولهم: إن إرم ذات العماد تدور في الأرض فتكون تارة في الحجاز وتارة في الشام وتارة في اليمن وتارة في مصر.

٧- والمحقق الجدي الذي يتناول موضوع إرم ذات العماد عليه أن يستوعب كثيرًا من المصادر ويتعمق مع كثير مما جمعته أقلام المؤرخين، وهو إذا ما تعمق مع كثير مما جمعته أقلام المؤرخين، لا يستبعد وجود مدينة فيها كثير مما تخيله بعض المفسرين والمؤرخين، شادها قوم عاد وأسرفوا في تزيين قصورها ومعابدها كما فعل بعدهم الجرهائيون في مدنهم والسبئيون.

فلقد جاء في معجم ياقوت: أن أكثر الذين اختلفوا في إرم ذات العماد يقولون بأنها مدينة دمشق، وأن البحتري الشاعر المعروف عناها بقوله(٢):

إليك رحلنا العيس من أرض بابل ... يجور بها سمت الدبور ويهتدي

إلى إرم ذات العماد وإنها ... لموضع قصدي موجفًا وتعمدي

ومما يقرب ظن هؤلاء أن اسم (إرم) من الأسماء المعروفة في الشام، فإرم اسم علم لجبل من جبال (حسمى) من ديار جذام بين أيلة وتيه بني إسرائيل(٣) وأن للإرميين تاريخًا قديمًا في سوريا.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٢٨، ١٢٩.

(٢) أنا لا أرى أن البحتري قصد في شعره أن دمشق هي إرم ذات العماد وإنما هو أراد المقابلة عندما قال إنه رحل من العراق أرض بابل إلى دمشق التي هي في عظمتها إرم ذات العماد.

(٣) المعجم ١/١٩٦، ١٩٧

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية عن رواية المسعودي التي تقول : بأن الإسكندر لما أسس الإسكندرية وجد أعمدة من الرخام نقش على أحدها اسم شداد بن عاد وأن شداد بن عاد قد شيد هذه المدينة، وكتب على أحد أعمدتها بالخط الحميري المسند : أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد شددت بساعدي البلاد وقطعت عظيم العماد من الجبال والأطواد، وأنا بنيت إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وأردت أن أبني هنا كإرم وأنقل إليها كل ذي إقدام وكرم إلخ[1] [والذي يغلب على الظن أن هذه الرواية قد أخذت عن قصة الإسكندر التي تذهب إلى أنه قد اكتشف عند تشييده الإسكندرية معبدًا فيه مسلات عليها نقش يشير إلى الملك (سيسنخيس) الذي حكم المعمورة، يضاف إلى هذا أن ذلك النقش الذي يشير إليه المسعودي يتمشى مع قصة الإسكندر إلى حد بعيد. وإذًا يجب أن لا ننتظر من هذه الرواية أن تدلنا على موقع (إرم). على أنه لابد أن نلاحظ كذلك أن الطبري أيضًا في تفسيره يذكر ذلك الرأي القائل بأن إرم هي الإسكندرية نفسها. ويجب أن نلاحظ أن صيغة (إرم) من لغة أهل اليمن، فقد ذكر الهمداني جبلاً وبئرًا يعرفان بالاسم نفسه في جنوب بلاد العرب][2] .

وهذا الذي جاء في دائرة المعارف الإسلامية وإن كان نقاشًا علميًّا متزنًا؛ إلا أنه لم يتعمق في بحث الموضوع كما يبدو على كلامهم عن صيغة (إرم) وأنها من لغة أهل اليمن، بناء على أن الهمداني قد ذكر بئرًا وجبلاً في اليمن يعرفان بالاسم نفسه (إرم). فمما يجب أن يلاحظ في هذا الصدد ما جاء في تاج العروس : و(الآرام) بالمد الأعلام أو خاص بعاد، و(إرم) كعنب والد "عاد الأولى" أو "الأخيرة" أو اسم بلدتهم. وقال الزمخشري: (إرم) اسم بلد منه الإسكندرية[3] . ومما أثبتته المعاجم : أن كثيرًا من

---

(١) مروج الذهب ١/ ٣٧٠ مطبعة السعادة .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٦٣٣ وما بعدها .

(٣) تاج العروس . مادة إرم ٨/ ١٤٤ .

أسماء الأماكن في الشمال تطلق على أماكن في الجنوب مثل : الجوف، وعبيل، والطائف، ومن جبال الشمال التي ذكرها ياقوت : جبل (إرم) الواقع بين إيلة وتيه بني إسرائيل[١] . فإذا كان هنا في الجنوب جبل يسمى "إرما" فكذلك هناك في الشمال جبل يسمى "إرما" . وإذا كان هنا في الجنوب شعوب وقبائل إرمية فإن هناك في الشمال شعوبًا وقبائل إرمية. وإذا كان (لوث) المستشرق يرى وجود صلة بين إرم والآراميين، فإن العرب وغير العرب من المستشرقين يرون : أن الإرميين انتشروا في أنحاء البلاد العربية شمالاً، وجنوبًا، وشرقًا، وغربًا.

وقد يكون النقش الذي وصل إليه المسعودي هو غير النقش الذي عرفه مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية. وقد يكون شداد بن عاد وسيسنخس قد بنى كل منهما بجانب الآخر على أرض المدينة التي أصبحت في عهد الإسكندر أثرًا من الآثار؛ فلقد رأيت في قلعة (بعلبك) بناء عربيًا أقامه العرب بين أطلال القلعة القديمة. وهذه مدينة القاهرة مليئة بآثار عدد من الشعوب والدول الذين توارثوا السيادة عليها.

وإنما الذي يلاحظ على رواية المسعودي قوله : إن ا لكتابة بالخط ا لحميري المسند، والذي يلاحظ على أسلوب كتابة النقوش التي جاء فيها : وأنا بنيت إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، أنه أسلوب إسلامي، فتعريف الخط بالخط الحميري المسند، والتنويه بأن إرم ذات العماد لم يخلق مثلها في البلاد، محل نظر. فأولاً : الحميريون هم الذين أدالوا سلطان عاد سنة ١١٥ق.م. ثم الأسلوب، فمن البعيد عن الظن أن يكتب شداد بن عاد الذي عاش ومات قبل أن يولد المسيح بمئات السنين بالخط الحميري أنا بنيت مدينة إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد[٢].

---

(١) راجع معجم ياقوت مادة إرم.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٦٣٤.

٨- إن البحث في إرم ذات العماد بحث عميق كما ترى. ولا يستغرب من المؤرخين العرب أمثال ابن خلدون وابن كثير إن هم هزئوا مما يقال عن كنوز مدينة إرم ذات العماد ، وقصورها الموشاة أبوابها وسقوفها بالذهب والأحجار الكريمة؛ لأن حضارات الأمم البائدة أخنى عليها الزمن ولم يأت لعهدهم من يكشف عن سرها ، ولأن الكثير من الأنباء التي وصلت إليهم عن العرب البائدة ، وصلت إليهم من أمثال ابن شرية ، وأن الكثير من الأنباء التي وصلت إليهم عن التوراة وصلت إليهم من أمثال كعب الأحبار وعبدالله بن سلام، وكل واحد من هؤلاء أطلق لخياله العنان في أكثر ما يتحدث به ، ويسأل عنه.

ومن المنتظر بعد المعلومات الأثرية أن يكون موقف المؤرخ في العصر الحديث من أنباء حضارة قوم عاد وسلطانهم، ومن أنباء ثروة اليمن وعمرانه ، أكثر ترويًا واهتمامًا من ابن خلدون؛ لأن الآثار كشفت عن حضارات في أنحاء البلاد العربية لم يكن يتصورها المؤرخون المتقدمون. فلقد أثبتت الآثار التي اكتشفت في العراق وفي شواطئ الخليج العربي :أن السوموريين كانوا يستوردون النحاس من مناجمه في عمان منذ بداية العصر النحاسي[1] ، وأثبتت الآثار التي اكتشفت في فلسطين والبحوث التي تقصت تاريخ دولها :أن الجزيرة غنية بمناجم الذهب الذي بلغت نقاوته حدًا لم تعد معه في حاجة إلى تصفيته بواسطة الصهر[2] ، ويقول ديتلف نيلسن : [إن الحضارة العربية القديمة لا تقل عن أختيها المصرية والبابلية][3] . وأكدت الآثار التي اكتشفت في أنحاء الجزيرة العربية وفي المناطق القاحلة منها :أن أطوارًا من النشاط العمراني شهدتها الجزيرة العربية منذ فجر الحياة. وأثبتت آثار الثموديين التي لا تزال شاخصة لم تنلها عوادي الزمان :أن العرب البائدة كانوا أكثر أموالاً وأولادًا وقوة من العرب الذين خلفوهم على أرض الجزيرة.

---

(١) تاريخ العرب لحتي ٤٣/١ .

(٢) تاريخ العرب لحتي ٦/١١ .

(٣) تاريخ العرب القديم ، ص٢٧ .

فليس بكثير - وقد ثبت كل هذا - على شعب عاد الذي وصفه القرآن الكريم بالقوة والثراء، ونوه الشعراء الجاهليون بدولته وسلطانه - ليس بكثير على ذلك الشعب الذي كانت له صلات سياسية وتجارية بالدول التي تعاصره: أن يغدق على عاصمته مظاهر الترف والأبهة كما فعل ملوك (كيش) منذ سنة ٣٢٠٠ ق.م. بعاصمتهم التي كشف التنقيب عن أعمدة تنم نقوشها وزخارفها عن ثقافة وثراء سكان (أكاد) و(سومور)[١] في أرض الفرات، وكما فعل من بعدهم السبئيون والجرهائيون بمعابدهم وقصورهم[٢] في اليمن والخليج العربي. فليس الكيشيون ولا السبئيون، والجرهائيون بأكثر ولعًا بالبناء وفخامته من العاديين الذين كانوا يبنون في كل ريع آية، ولا هم بأكثر قوة وأكبر سلطانًا.

فإذا كان المؤرخون القدامى وقفوا من رواية ابن قلابة موقف الشك والريبة؛ لأنهم لم يملكوا من الأدلة ما يبرز الاهتمام بذلك الخبر الذي جاءهم عن رجل يحتاج على ما يثبت الثقة فيما يقوله، والذي أمن على ما يقوله كعب الأحبار المبالغ في ادعائه المفرط في خيلاء جعلته يزعم أنه يعلم الأمر قبل وقوعه، فهو قد ظن أنه سيسأل قبل أن يسأله أحد !! - فإن المؤرخين اليوم يقدرون حضارة الماضي القديم؛ لأنهم يملكون من الأدلة ما يجعلهم يهتمون بما يرويه (ديودورس) عن السبئيين وسلطانهم الواسع وغناهم الضخم وترفهم الذي بلغ بهم أن يتخذوا آنيتهم وقوائم سررهم من الذهب والفضة ويكسوا أبواب المعابد والغرف بالذهب، ويطعموا الجدران والتماثيل بالأحجار الثمينة؛ ويهتمون بما يقوله (سترابون) وغير سترابون عن مدن الخليج العربي وعن (الجرهائيين)[٣] وأنهم كانوا شعبًا غنيًا يسكن في المناطق الشرقية من شبه الجزيرة

---

(١) راجع **تاريخ العالم** ٥٤٣/١.

(٢) **دائرة المعارف الإسلامية**. مادة سبأ ٢٠٨/١١.

(٣) الجرهائيون أو الجرهميون: هم شعب ذكرهم مؤرخو اليونان والرومان من سكان الخليج العربي الموصوفين بالنشاط التجاري.

العربية نافسوا السبئيين في الثروة والترف، وأن مظاهر الثراء الواسع كانت تتجلى في الآنية والأثاث الذهبي البراق، وفي الأحجار النفيسة الغالية التي زينوا بها سقوف بيوتهم وأبواب غرفهم[1] بعد أن كسوها بالذهب.

فهل علينا بعد هذه الشواهد الكثيرة أن نسير وراء الذين يقولون : إن قوم عاد كانوا يبنون القصور ويسكنون الخيام، وأن التفسير الصحيح لإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد : أن إرم تعني شعب عاد وأن العماد تعني عماد الخيام؟ هل لنا بعد أن ظهرت آثار الماضي في اليمن، وفي شواطئ الخليج العربي، وفي اليمامة، وفي البحرين ألا نصدق بوجود مدينة مطلية أبوابها بالذهب والفضة مطعمة بالأحجار الثمينة تنسب إلى قوم عاد؟!

فقد يكون البناء الذي عثر عليه ابن قلابة معبدًا من معابد المعينيين أو قصرًا من قصور ملوكهم أزالت الرياح من فوقه رمال الأحقاف الناعمة، فهال ابن قلابة بريق المعادن فأخذ يتحدث بما رأى، ولا تزال روعة ما رأى تملأ نفسه، وأخذ الناس يفسرون ما يقوله ابن قلابة بما يعتقدونه في قوم عاد الذين كانوا ينسبون إليهم كل أثر قديم. ولا عجب إن لم يعثر على تلك الآثار ابن قلابة بعد ذلك ولم يعثر عليها غيره فالمعروف عن المناطق الرملية الناعمة التي هي مثل رمال الأحقاف أن الرياح تنقل كثبانها من مكان لآخر بين عشية وضحاها.

ثم نحن إن افترضنا مع من يفترض اختلاق هذه القصة فننفيها مع من نفاها، فإن علينا أن نأتي بأدلة النفي، وأهم دليل ينفي هذه القصة معرفة الأسباب التي جعلت ابن قلابة يختلق ما يقول : وليس بين سطور هذه القصة ما يدل على أن هناك أسبابًا جعلت ذلك الرجل يفتري هذه القصة.

---

(١) العرب قبل الإسلام جواد ٤١٣/٢، ٤١٩ وراجع حضارة العرب لغوستاف ليبون ص٨٨ وما بعدها.

ونحن إن قلنا مع من يقول : إن كعب الأحبار كان يخلط الحقائق بالخيال، فإن ذلك لا ينفي أن جوابه كان يمثل الرأي العام السائد في صدر الإسلام والقائل بأن لعاد مدينة كانت تسمى (إرم ذات العماد) فلو أن الرأي العام في ذلك التاريخ كان ينكر وجود مدينة تسمى إرم ذات العماد لما عز على كعب الأحبار أن يرد بجواب غير هذا؛ فكعب الأحبار على ما يقال فيه : قصاص لبق مطلع عرف كيف ينال ثقة معاوية بن أبي سفيان، وما معاوية بن أبي سفيان بالرجل البسيط، وكعب على ما يبدو وقد سمع عن تلك المدينة وسمع عن قصة ابن قلابة فقدر أنه سيسأل عنها فأعد الجواب الذي يتفق مع ما يعتقده الناس ويزيدهم ثقة فيه.

٩- على أنه مهما يكن من أمر هذه القصة، فإنها تكشف لنا ناحية مهمة في موضوعنا؛ وهي أن العرب في جاهلية ما قبل الإسلام وفي صدر الإسلام مقتنعون بأن حضارة جنوب البلاد العربية حضارة عظيمة رائعة، وحضارة قديمة قدم قوم عاد، وأنهم كانوا مقتنعين بأن قوم عاد كانوا يبنون في كل بلد بناء قويًّا جميلاً مترفًا، فلذلك اختلط الأمر على الذين اعتقدوا : أن إرم ذات العماد هي ميدنة، فقال بعضهم : إنها في الشام، وقال بعضهم : إنها في وادي القرى من الحجاز، وقال أكثرهم : إنها في الأحقاف باليمن، وقال بعضهم : إنها الإسكندرية.

واقتناع العرب بالحضارة اليمنية القديمة أثبته البحث الحديث. فلقد تحدث (نيلسن) عن المدن القديمة في كتاب التاريخ العربي القديم فذكر رحلة "هيلفي" في اليمن وما أسفرت عنه النقوش التي عثر عليها وقال : [فقد علمنا أن هناك مدينة رفيعة راقية لشعب ضرب في المدنية بحظ وافر، ففي الجهات الخصبة الواقعة حول نهر (خرد) في الجوف العربي الجنوبي وشمال شرق صنعاء اكتشف (هيلفي) آثار تلك الحضارة الرفيعة في ظلال من الأبنية العظيمة والمدن الكبرى التي يقع معظمها فوق مرتفعات حصينة. فقد كانت هذه المدن كما تبين فيما بعد من النقوش مدنًا معينية قديمة][1].

---

(١) التاريخ العربي القديم، ص١٤.

هكذا نجد البحث في قصة إرم ذات العماد يصل بنا إلى حضارات جنوب الجزيرة العربية وشرقها. إلى حضارة عمان منذ العهد النحاسي. وإلى حضارة معين التي كشفت بحوث الأثريين عن أقدم أثر للدول المعينية "أولى دول اليمن في رأي الكثيرين"، والتي قال عنها أكثر المحققين : إن أقدم أثر لها يرجع إلى ما قبل منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

ووصل بنا البحث إلى ما عرف عن ترف السبئيين والجرهائيين الذين كانوا يكسون جدران قصورهم ومعابدهم وأبوابها وسقوفها بصفائح الذهب والفضة ويزخرفونها بالأحجار الثمينة إلى غير ذلك من الأدلة التي أشرنا إليها، والتي تجعلنا مع الذين يصدقون : أن إرم ذات العماد مدينة، ولا يستبعدون : أن يعثر ابن قلابة على ما عثر عليه، وإن كنا لا نؤكد : أن الآثار التي عثر عليها ابن قلابة هي آثار مدينة إرم ذات العماد بالذات، فقد تكون آثار مدينة من مدن السبئيين، أو المعينيين، أو الحضرميين، أو القتبانيين؛ فقد انتشرت حضارات هاتيك الدول في جنوب الجزيرة العربية، وكذلك نحن لا نؤكد : أن كل ما قاله عبدالله بن قلابة صحيح؛ لأن القصة لا تخلو من أثر الدهشة التي خالطت نظرات ابن قلابة ولا تخلو أيضًا من رتوش صنعها الذين تناقلوا قصة ابن قلابة واكتشافه. فإن كل هذا لا يجعلنا ننكر أصل هذه القصة، فقد تكون الآثار التي رآها بن قلابة هي آثار معبد من معابد اليمن القديمة أو قصر من قصور ملوكها المترفين.

فالآن وبعد أن حقق لنا البحث في مدينة إرم ذات العماد قدم الحضارة العربية في الأقسام الجنوبية والشرقية من جزيرة العرب، خليق بالبحث أن ينتقل إلى ما وصل إليه تحقيق المؤرخين عن بداية التاريخ العربي في هذه الأقسام، والبحث فيما وصل إليه تحقيق المؤرخين هو كما قلت من قبل شاق صعب لاختلاف المصادر ولضرورة الأخذ برأي جرجي زيدان الذي مر بنا قوله : إن استخراج حقائق التاريخ اليمني لا يمكن إلا بالمقابلة بين المصادر العربية وغير العربية.

البحث الرابع والعشرون

متى بدأ التاريخ العربي في جنوب الجزيرة وشرقها؟

من موضوعات البحث :

١- "الحضارة العربية في الخليج العربي ليست متأخرة عن الحضارة السومورية في العراق .

٢- المناطق التاريخية في الشرق والجنوب من الجزيرة العربية .

٣- التاريخ العربي في شواطئ الخليج قديم .

٤- عمان تشارك اليمن وتشارك الخليج العربي في أحداثهما .

٥- تاريخ حضرموت مرتبط بتاريخ اليمن .

٦- اختلفت المصادر في حدود اليمن القديم .

٧- بداية تاريخ اليمن .

متى بدأ التاريخ العربي في جنوب الجزيرة وشرقها ؟

١- إن مناطق الجنوب والشرق من الجزيرة العربية مناطق شاسعة ذات تاريخ عريق وذات حضارات جد قديمة أكل الدهر عليها وشرب. وإنا إذا قلبنا صفحات ماضيها البعيد ، نجد شواطئ الخليج العربي إن لم تكن حضارتها وحضارة بلاد ما بين النهرين كفرسي رهان ، فهي على كل حال لم تكن متأخرة عنها ، ونجد المؤرخين يجمعون على أن لحضرموت حضارة نمت في أحضان الزمن منذ عهد بعيد ، ونجد الأثريين يتحدثون عن علاقة قدامى الفراعنة بالمنطقة الغنية ببخورها والتي كانت تسمى بأرض (البنط)(١) ، تلك المنطقة التي كانت تحيط بباب المندب وكان قسم منها من جزيرة العرب وقسم منها من أفريقيا.

٢- وإن البحث في تاريخ هذه المناطق وبدايته يفرض علينا أن نقسم موضوعه إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : المنطقة التي تقع بين عمان والعراق .

ثانيًا : المنطقة التي تشمل عمان وحضرموت .

ثالثًا : منطقة اليمن. فإن هذا التقسيم على ما أعتقد أوضح للبحث وأبين.

أولاً : الأرض الممتدة من تلال الكويت شمالاً إلى عمان جنوبًا : (القرين) الكويت ، و(هجر) الأحساء ، واليمامة ، وشبه جزيرة قطر ، و(دلمون) جزر البحرين.

والتاريخ الحضاري لهذه المنطقة يبدأ من قبل الألف الثالثة التي سبقت ميلاد المسيح عليه السلام ، حيث كان الكنعانيون منتشرين في طول هذه المنطقة وعرضها ،

(١) راجع الفصل الخاص باليمن من الجزء الخاص بجغرافية بلاد العرب القديمة من هذا الكتاب .

كما أثبته البحث في جغرافية الجزيرة العربية من هذا الكتاب. فمن المتفق عليه عند المؤرخين: أن الكنعانيين هاجروا من شواطئ الخليج العربي إلى سوريا في مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد، حيث عرفوا هناك في سوريا باسم الفينيقيين. ومن المؤكد الواضح عند الأثريين: أن الكنعانيين أقاموا حضارة في اليمامة، وفي الأحساء، وفي البحرين قبل أن يهاجروا إلى سوريا.

ومن عصر الكنعانيين تعاقبت الأمم على هذه المنطقة فمنهم: طسم وجديس الددنيون الذين انتشروا من وادي القرى إلى سواحل الخليج، وغيرهم من الشعوب التي أشار إليها (جان جاك)[1] عندما قال: [لقد شهدت هذه الشواطئ ولادة وانقراض كثير من الحضارات والإمبراطوريات والفلسفات والأديان].

فعلى مقربة من ميناء (العقير) المعروف اليوم، آثار ميناء تجاري عظيم أبقت الأيام عليها؛ لتشهد البعث الحضاري في القرن العشرين. ويقول المحققون في تاريخ ذلك الميناء: إن الناس كانوا يتحدثون عن عظمته إلى عهد الرومان. وفي يقين الأثريين: أن (بلبانة) إحدى مدن الجرهائيين تقع على خليج القطيف. وفي بحوثهم: أن آبار العوفير القريبة من القرية المعروفة باليمامة هي موضع (أوفير) التي ذكرتها التوراة والتي كانت تصدر الذهب والطواويس.

والبحرين أو (دلمون) التي ورد ذكرها في الآثار الأشورية، يتحدث الأثريون عما خلفه الكنعانيون فيها من آثار حديثًا طويلاً. ولقد كانت (دلمون) - البحرين - أرضًا مقدسة عند العراقيين تقوم فيها بيوت آلهتهم.

ولكن هل تعتبر هذه الحضارات بداية التاريخ العربي في هذه المنطقة؟ إن من رأيي أن هذه الأنباء التي يكتنفها الغموض لا يستفاد منها أكثر من اتخاذها أدلة تثبت

(١) **كتاب الخليج العربي**، ص١٩ ومابعدها.

الحضارات العربية في سواحل الخليج العربي أو ما أسماه جغرافيو العرب : العروض. فالتاريخ الحقيقي لا بد أن يكون واضح المعالم متسلسل الحلقات، ولم تتضح معالم التاريخ في بحوث المؤرخين؛ إلا من بعد عصر الإسكندر المقدوني، ولم تتسلسل حلقاته؛ إلا من بعد الدولة الفارسية.

٣- أما الأخبار القصيرة وما فيها من أسماء الأمكنة والشعوب والملوك التي وردت على نصوص (سرجون) وخلفائه وعلى النصوص الآشورية التي تشبه البلاغات الرسمية التي تعلنها دول اليوم، فإنها أخبار قصيرة لم ترتبط حلقاتها؛ لتكون تاريخًا أو شبه تاريخ لذلك الجزء من البلاد العربية، وأما ما جاء في مؤلفات المؤرخين من قصص عن (جديس) و(طسم) و(وبار) فإنه يحتاج إلى تحقيق يعتمد على أدلة لم يتوافر فيها غير ما طالعنا به اكتشاف الأثريين، وهذا كذلك مفكك الحلقات لا يتجاوز الكلمة الموجزة التي دعت إليها المناسبة. فما قدمه المؤرخون وما قدمه لنا الأثريون على ما فيه من أدلة تثبت قدم التاريخ في سواحل الخليج العربي لا يمكن الاعتماد عليه في تحديد بداية التاريخ لهذه المنطقة. فعلى ما جاء في البحث عن الملاحة العربية في الخليج العربي ونشاط الموانئ العربية التجاري في تلك العصور الخوالي، فإننا لم نجد غير أدلة تؤكد قدم الحضارة العربية في العروض كما قلت أولاً.

٤- **ثانيًا** : عمان وحضرموت - وعمان وحضرموت وإن اتفقت كلمة المؤرخين في تاريخهما على أنه قديم وقديم جدًا، فإن عمان التي كانت تصدر النحاس إلى السوموريين[١]. لا يصل البحث في تاريخها إلى أبعد مما وصل إليه البحث عن العروض وأقسامها. فعمان في رأي بعض الجغرافيين قسم من أقسام العروض، وعمان تعتبر حلقة الوصل بين العروض وحضرموت واليمن. فهي ذات تاريخ مشترك مع اليمن من جهة ومع العروض من جهة أخرى.

---

(١) تاريخ العرب لحتي ١/ ٤٣.

٥- أما حضرموت، فلقد عرف تاريخها منذ عرف تاريخ معين وسبأ وقتبان، وأقدم تاريخ عرف لهذه الدول هو تاريخ الشعب المعيني، وتاريخ المعينيين في الجنوب لا يتجاوز منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

على أننا إذا رجعنا إلى ما يقال عن (حضرموت) الجد الأعلى للحضرميين في بحوث الأنساب نجد : أن حضرموت من رجالات العصور التي سبقت منتصف الألف الثانية قبل الميلاد. ونحن وقد بحثنا فيما يقوله النسابون : عن قحطان والقحطانيين حضرميين وغير حضرميين في الجزء الخاص بشعوب الجزيرة العربية من هذا الكتاب، نحيل القارئ المستزيد إلى ذلك الجزء.

كما أنني ألفت النظر إلى أن حضرموت في أزمنتها الغابرة ليست محجوزة في الحدود الجغرافية التي تحيط بحضرموت اليوم، وإلى أن حضرموت كانت في عصورها القديمة أكثر نشاطًا وأكثر حضارة مما هي عليه اليوم، وإلى أن البحث عن جغرافية حضرموت القديمة قد تأخر في الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة العربية، كما تأخر البحث عن دول حضرموت في الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها من هذا الكتاب.

٦- **ثالثًا** : اليمن - والبحث عن اليمن تجده في البحوث التاريخية متعدد الصور مختلفة أوجه البحث فيه. وذلك لأن اليمن في كثير من البحوث اليونانية معناه البلاد السعيدة - والبلاد السعيدة في مؤلفات اليونانيين تمتد من بادية الشام شمالاً إلى البحر العربي من المحيط الهندي؛ وكذلك نجد اليمن في البحوث الإغريقية مندمجًا في منطقة أطلقوا عليها اسم إثيوبيا ومدوا حدودها من أرض النوبة والبلاد الحبشية في أفريقيا إلى عمان وشواطئ الخليج العربي في شبه الجزيرة العربية بآسيا .

ونجد اليمن في آثار الفراعنة داخلاً في نطاق المنطقة التي أطلق عليها الفراعنة اسم - أرض البنط - التي تشتمل على بعض من شواطئ أفريقيا المطلة على جنوب البحر الأحمر وباب المندب وعلى بعض من جنوب الجزيرة العربية الغربي .

ونجد اليمن في بحوث المؤرخين العرب القدامى يشمل جنوب الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج العربي.

أما بحوث المستشرقين فقد عينت حدودًا لليمن قريبة من حدوده في الوقت الحاضر.

ومن المتوقع أن تختلف الاعتقادات في المدى الذي بلغه تاريخ اليمن القديم بنسبة اختلاف الآراء في تعيين حدوده[1].

فالمؤرخون العرب يرجعون بتاريخ اليمن إلى أقدم العصور التي تعرف اليوم بالعصور السامية، فتاريخ اليمن السياسي في مؤلفات المؤرخين العرب جد قديم وجد واسع. فهم يتجاوزون بتاريخ اليمن عصر (ذي القرنين) باني سد يأجوج ومأجوج، وهم يبدأون به من قبل عصر نمرود إبراهيم - أحد جبابرة (أور) - وهم يدخلون في تاريخ اليمن أكثر أحداث الجزيرة العربية سيما شواطئ الخليج العربي. ولعل السبب في ذلك هو ما وصل إليهم من اليمنيين وما اطلعوا عليه في المصادر اليونانية.

أما المستشرقون فبحوثهم المتأخرة أكثر اعتمادها على تحقيقات الأثريين ونقوش الآثار. فأقدم دولة في رأي الأكثرية منهم - هي دولة معين- فمن أنصار هذا الرأي (جلازر) و(هومل) و(فيمر) و(فيلبي). ويرى آخرون منهم (و.هـ. مللر) و(مارتين هارنمان) : أن دولة سبأ أقدم من دولة معين. ويقول (ك. كلاركر) أن القتبانيين والمعينيين ظهروا بعد سبأ مباشرة.

ومن المفيد للبحث هنا أن نترك المستشرقين فيما هم فيه مختلفون؛ لأن لكل دولة من هذه الدول فصلها الخاص في الجزء الموضوع للدول العربية وسياستها، ولأن الذي

---

(١) راجع القسم الخاص بجغرافية اليمن في جزء جغرافية الجزيرة العربية من هذا الكتاب.

نبحث عنه هنا هو : التاريخ العربي وبدايته في اليمن - وإخالني قد قلت فيما سبق : إن كثرة الأثريين يؤكدون أن منتصف الألف الثانية قبل الميلاد هو البداية لتاريخ اليمن الحقيقي. ولكنني لم أقل : إن هناك فريقًا آخر يقول إن تاريخ اليمن لا يتجاوز ألف عام قبل الميلاد ، فهناك قسم كبير لا يتعدى بتاريخ المعينيين الألف الأخيرة التي سبقت الميلاد.

فالذي يظهر على أكبر التقديرين : أن تاريخ اليمن الحقيقي كان متأخرًا عن تاريخ الحجاز الذي بدأ بعصر إسماعيل في مكة . والذي ألفت النظر إليه هنا هو ما يقوله بعض الغربيين عن أسبقية العنصر الحامي في سكنى جنوب الجزيرة العربية[1] حيث دلت الآثار على وجودهم في الجنوب من قبل منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

والذي أراه أنا : أن تحديد الألف الأخيرة التي سبقت الميلاد ، أو منتصف الألف الثانية ، مبني على ما وصل إليه الأثريون ، وأن عدم عثور الأثريين على نص يرجع تاريخه إلى ما قبل ذلك العصر ، لا يحتم علينا الاعتقاد بأن هذا الجزء من الجزيرة العربية كان خاليًا من الناس ينعب فيه الغراب فتجاوبه البوم ، في الوقت الذي كانت فيه (عمان) تصدر النحاس إلى السوموريين ، وفي الوقت الذي كانت فيه منطقة باب المندب أو ما يسمى بأرض (البنط) تصدر البخور إلى مصر. ولا يحتم علينا الاعتقاد بأنه كان خاليًا من العرب إلى قدوم المعينيين.

والذي أراه أنا : أن العناصر التي سكنت في منطقة باب المندب وأطراف اليمن الجنوبية والغربية كانت خليطًا من عناصر سامية وحامية .. الأمر الذي جعل النسابين يختلفون في أصل الحميريين خلفاء المعينيين والسبئيين هل هم قحطانيون عربًا أو من أصل حامي؟! كما ترى ذلك الخلاف وأسبابه في الجزء الخاص بشعوب الجزيرة العربية.

---

(١) راجع هامش تاريخ العرب لفيليب حتى ، ص٩.

٧- فبناءً على ذلك فأنا مقتنع بأن اليمن قد سكن من قبل منتصف الألف الثانية السابقة للميلاد، وأن سكانه كانوا خليطًا من الساميين ومن بلاد النوبة والأحباش، فاليمن لم يكن في المؤلفات اليونانية من ضمن المنطقة الأثيوبية؛ إلا للصلات الوثيقة التي كانت تربطه بالحبشة، والتي جعلته في نظر المؤرخين اليونانيين مع الحبشة ومع عمان وشواطئ الخليج العربي منطقة واحدة أسموها : أثيوبيا. فليس غريبًا على بلد يحظى بالسواحل والأسواق التجارية إن ازدحمت أرضه بمختلف العناصر؛ فسواحل اليمن وأسواق مدنه معروفة بالنشاط التجاري من أقدم الدهور.

كما أنني معتقد أن التاريخ العربي في اليمن أقدم من الآثار التي بنى عليها المستشرقون اعتبارهم منتصف الألف الثانية، أقدم عصور المعينيين، ولكنني أقول مع القائلين : إن التاريخ العربي الذي تسلسلت حلقاته : يبدأ من عصر المعينيين الذين عرف تاريخهم منذ منتصف الألف الثانية ق.م. ومن عصور السبئيين والقتبانيين والأوسانيين الذين وضحت لنا الآثار جانبًا من تاريخهم واطلعنا على بعض نظمهم وعقائدهم. وعرفنا بها أسماء ملوكهم التي تجد قوائمها اليوم في كثير من المؤلفات التاريخية. وأهم هذه القوائم وأكثرها إيضاحًا وتحقيقًا القوائم المذكورة في تاريخ العرب لجواد علي. على أنني هنا أذكر مرة ثانية الأسماء التي جاءت في بعض المصادر العربية مثل مؤلفات الهمداني، وأقول : إنها ذات قيمة تاريخية جديرة بعناية التحقيق واهتمامه.

هذا ولعلنا نجد ما يؤكد لنا : هذه النتائج في مصادر تاريخ الأديان في جنوب الجزيرة وشرقها، فالأديان كما قلت من قبل دليل من أدلة بداية التاريخ.

البحث الخامس والعشرون

صراع الأديان جزء مهم في تاريخ جنوب الجزيرة وشرقها

من موضوعات البحث :

١- صراع الأديان في اليمن سبب مشكلات سياسية تجاوزت حدود اليمن.

٢- متى بدأ صراع الأديان في اليمن ؟

٣- هل تأثرت وثنية اليمن بوثنية العراق ؟

٤- أسباب الفرق في موقف العرب في الجنوب وفي الشمال من اليهودية .

٥- العقائد في الساحل العربي من الخليج تأثرت بعقائد وادي الفرات في أكثر العصور .

٦- العقائد في حضرموت صورة من العقائد اليمنية .

٧- من أين جاءت عقيدة الثالوث الفلكي إلى اليمن ؟

صراع الأديان جزء مهم في تاريخ جنوب الجزيرة وشرقها

١- لم يكن اليمن في زمن من الأزمان بمعزل عن صراع الأديان واختلاف النحل والمذاهب، ولم يسبب صراع الأديان في اليمن مشكلات داخلية فحسب، بل هو أثار مشكلات دولية في عالم ذلك الزمن؛ برزت واضحة في حادثة الأخدود التي راح ضحيتها نصارى نجران.

٢- وصراع الأديان يبدأ في رأي المؤرخين العرب منذ عصر هود نبي قوم عاد، ولقد تقدمت في البحوث السابقة الأدلة التي تؤكد : أن عادًا وقوم هود كانوا في الشمال، وتقدمت كذلك الظنون في عصر هود، وهل سبق عصر إبراهيم أو تأخر عنه؟ فعلى ذلك فإن البحث هنا لا يستدعي العودة إلى ذلك النقاش؛ فسواء كان قوم عاد الذين بعث لهم هود في وادي القرى شمال الحجاز كما يرى البعض، أم كما يرى البعض الآخر : أن قوم عاد الذين بعث لهم هود كانوا في الأحقاف شمال حضرموت، فإن من المرجح أن عادًا استقر في الجنوب ودفن فيه، وأن لـ (هود) في اليمن زعامة دينية مطاعة، وأن لهود مكانة محترمة بدليل انتساب القحطانيين إلى هود اعتزازًا وافتخارًا به، ولقد ظن بعض النسابين : أن القحطانيين من ذرية هود.

ومما لا شك فيه : أن قوم عاد الذين بعث إليهم هود كانوا على وثنية وجدوا آباءهم يدينون بها. ومما لم يذكره واحد من المؤرخين : أن متاعب صادفت هودًا في أيامه التي عاشها في اليمن بعد عذاب قوم عاد المكذبين.

فعلى ذلك التحقيق المبني على ما جاء في كتب التفسير ومؤلفات المؤرخين العرب : أن قوم عاد كانوا وثنيين من قبل هود، وأن الذين نجوا مع هود من العذاب والذين التفوا من حوله في الجنوب، آمنوا بالوحدانية التي نادى بها هود.

وعلى ما وصل إليه البحث عن عصر هود وأنه كان بعد عصر إبراهيم بزمن غير طويل، وعن عصر إبراهيم وأنه في رأي الأغلبية كان بين أواخر الألف الثالثة وأوائل الألف الثانية قبل الميلاد، وأن بين ملة إبراهيم وتوراة موسى التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد والتي لم تشر إلى هود وقومه العاديين، ولا إلى صالح وقومه الثموديين، زمنًا يبلغ عدد سنيه نحوًا من سبعمائة عام انطوت وانطوت معها أحداث جسام منها : مصرع قوم عاد بالريح الصرصر، ومنها مصرع قوم ثمود بالرجفة. وكان فيها انتشار عاد الثانية في جنوب الجزيرة.

وإذا كان صحيحًا ترجيحنا : أن قوم عاد هم المعينيون، فإن المعينيين بلغوا اليمن في منتصف هذه السبعمائة عام، وهذا التقدير كما تراه قريب مما قالته الكثرة من المستشرقين عن المعينيين، وأن تاريخهم في اليمن حسب النصوص الأثرية يبلغ ألفًا وخمسمائة عام قبل الميلاد.

وإذا كانت النصوص الأثرية في اليمن أشارت إلى أصنام المعينيين، فإن الوثنية في اليمن التي أشارت إليها تلك النصوص لم يتجاوز تاريخها النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، بموجب هذه النتيجة التي يصل إليها التحقيق، ولعلها ظهرت بعد أن تناسى الناس شريعة هود.

٣- والوثنية في اليمن في رأي أكثرية المستشرقين لم تتأثر بالوثنية البابلية، كما تأثرت بها وثنية شمال البلاد العربية. فهذه الأكثرية تقول : إن أساطير اليمنيين وتصويرهم الآلهة وأسماء الأصنام في اليمن، تتباين عن أساطير العرب في الشمال وتصويرهم الآلهة وأسماء أصنامهم. ويعتقد البعض أن أكثر الأصنام التي ذكرها ابن الكلبي لم تكن شائعة في اليمن شيوعها في الحجاز ونجد. غير أن هذا الاعتقاد بدأ يتضعضع عندما ظهرت الآثار في الجنوب تحمل اسم (العزى) و(سواع) و(ود) وغيرها من أسماء الآلهة التي عرفت في الشمال.

فمن الظنون التي نبعت من التحقيق والتقصي، ظنون تذهب إلى أن الأديان في الجزيرة العربية كعناصرها كانت في الأصل ديانة عربية واحدة تفرقت في مهد العروبة مع العنصر العربي الذي ملأ جوانب البلاد العربية، وعرف في بحوث التاريخ القديم باسم العنصر السامي، وتطورت بتطور القبائل المهاجرة في مهاجرها وتلونت بالظروف والحالات التي تلونت بها مداركها ومفاهيمها. وكلما بعدت المسافة وتقادم العهد زادت الفوارق حتى أصبحت الوثنية في الشمال بعيدة الشبه عن الوثنية في الجنوب.

وأهم عوامل التباين في العقائد : تفاوت المستوى الفكري، فلقد قص علينا القرآن الكريم : كيف كفرت عاد بربها، وبأي منطق جادلت هودًا؟ وقص علينا كيف كفرت ثمود وبأي منطق جادلت صالحًا. فلم تكن من حجج هود : ناقة، ولا أفعى، ولا مائدة من السماء؛ لأن عقلية العرب الذين لم يحتكوا بغيرهم من السوموريين والحثيين، وبالقوط من المصريين، غير عقلية العرب الذين اختلطوا بهؤلاء وتشبعت عقليتهم بمادياتهم. فالعرب في قلب الجزيرة العربية لا يؤمنون بالسحر إيمان المصريين به، ولا يتأثرون بالماديات كتأثر الإسرائيليين بها، ولا يقبلون التضحية بالعفاف مهما كانت المبررات البابلية.

فإذا كانت الوثنية في اليمن تختلف في بعض صورها عن الوثنية في الشمال، فإن ما كان بينهما من اختلاف هو النتيجة المتوقعة لاحتكاك الجنوبيين بالأحباش، واحتكاك الشماليين بالحثيين وشعوب البحر الأبيض.

٤- ونحن إذا بحثنا عن السر الذي جعل موقف الإرميين في الجنوب من اليهود واليهودية أفضل من موقف العماليق في الشمال، فإن الظنون تصور لنا أسبابًا لذلك منها : أن الوثنية في قلب الجزيرة وجنوبها أكثر تمسكًا بالإله الأعلى الرحمن الرحيم

من الوثنية الشمالية، وإن كانت بعض المذاهب الوثنية في اليمن تأثرت بالوثنية الشمالية فاعتقدت في الثالوث المقدس - القمر وهو الأب ، والزهرة وهي الابن والشمس وهي الأم(١) .

ومنها : أن اليهودية جاءت إلى الجنوب في حماية "تبع" الذي احترمها وجعل لها نفوذاً استغله اليهود في حادثة الأخدود ، فكانت هذه الحادثة المعول الذي قوض سلطان اليهودية وبوأ النصرانية المكان الأول في رعاية (أبرهة)، فكانت لها السيادة إلى ما بعد عودة سلطان الحميريين في حماية القوى الفارسية. ومنها : أن اليهودية جاءت إلى فلسطين تتبعها جيوش جرارة من الذين تبعوا موسى وهاجروا معه، تريد أن تحتل أرضها وتقضي على سلطانها.

وهكذا يكشف لنا البحث في صراع الأديان في اليمن عن جانب كبير من تاريخه.

٥- أما تاريخ الأديان في سواحل الجزيرة العربية الممتدة على الخليج العربي، فالذي يستدل من الآثار، ويستشف من الأخبار القصيرة التي أوردها المؤرخون العرب في كلامهم عن قبائل : (وبار) و(طسم) و(جديس) أنه يشبه إلى حد بعيد تاريخها العام. فالقسم الشمالي من العروض متأثر بحضارة العراق، وبعقائد العراق، وبسياسة العراق، وإنك لتجد هذا التأثر واضحًا فيما كشفه البحث الأثري من معابد في جزر البحرين، قيل : إنها كانت عند العراقيين معابد مقدسة ولا يزال مذهب الشيعة له معتقدوه في الأحساء والبحرين في الوقت الحاضر.

٦- أما القسم الجنوبي - فهو متأثر بحضرموت واليمن في عقائده وتقاليده، في أخلاقه وطباعه، في حضارته واقتصادياته وسياسته حتى إنك تجد من المؤرخين من يعتقد أن عمان قسم من اليمن وأن اليمن يمتد من البحر الأحمر إلى الخليج العربي.

---

(١) جواد تاريخ العرب ١٢٠/٥ ، والتاريخ العربي القديم ، ص١٩٤ .

٧- ولعل الاعتقاد في النجوم وعبادة (ودّ) والإيمان بالثالوث المقدس، استورده اليمن من العراق عبر سواحل الخليج العربي، فأخذت عبادة الكواكب مكانها بجانب العقائد التي انتقلت إليه من أفريقيا عبر باب المندب، مثلما عبرت عبادة الكواكب من بابل إلى مصر عن طريق سوريا.

ولقد وضح هومل: الفوارق الملاحظة بين عقائد الساميين في جنوب الجزيرة وشمالها، وعقائد الساميين في بابل. وفي مقدمة ما وضحه الفرق في مراتب الأفلاك الآلهة فالقمر (ود) هو مقدم على الشمس عند الساميين في غير بابل. أما في بابل فالشمس هي المتبوئة المرتبة الأولى في العقائد البابلية[1].

والذي لا تشك فيه الظنون: أن تاريخ الأديان في سواحل الخليج العربي يمتد إلى عصر الكنعانيين في الخليج العربي. والذي يستفاد من النتائج التي وصلت إليها البحوث التي ناقشت نشوء العقائد في الجنوب: أن تاريخ الأديان في اليمن وفي العروض يؤكد النتائج التي وصل إليها البحث في حضارة هذه البلاد وفي بداية التاريخ العربي.

---

(١) تاريخ العرب لجواد ١٢٢/٥، والتاريخ العربي القديم ص١٩٤ وما بعدها.

البحث السادس والعشرون

الهلال الخصيب في التاريخ العربي

من موضوعات البحث :

١- بواعث هذه التسمية "الهلال الخصيب" .

٢- الأقطار التي تمثل الهلال الخصيب .



الهلال الخصيب في التاريخ العربي

١ - ليس هنا مكان القول عن الأسباب التي من أجلها اخترت اسم الهلال الخصيب لمنطقة شمال الجزيرة العربية من مصب الفرات في الخليج العربي شرقًا إلى منتهى خليج العقبة غربًا ، فلقد بينت ذلك في الفصل الخاص بهذه المنطقة في الجزء الموضوع لجغرافية الجزيرة العربية من هذا الكتاب. كما بينت الأسباب التي من أجلها اخترت اسم سوريا الكبرى لشق الهلال الخصيب الغربي : سوريا ولبنان وفلسطين. وإنما الجدير بالتوضيح هنا : أنه ليس من تلك الأسباب سبب واحد يرجع إلى الآراء السياسية التي تتردد اليوم، إنما هي أسباب تاريخية محضة.

٢ - والهلال الخصيب كما هو معروف يشمل العراق وسوريا ولبنان وفلسطين. وأرض العراق وسوريا الكبرى، عرف تاريخهما من زمن قديم. فالحديث عن التاريخ العربي فيهما - العراق وسوريا - يستلزم تخصيص البحث في كل من العراق وسوريا. وتخصيص البحث في تاريخ كل من العراق وسوريا الكبرى يستلزم الكلام عن حضارتهما الغارقة في القدم ولا سيما أرض ما بين النهرين "العراق".

البحث السابع والعشرون

العراق عرف الحضارة من أقدم العصور

من موضوعات البحث :

١- تتفق آراء القدامى مع المتأخرين على قدم حضارة العراق .

٢- غوستاف ليبون يؤيد رأي القدامى الذي يقول : إن العقل البشري نما وترعرع في العراق قبل أن يولد في مصر .

٣- جون ويلسن يقول : إن دين مصر لبابل أمر واضح .

٤- أدلة الغربيين على قدم حضارة العراق تعتمد على الآثار .



العراق عرف الحضارة من أقدم العصور

١- إن المؤرخين الذين استعانوا في بحوثهم بما في الكتب المنزلة وبما في المصادر اليونانية عن نوح وقومه، وعن الطوفان ودفنه معالم حضارة الذين سبقوا نوحًا وملأه في أرض ما بين النهرين - العراق - يتفقون مع المؤرخين الذين استمدوا بحوثهم من نتائج الدراسات الجيولوجية، ومما وصلت إليه معاول الأثريين، على أن حضارة العراق أقدم حضارة عرفها الإنسان قبل التاريخ.

فلقد لخص ابن خلدون في تاريخه ما جاء في كتب التفسير عن إدريس ووضعه أسس الحضارة الإنسانية وتأسيسه المدن وتنقله في أرجاء البلاد العربية قبل الطوفان، وعن أبناء نوح الذين عمروا العراق بعد الطوفان، وكيف ضاقت بهؤلاء مدن العراق فهاجروا إلى مشارق الأرض ومغاربها - ولقد جمع يوسف الدبس في كتابه: "تاريخ سوريا" عددًا من النصوص والأدلة التي تثبت تحضر العراق من قبل الطوفان ومن بعده.

ثم جاء المؤرخون المتأخرون الذين تحملوا مسئولية التحقيق في التاريخ العربي القديم، مثل: جرجي زيدان، وفيليب حتي وغيرهما فأرجعوا تاريخ الحضارة في العراق إلى ما قبل أربعة آلاف عام قبل الميلاد وقالوا: إن التاريخ العربي "السامي" يبدأ من سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد، وأن السيادة العربية على العراق بدأت من عهد (حمورابي) في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد.

وهؤلاء المؤرخون الذين تحملوا مسئولية التحقيق في التاريخ القديم، اعتمدوا في بحوثهم على الدراسات الغربية ونتائجها، والباحثون في الحضارات القديمة من الغربيين يكادون يجمعون على أن حضارة بلاد ما بين النهرين أقدم من حضارة وادي النيل، وأن العراقيين على ضفاف الفرات تمدينوا قبل أن يتمدين المصريون على ضفاف النيل.

٢- فغوستاف ليبون الذي رحب بكتابه "بابل وآشور" سلامة موسى وقال عنه: [نحن نرحب بظهور هذا الكتاب؛ لأنه يسد فراغًا أو بعض الفراغ][1] يؤكد: أن

---

(١) كتاب بابل وآشور ص٥.

حضارة العراق أسبق من حضارة مصر فهو يقول : [وهكذا كان الإغريق الراسخون في المدنية يقولون بأعلى صوتهم : إنهم أخذوا مدنيتهم عن مدارس العلم القديمة التي ازدهرت فوق مجرى الفرات الأدنى في العصور القديمة. ولذلك كان يقول "ديودوروس" و"هيرودوتس" و"سترابون" و"أرسطو" وآخرون إن نمو العقل البشري كان مترعرعًا وكاهلاً فوق ضفاف الفرات قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل][1] .

وكذلك (جون ويلسن) الذي قرظ كتابه (الحضارة المصرية) أحمد فخري أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بجامعة القاهرة فقال عن المؤلف جون ويلسن وكتابه الحضارة المصرية : [إنني أشعر بالكثير من راحة الضمير؛ لأني أحس في قرارة نفسي أنني ساهمت في عمل مفيد نافع لقراء العربية وخاصة طلبة الجامعات ومدرسي التاريخ بالمدارس، فإن الكتاب مملوء بالمعلومات الصحيحة المستمدة من أحدث الأبحاث والاكتشافات][2] . ومؤلف كتاب الحضارة المصرية يؤكد مقالة غوستاف ليبون عن قدم حضارة العراق .

٣- فلقد قال (جون ويلسن) بعد أن استعرض العناصر والصناعات والفنون التي استعارتها مصر من العراق : [كانت العراق في ذلك العصر تعرف عجلة الفخار التي لم تعرفها مصر ، ومن المحتمل أن مصر قد تأثرت واقتبست بعض الطرق لتحسين صناعاتها من الخارج. ولكن أهم تلك العناصر التي نشك في أخذ مصر لها من العراق هي فكرة الكتابة ، وكل ما يمكننا قوله : هو إنه كان للعراق شيء من الأسبقية في معرفة الكتابة ، فتاريخ الحضارة في العراق يثبت أنها تقدمت تقدمًا طبيعيًا ، ولم تستعمل إلا مواد ووسائل محلية في الجزء الأكبر من عصر ما قبل الأسرات فيها ، وهكذا يلوح لنا أنه من المحتمل أن بابل وصلت إلى مستوى حضاري احتوى على عناصر وآراء تقبلتها مصر واستعارتها ، ولكننا لا نرى مثل هذا الميل في بابل للاستعارة من مصر ، فعلى

---

(١) كتاب بابل وآشور، ص ٥٢ .

(٢) الحضارة المصرية ، ص٥ .

ذلك كان التفوق الحضاري في جانب العراق في الوقت الذي كانت تسعى فيه مصر إلى هذه الأسبقية، وإذا صح أن الجزء الأخير من عصر ما قبل الأسرات في مصر تأثر بمنبهات عقلية وصناعية وفنية من العراق، وأن مصر بدأت عصرها التاريخي بعد ذلك مباشرة فما هو معنى هذه الملاحظة؟ هل كان التفوق الحضاري للعراق هو الذي أخرج مصر من الهمجية إلى المدنية؟ إن جوابنا عن هذا السؤال جواب صحيح، إن دين مصر لبابل أمر واضح وزمنه مطابق تقريبًا لفترة انتقال مصر من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخي، ولهذا لا مانع من أن ننسب إلى بابل بعض التأثير في هذا الانتقال. ونحن نستدل على القيمة الحقيقية لهذا الأمر إذا تساءلنا سؤالاً آخر: هل كان في مقدور مصر أن تخرج من الهمجية إلى المدنية دون منبه من العراق؟ ولا شك أن الرد عن هذا السؤال تقديري طالما قد حدث هذا بالفعل وجاء المنبه من العراق][1].

وجاء في كتاب تاريخ العالم الذي ترجمته إدارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم المصرية: [فبابل دون غيرها لم يكن بها من حاجة إلى التأثر بمصر وكذلك لم تدن بنتها آشور بأي دين مباشر للحضارة المصرية إبان القرون التي حاربت فيها مصر وهزمتها][2].

فالبحوث الغربية التي اعتمد عليها محققو التاريخ العربي القديم، والتي أشاد بها علماء التاريخ القديم في مصر واهتمت بترجمتها الجهات المختصة بوزارة التربية والتعليم المصرية - تؤكد: أن العراق عرف الحضارة قبل أن تعرفها مصر، وأن العراق وصل إلى عصره التاريخي في الوقت الذي كانت فيه مصر لا تزال في بداية الطريق إلى عصرها التاريخي، وأن للحضارة العراقية أثرًا واضحًا في تطوير التمدين الفرعوني.

٤- والغربيون في بحوثهم يعتمدون على الآثار وأدلتها المادية. والآثار وأدلتها المادية تثبت أن العراق عرف الحضارة من قبل الطوفان بعصور طويلة، فلقد أثبت تنقيب

---

(١) الحضارة المصرية، ص٨٤ وما بعدها إلى ٨٨.

(٢) تاريخ العالم ٢/ ٢٠٥.

(ولي) في خربات (أور) أن حضارة العراق أقدم بكثير من العصور التي بحث فيها غوستاف ليبون وجون ويلسن ومؤلفو تاريخ العالم؛ إذ وصل تنقيب (ولي) إلى عمق عظيم من سطح الأرض فوجد في أغوار الأرض طبقة من الغرين سمكها ثمانية أقدام رسبت على أثر فيضان مروع لنهر الفرات قال عنه (ول - ديورانت) إن هذا الفيضان هو - الطوفان - فقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة قامت قبل هذا الطوفان وصفها الشعراء فيما بعد بأنها العصر الذهبي لتلك البلاد، وحاول الكهنة المؤرخون في هذه الأثناء، أن يخلقوا ماضيًا يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومورية فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ورجعوا بالأسر المالكة التي حكمت قبل الطوفان إلى تاريخ طويل بلغ من العمر ٤٣٢،٠٠٠ عام ق.م.[(١)] .

فما اكتشفه الأثريون وحققه المؤرخون الغربيون يتفق أكثره مع ما جاء في مصادر التاريخ العربية والإسرائيلية عن عالم ما قبل الطوفان في وادي الفرات.

فعلى ذلك، فإن البحث في تاريخ العراق الحضاري لا يختلف قديمه وحديثه في أن العراق عرف أقدم حضارة إنسانية. وإنما الذي اختلف فيه هو الأسلوب، ونوعية الأدلة التي تثبت هذا القدم، فالمؤرخون القدامى استعرضوا الأقوال التي تثبت الجاهلية الأولى؛ جاهلية ما قبل الطوفان، واستعرضوا الأقوال التي تثبت أن نوحًا والذين نجوا معه استأنفوا حضارتهم في العراق بأسلوب وأدلة الماضي الذي عاشوا فيه. والمؤرخون اليوم يستعرضون نتائج الدراسات الجيولوجية والتحقيقات الأثرية بأسلوب وأدلة الحاضر الذي يعيشون فيه، ولا غرابة في ذلك؛ فكل جيل يبحث بأسلوبه ومنطقه ولا يعتمد إلا على الأدلة التي يطمئن لها وتهضمها عقليته.

---

(١) راجع الحضارة لمؤلفه (ديورانت) ١٦/٢ وراجع بحث **دول ما قبل التاريخ في الشرق العربي وسني حكمها** في هذا الجزء من هذا الكتاب .

البحث الثامن والعشرون

التاريخ العربي في العراق

من موضوعات البحث :

١- العرب لم يكونوا السابقين في تحضير العراق .

٢- انتصار العرب على السومورين انتصار شامل .

٣- البحوث الأثرية جعلت تاريخ الكلدانيين والآشوريين واضحًا وضوح تاريخ الساسانيين في العراق والرومانيين في سوريا .

٤- العصر التاريخي في العراق بدأ مع العصر العربي .

٥- هل عروبة الساميين في العراق مثل عروبة القرشيين في الحجاز؟



التاريخ العربي في العراق

١- لقد أجمع الباحثون في تاريخ العراق القديم على أن العرب أو الساميين كما يسمون في بحوث التاريخ القديم. لم يكونوا السابقين إلى تحضير أرض ما بين النهرين، بل سبقتهم إلى ذلك أمم لا تزال أرومتها موضع الظنون، ولا يزال وطنها الأول الذي نزحت منه إلى ضفاف الفرات قيد الشكوك.

٢- وأجمعوا على أن الأمم التي سبقت العرب إلى العراق والتي عرفت باسم السومريين، جاءت إلى العراق من الهضاب الممتدة من الشمال، ومنهم أمم جاءت من الشرق من بلاد فارس ومن شبه جزيرة الهند. وأجمعوا على أن الانتصار العربي في العراق لم يكن انتصارًا سياسيًّا فحسب، بل كان انتصارًا شاملاً صبغ الأوضاع جميعها بصبغته وأوجد للعراق صفته العربية، وأزاح عنه سلطان الدول التي احتلته في أحقاب الزمن المجهول.

وأبرز انتصارات العرب وأقدمها : انتصار (سرجون) الأول. وأعظم انتصار عربي: انتصار (حمورابي) . فلقد شملت حضارة الحمورابيين، ونظمهم، وتقاليدهم، وعقائدهم، البلاد، ولم يزاحمهم سياسيًا غير أبناء عمومتهم الآشوريين في المناطق الشمالية التي ما زالت تزدحم بعناصر غير عربية من قبل التاريخ إلى يومنا هذا.

ويؤكد المحققون في تاريخ الهجرات العربية : أن المهاجرين العرب في العراق لم تنقطع قوافلهم طيلة العصور التي سبقت التاريخ العربي في العراق، وأن العرب المهاجرين إلى العراق لم يكونوا حفاة عراة همجًا لا يعرفون شيئًا من الحضارة، فمناجم النحاس في شواطئ الخليج العربي، وآثار الفينيقيين في اليمامة، وآثار الإرميين في الأحقاف، وفي حجر ثمود، تؤكد أن العرب الذين أجلوا السومريين عن

الأرض العراقية العربية كانوا يملكون من مقومات الحضارة ما جعلهم قادرين على تطوير الحضارة السومورية، وصهرها في بوتقة حضارتهم.

٣- ويعترف محققو التاريخ الحضاري في العراق بأن البحوث الأثرية خدمت تاريخ الحضارة العراقية، وأنه بفضل البحوث الأثرية لم تصبح شريعة حمورابي سرًّا من أسرار الماضي، فبفضل البحوث الأثرية استطاع المؤرخون أن يدرسوا شريعة حمورابي، وأن يعرفوا الكثير من تاريخ إمبراطوريتي العراق العظميين "الكلدانية" و"الآشورية"، وأصبح البحث في تاريخهما مشاعًا يتناوله المؤرخون بالنقد والتحقيق.

٤- ويؤكد محققو التاريخ الحضاري في العراق : أن التاريخ السامي في العراق ظهرت ملامحه في عهد عاهلي أسرة (أجادة) : - سرجون - و - نرام سين - واكتمل في عهد عامل الأسرة البابلية الأولى "حمورابي" حوالي القرن العشرين قبل الميلاد[1]، ويؤكد مؤرخو دول ما قبل الميلاد : أن سرجون وأحفاده وحمورابي وأجداده، هم من العنصر السامي الذي انطلق من قبل الجزيرة إلى الهلال الخصيب، فمن هذه النتائج التي جاءت واضحة في بحوث تاريخ العراق القديم، يأتي الجواب عن السؤال موضوع البحث : متى بدأ التاريخ العربي في العراق؟ لقد بدأت أساطيره تلوح في عهد سرجون الأول وأخذت حقائقه تتجسد في عصر حمورابي.

وهنا يتحتم علينا : البحث عن تاريخ العصر السامي في العراق بالنسبة للتاريخ الميلادي. والبحث في التاريخ السامي في العراق يجر إلى ذكر الخلاف على عصر الساميين في العراق الذي ما زال قائمًا حتى اليوم. فزمن (سرجون الأول) و(حمورابي)

---

(١) سبق أن أشرنا إلى اختلاف آراء المؤرخين في عصر سرجون ونحن هنا اعتمدنا على رأي ديلابورت في كتابه **بلاد ما بين النهرين** ص٧٤ . ونلفت النظر إلى ما يلاحظ على أن الأسماء تتكرر واسم سرجون من الأسماء المكررة وهذه الملحوظة وضحنا عنها في الجزء الخاص بعناصر الجزيرة العربية وشعوبها.

تختلف فيه الآراء؛ فسرجون الأول - في تحقيق جرجي زيدان - نبغ في سنة ٣٨٠٠ ق.م.، وعصر حمورابي (الملك السادس في الدولة العربية البابلية التي تسمت باسمه : الحمورابية) يبدأ في سنة ٢٢٨٧ وينتهي في سنة ٢١٣٢ ق.م.)[١] .

ومن رأي العقاد : أن حمورابي كان في سنة ٢٤٦٠ ق.م. فهو يقول : [وقام بالأمر "حمورابي" صاحب التشريع المشهور سنة ٢٤٦٠ق.م.][٢] .

ومن رأي حسين مؤنس في تعليقه على كتاب جرجي زيدان : الأخذ برأي "ل. ديلابورت" الذي يجعل بداية الدولة الحمورابية سنة ٢٢١١ ق.م. ويجعل عصر حمورابي يبدأ سنة ٢١٢٣ وينتهي سنة ٢٠٨١ق.م.[٣] بينما "ل. ديلابورت" كما ترجم كتابه "بلاد ما بين النهرين" "محرم كمال" : يقول : [وقد حارب "سوابلوم الحمورابي" "كازاللو" عام ٢٢٢٤ق.م. ، وكذلك جاء فيه وهاجم "أيلوشوما" الآشوري "سوموابوم" في ٢٢٢٥-٢٢١٢][٤]، فعلى ذلك فإن هناك اختلافًا في فهم ما جاء في كتاب "بلاد ما بين النهرين" بين حسين مؤنس وبين محرم كمال، وخلافًا بين مصادر جرجي زيدان وبين مصادر "ل. ديلابورت"، وبينهما وبين مصادر العقاد.

وأكثر من هذا : أن بعض المؤرخين يبدون رأيين مختلفين مثل فيليب حتي الذي قال في كتابه "تاريخ سوريا" : [وتظهر أول إشارة إلى أرض الأموريين منذ عصر سرجون "حوالي ٢٢٥٠ ق.م."][٥] وقال في كتابه "لبنان في التاريخ" [وسرجون الأكدي "حوالي سنة

(١) العرب قبل الإسلام ، ص٥٣ ، ص٥٦ .

(٢) الثقافة العربية ص١٥ .

(٣) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص٥٦ .

(٤) بلاد ما بين النهرين ص٤٤ .

(٥) تاريخ سوريا ١/ ٧٠ .

٣٢٥٠ق.م." أول فاتح سامي][1] وفيليب حتي يجعل عصر حمورابي في ١٧٣٠ق.م. حيث قال : [وانتسب حمورابي إلى سلالة بابل نحو ١٧٠٠ ق.م.][2] .

فمن اختلاف هذه الآراء يتضح لنا : أن التاريخ العربي في العراق بدأ مع العصر السرجوني. وأن التاريخ العربي لم يدخل طور الحقيقة وتتضح معالمه إلا بعد العصر الحمورابي .

٥- والسؤال الذي يكمل الجواب عليه ـ بحث "تاريخ العراق العربي" هو : هل عروبة الساميين في بابل مثل عروبة القرشيين في مكة؟ والجواب عن هذا السؤال يأتي في تحقيقات جرجي زيدان : [إذا صح أن دولة حمورابي دولة عربية كما نبينه في الفصل الآتي، فإن العرب هم أسبق أمم الأرض إلى سن الشرائع وتنشيط العلم وأنهم بلغوا في النظام الاجتماعي ما لم يبلغه معاصروهم، وأدركوا من الرقي الاجتماعي ما لا يزال بعض الأمم المتمدينة في هذا العصر بعيدين عنه][3] .

والذي بينه جرجي زيدان ودعمه بالأدلة والبراهين يؤكد : أن دولة حمورابي دولة عربية مع الفارق بين عروبة الحمورابيين في العراق، وعروبة قريش في الحجاز. فلقد قال في كتابه العرب قبل الإسلام : [إن قولنا دولة "حمورابي" عربية لا يتبادر منه إلى ذهن القارئ أنه مثل قولنا :دولة الإسلام دولة عربية، وإذا صحت عربية تلك فلا يستلزم أن تكون لغتها مثل لغة القرآن، ولا أن عاداتها وديانتها مثل ما لعرب قريش. فإن بين الدولتين سبعة وعشرين قرنًا. والأمم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الأقاليم وتوالي العصور. لا خلاف في أن دولة حمورابي سامية الأصل، ولكنهم اختلفوا في

(١) لبنان في التاريخ ، ص ٨١.

(٢) تاريخ سوريا .

(٣) العرب قبل الإسلام ، ص٦٣ .

نسبتها إلى أي فرقة من الفرق السامية، وعندنا أنها من بدو الآراميين وهم عرب ذلك العصر أو العمالقة][1] .

والأدلة التي سردها جرجي زيدان تؤيدها الحقائق التاريخية، فاختلاف اللغة والعادات والتقاليد والأنظمة في مدى القرون الطويلة التي تفصل بين العرب الذين سبقوا المسيح بأكثر من ألفي سنة في أرض الفرات، وبين العرب الذين تأخروا عن المسيح بنحو سبعمائة عام في بطحاء مكة، وصحارى نجد، وأغوار تهامة، أمر مسلم به.

بل نحن إذا رجعنا إلى تاريخ الإمبراطوريتين العراقيتين : الحمورابية والآشورية نجد حضارة الآشوريين الذين عاصروا دولة حمورابي، ونظمهم، ونظرتهم إلى الأشياء تختلف عن حضارة الحمورابيين، ونظمهم، ونظرتهم إلى الأشياء في كثير من أمور الحياة الاجتماعية والسياسية ؛ فالآشوريون الذين يرجع تاريخهم في شمال العراق إلى ما قبل عصر حمورابي، تختلف شريعة إمبراطوريتهم التي سادت على الهلال الخصيب وامتدت إلى ضفاف النيل منذ بداية الألف الأخيرة قبل الميلاد. ففي التشريع الآشوري تعقيدلا نجده في شريعة حمورابي وفي النظم الآشورية شذوذ وقسوة وتشجيع على السفك والتدمير سلمت من كثير منه نظم الحمورابيين. بيد أن هذه الفوارق لم تتخذ دليلاً على اختلاف عنصري الآشوريين والبابليين، فالمؤرخون الذين بحثوا في التاريخ القديم، والنسابون الذين حققوا أنساب الماضين، والباحثون الذين اعتمدوا على الصور المنقوشة على آثار كلتا الدولتين ودققوا في زي الذين صورتهم النقوش وفي هيكل أجسامهم ورؤوسهم، اتفقوا آخر الأمر على أن الآشوريين والحمواربيين من عنصر واحد هو : العنصر السامي أو بالأصح العنصر العربي[2] .

---

(١) العرب قبل الإسلام ص ٦٤.

(٢) من رأي الكثيرين أن الساميين هم العرب وقد وضحنا ذلك في الموضع الجدير بالإيضاح من هذا الكتاب، راجع حضارة بابل وآشور.

ومع هذه الفوارق جميعها، فإن الدولتين العربيتين ظهر عليهما الكثير من صفات الدول العربية التي برزت في التاريخ. فحضارة كلتا الدولتين وسيادتهما انتصرت على حضارة السوموريين الذين احتلوا أرض الرافدين، وطوتها مع ما طوته من نظم وعقائد وسلطان. فمثلما نجحت دولة (بابل) الحمورابية في رفع المستوى الثقافي في العراق، وفي تحديد المسئولية الاجتماعية بنظام عادل، كذلك نجحت دولة (نينوى) الآشورية في رفع المستوى السياسي في العراق.

وإنما الفارق بين هاتين الدولتين العربيتين اللتين ظهرتا في عصور ما قبل الميلاد وبين الدول العربية التي برزت في التاريخ في عصور ما قبل الإسلام وما بعده يظهر في التشريع الحمورابي وما فيه من تشجيع على الدعارة، ويظهر في النظم الآشورية وما فيها من تشجيع على السفك والتخريب باسم الآلهة.

وألمع ما في الحضارة العربية القديمة في العراق هو: علم الفلك الكلداني، ونظام الجندية الآشوري، وأهم ما يلفت النظر في التاريخ العربي القديم في العراق هو: ترف دولة (الحضر)[1] التي قضت عليها جيوش الفرس، فإن كان الخيال أخذ دوره الكامل في قصة غرام بنت ملك الحضر بالعاهل الفارسي، ذلك الغرام الذي دفعها إلى أن تضحي بأبيها وملكه، فإن وراء القصص الخيالية حقائق تاريخية كما قلنا من قبل. وإن الحقيقة التي تقف وراء قصة بنت ملك الحضر وترفها هي: وجود دول عربية متحضرة إلى ما بعد تفوق النفوذ الفارسي في العراق.

---

(١) **الحضر**: حصن عظيم كالمدينة كان على شاطئ الفرات وقد جاء ذكره في شعر عدي بن زيد:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ... لة تجي إليه والخابور..

الخابور: نهر مشهور. سيرة ابن هشام ١/ ٧١.

البحث التاسع والعشرون

الأديان في العراق

من موضوعات البحث :

١- الوثنية لا تنكر الله ولكنها تشرك معه آلهة خلبت بهم عقلية المجتمع وتصوراته .

٢- شريعة حمورابي قريبة من الأديان السماوية .

٣- الدعارة في التشريع البابلي والسفك والتدمير في التشريع الآشوري: هما من مخلفات العقائد غير العربية في العراق .

الأديان في العراق

١- إذا كانت الوثنية كما قلنا ليست هي الدين الأول للأمم، وإذا كانت الوثنية كما قلنا لا تنكر وجود الله العظيم خالق السموات والأرض، فهي كذلك تجاري البيئة فتصطبغ بصبغتها وتساير العقول وتنطبع بأخيلتها، فمثلما انطبعت في قلب الجزيرة بطابع العربي الذي عاش في أحشاء الصحراء وعبدالله على ملة إبراهيم، هي كذلك تلونت في العراق باللون السوموري وسايرت العقلية الكلدانية القديمة، ومع ذلك لم تتحرر من العقلية العربية. والسوموريون، والكلدانيون وأبناء عمومتهم الكنعانيون، والحيثيون هم الأمم التي استوطنت العراق وضفاف الخليج العربي؛ فالكلدانيون في كتب التاريخ العربي من أوائل الأمم التي عمرت العراق، ويقول (ابن خلدون) : إن الكلدانيين موحدون خالفوا الصابئة التي انحرفت عن التوحيد إلى عبادة الكواكب[1] . والسوموريون في بحوث المستشرقين يرجع تاريخهم إلى أقدم عصور بلاد ما بين النهرين، ويقول (بريستد) : إن عقيدة السومورييين في مصير الإنسان بعد الموت غامضة، فهم يتصورون أن الموتى يعيشون في مكان تحت الأرض مليء بالظلام والتراب يذهب إليه الناس جميعًا لا فرق بين صالح ومجرم، ويعتقدون بأن الإنسان بعد الموت يحتاج في حياته الثانية إلى خدمه ومركباته[2] .

ولقد سبقت الإشارة إلى ما جاء في تحقيق "ديتلف نيلسن" عن الأديان في الشرق العربي، وأن [الدين العربي القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلي والآشوري المعقد][3] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/٥١ .

(٢) انتصار الحضارة لمؤلفه جيمس هنري بريستد، ص١٥٩ .

(٣) التاريخ العربي القديم ، ص٥٣ .

وجاء في تحقيق هومل : [أن النقوش البابلية تقدم لنا عددًا كبيرًا من أسماء الأعلام العربية الجنوبية التي جاء ذكرها ضمن أسماء ملوك الأسرة البابلية الأولى التي هي أسرة سامية عربية ، فهذه الأسماء هي مفيدة من الناحية الدينية][1] .

وما جاء في تحقيق "نيلسن" و"هومل" وغيرهما يؤكد : أن الدين البابلي الآشوري هو امتداد للدين العربي. فلقد تأثرت الأديان في العراق ومصر بأديان قلب الجزيرة العربية التي كان يدين بها المهاجرون من العرب إلى الهلال الخصيب: بابل، وسوريا، وفلسطين، وإلى شبه جزيرة سينا ، ودلتا النيل، والصحراء العربية من مصر. وكذلك تأثر أولئك المهاجرون بأديان سكان الفرات والنيل وبفلسفات معتقداتهم.

وأنا لا أستبعد هنا : أن يكون الفراعنة قد أخذوا عن السوموريين فكرة الاستعداد لما بعد الموت والتهيؤ للعودة إلى حياة يحتاج فيها الإنسان إلى لوازم حياته الأولى. فلقد أثبت البحث في معرفة التأريخ بمعنى التوقيت الذي سبق في مقدمة هذا الجزء، والبحث في معرفة الحضارات العربية في العراق الذي سبق هذا الفصل : أن العراقيين كانوا أسبق إلى النضج العقلي والحضاري من مصر، وأن مصر استعارت من العراق الكثير من أسس حضاراتها وعقائدها التي انتقلت إليها من البلاد العربية.

ولقد أثبت تاريخ الكنعانيين أنهم سكان الخليج العربي من قبل الألف الثالثة التي سبقت الميلاد. ومن آثار الكنعانيين في جزر البحرين : معابد في جزيرة البحرين. ومن معابد البحرين معابد كان العراقيون يقدسونها ويتعبدون فيها.

ومما هو واضح : أن العقائد السومورية كانت منتشرة في العراق، ومما هو واضح : أن العقائد السامية تلاقت على ضفاف النهرين : الفرات ودجلة مع العقائد السومورية واختلطت بها فترتب على ذلك التلاقي والاختلاط أن وجدت عقائد شاذة عن الخلق العربي مثل : تسلط سدنة المعابد على فتيات بابل باسم الدين.

---

(١) التاريخ العربي القديم ص٥٩ .

أجل ! إن العراق بلد عريق في الحضارة تلاقت على أرضه عناصر توافدت عليه من الشمال، ومن الجنوب، ومن الشرق، ومن الغرب لكل منها آفاقه العقلية، ولكل منها فلسفة في الأشياء التي تحيط به، قامت عليها عقائده وآراؤه في الحياة وما بعدها. ففي بحوث (ل. ديلابورت) وتحقيقاته صور واضحة للعقائد التي كانت تدين بها تلك الأجيال وفلسفتها، وكيف كانوا يعددون الآلهة : إله المحيط وإله السماء وإله الأرض. ويقول : (ل. ديلابورت) عن الثالوث الأول في العراق [قسم هؤلاء الآلهة الثلاثة (المعمورة) فيما بينهم ؛ لأنه طبقًا للآراء السامية لم يكن الشئ يستطيع أن يوجد دون أن يكون له سيد][1] .

٢- ونحن إذا طالعنا شريعة حمورابي نجد أن أحكامها في النكاح، وفي الطلاق، وفي حد الزنا الذي لا يثبت إلا في حالة التلبس، وفي القصاص : السن بالسن والعين بالعين، لا تختلف كثيرًا مع التشريعات السماوية[2] .

ونحن إذا تعمق بنا البحث في تاريخ حمورابي نجد من يقول : في عصر الدولة الحمورابية ظهر إبراهيم عليه السلام[3]، ونجد الكثير من المؤرخين يقول : إن إبراهيم هاجر من (أور) إلى فلسطين بعد أن أعلن الحرب على الأصنام وأخذ يدعو لملته. ونحن إذا علق بذهننا ما يقولونه عن عصر إبراهيم، وعن دعوة إبراهيم، وعن هجرة إبراهيم لا نستبعد أن تكون العقيدة التي نادى بها إبراهيم قد بلغت حمورابي وأن حمورابي قد استمع إلى ما يقال عن تعاليم إبراهيم بكثير من الاهتمام.

ولقد قال السيد رشيد رضا : [ثم ظهر أن شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة حمورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى معاصرًا لإبراهيم عليهما

---

(١) كتاب بلاد ما بين النهرين ، ص١٦٧.

(٢) انتصار الحضارة ، ص١٨٠ .

(٣) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ، ص٥٧ .

السلام. وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من العلماء الألمان في حفائر العراق : إنه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها ، لا وحي من الله][1] .

وما قاله السيد رشيد رضا عن شريعة حمورابي يرجح الظن في وجود صلة بين ملة إبراهيم وشريعة حمورابي، ولكن هذه الصلة في رأيي تثبت عكس ما قاله العلماء الألمان؛ تثبت : أن تشريع حمورابي اقتبس شيئًا مما كانت عليه ملة إبراهيم، وفي الوقت نفسه لم يهمل حمورابي العقائد السومورية، فأخذ منها ما هو ضروري للمجتمع البابلي الذي يتألف من العنصرين السامي والسوموري.

وأما ما ذهب إليه العلماء الألمان من أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله، فهو إنكار لحقائق لا تحتاج إلى نقاش، فلو لم تكن شريعة موسى وحيًا من الله فإن ملة إبراهيم أقرب إلى موسى وبني إسرائيل من شريعة حمورابي.

ومهما كان طابع التشريع الحمورابي، ومهما كانت الأصول التي قام عليها، فإن الوثنية قد وجدت مكانًا فيه، كما وجدت من قبله ومن بعده مكانًا في كل عقيدة شاعت في أرض الرافدين، فتزيت بالزي الذي يروق العقلية العراقية وتطورت مع مفاهيمها .

٣- ومهما ذهبت بنا الظنون في مصدر الدعارة التي تتمثل في تشجيع الفتاة على التضحية بعفافها في سبيل الآلهة، والتي أقرتها شريعة حمورابي، فإننا لمتأكدون من أنها غير عربية، فالخلق العربي منذ عرف العرب يأبى مثل هذه الرذيلة.

ومهما ذهبت بنا الظنون في معرفة مصدر ذلك الجبروت الذي تمثل في التشريع الآشوري، والذي يبيح السفك والتدمير في سبيل الآلهة، فإننا نستبعد ذلك على الخلق العربي الذي لم يسجل عليه التاريخ مثل تلك الوحشية، فلقد ظهرت أحكام المؤرخين

---

(١) **الوحي المحمدي** ، ص٥١ ويؤكد (نادي) في كتابه **التاريخ الجغرافي للقرآن** هذا الرأي . وينكر السيد رشيد، والسيد نادي وننكر معهما أن شريعة موسى مستمدة من التشريع الحمورابي.

على دولة العماليق في مصر، والإرميين في العراق، في صالح العرب ضد الدعاية الفرعونية في مصر، والدعاية الفارسية في العراق، ولقد أثبتت الفتوحات العربية الرحمة والعفو عند المقدرة.

ومهما حاولنا الاهتداء إلى معرفة العقائد في العراق، فنحن لا نجد في مصادرها حقيقة أوضح مما قاله ابن خلدون عن التوحيد الذي كان الأساس في عقائد الكلدانيين وأن الوثنية التي وجدت الباب مفتوحًا إلى عقيدة الذين صبأوا لعبادة الكواكب وجدت كذلك طريقها إلى الموحدين، فأخذت تتلون مع العقلية العراقية إلى أن اختنقت بالمجوسية من الشرق وباليهودية والنصرانية من الغرب. ولم يحرر العراق من صراع الأديان، ودعارة الشرائع البابلية، وقسوة الأحكام الآشورية، وأنانية النظم الفارسية، غير الإسلام دين المساواة في الحقوق والحرية في الرأي، ما لم يتعارض مع الخلق الفاضل، والحرية في العمل ما لم تتعارض مع مصلحة الجمهور.

ونجد بجانب هذه الحقيقة التي جاءت في تاريخ ابن خلدون حقيقة أخرى تؤكد لنا: أن تاريخ الأديان في العراق قديم قدم الحضارة في العراق.

البحث الثالث

التاريخ العربي في القسم الغربي من الهلال الخصيب

من موضوعات البحث :

١- سوريا الكبرى سطرت تاريخها الحقيقي في العصر العربي .

٢- الساميون هم سكان سوريا الأولون .



التاريخ العربي في القسم ا لغربي من الهلال الخصيب

١- أما الجانب الغربي من الهلال الخصيب (سوريا الكبرى)، فكذلك هو لم يدخل من باب التاريخ الحقيقي إلا في العهد العربي.

فعندما بحث (فيليب حتي) في أطوار التاريخ السوري قسم تاريخ شعوب سوريا إلى خمسة أقسام: [١- عصر ما قبل التاريخ -٢- الدور السامي الذي بدأ بالأموريين سنة ٢٥٠٠ ق.م. وانتهى بسقوط الإمبراطورية البابلية الجديدة أو الكلدانية سنة ٥٣٨ ق.م. وتبعته سيادة الفرس -٣- العصر اليوناني الروماني الذي بدأ بفتوح الإسكندر سنة ٣٣٣ ق.م. وانتهى بالفتوحات العربية -٤- الدور العربي الإسلامي الذي استمر إلى الفتح العثماني في ١٥١٦م -٥- الدور العثماني الذي انتهى بنهاية الحرب العالمية الأولى][١].

ويقول حتي: [إن أول إشارة إلى أرض الأموريين ظهرت في عصر سرجون حوالي سنة ٢٢٥٠[٢]. وإن الأموريين أخذوا يظهرون بالتدريج في سوريا الوسطى ولبنان وحتى في فلسطين في الجنوب. وإن الأموريين لم يقتصروا على تأسيس دولة في منطقة الفرات الأوسط واجتياح سوريا وإنما اجتاحوا بلاد ما بين النهرين أيضًا وحكموها، وقد أسسوا عدة سلالات من "آشور" في الشمال حتى "لارسا" في الجنوب بين سنة ٢١٠٠ و١٨٠٠ ق.م. وأهم هذه السلالات كانت سلالة "بابل" التي انتسبت إلى حمورابي][٣].

وعندما بحث المطران الدبس في سكان سوريا بعد الطوفان، اعتمد على ما جاء في الأسفار عن سكان سوريا، فقال: [قد مر في كلامنا على أنساب موسى أن سوريا سكنها:

---

(١) تاريخ سوريا ٦١/١.

(٢) سبقت الإشارة إلى اختلاف الرأي في تاريخ سرجون الأول وحمورابي.

(٣) تاريخ سوريا ٧٠/١، ٧٢.

أولاً : الآراميون ولد إرم بن سام بن نوح وكانت مواطنهم في سوريا المجوفة وما يليها في الجنوب وفي دمشق وما يليها.

ثانيًا : الجبابرة والأظهر أنهم ساميون من أقارب الآراميين.

ثالثًا : الكنعانيون وقد سكنوا شمال سوريا إلى حماة.

رابعًا : العبرانيون - إبراهيم وابن أخيه لوط - في جنوب سوريا .

خامسًا : المواببيون في شرق البحر الميت والعمونيون عبر الأردن.

سادسًا : ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأكثر هؤلاء من سكان بلاد العرب.

سابعًا : المدينيون ذرية مدين.

ثامنًا : الآدوميون في جبل سعير وشمال بلاد العرب.

تاسعًا : الفلسطينيون وكانت مساكنهم البلاد التي سميت باسمهم][1] .

ويقول (عارف باشا) : [إن اليبوسيين هم بناة القدس القدامى، وإن اليبوسيين بطن من بطون العرب الأوائل نشأوا في صميم الجزيرة العربية وترعرعوا في أرجائها، نزحوا إلى سوريا مع من نزح من القبائل الكنعانية، وإن من ملوكهم (ملكيصادق) أول من اختط المدينة "القدس" وبناها وكان قبل ذلك يسكن وقومه الكهوف][2] .

فهذه الأقوال على اختلاف المصادر التي اعتمدت عليها وعلى اختلاف أزمنة قائليها تجمع على أن العرب هم سكان سوريا في عصرها التاريخي الأول، وأن العرب

---

(١) تاريخ سوريا للدبس ١٥١/١ وما بعدها .

(٢) تاريخ القدس لعارف باشا ص١١ - ملكيصادق بهذا الاسم سمي الملك الكنعاني الذي اختط مدينة القدس - ويقول عارف باشا : عرف هذا الملك بالتقوى والعدالة وحب السلم حتى أطلق عليه لقب (ملك السلام) ومن هنا جاء اسم المدينة (سالم - شالم) تاريخ القدس ص١١ ولعل أصل هذا الاسم - "ملكيصادق" - الملك الصادق - و"يبوس" اسم القدس القديم.

هم الذين أسسوا الحضارة السورية القديمة، فهم الذين بنوا المدن، وهم الذين وضعوا نواة الثقافة السورية القديمة.

فمنذ بدأ البحث عن الآثار إلى الآن، فإن كل أثر يكتشف في سوريا يدل على حضارة عربية، اللهم إلا ما خلفته بعض العناصر التي مرت بسوريا، وما خلفه الرومان الذين تسلطوا على سوريا إلى ظهور الإسلام، واللهم إلا ما خلفه النضال السياسي الذي استمر طويلاً بين العماليق والحيثيين وشعوب البحر الأبيض المتوسط، والإسرائيليين والآشوريين والفراعنة - ما خلفه كل ذلك من مختلف الآراء والعقائد والثقافات.

وهذه الأقوال وما تبعها من تحقيق أثري أو إخباري، لا تتجاوز بالتاريخ الحقيقي للحضارة السورية عصر خمورابي الذي يرجح: أنه بدأ في القرن العشرين قبل الميلاد. فملكيصادق الذي تحدث عنه الإخباريون هو من رجالات التاريخ القديم الذين عاصروا إبراهيم عليه السلام، ولقد مر بنا: أن إبراهيم وحمورابي برزا في جيل واحد.

إذن: فإن الحضارة العربية في سوريا هي مثل شقيقاتها في أنحاء الجزيرة العربية بدأت في النضج في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، وإن التاريخ العربي في سوريا هو مثله في العراق، بدأ يتبلور في صورته الحقيقية حضاريًا وسياسيًا في الألف الثانية قبل الميلاد.

البحث الحادي والثلاثون

أعاصير الأديان في سوريا لا تقل عن الأعاصير السياسية

من موضوعات البحث :

١- لماذا تأثرت سوريا بالعراق وبمصر وبسكان شواطئ البسفور والبحر الأبيض المتوسط في عقليتها وعقائدها ؟

٢- شعوذة الوثنية ووحشيتها في سوريا .

٣- الوثنية في سوريا لم تنهر أمام اليهودية؛ لتفسخ الأخلاق اليهودية .

٤- الإسلام أنهى الصراع الديني في سوريا .

أعاصير الأديان في سوريا لا تقل عن الأعاصير السياسية

١- ليس بعجيب أن تتأثر العقائد في سوريا بما تأثرت به العقائد في بابل، فالشعوب السورية تجاور الشعوب البابلية وتربطها بها أكثر من صلة: صلة النسب، وصلة الثقافة، وصلة السياسة، وصلة التجارة، وليس بعجيب أن تتأثر العقائد في سوريا بما تأثرت به العقائد في مصر، فإن التاريخ السياسي بين مصر وسوريا وشيج الصلة من أقدم العصور، وإن أسواق الدلتا كانت تجمع بين سكان جبال سوريا وبين سكان وادي النيل، فلقد حكم العرب "العماليق والإرميون" مصر وسوريا، ثم حكم سوريا فراعنة مصر، وحكم مصر قياصرة سوريا، ولقد تبودلت التجارة بين القطرين عبر الطرق البرية والبحرية.

وليس بعجيب أن تتأثر العقائد في سوريا بعقلية سكان البسفور وشواطئ البحر الأبيض المتوسط، فلقد كانت صلات سوريا بشعوب آسيا الصغرى وسكان البحر الأبيض المتوسط قديمة طويلة متعددة.

وليس بعجيب أن تتأثر سوريا التي شهدت أرضها صراعًا مستمرًّا بين دول العراق الآشورية والفارسية وبين دول مصر، وبين هؤلاء جميعهم وبين دول شمال آسيا وجنوب أوربا: حيثيين ويونانيين بعقائد هذه الدول وآرائها في هذا الكون العظيم.

فمثلما تسلطت عبادة الكواكب على أرض العراق، تسلطت على أرض سوريا، فانتشرت هياكلها في سهولها وعلى رؤوس جبالها. ولقد تحدث المطران الدبس عن الفينيقيين الذين هاجروا من الخليج العربي إلى سوريا وعن حرصهم على إقامة ثالثوث خاص بكل مدينة[١].

٢- ومثلما شاع تأليه الحيوانات في مصر شاع تأليهها في سوريا، ولقد جاء في تاريخ سوريا لفيليب حتي: إن تأليه الأفعى في سوريا سبق قدوم بني إسرائيل[٢].

---

(١) راجع تاريخ سوريا للدبس ٣٦٤/١/١.

(٢) تاريخ سوريا لحتي ٨٣/١.

ولعل الفينيقيين كانوا متأثرين بعقائد بعض الشعوب الشمالية عندما أزالوا الوحدانية عن (بعل) إلههم الأكبر فمنحوا كل مدينة من مدنهم بعلا .

ومثلما اندست الوثنية في العقائد البابلية، اندست الوثنية في العقائد السورية، ويتزعم الوثنية في سوريا كهنة في الدرجة الأولى من الشعوذة أطلقوا لشهواتهم العنان واستغلوا نفوذهم الكهنوتي أيما استغلال.

وتشذ الوثنية الفينيقية بتقديم الضحايا البشرية لآلهتها، فلقد انفرد الفينيقيون بنوع غريب من الأضاحي البشرية وطريقة شاذة في تقديمها، فقد كانوا يقدمون أعز أبنائهم قرابين تلتهمهم نار الآلهة !![1] .

٣- ووثنية هذا نوعها لا ضمير لكهنوتها يخفف شيئًا من جشعهم وحيوانيتهم، ولا عاطفة لطقوسها ترحم تلك الضحايا البريئة التي تلتهمها نار الآلهة. كان من المنتظر أن لا تصمد أمام الأديان الكتابية النبيلة العادلة الرحيمة .. بيد أنها مع ما هي عليه لم تنهر أمام اليهودية بالسرعة المنتظرة، ولعل الضمير اليهودي المنحل والضعف الخلقي الذي ظهر على بني إسرائيل منذ عهد موسى هما السبب في بقاء الوثنية في سوريا بالرغم من الحرب التي شنها أنبياء بني إسرائيل عليها.

٤- فاليهودية التي ظلت حينًا من الدهر سيدة الموقف في أكثر مناطق سوريا وفلسطين، كان ينتابها الضعف في فترات من الزمن من جراء تنكر الإسرائيليين لشرائعهم، وبفعل الحوادث التي كانت تهز الحياة السورية وتزلزل كيانها السياسي والاجتماعي معًا.

فصراع الأديان في سوريا عرف من عهد إبراهيم، واشتد من عهد موسى، وأوشك أن ينتهي في عهد القياصرة الذين نصروا الدولة الرومانية فنصروا المسيحية على اليهودية حتى لم يصبح لهذه شأن أكثر من شأن الوثنية في سوريا.

وصراع الأديان في سوريا كما تكشف عنه هذه الإلمامة بدأ مع التاريخ الحقيقي في سوريا الذي ظهرت عليه منذ البداية الانطباعات العربية.

---

(١) تاريخ سوريا للدبس ٣٦٥/١ .

البحث الثاني والثلاثون

تاريخ العرب وحضارتهم في وادي النيل

من موضوعات البحث :

١- للحضارة العربية فضل على الحضارة الفرعونية .

٢- مصر العمليقية جزء من الجزيرة العربية .

٣- المتأخرون من المؤرخين يؤكدون أقوال المتقدمين عما استفادته مصر من الجزيرة العربية .

٤- الحضارة المصرية فرضت نفسها على الحضارات التي انتقلت إلى واديها .

٥- رجوع الحضارات العربية إلى أصلها تحت راية الإسلام .

٦- التاريخ العربي في مصر بدأ من القرن العشرين قبل الميلاد .

تاريخ العرب وحضارتهم في وادي النيل

١ - يؤكد المحققون في تاريخ مصر القديم من المستشرقين مثل (بريستد) و(جون ويلسن) و(ل. ديورانت) أكثر ما قاله جهابذة المؤرخين الإسلاميين مثل الطبري، وابن قتيبة، والمسعودي، عن العرب الذين سكنوا الصحراء الشرقية المترامية على ضفاف النيل، منذ فجر التاريخ الإنساني.

إن المستشرقين يقولون: إن العرب أو الساميين كما في تعبيرهم أول من سكن الصحراء الممتدة من البحر الأبيض إلى ما بعد مديرية الشرقية شرق النيل، وهم الذين نشروا اللغة السامية بين سكان وادي النيل؛ وإن الإسلاميين يقولون: إن العماليق والإرميين أبناء سام هم أول من سكن ضفة النيل الشرقية ونشروا فيها اللغة العربية. فمن المستشرقين من يقول عن سكان مصر الأقدمين: [والمعروف أن أقوامًا ساميين من عرب آسيا غزوا وادي النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش القديمة][(١)]، ومنهم من يقول عن حضارة مصر القديمة: [إن زراعة الشعير والذرة الرفيعة والقمح وتأنيس الماشية والمعز والضأن، انتقلت إلى مصر من بلاد العرب القديمة][(٢)]، وإن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السوموريين. وإن الخاتم الأسطواني أصله بلا شك من بلاد الجزيرة، وإن عجلة الفخار عرفت في مصر بعد أن عرفت في العراق بزمن طويل، وإن من بين الآثار المصرية التي ترجع إلى عصر ما قبل الأسر والتي عثر

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور لمؤلفه بريستد، ص ١٧.
(٢) قصة الحضارة ٢/ ٤٣.

عليها في جبل الأراك، سكين من (الظران)[1] جميلة الصنع عليها نقوش بارزة هي بعينها نقوش أرض الجزيرة من حيث موضوعها وطرازها. وكذلك فن الهندسة المعمارية، وتماثيل الفخار، وكثير من آثار الحضارة المصرية يشبه فن الهندسة المعمارية والنقوش الفخارية في أرض الجزيرة السابقة إلى الحضارة[2].

ويقولون: [ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسيا قد جاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد][3].

ومن أقوال الإسلاميين: إن الفراعنة الذين جلسوا على عرش مصر من عهد إبراهيم إلى عصر موسى هم من عنصر عربي. وإن الحضارة المصرية هي من أصل عربي. وإن الإسكندر الأكبر بنى مدينة الإسكندرية على أطلال مدينة عاد ابن شداد[4].

وجاء المتأخرون من رجالات التاريخ العربي القديم الذين نهضوا يبحثون في تاريخ مصر القديم، يؤكدون: الحقائق التي اتفق عليها المستشرقون والإسلاميون، فجرجي زيدان يقول في بحثه - العماليق في مصر: [ويؤخذ من الاكتشافات الأثرية الأخيرة: أن العصر الحديدي بمصر يبدأ بدخول الساميين إليها أي أن المصريين قبل دخول الساميين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية وأن المصريين اقتبسوا من مخالطة العماليق معارف كثيرة ولا سيما من حيث الأبنية فأخذوا عنهم أشكالاً جديدة ويعد أبو الهول المجنح من مبتكراتهم، وأن العرب كانوا يحبون العمارة فاستخدموا المصريين في بناء المدن على النمط المصري][5].

---

(١) الظران أو الظر: حجر له حد كحد السكين وهو المشهور بالصوان.

(٢) قصة الحضارة ٤٤/٢.

(٣) المصدر نفسه ٦٥/٢.

(٤) راجع بحث إرم ذات العماد من هذا الجزء.

(٥) العرب قبل الإسلام ٦٧، ٧٢.

ويقول جواد علي : [إن قصة "أوزيريس" الفرعونية تتحدث عن رؤية الكرمة لأول مرة في البلاد العربية ، وإن الكرمة نقلت إلى مصر من البلاد العربية][1] .

وفي كتاب تاريخ مصر إلى العهد العثماني الذي قررت وزارة التربية والتعليم تدريسه بمدارس مصر الثانوية يؤكد مؤلفاه عمر الإسكندري والميجر (ج. شفيدج)، [أن الحضارة التي بدأ ظهورها بابتداء الأسرات يعزى أصلها إلى القوم الفاتحين أجداد (مينا) وقد ثبت أن أصل هؤلاء الفاتحين قوم ساميون قدموا من آسيا والأرجح أنهم جاءوا من برزخ السويس][2] .

٢- ولقد أثبتنا في الجزء الخاص بجغرافية الجزيرة العربية القديمة من هذا الكتاب : أن مصر التي عرفت في التاريخ القديم والتي أشار إليها القرآن الكريم، هي جزء من أجزاء الجزيرة العربية ، وأن مصر العربية كانت أسبق إلى الحضارة من مصر النوبية ، معتمدين فيما أثبتناه على أدلة ونصوص أثبتت : أن الضفة الشرقية الشمالية من وادي النيل التي نزح إليها العرب وعمروها وأسسوا فيها مدنًا وأنشأوا فيها حياة الحواضر من قبل أن يبدأ في مصر عهد الأسرات الحاكمة ، هي : قسم من أقسام الجزيرة العربية.

ولقد أوردنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مصادر التاريخ العربي : الأدلة التي تثبت أن العرب قبل الإسلام، وأن العرب بعد الإسلام، وأن العرب في الوقت الحاضر منوا بخصومة الحاقدين على المجد العربي الذين ما فتئوا في كل عصر من عصور التاريخ يثيرون الغبار حول حقيقة العرب ليخفوا فضل العرب في التاريخ الإنساني، وإن الحقيقة مهما عمل المبطلون لإخفائها لابد أن تظهر واضحة المعالم ، فعلى ما بذله

---

(١) تاريخ العرب لجواد علي ٢/٤٠٤ .

(٢) تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ١/٨ ، ١٧ .

الفراعنة لتمصير حضارة العماليق، وعلى ما دفعتهم إليه أنانيتهم فمحوا أسماء ملوك العماليق الذين بنوا مدينة (صان الحجر) - تانيس -[1] فلقد اعترف التاريخ المصري القديم بآثار العرب وعمرانهم.

٣- وكذلك أثبتنا في الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها من هذا الكتاب : أن العرب فتحوا للسياسة الفرعونية آفاقًا بعيدة واسعة، وأن من أهم بواعث القلق الديني والوعي الشعبي الذي وثب يطالب بالحق الجماعي الاحتكاك بسكان الجزيرة العربية، أو الأرض المقدسة كما كان يسميها قدامى المصريين.

فمما قاله جرجي زيدان : [وكان المصريون قبل العمالقة محصورين في بلدهم لا يعرفون عن سائر العالم شيئًا، فأصبحوا بعد خروجهم أصحاب خيل ومركبات فحملوا على سوريا وفلسطين وجزيرة العرب وبابل][2] .

ومما جاء في تعليق الدكتور أحمد فخري على كتاب الحضارة المصرية "لجون ويلسن" : (في كتاب دنلوك) خصص المؤلف فصله الأخير لموضوع الأشياء التي أدخلها "الهكسوس" إلى مصر، ونحن نوافق في الحال على أنهم أدخلوا الأشياء المتصلة بالسيطرة والقوة مثل : الحصان والعربة، والدرع التي تلبس فوق الجسم، والكثير من الأسلحة، والاهتمام بالصناعات المعدنية، ولكن المؤلف يهدم موضوعه عندما يبدأ في المغالاة : فينسب إلى الهكسوس أنهم ربما هم الذين أدخلوا الشادوف والنول القائم، والماشية المسنمة، وختم الماشية، والقيثار والعود ... إلخ؛ لأنه لا يكفي عدم معرفتنا لأصل بعض الأشياء في الحضارة المصرية، لكي ننسبها إلى قوم غزوا البلاد لا نعرف

---

(١) راجع فصل التاريخ العربي والدعاية المغرضة في القسم الثاني من هذا الجزء.

(٢) **العرب قبل الإسلام** ص٧٤ .

لهم مكانًا أو جنسًا[1]، وكانوا قومًا محبين للحرب ولا يحبون الاستقرار][2] ، فسيان اعترف الفراعنة بأسبقية قلب الجزيرة وبلاد الرافدين في المضمار الحضاري أم لم يعترفوا ، فإن الحقائق التاريخية تثبت نفسها على مر الزمن. وسيان تنصل الفراعنة من الدماء العربية التي تجري في عروق أبناء الضفة الشرقية من وادي النيل أم اعترفوا بها ، فإن عروبة سكان الصحراء الشرقية لاشك فيها. وسواء قصد الفراعنة إضاعة كل أثر عمليقي أم لم يقصدوا ، فإن حضارة العماليق في وادي النيل تثبت : أن أولئك العماليق الذين شوه الفراعنة تاريخهم لم يكونوا شعبًا سفاكًا مخربًا ، ولا ينكر ما جد على الحياة المصرية بعد قيام الدولة العربية في مصر ، ولا ينكر كذلك : أن حضارة ضفتي نهر النيل قد انصهرت في بوتقة الوادي فكان لها طابعها الخاص ، وأن الفراعنة استطاعوا تمصير كل ما وصل إليهم من حضارات الشعوب المجاورة لهم.

فمع كل هذه الحقائق التي أثبتها البحث والنصوص والأدلة التي وردت فيه لا ننكر أن الحضارة في مصر كان لها طابع له صفات خاصة تميزه عن غيره.

٤- فمما لا جدل فيه أن الحضارة المصرية قد فرضت نفسها على كثير من الحضارات وأن من تلك الحضارات حضارات شعوب خضعت مصر لسلطانها ، فلقد تأثر بالحضارة المصرية الفرس وتأثر بها اليونانيون على الرغم مما كان للفرس ولليونانيين من سلطان على مصر.

ومما سبق التنويه عنه : انصهار الحضارة العمليقية في بوتقة وادي النيل ، ومما أثبته البحث أولاً : اعتزاز الحضارة البابلية بصفتها فلم تأخذ من الحضارة الفرعونية مثلما أعطتها.

---

(١) لقد ذكرنا الأدلة التي اقتنع بها جمهرة المحققين في أصل الهكسوس التي تؤكد أنهم ساميون جاءوا من الجزيرة ، فلقد قال بذلك كثرة المستشرقين وقال بذلك جرجي زيدان وجواد علي وغيرهما ممن تخصص في التاريخ العربي القديم.

(٢) الحضارة المصرية ، ص ٢٦٨ .

٥- ومما هو واضح جلي في تاريخ مصر الطويل أن الحضارة العربية القديمة التي مصرها الفراعنة وطبعوها بطابعهم الخاص، رجعت بعد آلاف السنين إلى أصلها العربي تحت راية الإسلام، وأن الكفاية المصرية التي ما فتئت تمصر لغات الساميين وغير الساميين وحضاراتهم، خضعت آخر الأمر للغة القرآن وحضارة القرآن، فنجح العرب المسلمون فيما أخفق فيه سواهم من الفاتحين فتعربت لغة الوادي ولم يبق في مصر لون من ألوان الحضارة غير عربي، ولم يبق في مصر من لا يفخر بالعرب والعروبة، كما لم يبق في البلاد العربية من لا يفخر بمصر العربية وبالمصريين العرب.

وهذا الذي عجب له المستشرقون فقالوا : [ثم انتهى أمر مصر بأن فتحها العرب المسلمون الذين استوطنوها فعلاً وأفلحوا بعد أن حكموها قرونًا عدة فيما أخفق فيه سواهم من الفاتحين أعني في تغيير لغة البلاد واستبدال العربية بها](١) .

فتاريخ العرب في مصر يبدأ من أقدم عصورها التي اختلف الباحثون في تحديد أزمنتها، فمنهم من يجعل بداية التاريخ المصري من عهد (مينا) الذي وحد الوجهين : القبلي والبحري تحت سلطانه، ويجعل عصره في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد(٢)، ومنهم من يستكثر هذا القدم على التاريخ المصري.

٦- أما نحن فلقد سبق أن تحدثنا في بحث الأديان في جزيرة العرب من قبل التاريخ : عن إبراهيم عليه السلام الذي بدأ التاريخ العربي في عصره يجتاز الطور الخيالي إلى المرحلة الأولى في طريق الحقائق التاريخية، وعن رحلته إلى مصر، وعن فرعون مصر الذي يؤكد أكثر المؤرخين العرب عروبته، والذي أكرم إبراهيم وأحسن وفادته، وعن هدف إبراهيم من رحلته .

---

(١) تاريخ العالم ٢/٣٠٤ طبع دار النهضة .

(٢) مصر من أقدم العصور ص٧ .

فالذي يبدو لنا مما سبق فيه البحث : أن التاريخ العربي في مصر يبدأ من عصر إبراهيم الذي أنشأ وحدة سياسية في سوريا ، وأقام صلات بينها وبين مصر ، وربط بين كثير من الشعوب العربية برباط العقيدة ووجه الأنظار إلى البيت الحرام ، وأن مصر دخلت بعد العماليق إلى التاريخ العربي من أوسع أبوابه.

فقريب إلى هذه النتيجة ما جاء في موسوعة تاريخ العالم عن تاريخ مصر؛ فلقد تحدث مؤلفو الموسوعة عن تاريخ مصر وقالوا : [كتب "مانيثون" وهو كاهن مصري حول عام ٢٨٠ق.م. تاريخًا لبلاده والأسر المالكة تاريخًا دقيقًا مبنيًا على "حساب الموتى" وعلى معلومات فلكية للعصر الذي يلي عام ٢٠٠٠ق.م. أما التواريخ السابقة حيثما وجدت فليست مؤكدة][١] .

ويقول غوستاف ليبون : [ويظن أن هذه القبائل من العمالقة تحالفوا هم وأعراب سوريا واستولوا على مصر سنة ٢٠٠٠ق.م. وعرفوا بالرعاة ودام سلطانهم قرونًا طويلة][٢] .

وهذا الذي يبدو لنا الآن ونشير إليه هنا بهذه الكلمة الموجزة سوف يكون موضوع بحث في الجزء الخاص بالدول العربية وسياستها إن شاء الله.

---

(١) الموسوعة ١/٤٧ .

(٢) حضارة العرب ، ص٩٠ .

البحث الثالث والثلاثون

الآلهة في زمان الفراعنة

من موضوعات البحث :

١- الحياة وما بعدها في فلسفة الفراعنة .

٢- آلهة قدامى المصريين .

٣- يقظة الوعي المصري .



الآلهة في زمان الفراعنة

١- للمصري الفرعوني في الحياة، وفيما قبل الحياة، وفيما بعد الحياة، فلسفة مزيج من البساطة والتعقيد؛ تصور العقيدة المصرية التي استلهمها المصري من آفاق تفكيره، وتصور بجانبها الآراء التي وفدت عليه من وراء البحرين عبر البرزخ الذي كان إلى وقت قريب يحول دون التقائهما. وما هذه المقابر - الأهرامات - إلا صورة من تلك الفلسفة التي كلفته الكثير، والتي أخذت نظرته إليها تتبدل متأثرة بما جد على تفكيره من آراء حملتها له الأمم التي تداعت على ضفاف النيل كما تداعت الأكلة على القصاع، فلقد تبدلت نظرته في الخلود الذي كان وقفًا على الملوك المتألهين، وتعددت أمامه الأشياء التي أكبر فوائدها فراح يسبغ عليها كل معاني القداسة والتبرك ويحترمها إلى حد العبادة.

٢- ويحدثنا (ول . ديورانت) عن آلهة قدامى المصريين فيقول : [إن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب، بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة، فالنحلة، والجميزة، والبصل، والتمساح، والبقرة، والعنزة، والكبش، والكلب، والدجاجة، والأفعى، والآدميون - كل هذه وكثير معها كانت من المعبودات على ضفاف النيل، ولكل هذه الآلهة وكثير معها نصبت الهياكل][1] .

وفلسفة من هذا النوع، تخلط بين مصدر الحياة وبين العوالم التي منحت الحياة؛ لتؤدي واجبها في هذا الكون العظيم خليقة بأن تكون مسرحًا لمتناقض العقائد والنحل، فلقد وجدت وثنية البلاد العربية المجال واسعًا في تلك الفلسفة كما وجدت عبادة الكواكب وفكرة الثالوث الإلهي ودعارة التشريع البابلي مكانًا رحبًا في قلوب المصريين.

---

(١) قصة الحضارة ١٥٧/٢ .

فمن أقدم آلهة المصريين: (فتاح)؛ ويصر جرجي زيدان على أن (فتاح) آسيوي الأصل[1]. ويقول المطران الدبس: ويظهر أن ملوك الرعاة أوصلوا إلى مصر عبادة (ستخ) وسموه (سات). وكان (سات) أعظم الآلهة عندهم. وكانوا يقيمون له المعابد في المدن[2]. وكان في مصر ثالوث لكل مدينة من مدنها الكبيرة. وكان في (تاب) ثالوث يتألف من أب (آمون رع) الإله الأعظم، وزوج (موت)، وابن (خنسو). وكان المصريون يعتقدون أن هذا الثالوث هو إله واحد[3].

٣- على أن السذاجة مهما استحكمت لا بد لها من أن تتأثر بالوعي الذي يوقظ مدارك الشعوب. والوعي عندما انبعث في مصر أخذ يحطم الحواجز والأغلال سيما بعد أن اتسع الأفق المصري باتساع الحوادث التي مرت به مع العهد العمليقي، فكانت ثورة ضد تأليه الأفراد، وكانت ثورة ضد الفوضى التي جرتها عبادة الملوك، وكانت ثورة ضد الدعارة الوثنية ونزوات الكهنة؛ وكانت ثورة بعد ثورة إلى أن انتهى الصراع في شبه هدنة بانتصار المسيحية دين الدولة الرومانية. ثم جاء الإسلام فوضع الأشياء في أماكنها، وقضى على كل خرافة وتفسخ عقيدي، ومنح المجتمع المصري حق الحرية والعزة، ومنع الناس من أن يطأطئوا رؤوسهم لغير الله.

فتاريخ الأديان في مصر مرآة للتاريخ السياسي الذي بدأ يرتبط بتاريخ البلاد العربية من عهد العماليق.

---

(١) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان، ص٦٧.

(٢) راجع تاريخ سوريا للمطران الدبس ٢٠٦/١.

(٣) المصدر نفسه ٢٦٤/١.

البحث الرابع والثلاثون

نهاية المطاف

من موضوعات البحث :

١- ليس التاريخ الأسطوري مجردًا من كل حقيقة، وليس التاريخ الحقيقي مجردًا من كل أسطورة .

٢- قدم التاريخ العربي وسبق قلب الجزيرة إلى الحضارة .

٣- مالا يدرك كله من التاريخ العربي لا يترك كله .

٤- قدم الحضارة والمجتمع العربي في قلب الجزيرة .

٥- فضل الجزيرة العربية على الشرق العربي .

٦- صحة مصادر التاريخ العربي .

٧- ما مصادر التاريخ العربي ؟

نهاية المطاف

١- لقد فرض علينا البحث في بداية التاريخ التوغل في مجاهل الماضي البعيد، حيث لا توجد غير آثار ما زال بعضها لغزًا لم تحله دراسات المحققين، فحامت حوله ظنونهم وتشعبت في فهمه آراؤهم.

فما أكثر ما طوى الزمن من أمم تحدث عن قليل منها القرآن، ضاربًا الأمثال بما كان لها من قوة، وسلطان، وعيش رغيد. وتحدثت عنها الأسفار بما لعله ينفع قوم موسى، وهارون، وداود، وسليمان، وعيسى بن مريم عليهم السلام. واحتفظت ببعض من أخبارهم مؤلفات كلاسيكية تمثل منطق القدامى وتصوراتهم، وما كانوا يعرفونه من شعوب أقفرت الأرض من قوميتها، ومن مدن حصد الدهر عمرانها، فلا شيء يدل عليها وعليهم غير الأسماء التي ورد بعضها في الكتب المنزلة، وفي تواريخ الكلدانيين واليونانيين والفرس، وورد بعضها في آثار الآشوريين والبابليين. أخذ الباحثون يفرضون وجودها هنا وهناك، فوقفوا لمعرفة شيء مما كان لتلك المدن من عمران، وما كان لتلك الشعوب من سلطان، وأين كانت مساكنها، وكيف كانت حياتها؟

وما أقل هذا الحاصل الذي جمعته، مما وصل إليه تحقيق الباحثين من نتائج تحتاج إلى أكثر من الأدلة التي قدمها المحققون.

وما أثمن هذه النتائج على ما ينقصها من البرهان الساطع والدليل القاطع؛ لأنها على كل حال قد أزاحت شيئًا من الغموض وأثبتت قسمًا من الحقائق.

فمن أهم هذه النتائج التي أثبتت وجودها : قدم التاريخ في جزيرة العرب، منذ كان أسطوريًا إلى أن أصبح حقائق. وحقيقة التاريخ العربي بنوعيه : الخيالي والواقعي، فليس التاريخ الأسطوري مجردًا من كل حقيقة، وليس التاريخ الحقيقي مجردًا من كل

أسطورة. وليس هناك فواصل دقيقة بين التاريخين : الأسطوري والحقيقي، تعين لنا نهاية الأسطورة وبداية الحقيقة في التاريخ .

فنحن إذا كنا قد اقتنعنا بأن التاريخ العربي بدأت أحداثه واضحة بعض الشيء من مطلع الألف الثانية قبل الميلاد ، فليس ذلك معناه : أن الحياة العربية بدأ وجودها المتكامل من ذلك العصر، وليس معناه : أن الحياة العربية قبل الميلاد واضحة وضوح الحياة العربية بعد الإسلام، فالفارق جد كبير.

ونحن إذا كنا نعلم : أن في تاريخ بعض الأقطار العربية بعد الإسلام حلقات مفقودة وأخبارًا ما فتئت مشكوكًا فيها ، فإن علينا : أن نعترف بما في تاريخنا الأسطوري من حلقات أكثر وأوسع، ومن أخبار ما زالت تعتبر خيالاً يسخر منه منطق العصر الحاضر.

فالحيثيات التي انبنى عليها الاقتناع بأن تاريخ العرب بدأ يتبلور في الألف الثانية قبل الميلاد ، قد تقدمت بكثير من التفصيل في البحوث التي تناولت الحياة العربية في كل ناحية من نواحي الجزيرة، وبحثت في المراحل التي اجتازتها ، وفي الأحداث التي كان لها تأثير عليها.

فمنذ رفع إبراهيم القواعد من البيت ربطت الرابطة ا لدينية بين الشعوب العربية التي قطعت شوطًا في التطور تحدثنا عنه في بحوث هذا الجزء، وبدأت الشعوب المحيطة بأم القرى وما حولها تنشد الاستقرار السياسي، والنظام الإداري والحياة الاجتماعية ، وقد تزعم هذا التطور إسماعيل، ثم تنافس على الزعامة الجرهميون القدامى - جرهم الأولى - وانتهى الأمر إلى سيادة "جرهم الثانية". ثم جاءت "خزاعة" ثم من بعدها : كنانة فقريش .

٣- هذا ما يجمع عليه المؤرخون . وهذا الذي يجمع عليه المؤرخون يحتاج إلى كثير من التدعيم، وإلى ما يزيل عن الكثير منه الغموض والشكوك - فمثلاً النسب النبوي

إلى إسماعيل. فقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ، عندما وصل نسبه إلى "عدنان" : [من ههنا كذب النسابون]. فعلى ذلك أن هذه الناحية المهمة في تاريخنا غامضة. وإذا كانت مثل هذه الناحية المهمة ما زالت غامضة فحري بغيرها أن يظل غارقًا في الشكوك.

ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله - كما يقولون - فنحن إذا كنا عاجزين عن معرفة عدد من تولى الزعامة من الجرهميين، ومن العماليق، ومن خزاعة، وعن معرفة عهودهم معرفة صحيحة كاملة، فإن ذلك لا يفقدنا الاقتناع بما في التاريخ عن دولة مكة وشعوبها، ولا يفقدنا الاقتناع بما قيل عن الرياسة التي تداولتها الشعوب العربية في المدينة وفي شمال الحجاز.

ولقد تقدم الكلام عن فترات تاريخ الماضي القديم، وأنها مسألة تقديرية. كما قال عنها مؤلفو موسوعة "تاريخ العالم". فالتاريخ لم يك واقعيًّا لا يخالطه الشك في الزيادة والنقص إلا بعد عام ٥٠٠ ق.م. - كما قال مؤلف الحضارة المصرية "جون ويلسن".

فنحن عندما بحثنا في عصر إبراهيم وجدنا خلافًا كبيرًا في تاريخ ظهوره. ونحن عندما بحثنا في تاريخ اليمن، رأينا الخلاف بين المستشرقين في بداية التاريخ اليمني قائمًا على أشده، فبعضهم حدد تاريخ المعينيين بالألف الأخيرة قبل الميلاد، وبعضهم زاد هذا التقدير خمسمائة عام.

ونحن عندما بحثنا في عصر سرجون، وعصر دولة حمورابي، وجدنا الباحثين مختلفين في تاريخ سرجون وحمورابي، فبعضهم جعل عصر سرجون في غضون الألف الرابعة وبعضهم جعله في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، فبذلك يكون الفرق أكثر من ألف سنة بين التقديرين، والعقاد عندما تحدث عن حمورابي قال : إنه ظهر في عام ٢٤٦٠ق.م. بينما فيليب حتي جعل ظهور حمورابي في عام ١٧٠٠ ق.م. فبذلك يكون الفرق بين تقدير العقاد وبين تقدير حتي ٧٦٠ عامًا.

ونحن عندما بحثنا في بداية التاريخ العربي في مصر وجدنا تقدير الكاهن المصري "مانثيون" الذي عاش حول عام ٢٨٠ ق.م. - المبني على معلومات فلكية للعصر الذي يلي عام ٢٠٠٠ ق.م. وهو عصر العماليق في مصر - ارتاح له المحققون.

ونحن عندما ناقشنا هذه الآراء المختلفة انتهينا إلى نتيجة واحدة رجحت لنا : أن في مطلع الألف الثانية بدأت نوعية التاريخ العربي تنتقل من القصة الأسطورية إلى الخبر الواقعي .

وهذه النتيجة قد أثبتت لنا صحتها الأدلة التي اعتمد عليها النقاش في بحوث هذا الجزء؛ وهذه النتيجة بما يؤكدها من الأدلة لا تمنحنا الاقتناع الكامل، ولا تضبط لنا تاريخ الجرهميين في مكة، والمعينيين في اليمن، والحمورابيين في بابل، والعماليق في سوريا وفلسطين وسيناء ومصر - مثلما ضبطت لنا مؤلفات التاريخ الإسلامي عصر الراشدين في المدينة، والأمويين في دمشق وقرطبة، والعباسيين في بغداد، والفاطميين في مصر؛ وإنما هي ترجح لنا - كما قلنا من قبل - أن في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد بدأ التاريخ الحقيقي. ففي مطلع هذه الألف قامت الدول العربية في الشرق العربي، وفيه رسمت الجيوش العربية بسيوفها وفؤوسها حدود البلاد العربية، وفيه كانت النهضة العربية الأولى التي حمل لواءها إبراهيم عليه السلام، وفيه أخذت كل أمة من أمم الجزيرة تثبت وجودها في التاريخ العربي الطويل.

٤- ومن أهم هذه النتائج التي أثبتت وجودها : قدم الحضارة، والعقيدة، والمجتمع في العالم العربي، وسبق قلب الجزيرة العربية إلى حياة التمدن والاستقرار. فلقد ساعد مناخ هذه المنطقة في العصور الثلجية سكانها على تأسيس الأسرة، وتكوين المجتمع، والوصول إلى استنبات الحبوب واستئناس الحيوانات الضرورية لحياة المجتمع، والاستفادة من معادن الأرض، فأخرجوا ذهبها ونحاسها، واستنبتوا البخور

والكرمة من أقدم العصور، وصدروا إنتاجهم المعدني والزراعي الثمين إلى الشعوب المجاورة لهم : السوموريين، والفراعنة.

٥- ومن أهم هذه النتائج التي أثبتت وجودها : فضل الجزيرة العربية في نشر العقائد، واللغة، والحضارة، وتطوير فن الملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

ولقد خصصنا لكل من الدين واللغة والحضارة والملاحة بحوثًا اقتضتنا أن نتعمق مع دراسات المحققين؛ لنعرف الأديان العربية ومدى تأثيرها على عالم الشرق العربي، ونعرف اللغة العربية ومبلغ تشعبها، وتفرع خطوطها وأبجدياتها، ونعرف الحضارة العربية ومبلغ ازدهارها في عصور الغابرين، وكيف استطاع العرب أن يصهروا المدنية السومورية في البوتقة العربية، وكيف استافدت مصر من حضارة الجزيرة، وكيف اتسع أفقها فخرجت من عزلتها إلى ميدان الصراع السياسي في الشرق العربي؟

٦- ومن أهم هذه النتائج التي أثبتت وجودها : صحة الكثير مما جاء في مصادر التاريخ العربي عن العصور القديمة : عن آدم، وإدريس، ونوح، وعالم ما قبل الطوفان، وعن إبراهيم، وهود، وصالح، وعن تبابعة اليمن، وعماليق سوريا ومصر، وإرميي العراق. قبل الميلاد - إلى غير ذلك مما كان إلى وقت قريب في نظر البحث العلمي يعتبر ضربًا من الخيال والقصص الروائي .

إن هذه النتائج كما رأيتها لم تكن جميعها قصصًا خيالية وضعها المؤرخون كما كان يظنها المستشرقون ومن سار خلفهم قبل أن تعلن البحوث الأثرية صحتها. وإن هذه الحقائق كما رأيتها، فيها من الأدلة ما يرجح بكثير من التأكيد : أن بداية الألف الثانية قبل الميلاد هي بداية التاريخ العربي في جزيرة العرب، وأن هذه الحقائق وغيرها قد وصل إليها البحث في مصادر التاريخ العربي .

٧- فما مصادر التاريخ العربي؟ وما مبلغ ما جاء فيها من الصحة؟ ومن الذين قدموا لنا هذه المصادر؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة ليس من السهولة واليسر بحيث

يمكن الإدلاء به دون ما نقاش وتحقيق. فلقد تعرضت مصادر التاريخ العربي إلى نقد الناقدين، وتحقيق المحققين دون ما تمييز بين ما نسب إلى الكتب المنزلة، وبين ما نسب إلى المؤرخين اليونانيين القدامى، وبين ما أكده علماء الآثار وعباقرة الجيولوجيين.

فلذلك كان لزامًا علينا أن نفرد لها جزءاً خاصًّا من هذا الكتاب، ونبحث فيه بقدر ما يحتاج إليه البحث؛ لنكون على ثقة مما تعتمد عليه دراستنا وتبني عليه النتائج التي نصل إليها.

والله الموفق وعليه الاعتماد.

الفهارس

- فهرس الآيات
- فهرس الحديث والأثر
- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن

فهرس الآيات

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
البقرة	اهْبِطُوا مِصْرًا	٦١	٤٠
البقرة	رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ	١٢٩	٢٦٧
آل عمران	رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً	١٩١	١٧
المائدة	قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ	٢٢	٢٠١
المائدة	قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۞ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾	٢٥-٢٦	٢٠٢
الأنعام	أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ	٦	٥٢
الأنعام	أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ	٦	٢٥٨

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ		
الأنعام	إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ	٢٥	٢٥
الأنعام	فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا	٤٥	٢٤٤
الأنعام	فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ	٧٦-٧٩	٩٩
الأنعام	وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً	١٣٦	٢٧٠
الأنعام	وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ	١٣٧	٢٧٠
الأنعام	قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ	١٤٠	٢٧٠

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية	اسم السورة
٤٠	٢٢	بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ	الأعراف
٦	٦٩	وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً	الأعراف
١٩١	٦٩	وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ	الأعراف
٨٦	٦٩	أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ	الأعراف
٩٩	٧٠	قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ	الأعراف
٦	٧٤	وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ	الأعراف
٢٥٩	٧٤	وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ	الأعراف
٢٥٨	٦٩	كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ	التوبة

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
هود	وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ	٣١	٩٨
هود	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۞ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ	٢٥-٢٧	٩٧
هود	فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۞ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ۞ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ	٢٧-٢٩	٨٥

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
الحجر	إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ	٩	٩٤
النحل	وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَا يَشْتَهُونَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ	٥٧ وما بعدها	٢٧١
الإسراء	وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً	٣١	٢٧١
الحج	وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ	٢٧	٩١
الحج	وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۞ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۞ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ	٢٧ وما بعدها	٢٦٦-٢٦٧
المؤمنون	وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ	٣٣	٢٥٨

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
الشعراء	وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۞ إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ ۞ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ	١٢٧-١٤٠	٨٦
الشعراء	أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ	١٢٧ وما بعدها	٢٥٨
الشعراء	أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ	١٢٨، ١٢٩	٣٢٢
الشعراء	أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ	١٢٨، ١٢٩	٥

اسم السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
الشعراء	أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ	١٤٦ وما بعدها	٢٥٩
الروم	أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ	٩	٢٥٨
يس	وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ	٧٨	١٠٤
الجاثية	وَقَالُوا مَا هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ	٢٤	١٠٤
النجم	وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى ۞ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى	٥٠، ٥١	٢٤٤
نوح	أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ۞ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً ۞ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً	١٥ وما بعدها	٤٩
نوح	وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً	٢٣	٦٢

فهرس الحديث والأثر

فهرس الأعلام

(ب)

(ح)

(خ)

(س)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

فهرس الأماكن

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

المصادر والمراجع العربية

- **الأصفهاني، حمزة بن الحسن :**

تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (دار مكتبة الحياة، بيروت) .

- **الأصفهاني، أبو الفرج :**

الأغاني (تصحيح أحمد الشنقيطي، ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م).

- **الأندلسي، صاعد :**

طبقات الأمم .

- **البتنوني، محمد لبيب :**

الرحلة الحجازية، (القاهرة : ١٣٢٩هـ).

- **البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز :**

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الأولى ٦٤-١٣٧١هـ/ ٤٥-١٩٥١م).

- **بيهم، محمد جميل :**

قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور (الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م).

- **الثعالبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد :**

قصص الأنبياء المسمى بعرائس التيجان (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م).

- **الجمحي، محمد بن سلام :**

طبقات فحول الشعراء (تحقيق جوزيف هل ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م).

يليب :

بنان في التاريخ منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر (ترجمة أنيس فريحة، مراجعة نقولا زيادة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م).

- **الحموي، ياقوت بن عبدالله :**

- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أوطبقات الأدباء (الطبعة الثانية ١٣٤٣-١٣٤٧هـ/ ١٩٢٣-١٩٢٧م).

- معجم البلدان (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م).

- **ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد :**

تاريخ ابن خلدون (مطبعة الرحمانية ١٣٥٥هـ).

- **دائرة المعارف الإسلامية** (إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتناوي، وعبدالحميد يونس) (القاهرة).

- **دروزة، محمد عزة :**

تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م).

- **الذهبي ، أبوعبدالله شمس الدين :**

تذكرة الحفاظ (تصحيح عبدالرحمن بن يحيى المعلمي ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م).

- **رضا ، محمد رشيد :**

الوحي المحمدي . ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م).

- **الزبيدي، محمد مرتضى :**

تاج العروس من جواهر القاموس (الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

- **زيدان ، جورجي :**

- العرب قبل الإسلام .
- الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م).

- **السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين :**

المزهر في علوم اللغة وأنواعها (تحقيق محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ٦١-١٣٦٤هـ/ ٤٢-١٩٤٥م).

- **صحيح مسلم** (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م).

- **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير :**

- جامع البيان عن تأويل القرآن (راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر ، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م) .
- تاريخ الرسل والملوك . (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ١٣٨٠-١٣٨٩هـ/ ١٩٦٠-١٩٦٩م).

- **العقاد ، عباس محمود :**

عبقرية المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث (القاهرة) .

- **علي ، جواد :**

تاريخ العرب قبل الإسلام (٧١-١٣٧٨هـ/ ٥٢-١٩٥٩م).

- **علي، محمد كرد :**

الإسلام والحضارة العربية (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) . القديم والجديث (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م).

- **القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب :**

جمهرة أشعار العرب (١٣١١هـ/ ١٨٩١م)

...دي :

...هاية الأرب في معرفة أنساب العرب .

...ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر :

البداية والنهاية في التاريخ (٤٨-١٣٥١هـ/ ٢٦-١٩٣٢م).

- ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل :

تفسير القرآن العظيم (تحقيق حسن إبراهيم زهران).

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي :

- (التنبيه والإشراف (دار الصاوي ، ١٩٥٧هـ).

- مروج الذهب ومعادن الجوهر (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

- ابن منظور، محمد بن مكرم :

لسان العرب (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م).

- النجار، عبدالوهاب :

قصص الأنبياء (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).

- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي :

غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تحقيق إبراهيم عطوة عوض، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م).

- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك :

السيرة النبوية (تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).

- هيكل، محمد حسين :

حياة محمد (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

وأشار المؤلف إلى أنه استعان ببعض المراجع الأجنبية التي ترجمت إلى اللغة العربية

١- كتاب (حضارة بابل وآشور)، تأليف (غوستاف لوبون)؛ نقله إلى العربية ـ (محمود خ

٢- كتاب (تاريخ العرب العام)، تأليف (ل.أ. سيديو)؛ نقله إلى العربية (عادل زعيتر).

٣- كتاب (العرب والروم)، تأليف (فازيليف)؛ نقله إلى العربية (محمد عبدالهادي شعيرة).

٤- كتاب (الخليج العربي)، تأليف (جان جاك بيريبي)؛ نقله إلى العربية (نجدة هاجر) و(سعيد الغز).

٥- كتاب (موجز تاريخ الشرق الأوسط)، تأليف (جورج كيرك)؛ نقله إلى العربية (عمر الإسكندري).

٦- كتاب (الحضارة المصرية)، تأليف (جون ويلسن)؛ نقله إلى العربية (أحمد فخري).

٧- كتاب (موجز تاريخ العالم)، تأليف (هـ. ج. ويلز)؛ نقله إلى العربية (عبدالعزيز توفيق جاويد).

٨- كتاب (بلاد ما بين النهرين)، تأليف (ل. ديلابورت)؛ نقله إلى العربية (محرم كمال).

٩- كتاب (التاريخ العربي القديم)، تأليف (ديتلف نيلسن) و (فرتزهومل) و (ل. رودو كاناكيس) و (أدولف جرومان)؛ نقله إلى العربية (فؤاد حسنين علي).

١٠- كتاب (موسوعة تاريخ العالم)، أصدره (وليام لانجر)؛ نقله إلى العربية (محمد مصطفى زيادة).

١١- كتاب (قصة الحضارة)، تأليف (ول ديور انت)؛ نقله إلى العربية (زكي نجيب محمود).

١٢- كتاب (تاريخ اللغات السامية)، تأليف (إسرائيل ولفنستون).

١٣- كتاب (تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي)، تأليف (جيمس هنري بريستد)؛ نقله إلى العربية (حسن كمال).

١٤- كتاب (العرب والملاحة في المحيط الهندي)، تأليف (جورج فضلو حوراني) (العربي المتأمرك)؛ نقله إلى العربية (يعقوب بكر).


NDP
شركة مطابع نجد التجارية
تلفون : ٤٤٨٨٠٢٤ - ٤٤٨٨٠٢٦ فاكس : ٤٤٨٠٧٥٥





المؤلف:

- أمين عبد الله مدني .
- ولد بالمدينة المنورة عام، (١٣٢٨-١٤٠٤هـ/ ١٩٠٩-١٩٨٤م).
- درس بالمسجد النبوي الفقه والتفسير والحديث واللغة العربية والتاريخ وعلمي الفرائض والعروض.
- عمل مفتشًا بوزارة المالية، فسكرتيراً لديوان التفتيش في مكة المكرمة.
- عمل رئيسًا لبلدية المدينة المنورة.
- أول رئيس تحرير لصحيفة المدينة المنورة منذ بداية صدورها في المحرم ١٣٥٦هـ/ أبريل ١٩٣٧م.
- يعد من الرواد المؤسسين لنهضة الجزيرة العربية الثقافية في العصر الحديث.

الكتاب:

ما من شك أن تاريخ العرب القديم منطو على كثير من الغيابات والمجاهل التي ترهق السالكين، وتحير المدلجين، وأنه قد توارد على الكتابة في هذا التاريخ أصناف من الناس، منهم الذين لا يرون في العرب إلا أوزاعًا من الخلق كانوا في قديم الزمان أصحاب أشعار وأوبار، وسكان بواد وقفار، تدور حياتهم بين حل وارتحال، وليست لهم جامعة تجمعهم، ولا أهداف تدفعهم.

وقليل أولئك الباحثون المنصفون الذين عرفوا فضل العرب، ولكنهم كانوا في كثير من الأحيان متحمسين أو ملقين للقول على عواهنه؛ يدفعهم الحب لقومهم العرب على أن يتقبلوا كل ما يساق إليهم من ثناء عليهم، وتصوير لبالغ عظمتهم، ولذلك جاء بحث الأستاذ أمين مدني هادفًا إلى الحقيقة في ذاتها، لا يميل إلى التعصب لأحد أو على أحد، فنراه يقف وجهًا لوجه أمام الآراء المتصارعة، ويناقشها في أسلوب العالم المنصف الذي لا سلطان لشيء عليه؛ إلا الحجة والمنطق، فإذا هو كالدليل الماهر الذي يقود متبعيه إلى الطريق المستقيم، مانحًا إياهم الطمأنينة إليه، بأسلوب فعلي مباشر دون طنطنة أو ادعاء.

ردمك: ١-٢-٩٠٠١٦-٦٠٣-٩٧٨
ISBN: 978-603-90016-2- 1

شركة مطابع نجد التجارية
NAJD COMMERCIAL PRINTING PRESS